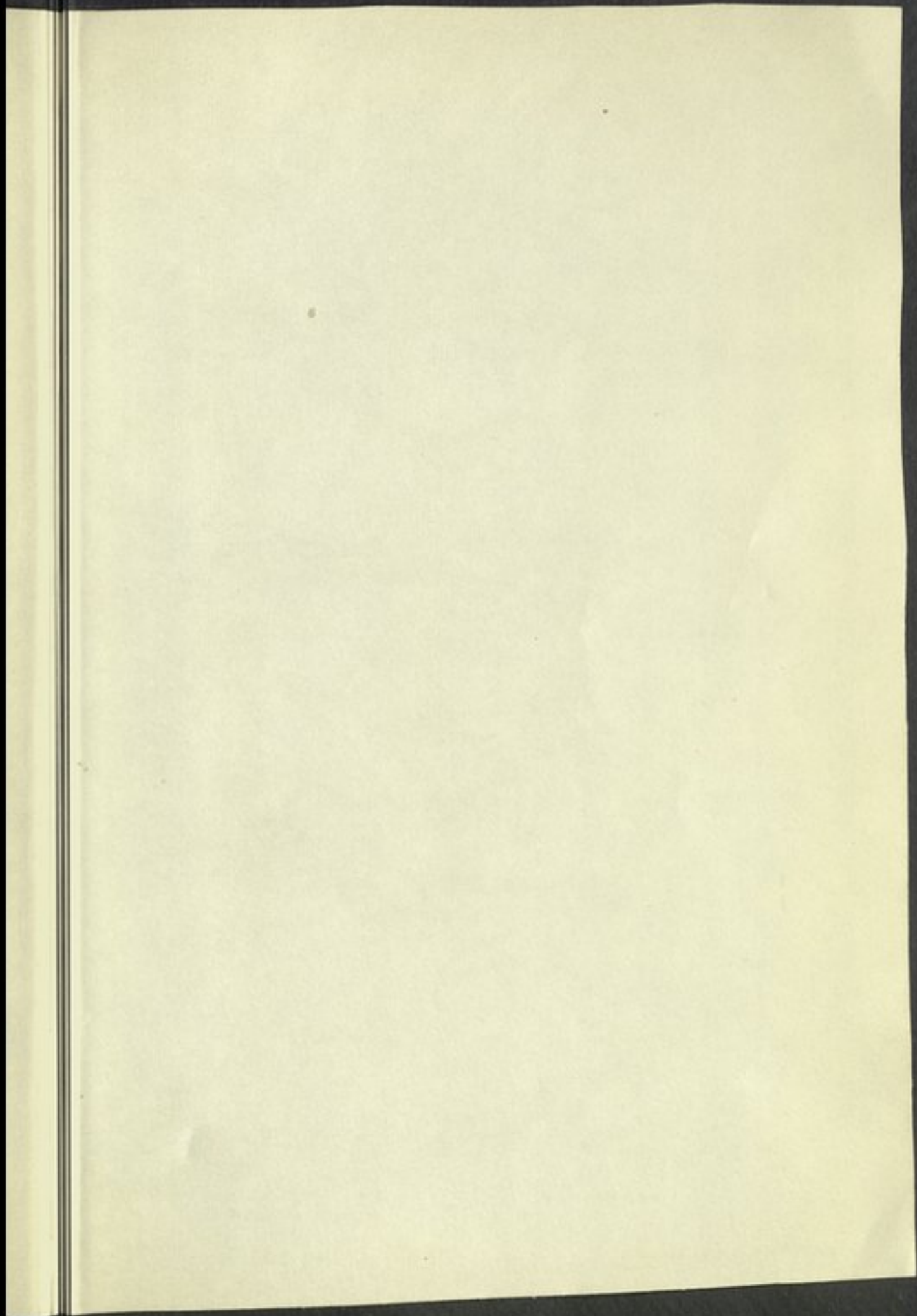
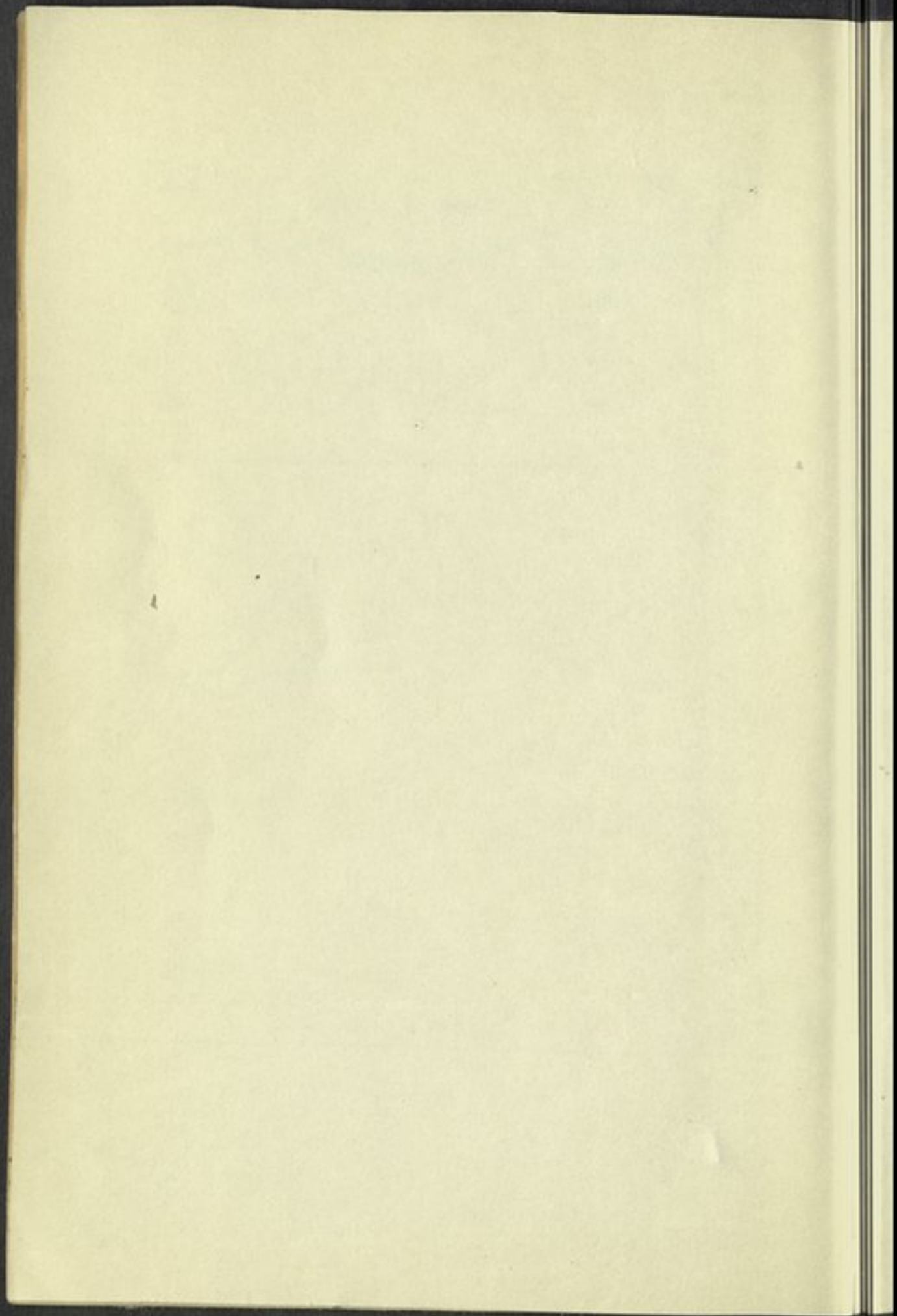
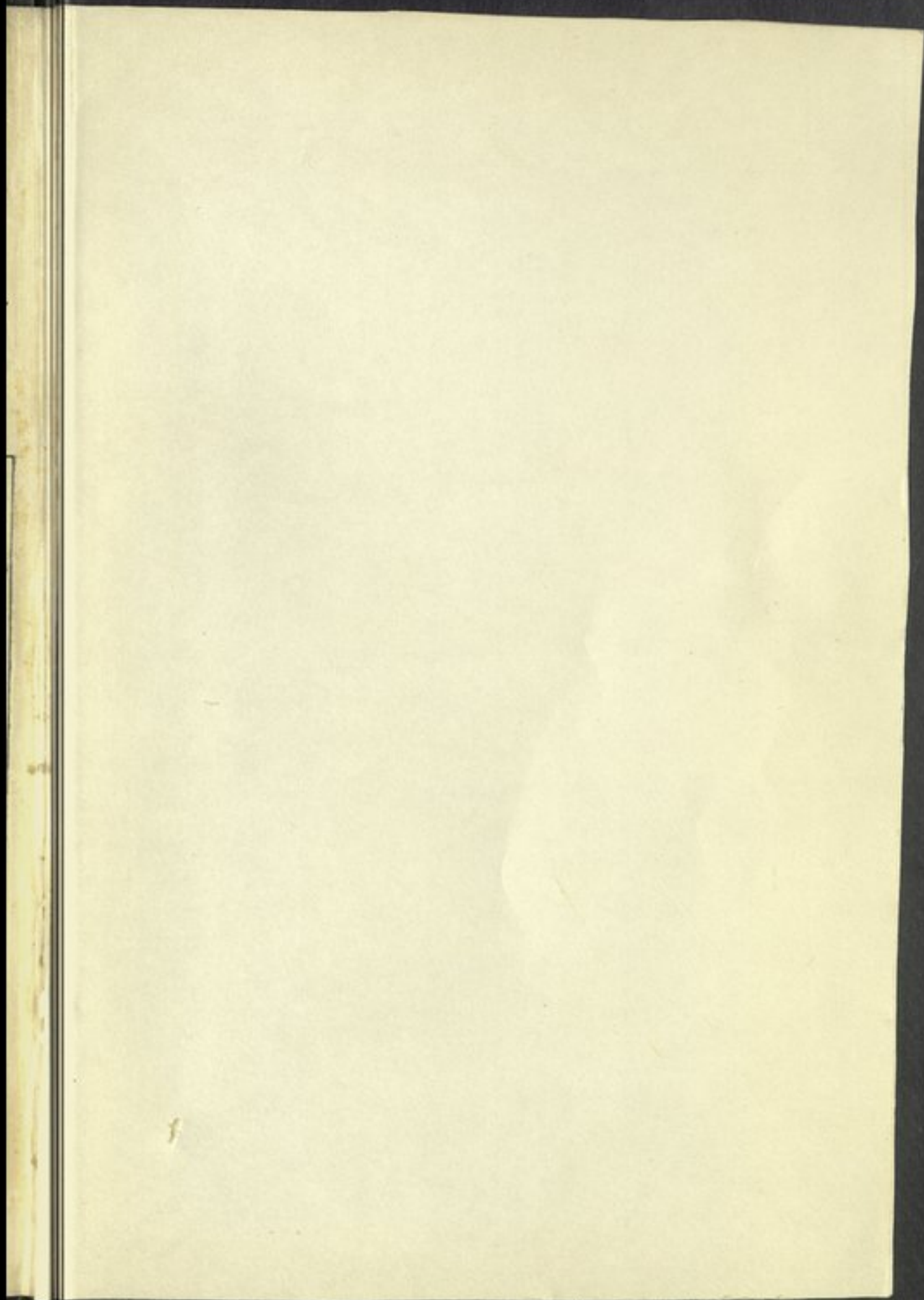


AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

N. MAKHOUL
BINDERY
14 OCT 1972
Tel. 260458







محمد رفعت بك

909.8

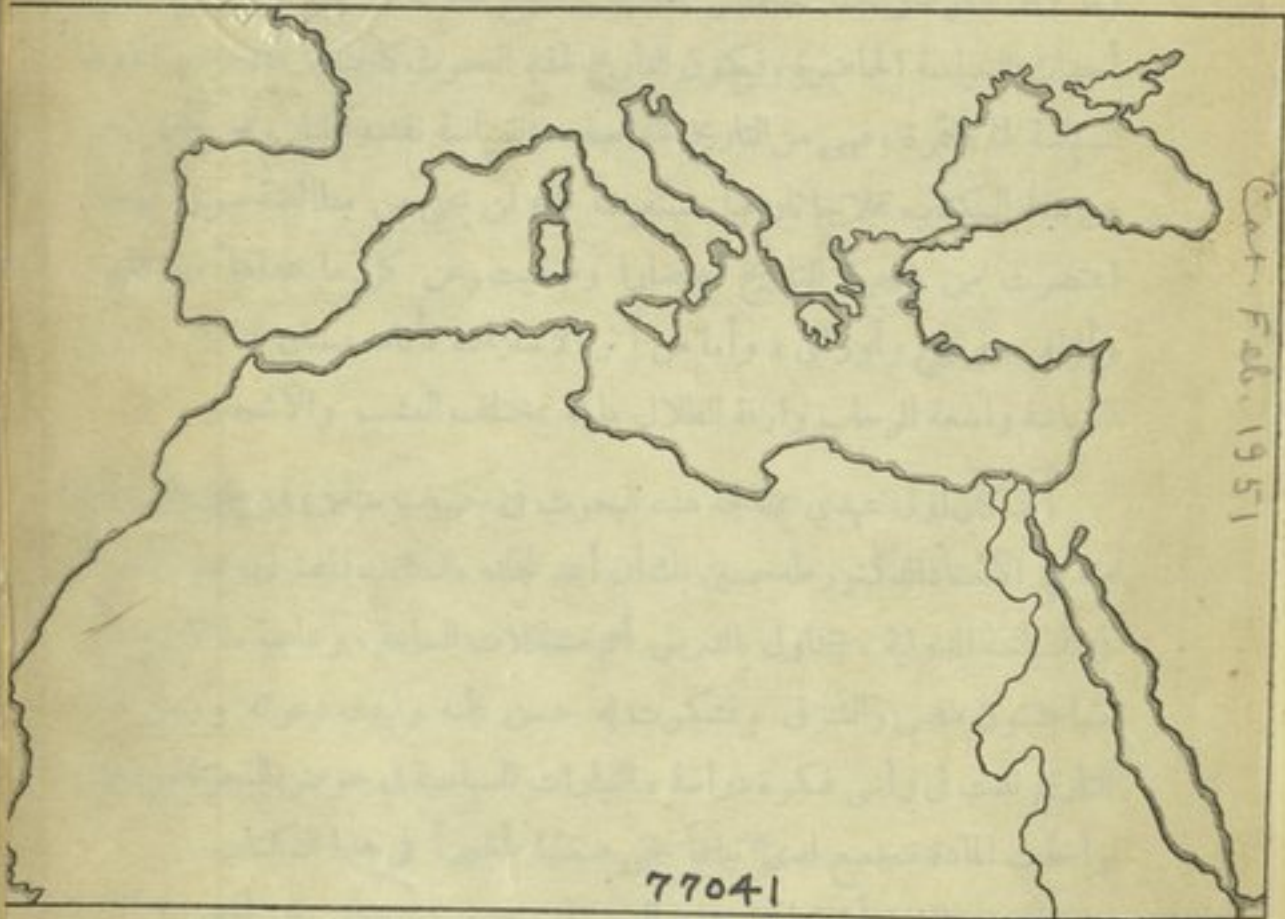
R56A

C1

التيارات السياسية

1950

في حوض البحر الأبيض المتوسط



77041

Cart. Feb. 1951

ملتزمة الطبع والنشر
لجنة البعثات العربية

کتابت

مجلس التعلیم

فیض آباد



14022

کتابت

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

هذه بحوث سياسية تعالج تطورات التاريخ والعلاقات الدولية بين شعوب البحر المتوسط ودوله ، وهي بحوث تستمد أصولها من التاريخ قديمه وحديثه ، وما تزال بالموضوعات تستقصى أسبابها وتتبع تطوراتها حتى تصل بينها وبين أحداث السياسة الحاضرة ؛ فيكون التاريخ لهذه البحوث كالجذور للشجرة وتكون السياسة لها كالثمرة ؛ فهي من التاريخ خلاصة ، وللسياسة نقد وتحليل ؛ فمن كان يرجو من هذا الكتاب علاجاً تاريخياً مستفيضاً فإنه لن يجنى من مطالعته سوى لبانات اعتصرت من شجرة التاريخ اعتصاراً وصفت عن كل ما عداها من قشور وألياف وفروع وأوراق ، وأما من أثر الاستزادة فأمامه بستان التاريخ ومروج السياسة واسعة الرحاب وارقة الظلال مليئة بمختلف العشب والأشجار والثمار .

وقد كان أول عهدي بمعالجة هذه البحوث في خريف سنة ١٩٤٦ حين طلب إلى صديقي الأستاذ الدكتور طه حسين بك أن أعد لمجلته «الكاتب المصري» بحوثاً شهرية في السياسة الدولية ، تتناول بالدرس أهم مشكلات الساعة ، وخاصة ما كان متعلقاً منها بشئون مصر والشرق ؛ فشكرت له حسن ظنه ولبيت دعوته ؛ ومن ذلك التاريخ نبتت في رأسي فكرة دراسة «التيارات السياسية في حوض البحر المتوسط» وأخذت المادة تتجمع لديّ تباعاً حتى صغتها أخيراً في هذا الكتاب .

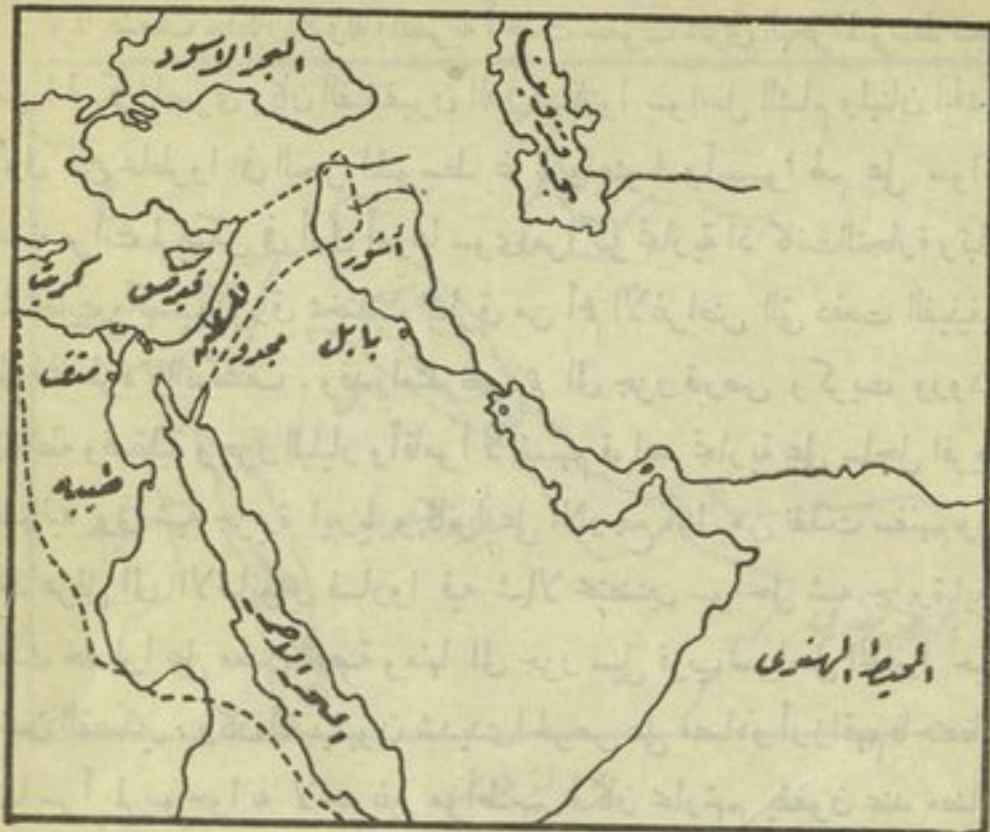
وغني عن البيان أن تداخل هذه البحوث بعضها في بعض قد أفضى في النهاية إلى شيء من التكرار في بعض الأحداث والآراء ، وهو تكرر لم أرغضاً في إثباته ، توكيداً للفكرة من جهة والتماساً لفائدة القراء من جهة أخرى .

ولا حاجة بي قبل الختام إلى القول بأن التيارات السياسية في البحر المتوسط

وسرعان ما انظفأ بريق تلك النواحي المضيدة من حوض البحر المتوسط
وكان عصا سحرية قد نفضت عنها غلالات الفن التي تسربت بها طوال القرون
الماضية فحولتها الى حقائق عارية ليس فيها إلا مناطق اقتصادية ومحطات تنتهى اليها
أنابيب البترول من مختلف الآبار في الشرق الاوسط ، هذا الى القواعد الحربية والبحرية
والنقط الاستراتيجية التي ترابط فيها الجيوش وتحرسها الأساطيل وتحلق في جوها
الطائرات وترنو اليها الدول بعيون متيقظة شاخصة حريصة كل الحرص على
ألا تنفرد دولة منها كائنة ما كانت بميزة التساط والحراسة في منطقة ذلك البحر
الذي يتوسط العالم - كما يدل عليه اسمه - وهو بعد الطريق العالمى الذى تلامس مياهه
سواحل أكبر وأهم مجموعة من شعوب العالم .

ولقد سار هذا البحر الشعوب التي سادت سواحله في رقيها وانحطاطها فكان
نصيبه تارة الهدوء والسعادة والأمن ، وتارة تتجاذب مياهه وسواحله التيارات
السياسية والاجتماعية المتعارضة فتعرض شعوبه الوادعة لخطر الحرب والدمار
وهي التي تتفياً منذ القدم ظلال أغصان الزيتون المباركة رمز السلام في العالم .
وسنرى فيما يأتى أثر التيارات السياسية في حوض البحر المتوسط وما طرأ على
شعوبه وسواحله من تقلبات واحداث في عصور التاريخ المختلفة .

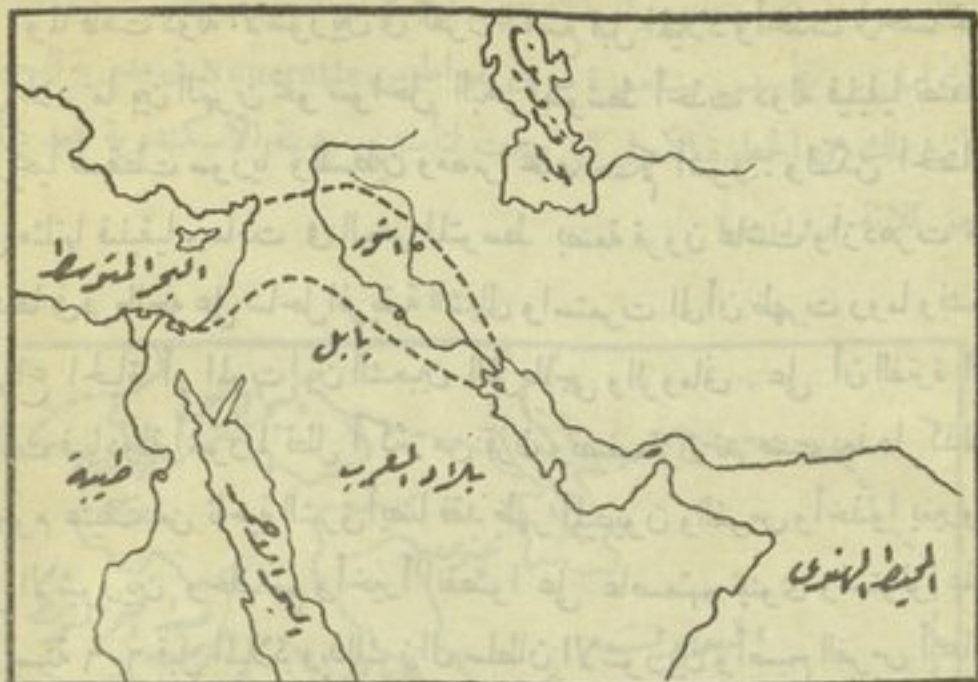
ففي التاريخ القديم قامت حضارة مصر على نهر النيل وحضارة بابل واشور
على دجلة والفرات . وهذه الحضارات كانت تتصل بحوض البحر المتوسط عن
قرب أو بعد ، ولكن مما لا مشاحة فيه انها نشأت على ضفاف أنهار عظيمة
أخصبت بها السهول والوديان فأينعت في ربوعها الزراعة وعاش الناس على
ضفافها ناعمين في رغد وخفض من العيش ، ولم يكن البحر كالنهر سبباً من أسباب
نوحهم أو عنصراً من عناصر كفاخهم ومعاشهم فبقيت هذه المدنيات برية نهرية
في طابعها حتى بعد أن بنى المصريون القدماء السفن ودانت لهم أقاليم شرقي البحر
المتوسط واتصلوا بجزره وجهزوا الأساطيل تمخر بعضها عباب البحر الأحمر
الى بلاد بونت ، أو الصومال ويجرى بعضها في بحر إيجه بين جزره وسواحله ،
فقد ظلت الحضارة المصرية القديمة مع ذلك كله متأثرة ببيئة الوادى حتى النهاية .



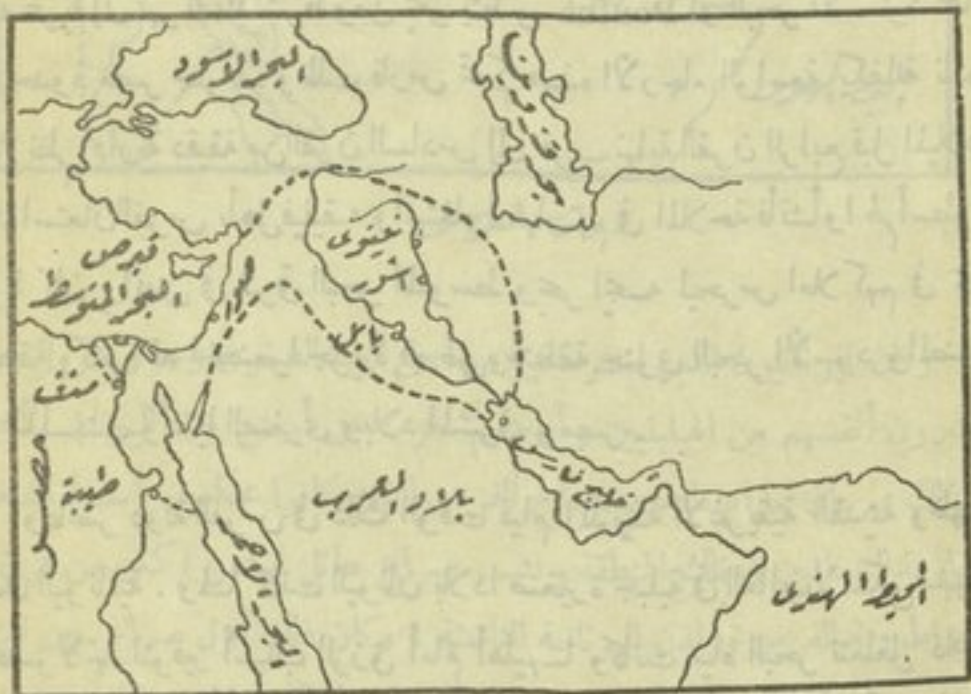
دولة مصر

وفي أثناء قيام الدولة المصرية القديمة ظهرت في الشمال حضارة بحرية من صميم البحر المتوسط كان مركزها جزيرة كريت وعاصمتها مدينة كنوسس Knossos وقد ازدهرت هذه الحضارة في بحر إيجه حول ٢٥٠٠ سنة قبل الميلاد واتصلت بقبرص وشمال أفريقيا وشرق البحر المتوسط وغربيه . ولكن حدث ما قوض دعائم هذه الحضارة وعنى على آثارها فاندثرت معالمها وسحب عليها الزمن ذيل النسيان حتى انبرى لها بعض العلماء من الانجليز وغيرهم في أول القرن العشرين فكشفوا عن قصر كنوسس العظيم وما احتواه من كنوز وتحف وأدوات وكتابات لم يوفقوا الى حل رموزها الى الآن . ولكنها جميعا تدل دلالة واضحة على ملك عظيم ومدنية راقية قامت في كريت وحزر بحر إيجه ثم زال فجأة ذلك السلطان وأمحت بزواله آثار أول دولة بحرية سادت في مياه البحر المتوسط قبل الميلاد بالنسبة سنة تقريباً .

ولما ضعف سلطان الدولة المصرية أخذت شعوب شرقي البحر المتوسط تتحرر من الحكم المصري وكان الفينيقيون الذين سكنوا سواحل الشام ولبنان الحديث أول من غاظروا في البحر المتوسط غربا وحنوبا وأسسوا لهم على سواحلهم مستعمرات لم تسكن في أول أمرها سوى مراكز تجارية اذ كانت التجارة وتبادل المنتجات وكسب الرزق بمختلف الطرق من أهم الأغراض التي دفعت الفينيقيين الى المخاطرة والكشف . وقد امتد نفوذهم الى جزر قبرص وكريت ورودرس ومالطه وصقلية وجزر البليار وأقاموا لأنفسهم قواعد تجارية على ساحل افريقية الشمالية وفي شبه جزيرة ايبيريا وكانوا على الأرجح أول من نفذت سفنهم وراء عمد هرقل الى الاقيانوس فساروا فيه شمالا محتضنين سواحل شبه جزيرة ايبيريا حيث حصلوا على معدن الفضة ومنها الى جزر سيلبي قرب سواحل انجلترا حيث معدن القصدير . وكان الفينيقيون شديدي الحرص على مصادر أرزاقهم فاحتفظوا بها سرا لم ييوحوا به لاحد غير مواطنيهم فكان بحارتهم يققون عند مضائق البحر المتوسط في صقلية وعمد هرقل بحرسونها وينكلون بالسفن الغريبة التي تخاطر بشق هذه المياه ويمنعونها من اقتحام مناطق نفوذهم . وللفينيقيين فوق ذلك كله على أوروبا فضل ادخال عناصر المدنية بين شعوبها فهم الذين علموهم استعمال المقاييس والمكاييل واستخدام الارقام والحروف الابدائية وأدخلوا صناعات النسيج وبناء السفن والاصباغ . وكانت مدنهم صور وصيدا وعكا على ساحل الشرق أهم مراكز حضارتهم ، وأقاموا على ساحل افريقية الشمالية مستعمرة قرطاجنة وفي ايبيريا قادس وغيرها ولم يتركوا في البحر المتوسط موطناً مهما دون أن يكون لهم فيه تجارة وعملاء يبادلونهم السلع . وعلى ذلك يمكن اعتبار الفينيقيين أول شعب جعل من حوض البحر المتوسط وحدة ان لم تسكن سياسية فقد كانت تجارية اقتصادية



دولة بابل

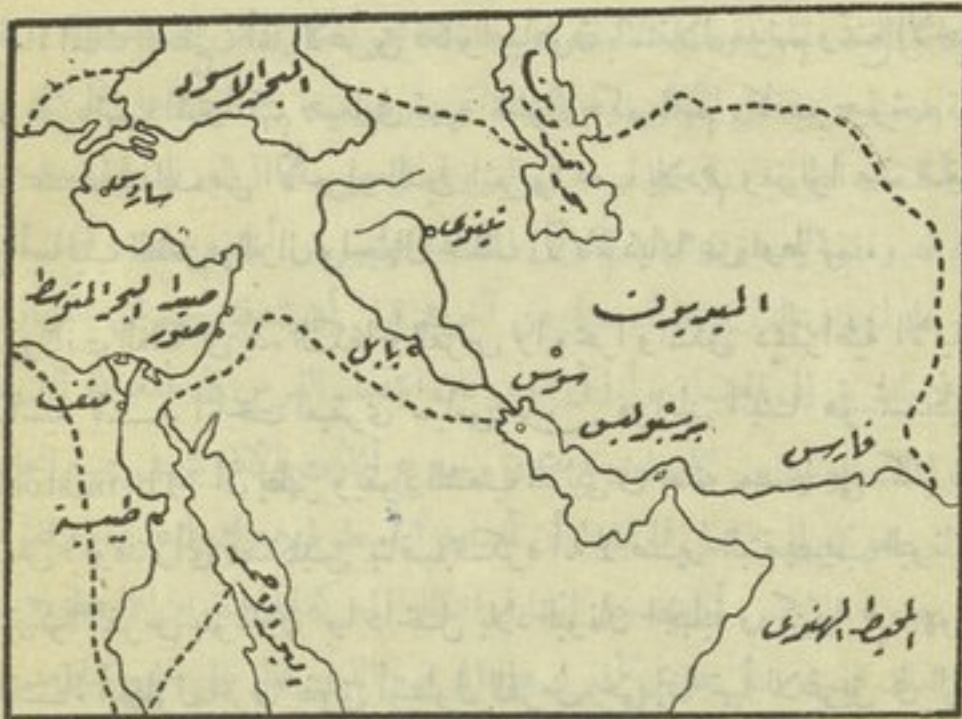


دولة آشور

ولما قامت دولة الاشوريين في القرن التاسع قبل الميلاد وأخذت تزحف غربا من بلاد ما بين النهرين نحو سواحل البحر المتوسط أخذت دولة فينيليا تضعف تدريجياً فسقطت سوريا وفلسطين ومصر تحت حكم آشور . ولكن الحضارة التي مثلتها فينيليا وسادت في البحر المتوسط بضعة قرون عاشت وازدهرت من بعدها في قرطاجه على ساحل افريقية الشمالى واستمرت الى أن ظهرت روما ونشب صراع الحياة أو الموت بين الشعبين القرطاجى والرومانى . على أن الفترة التي سادت فيها دولة آشور لم تطل أكثر من قرن ونصف قرن تعرضت بعدها كذلك لهجوم عنيف من ناحية الشرق أيضا فقد ظهر الميديون والفرس وأخذوا يغيرون على الاشوريين وحلفائهم وأخيراً انقضوا على عاصمتهم نينوى واستولوا عليها في سنة ٦٠٦ قبل الميلاد وبذلك زال سلطان الاشوريين وأصبح الفرس أصحاب السيادة في الشرق وقد ضم ملكهم قورش Cyrus بلاد ميديا وبابل واشور وكون منها جميعاً دولة الفرس العظيمة التي اخضعت غرب آسيا وشرق أوروبا من بحر إيجه غرباً إلى نهر السند شرقاً ومن بحر بنطس Pontus أو البحر الأسود شمالاً إلى حدود مصر جنوباً . وظلت فارس تحكم هذه الأرجاء الواسعة بكفاية نادرة وفق نظم ادارية دقيقة من القرن السادس إلى قرب نهاية القرن الرابع قبل الميلاد . وقد استعان الفرس بأهل فينيقيه واستغلوا مهارتهم في الملاحة فأنشأوا لهم أسطولا بحرياً كان يراىض في شرقى البحر المتوسط وبحر إيجه ليحرس املاكهم في تلك المنطقة وكانوا قد اخضعوا جزيرة قبرص ومنطقة جنوبي البحر الأسود والمضايق أو الهلسبنت وآسيا الصغرى وبلاد المشرق ومصر .

وعاصر دولة الفرس في ذلك الوقت قيام المدينة الاغريقية القديمة وظهور المدن اليونانية . ولما كانت اليونان بلاداً صغيرة جبلية في الغالب لا تسكنى سهولها ومحصولاتها لتوفير أسباب الرزق أمام أهلها وكانت مياه البحر تغلغل داخل البلاد وتلامس معظم سهولها ومدنها وقراها فقد نشأ أهل اليونان كأهل فينيليا ملاحين مخاطرين فاتخذوا التجارة مهنة والبحر ميداناً لنشاطهم وأسسوا مستعمرات

لهم على سواحل بحر بنطس وآسيا الصغرى وأمتد نشاطهم إلى مصر حيث سمح لهم الملك امازيس بتأسيس مستعمرة لهم في نقراطيس Naucratis في مديرية البحيرة وكانت تلك هي الخطوة الأولى التي مهدت لتأسيس مدينة الاسكندرية بعد ذلك بنحو ثلاثة قرون ١٠



دولة الفرس

وكان اليونانيون الذين استوطنوا سواحل آسيا الصغرى وجزر بحر إيجه يعتبرون أنفسهم من الهيلينيين وأرضهم جزءا من أرض بلاد اليونان الأصلية ولذلك سرعان ما اصطدمت مصالح الفرس الذين كانوا يحكمون آسيا الصغرى بمقاومة اليونانيين في تلك المنطقة ونشب صراع هائل استمر أكثر من قرن بين امبراطورية الفرس والمدن اليونانية الناشئة . وكان ذلك أول صراع بين الشرق والغرب تناول الاحتكام فيه زيادة على السيطرة في البحر المتوسط — نظم الحكم وطرائقه ، فقد كانت فارس امبراطورية عظيمة أظل سلطانها شعوب الدول الشرقية

القديمة جميعاً وكانت حكومتها استبدادية اتوقراطية يستأثر بالامر فيها ملك عظيم
يقدمون شخصه ويدينون له بالطاعة العمياء ، وكانت جيوشهم تتألف من جنود
محترفين من المرتزقة الذين كان الولاة يجمعونهم من انحاء الامبراطورية الواسعة
وكان أساس الفكرة التي يقوم عليها نظام الحكم في تلك الامبراطورية تضاؤل
قيم الأفراد أمام أرادة الامبراطور والتضحية بهم جميعاً إذا اقتضى الأمر في سبيل
ارضاء الملك العظيم . أما الاغريق فكانوا يباهون باستقلال مدنهم وتمتع الأحرار
منهم بحرياتهم واشتراكهم جميعاً في تسيير شئون حكوماتهم وكانت جيوشهم على
قلة عددها تتألف من الأحرار الذين اشربوا حب بلادهم ومرنوا منذ صغرهم
على أساليب الطعن والنزال واحتمال مختلف الآلام ذبادا عن اوطانهم .

وكانت العلة في بدء السكفاح للفرس برا وبحرا ولكن ديمقراطية الاثينيين
السياسية قد اتاحت لعبقري سياسي من مواطني اثينا هو تمستكليس Themistocles
أن يظهر ويقود الشعب الاثيني في محنته مصمماً على كسر قوة
الفرس . وقد رأى تمستكليس بثاقب فكره أنه لا ضير البتة يصيب اليونانيين
إذا تركوا الفرس يتوغلون برا داخل بلاد اليونان الجبلية وركزوا هم جهودهم
في انشاء أسطول حربي يفوق أسطول الفرس حتى إذا تهباً للاغريق في البحر
أن ينتصروا على الفرس وآلت لهم السيادة في بحر ايجه تعذر على الفرس الافادة
من تفوقهم في البحر واضطروا إلى التراجع بقواتهم إلى آسيا الصغرى . وقد استمع
له الاثينيون وأخذوا يعدون اسطولا يضارع أسطول الفرس قوة وان لم يدانه
عددا ، وجاءت جحافل الفرس يقودها ملكهم ابن دارا ويسير الجيش بحراً
اسطولهم العظيم . وكانما فطن الفرس إلى استعداد الاغريق بحرا فأثروا أن تخترق
جيوشهم مضيق الهلسبنت وتهاجم اليونان من الشمال على حين يستعد الاسطول
لغزو الاغريق جنوبا وغربا بمؤازرة الجيش البري ، وكان تمستكليس يعلم أنه لا قبل
للاغريق بالوقوف طويلاً أمام الجيوش الفارسية القوية الكثيرة العدد ولسكنهم
إذا تمسكنوا من محاربة الاسطول بحرا فان انتصارهم سيؤدي حتماً إلى تهديد

مواصلات الجيش الفارسي وعرقلة تموينه . وتنفيذاً لهذه الخطة لم يسير الاغريق جيوشاً لمقاولة الفرس ، ولسكنهم أقاموا عند ممر ترمبولى Thermopylae قوة أسبرطية مؤلفة من خمسة آلاف محارب بقيادة ليونيداس ملك اسبرطه للدفاع عن هذه النقطة الاستراتيجية ووقف تقدم الفرس جنوباً .

وفي صيف عام ٤٨٠ قبل الميلاد زحف الجيش الفارسي برا نحو الجنوب وقدر عدده بمائتي الف مقاتل وسار الاسطول بمحازاته بجزر أ مكوونا من الف سفينة منها خمسمائة سفينة حربية على الأقل ، ولم يكن للاغريق سوى ٣٠٠ سفينة على الأكثر . وأخيراً التقت الطائفتان وجها لوجه في البر وفي البحر . أما في البر فان ليونيداس ورجاله قد وقفوا يصدون هجمات الفرس المتتابعة عليهم من أمام وخلف وقفة خلدت بطولتهم في التاريخ فقد فنوا عن آخرهم قبل أن تندفق جيوش الفرس جنوباً في الطريق إلى اثينا . وأما في البحر فان انتصار الفرس في المعركة البرية وموت الملك ليونيداس كان له رنة حزن وجزع أثارت الاغريق في جميع أنحاء اليونان وحفزتهم إلى العمل فما لبثوا أن أصلحوا أسطولهم وزادوا عدده ووقفوا به عند جزيرة سلاميس أمام مدخل اثينا في انتظار المعركة الفاصلة بين الاسطولين . وجلس ملك الفرس على عرش أقيم له على المرتفع الذي يطل على خليج سلاميس ليشراف على سير المعركة وما كاد الاسطول الفارسي العظيم يدخل المضيق الذي يفصل الجزيرة عن البر وتبدأ المعركة البحرية حتى تعذرت الحركة على السفن الفارسية لضخامتها من جهة وللكثرة عددها وضيق مسالك الماء من جهة أخرى فما كاد الظلام يرخي سدوله في ذلك اليوم حتى باد معظم الاسطول الفارسي وكسب الاغريق المعركة البحرية فاصبحوا بها أصحاب السيادة في البحر المتوسط . ولم يحس الفرس أثراً لانتصارهم في البر ما دام الاغريق متفوقين بجزراً وعلى أثر ذلك ارتد الفرس عن بلاد الاغريق وعبروا الهلسبنت ثانياً عائدين إلى آسيا تاركين قوة لا تزيد على خمسين الف رجل تحتل شمال اليونان لتعيد غزوها متى صحا الجو وحل الربيع التالي . ولسكن ثبات الاغريق واتحادهم أمام الخطر الاجنبي كان

كفيلا بهزيمة تلك البقية الباقية من فلول الفرس فرحلوا على اثرها إلى آسيا
بغير رجعة .

وقد افاد الأغريق من الحرب الفارسية فائدة كبرى إذ عرفوا ثمرة الاتحاد
فكفونوا بعد ثلاث سنين من موقعة سلاميس ، اتحاد ديلوس ، لتكون البلاد
على أهبة الاستعداد إذا جازف الفرس بهجوم جديد .

وكان اتحاد المدن الاغريقية مدعاة لانتعاش حركة التجارة في شرق البحر
المتوسط فظهر ميناء بيررا Piraeus عند مدخل أثينا وازدهرت المدينة الاغريقية
في أثينا في عهد بركليس Pericles ازدهاراً لا تزال آثاره إلى الآن مصدر وحي
والهام للناس جميعاً في ميادين الأدب والفن والحكمة . وفي عهد بركليس نقل مقر
الاتحاد من جزيرة ديلوس إلى أثينا واستأثرت أثينا بالمبالغ التي كانت المدن
ترسلها لبناء الاسطول والمحافظة عليه . فأثار هذا العمل سخط منافستها اسبرطه
وقامت الحرب الاغريقية الداخلية التي تعرف بحرب البلبوبونيز التي استمرت
اكثر من ربع قرن كانت نتيجتها اضمحلال المدن الاغريقية وظهور دولة مقدونيا
بزعامة ملكها فيليب وكان ذلك حول سنة ٣٦٠ قبل الميلاد .

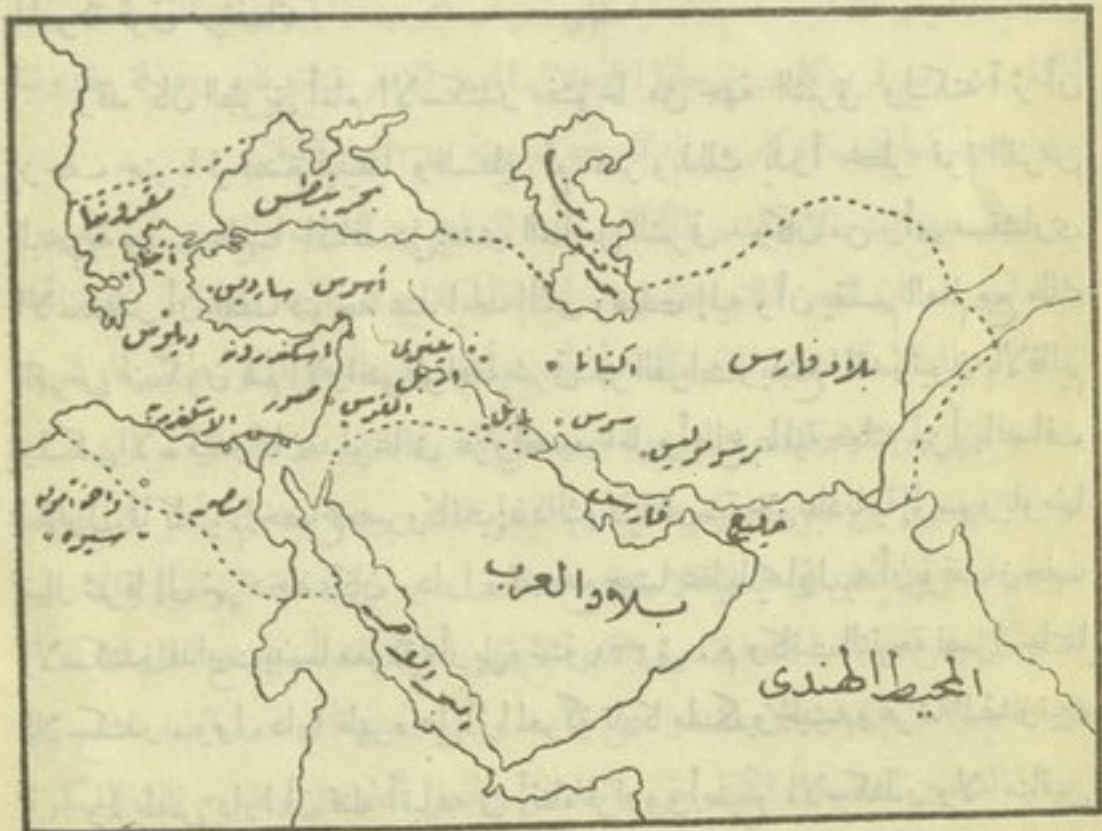
وفي عهد ابنة الاسكندر الأكبر تجدد النزاع بين الغرب والشرق بين الفرس
والهيلينيين ، وكان البحر المتوسط ميدانا لذلك السكفاح في بدايته وكان من أهم نتائجه
تأسيس ميناء الاسكندرية الذي ما لبث أن أصبح أهم موانئ البحر المتوسط شرقاً وغرباً .
ويظهر أن الاسكندر حين بدأ حملته على آسيا كان قد صمم في قرارة نفسه
على أن يتحرر من قيود الفكر السياسي الهيليني الذي يربط صاحبه بأطراف مدينته
أو دولته وأن يخلق في العالم الاسيوي بجناحين من الثقافة اليونانية والادارة
الفارسية ومن ورائه الجنود المقدوني الذي لا يقهر لعل ذلك أن يجمع العالم المتمدين
في نظام واحد يكون الاسكندر على رأسه ويكون من أهم خصائصه الجمع بين
مزايا الشعبين العظيمين الاغريقي والفارسي . وليس أدل على وضوح تلك الفكرة
في ذهنه من تخطيط المدن والموانئ الجديدة التي أنشأها وسماها باسمه على امتداد

البلاد التي فتحها طولا وعرضا أو التي أنشأها خلفاؤه بعد وفاته تخليدا لذكري انتصاراته وقد أصبحت تلك المدن مراكز وحقولا نبتت فيها البذرة الهيلينية الشرقية الجديدة وأبنت .

وفي سنة ٣٣٤ ق . م . قام الاسكندر من مقدونيا وقاد جيوشه فتوغل بها في آسيا الصغرى وخلص مدنها الأغريقية من نير الفرس ثم سار شرقا حتى وصل إلى جبال طوروس وعبر الممر الذي يفصل هضبة الأناضول من سهول سوريا وهناك وقف دارا الثالث ملك الفرس وآخر ملوك أسرنه يستعد بجيوشه الجرارة لملاقاة العدو فدارت بين الفريقين معركة أسوس Issus التي انتصر فيها الاسكندر واضطر الفرس إلى الارتداد شرقا حتى عبروا نهر الفرات ، ودانت جميع الأقاليم التي تلي الفرات غربا إلى البحر الادرياتي لسلطان الاسكندر . وقد خلد انتصاره في « أسوس » بإنشاء ميناء الاسكندرونة الذي يشرف على الخليج الذي دارت المعركة فوق مرتفعاته .

وقد كان الطريق أمام الاسكندر مفتوحا من جهة الشرق ولكنه آثر أن يزحف جنوبا فيخضع فينيقيا وفلسطين ثم مصر وبذلك يدرأ خطر قوة الفرس البحرية ويسد عليها المنافذ على مدى الساحل الشرقي . وكان من رأى مستشارى الاسكندر أن تقف فتوحه عند الحد الذي وصلت إليه وأن يقتسم العالم مع ملك الفرس فتسكون لهم الأراضي الواقعة شرقي نهر الفرات ويقنع المقدونيون بالأقاليم ولكن الاسكندر كان مدفوعا في غزواته بعوامل وأطاع عالمية جعلته يهزأ بانصاف الخلول ، فما كاد يتم إخضاع مصر وكانت إذ ذاك ولاية فارسية حتى عاد ثانية إلى سوريا ومنها سار شرقا إلى نهر دجله وكان « دارا » قد جمع جيشا عظيما يحاول به أن يوقف زحف الاسكندر فدارت بينهما معركة « أربل » سنة ٣٣١ ق . م . وكانت النتيجة نصرا حاسما للاسكندر ، وولى دارا ظهره على أثر المعركة تاركا ملكه وجيشه وعرشه للمقدونيين ولم يلبس دارا أن قتله أتباعه في أثناء فراره وأصبح الاسكندر ولا منافس له في الشرق فاستمر يزحف بجيشه خمس سنوات أخرى في الشمال إلى نهر جيحون

وفي الجنوب الشرقي إلى نهر السند ووادي الكانج وعندئذ لم يطق جنوده مواصلة الزحف شرقا فقرر الاسكندر العودة إلى بابل حيث مرض بالحمى ومات سنة ٣٢٣ ق . م ولم تزد سنه على ثلاثة وثلاثين عاما ملاءها بحروب وفتوح لم يجرؤ على مثلها قائد من قبل أو من بعد . وقد كان الاسكندر يعد العدة قبل وفاته لفتوح أخرى يستكمل بها تفوقه العالمي فيبسط نفوذه على شبه جزيرة العرب ويمد فتوحه في حوض البحر المتوسط من مصر إلى قرطاجه ومنها إلى عمده هرقل ومن بحر إيجه إلى صقلية وإيطاليا ، ولكن أيامه لم تطل حتى يدرك بغيبته ولم يقدر لمدينة الشرق وفلسفته أن تنمحي في الثقافة اليونانية كما أراد الاسكندر حين مد فتوحه وأنشأ المدن والمراكز التي نظمها لصبغ العالم المتمدين كله بالصبغة الهيلينية . وقد بلغ إيمان الاسكندر بنظريته التي تقوم على أساس اهتزاز العقليتين أنه تزوج بالأميرة روكسانا ابنة دارا وحض ضباطه على التزوج بالفارسيات وعين



دولة الاسكندر

من الفرس كثيرين في وظائف الدولة وفرض الآداب الملكية الفارسية في مقابلاته وحفلاته ، كما أنه أعلن نفسه ابن الاله آمون في معبد آمون بواحة سيوة في مصر فانه بعد فتوحه في آسيا لم يرض لنفسه أن يكون أقل من الآلهة وقد اضطر المدن اليونانية إلى الاذعان لذلك وكان الموت نصيب زملائه الذين سولت لهم أنفسهم أن يناقشوا الصفة الإلهية للاسكندر الأكبر .

ولما مات الاسكندر لم تجد مشروعاته الكبرى من يضطلع بتنفيذها لا من أفراد أسرته ولا بين قواده وقد توزعتهم المطامع من بعده فقسمت الدولة العظيمة إلى ثلاث مناطق على رأس كل منها قائد من أكبر قواده فكانت مقدونيا واليونان بيد أنتيجونس Antigonus وممتلكات آسيا تحت حكم سلوكس Seleucus وكانت مصر من نصيب بطليموس Ptolemy ركان من أمهر قواد الاسكندر وقد أسس له في مصر ملكا وأسرة ظلت تحكم البلاد إلى أن ضمها الرومان في سنة ٣٠ ق . م .

وقد فطن بطليموس إلى ما للقوة البحرية من أهمية في بلاد كمصر تقع على ساحل البحر المتوسط وفي مفترق الطرق بين الشرق والغرب فبنى أسطولا عظيما وأتم تشييد مدينة الاسكندرية التي كان الاسكندر قد خططها عند قرية صغيرة اسمها راقودة Rhacotis بين ساحل البحر وبحيرة مريوط أمام جزيرة صغيرة اسمها فاروس وقد اتصلت هذه الجزيرة بالبر بطريق صخري لا يزال إلى الآن يقسم الميناء إلى قسمين غربي وشرقي . وقد شيد بطليموس على الجزيرة منارة الاسكندرية الشهيرة وقد كانت الأولى من نوعها في العالم وإحدى عجائب الدنيا في التاريخ القديم ويكفي أن تكون منارة الاسكندرية هي البناء الذي أوحى إلى المسيحيين أن يقيموا فيها بعد أبراج كنائسهم وإلى المسلمين أن يشيدوا مآذن مساجدهم وقد نهضت تجارة الاسكندرية في عهد البطالمة وازداد عمرانها حتى غطت سمعتها في مدى قرن منذ إنشائها على قرطاجه العظيمة فأصبحت سيدة البحر المتوسط وأهم مدينة في العالم من المحيط الهندى إلى عمد هرقل . ولم تفقها بعد ذلك سوى روما .

ثم انتقل مسرح الحوادث سريعا من شرقي البحر المتوسط إلى غربيه وذلك على أثر ظهور روما في شبه جزيرة إيطاليا التي تقسم البحر المتوسط إلى قسمين شرقي وغربي . وكان الرومان أقل حظا في المدنية من اليونان وبلاد المشرق وكان كل ما وصلهم من آثار المدنية قد جاءهم من الشرق عن طريق الأغر يق في صقلية وجنوبي إيطاليا . ولما آل السلطان إلى روما في شبه جزيرة إيطاليا في القرن الثالث قبل الميلاد اصطدمت مصالح روما بالأغر يق في جنوبي إيطاليا ثم بالقرطاجيين الذين كانوا يواجهونهم على ساحل أفريقية الشمالية . وكان الصراع بين روما وقرطاجه صورة جديدة من الكفاح القديم بين فارس واليونان ، وكان صراعا هائلا بين مجتمعين عظيمين أحدهما في قرطاجه يقوم على المال والتجارة والبحر والآخر في روما يقوم على الزراعة والأرض . وتعرف الحرب التي نشبت بين روما وقرطاجه بالحرب البونية أو الفينيقية . وكان موضوع النزاع بينهما يدور حول التسلط على جزيرة صقلية ومضيق مسينا والقوة التي تتحكم في ذلك المضيق لأن قرطاجه إذا تحكمت فيه تعذر على روما أن تتصل بساحل إيطاليا من الشرق وإذا تحكمت فيه روما لم تأمن قرطاجه على سواحلها وتجارها .

وكان القرطاجيون كالفرس يعتمدون في جيوشهم على الجنود المرتزقة الذين يجندونهم من مختلف البلدان على حين كان الرومان يعتمدون في حروبهم على رجالهم . وكما تنبه اليونانيون من قبل في كفاحهم إلى ضرورة تنمية قوتهم البحرية كذلك فعل الرومان إذ اعتمدوا على أهل سرقوسة وبنوا لهم أسطولا حريا لمواجهة قوة قرطاجه العظيمة . على أن القرطاجيين فضلا عن قوتهم وموانئهم البحرية قد واتتهم الظروف بظهور قائد حربي عبقرى من مواطنيهم هو هانيبال Hannibal الذي يعد من أمهر القواد الحربيين الذين ظهروا في التاريخ . ولذلك كانت الحرب سجالا بين الرومان والقرطاجيين فانتصر الرومان أولا واستولوا على صقلية وفرضوا غرامة كبيرة على قرطاجه .

ولما استأنف الفريقان الحرب كان الرومان قد احتلوا جزيرتي فورسقه
وسردانية ولم يأبهوا لاحتجاج القرطاجيين كما سيروا حملة ضد بلاد الغال Gaul
فأخضعوها وامتد سلطانهم شمالا فيما وراء البحر المتوسط وغربا إلى ساحل المحيط .
وأرادت قرطاجة أن تحفظ التوازن بينها وبين روما وأن تتعوض من الجزر التي
فقدتها في البحر المتوسط فوجهت أحد قوادها هملكار ، لفتح أسبانيا والاستيلاء
على مناجم الفضة بها وأخذ العدة لتنظيم جيش قوى من أهلها يضارع جيش
روما . فقام هملكار بتنظيم هذا الغزو وترك من بعده لولده هانيبال مهمة إتمام
ذلك العمل العظيم . ومالبت النزاع أن قام من جديد بين قرطاجة وروما بل بين
القائد الفذ هانيبال وبين دولة روما . فقام هانيبال في سنة ٢١٨ ق . م على رأس
جيش مؤلف من ٤٠.٠٠٠ جندي وزحف شمالا قاصدا غزو روما عبر جبال
البرانس والألب مذلا جميع العقبات التي اعترضته . وقد آثر هانيبال تسير حملته
براخرفا من تفوق الأسطول الروماني من جهة ولسكثرة عدد فرسانه وفيلته من
جهة أخرى بحيث كان يتعذر عليه نقلها بحرا . يضاف إلى ذلك أنه كان يعتمد
على مؤازرة الشعوب الشمالية التي أخضعها روما وكانت تسكن لها كراهية شديدة
فكأنما كان هانيبال يمني نفسه بتزعم الشعوب التي غلبتها روما في كفاحها جميعا
لاسترداد حريتها واستقلالها . وقد لاقى هانيبال وجيشه في أثناء عبورهم بمرات
الألب من الصعاب وشدة البرد والجوع ما أفقده عددا كبيرا من جنوده ورأى
هانيبال أنه أصبح بمعزل عن قرطاجة وأمام عدو عنيد يمتاز بصلابته وكثرة
موارده وخاصة في الرجال فعقد عزمه على الكفاح وصمم على مفاجأة العدو
واقتناص الظفر منه مهما كلفه ذلك . ولم يكن بين صفوف الرومان وقتئذ قائد
يستطيع مغالته فانتصر هانيبال في موقعة بحيرة ترازمين Trasimene ٢١٧ ق . م
انتصارا عظيما خسر الرومان به معظم جنودهم ولسكنه لم يكن انتصارا حاسما ولم
يتبعه هانيبال بالزحف لمحاصرة روما نفسها لأنه خشى أن تطول مدة الحصار
فتضعف الروح المعنوية بين جنوده فأثر الزحف شرقا وجنوبا لعله أن يجد بين
الأغريق سندا وعونا ضد روما .

وأصلح هانيبال أمر جيشه على حين كوّن الرومان جيشا جديدا فتقابل الجيشان في موقعة كانيا Cannae الشهيرة سنة ٢١٦ ق . م ومع أن عدد الرومان كان قريبا من ضعف عدد القرطاجيين وحلفائهم فان النصر كان حليف هانيبال ودحر الجيش الروماني عن آخره . وحين كان هانيبال يحنى ثمار انتصاره ويؤلب أعداء روما عليها وينتظر وصول المدد إليه من أسبانيا بقيادة أخيه الصغير هاسدروبال كان الرومان يستجمعون بعد الهزيمة ويعدون أنفسهم لسكفاح جديد حتى لا يتركوا زعامة العالم وحوض البحر المتوسط لقرطاجة فأخذوا يخضعون المدن التي جنحت إلى جانب هانيبال واحدة بعد أخرى . وبعد أن قضى هانيبال عشر سنوات في إيطاليا مكلا بغار النصر آملا أن يصل إليه المدد ليكمل عمله العظيم فيقضى على قوة روما ويضمن لقرطاجة العريضة تفوقها في العالم بلا مناس جاءه نعي أخيه وانهازم جيشه سنة ٢٠٧ ق . م أمام القوات التي أرسلها الرومان إلى أسبانيا لمنع وصول المدد إليه . وألقيت إليه أنباء الكارثة بطريقة مروعة إذ رمى إليه أحد قواد الرومان في معسكر القرطاجيين برأس أخيه القائد هاسدروبال، فكان فيه النعي وأنباء الكارثة جميعا .

وقد فت هذا الحادث في عضد هانيبال ولكنه ظل في جنوب إيطاليا يتحين الفرص ويرقب دوران عجلة الحظ ، ولكن العجلة دارت بالخلاف وبدأ الحظ يعاكسه إذ ظهر بين الرومان القائد الكفء الذي ضارع هانيبال قوة وإقداما وهو سيبو Scipio الأفريقي الذي استطاع تخليص أسبانيا من يد القرطاجيين ومن ثم هاجمهم في عقر دارهم بأفريقية كما فعل هانيبال بالرومان . فاضطرت قرطاجة إلى أن تدعو بطلها إلى إنقاذ وطنه فجاء هانيبال إلى أفريقية على عجل ودارت معركة « زاما » قرب قرطاجة من الداخل سنة ٢٠٢ ق . م وقد وقف القائد القرطاجي وجها لوجه أمام غريمه سيبو القائد الروماني وظلت نتيجة المعركة تتأرجح في ميزان القدر فترة من الزمن إلى أن تغلب القائد الروماني وخسرت قرطاجة المعركة ونزلت عن أملاكها وأسطولها وحملت غرامة كبيرة تدفعها إلى روما

واصبحت بعد ذلك دولة في الدرجة الثانية من الاهمية تخضع في سياستها لروما
ولسكن الرومان لم يفسوا اذلالهم على يد هانيبال فلم يتركوا قرطاجه تتجدد وتعيش
وتزدهر، وما فتوا يرددون في منتدياتهم وفي خطبهم وجوب تدمير قرطاجه ومحوها
من الوجود حتى تم لهم ما أرادوا ودمروها تدميراً سنة ٤٦ ق . م . ولم يبقوا لها
على اثر. واصبحت روما بعد ذلك تسيطر وحدها على حوض البحر المتوسط - وسطه
وغربيه وأخذت تعد العدة لنشر رواقها كذلك على شرقية حتى تكون بما من من
ظهور قرطاجه أخرى تهدد وجودها كما هددتها من قبل قرطاجه هانيبال.

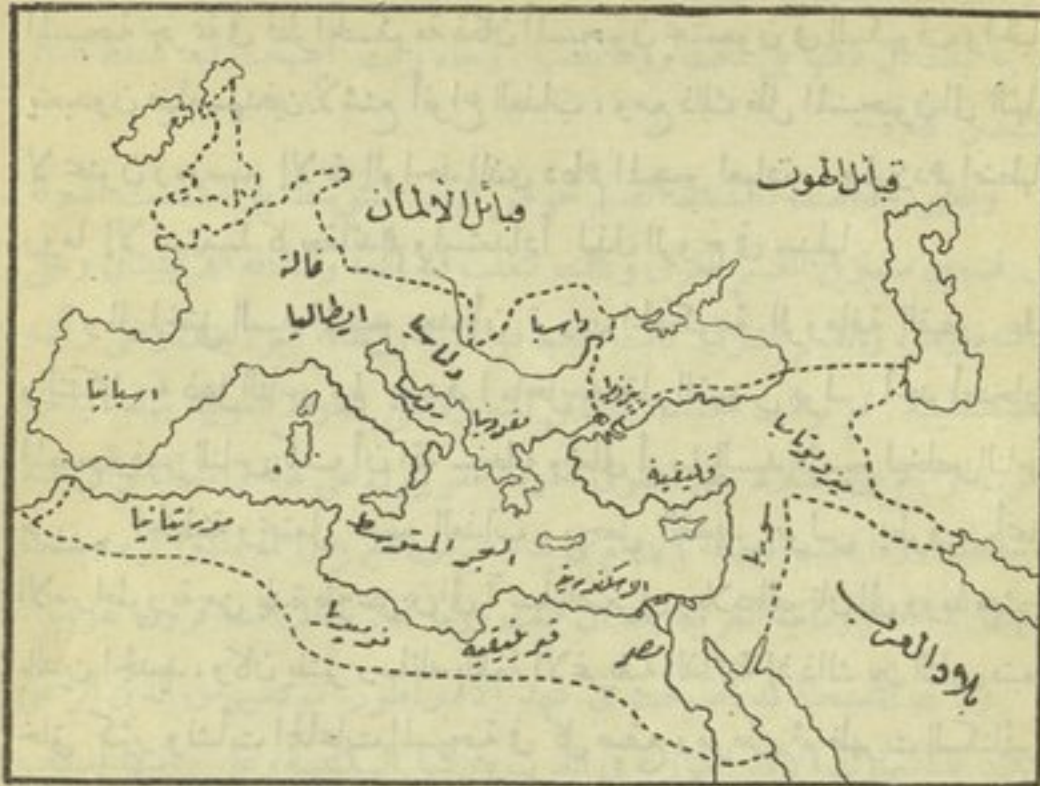
وما كادت روما تنتهي من موقعة زاما حتى استوقف نظرها نهضة مقدونيا
وكان ملكها قد تحالف مع هانيبال في أثناء الحروب البونية ثم تحالفت مقدونيا
ووارث ملك السلوقيين في آسيا الصغرى فخشيت روما أن تتحد المملكتان
ضدها فسارعت بمهاجمة مقدونيا وأخضعتها . ومن بلاد اليونان سارت السكتائب
الرومانية إلى آسيا الصغرى لمنازلة الملك أنطيوخس الذي استولى على أملاك
بطليموس في آسيا فضم سوريا وفلسطين وأملاك دولة الفرس القديمة إلى ملكه
الواسع فهزمته روما في آسيا الصغرى وتخلصت بذلك من الدولتين العظيمتين
اللتين تخلفتا عن الاسكندر الأكبر ولم يبق سوى مصر وكانت العلاقات بينها وبين
روما ودية إلى درجة التبعية . وبذلك أصبحت روما بعد خمسين سنة من موقعة
زاما سيدة البحر المتوسط شرقاً وغرباً .

ولما اتسعت أملاك روما لم يعد نظام الجمهورية الصغيرة الناشئة على نهر التيبر
يلائم الحاجات والتطورات الجديدة التي واجهت الشعب الروماني بعد انتصاراته
السريعة وانتشار نفوذه شرقاً وغرباً . ولذلك بدأت روما تتمخض عن ثورات
وتقلبات داخلية بين طبقات الشعب تارة وبين الشعب وكبار قواده تارة أخرى .
وظلت المنازعات الداخلية قائمة حتى ظهر يوليوس قيصر فجمع السلطة في يده ووطد
سلطان روما في أملاكها وكاد ينشئ نظاماً حكومياً ثابتاً يكون هو واسطة عقده
وحينئذ أوجس أنصار الجمهورية خيفة من سياسته وقتلوه في سنة ٤٤ ق . م وورثه

قريبه أو متبناه اكتافيوس فاتحد مع أنطونيوس زميل قيصر وصديقه وشرعاً
يفتقان من قتلة قيصر وينفذان سياسته ، فانتصرا على جيش بروتس قاتل قيصر
ونصير الجمهورية في موقعة فليبي Philippi في تراقيا وبعدها اتفقا على أن يسيطر
اكتافيوس على الغرب وأن يظل أنطونيوس حاكماً في الشرق وأن يترك إفريقيا
حيث كانت قرطاجة سابقاً لزميل ثالث لها اسمه لبيدوس . ولكن سمعة أنطونيوس
في الشرق كانت قد ساءت وتدهورت إذ وقع في شرك كليوباتره وريثة البطالمة
في مصر واتخذها زوجة له وصار وقته مضيقاً بين انطاكية عاصمته في الشرق وبين
الاسكندرية حيث تعيش زوجته الجميلة

فسمى اكتافيوس حتى أعلنت روما الحرب على كليوباتره وسار بجيشه
وأسطوله شرقاً ، فأبحرت كليوباتره على ظهر أسطولها يؤازرها حبيبتها أنطونيوس
لمقاتلة اكتافيوس فدارت بينهما معركة بحرية في اكتوبر سنة ٣٢ ق . م على
ساحل اليونان الغربي وانهمز فيها الأسطول المصري وفر . أنطونيوس وانتحر ،
ودخل اكتافيوس أرض مصر منتصراً سنة ٣٠ ق . م وأصبحت مصر منذ ذلك
الوقت ولاية رومانية . وأبت كبرياء كليوباتره أن تدخل روما ذليلة في موكب
اكتافيوس وهي التي كانت تطمع أن تجلس على عرشها إلى جانب قيصر أو حبيبتها
أنطونيوس فانتحرت . وكانت آخر ملوك البطالمة في مصر .

وبموتها وموت أنطونيوس فقدت مصر سيادتها وقوتها البحرية في شرقي البحر
المتوسط وجمع اكتافيوس في يده حكم الشرق والغرب جميعاً وبذلك أصبح طريق
الامبراطورية الرومانية معبداً وصار اكتافيوس أول امبراطورها في سنة ٣٠ ق . م
باسم أغسطس . وقد وسعت الامبراطورية جميع الشعوب التي كانت تسكن حوض
البحر المتوسط بكل سواحله فكان يحدها من الشرق نهر الفرات ومن الشمال
نهر الدانوب والرين ومن الجنوب الصحراء الكبرى ومن الغرب المحيط الاطلنطي
ولم يبق خارج هذه الحدود الا القبائل الجرمانية المتبررة شمالي الدانوب وشعوب
الشرق الاقصى .



الدولة الرومانية

وظلت الدولة الرومانية تسيطر على حوض البحر المتوسط خمسة قرون يظل سلطانها العالم المتمدن بأجمعه فصبغته بمدنيتها ووحده بقانونها وسلطة امبراطورها وربطته بطرقها السابلة بالأمن حتى أصبحت الشعوب الخاضعة لها رومانية في كل شيء الا الدين . فقد كانت الشعوب حرة في عبادة آلهتها حتى ظهر المسيح عيسى عليه السلام في عهد الامبراطور تيربوس نحو سنة ٣٠ بعد الميلاد فجعل يحبب البلاد ويدعو الى الأخاء والمساواة بين الناس جميعا شريفهم وحقيرهم ويحضهم على طاعة الله والرفق بالفقراء والضعفاء ويبشر الناس جميعاً بملكوت السماء ورحمة الله التي تنسح لجميع عباده على السواء لافرق بين عامل وأمير ثرى أو فقير . وكان من تعاليمه عليه السلام إن الملوك والاباطرة كسائر الناس لا يمتازون بشيء عن غيرهم وان ارادة الله وجبروته فوق كل ارادة وقوة . فاعتبرت الحكومة الرومانية الدعوة الى ذلك كله خيانة للأمبراطورية وهدما لمبدأ الوحدة التي ربطت اجزاء الدولة فاضطهد القياصرة هذا الدين الجديد وطاردوا معتنقيه حتى صارت

المسيحية جريئة في نظر الحكومة فكان المسيحيون يجتمعون في السكروف والخبايا
يتعبدون فيها مستهدين لأشنع أنواع العذاب ، ومع ذلك ظل المسيحيون الى النهاية
لا يحنون رءوسهم إلا لله الواحد الذى دعاهم المسيح لعبادته . ولم يزد هم اضطهاد
روما إلا استمساكا بعقائدهم واستعداداً لبذل الروح في سبيلها .

ولما اختفى السيد المسيح بعد أن قررت الحكومة الرومانية القبض عليه
والتنكيل به ذهل الناس ولم يصدقوا ما حل به فقام القديس بولس أحد أصحاب
المسيح وفسر للناس كيف أن الله سبحانه وتعالى أرسل السيد المسيح ليخلص الناس
من الخطيئة ويحتمل عنهم العذاب . وجعل القديس بولس يطوف بأنحاء
الامبراطورية من بلدة طرسوس الى آسيا الصغرى وبلاد اليونان الى روما مبشراً
بالدين الجديد ، وكان ينشر رسائله باللغة الاغريقية الذائعة إذ ذاك بين الناس فبعه
خاق كثير ونشأت الجماعات المسيحية في كل صقع وموطن ثم ظهرت الكنائس
وقام بأمرها طائفة من القساوسة من أذكي الرجال وأنشطهم حتى اذا عتلى عرش
الامبراطورية قسطنطين فى سنة ٣٢٤ ميلادية ورأى ما عليه الجماعات المسيحية
من القوة والمعرفة ورجاحة العقل لم يسعه سوى الاعتراف رسمياً بالدين المسيحى
وفى عهد قسطنطين كان الخطر على حدود الدولة الرومانية قد اشتد من الشمال
لنحفز القبائل الجرمانية المتبربرة لمهاجمة الدولة بعد أن تغلغل جنود الجرمان فى
الجيش الرومانى وتدخلوا فى كثير من شئون الدولة كما كان الخطر يهدد الدولة
من الشرق لظهور دولة الفرس الساسانية الجديدة فى ٢٢٦ ميلادية ومحاولتها
استرداد سابق نفوذها على حدود نهر الفرات . لذلك اتجهت عزيمة قسطنطين
الى انشاء عاصمة جديدة تكون بمأمن من غارات البرابرة من جهة وفى مركز
وسط يلائم رقابة الحدود الشرقية من جهة أخرى فشىد سنة ٣٣٠ ميلادية مدينة
القسطنطينية على الضفة الأوربية من مضيق البسفور ليصرف منها الامبراطور
على شئون الشرق والغرب جميعاً . وكان انشاء العاصمة الجديدة مسكان بينظته
اليونانية فأصبحت تعرف بروما الجديدة أو مدينة قسطنطين حتى جاء الأتراك

فعرفت باسم اسطنبول . وكانت العاصمة الجديدة في بدء أمرها تضارع الاسكندرية ثم ما لبثت ان فاقتها بل فاقت روما نفسها . وجاء وقت أصبحت فيه سيدة العالم المتمدين كله .

وبظهور العاصمة الجديدة أنقسم حوض البحر المتوسط بل انقسمت الدولة الى قسمين متميزين القسم الغربي وكانت تتغلب فيه اللغة والثقافة اللاتينيتان وعلى رأسه روما ، والقسم الشرقي كانت تغلب فيه اللغة والثقافة اليونانيتان وعلى رأسه القسطنطينية . ثم توالى هجمات القبائل المتبربرة على الدولة الغربية منذ أواخر القرن الرابع بعد الميلاد حتى استولى القوط الغربيون على غالة واسبانيا وأفريقية ثم سقطت روما نفسها في سنة ٤٧٦ م في يد زعيم من المتبربين اسمه دادواكر ، وبذلك انتهت الدولة الرومانية الغربية بعد أن ظلت روما تحكم العالم خمسة قرون تقريبا .

وكانت المسيحية قد أصبحت في عهد الأباطور تيودسيوس الدين الرسمي للبلاد فلما انهارت الأباطورية في الغرب ورثتها الكنيسة وعلى رأسها أسقف روما أو البابا الذي اضطلع بنصيب كبير من الواجبات الحكومية لاسيما بعد أن اعتنق المتبررون الدين المسيحي فأعطوا قيادهم لرجال الدين معترفين بفضلهم في كل ما وصلوا اليه من مكانة ومدينة .

أما الدولة الرومانية الشرقية فقد انزلت عن غرب أوروبا وصمدت وحدها تكافح القبائل المتبربرة من الشمال والفرس ويليهم العرب ثم الأتراك من الشرق حتى تداعت على يد الأتراك بعد الف سنة من سقوط روما .

وقد حاول الأباطور جوستينيان (٥١٧ - ٥٦٥ م) أحد اباطرة الدولة الرومانية الشرقية أن يعيد إلى الدولة وحدتها وأن يخلص روما وايطاليا وسائر الأملاك الرومانية الواقعة غربي حوض البحر المتوسط من قبضة المتبربرين فلم يوفق . وكان جوستينيان قادرا له ولع عظيم بأشياء كثيرة كالبناء والعمارة والقانون والدين والتجارة والحرب والسياسية وقد باشر هذه النواحي جميعا وتولاها بنفسه فأمر في بذل المال لها فحملت الدولة اعباء مالية جسيمة ثم باء في النهاية بالافلاس

والخسران ، وقد ذهت معالم كل ما زاوله من اعمال عدا فن العبارة والقانون . فقد خلف بعده كنيسة ايا صوفيا وهي آية في الفن البيزنطى البديع ، والف في القانون لجنة جمعت شتات القانون الرومانى ونقحتها وانتجت المجموعة أو المدونة القانونية المعروفة باسمه والتي لا تزال من أقوى أسانيد القانون المدنى .

ذلك كان شأن جوستينيان فى الحياة المدنية ، وأما فى الحرب فقد كان له قائد لامع الذكر اسمه بليساريوس أعاد للجيش الرومانية سابق شهرتها ومجدها ومكن لدولته فى حوض البحر المتوسط فقاد جيشا سنة ٥٣٣ م استرد به اقليم افريقية من قبائل الوندال ثم عبر بجيوشه إلى جزيرة صقلية فاحتلها ونزل بجنوب ايطاليا وهزم قبائل القوط الشرقيين واحتل نابلى وروما ورافنا وعادت ايطاليا مرة أخرى إلى حظيرة الدولة الرومانية الشرقية . ولكن سوء الحالة المالية فى البلاد وتهديد قبائل السلافيين أو الصقالبة للدولة من الشمال وتهديد الفرس لها من الشرق لم يجعل لهذه السيادة قيمة تذكر فسرعان ما اجتاحت قبائل اللبارد ايطاليا وجعل الصقلاب من الشمال والفرس من الشرق يتابعون هجماتهم على الدولة الشرقية حتى وقعت فى محنة شديدة جرت عليها حروبا استمرت مع دولة الفرس نحو مائة سنة وقد استطاع كسرى فى أثنائها أن يضم إلى ملكة سوريا وفلسطين ومصر ثم تمكن الامبراطور هرقل من هزيمة الفرس فى موقعة نينوى سنة ٦٢٧ . واسترد على أثرها الأقاليم التى كانت فقدتها وبينما كان الروم والفرس يعانيان فى كفاحهما منتهى الجهد والاعياء وقد تضععت فى بلادهما أسباب القوة المادية من زراعية وصناعية وتجارية فقل عدد سكانها وتفانت جيوشها المدربة ، إذ وصلت الى كل من العاهلين المتنافسين فى سنة ٦٢٨ م رسالة من شخص غير معروف قد نشأ فى جوف الصحراء ليس له ذكر ولا شأن يدعوها فيها الى الايمان بدين جديد . أما الامبراطور هرقل فأحسن مقابلة الرسول وأكرم وفادته وأما كسرى فغضب ومزق الرسالة ورمى بها ، فزق الله ملكة شر ممزق ورمى به فى التهلكة ، ولم تسكن هذه الرسالة إلا رسالة الاسلام بعث بها الى العاهلين العظيمين محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام .

الفصل الثاني البحر المتوسط

من العصور المتوسطة الى نهاية القرن الثامن عشر

نشأت الدعوة الاسلامية في قلب الصحراء ولكن سواحل البحر الاحمر لم تسكن بعيدة عن ربي مكة والطائف، فلم تسكد الدعوة تجاوز حدود جزيرة العرب وتعرف اليها الشعوب التي كانت تسكن الجانِب الشرقي من حوض البحر المتوسط حتى لقيت بذرة الاسلام أرضاً طيبة صالحة فنمت وأورقت وازدهرت وأنتجت أحسن الثمرات . وعلى رغم قول المؤرخين أن الشعوب الفاتحة تخضع عادة وتندمج في المدنات القديمة التي تتغلب عليها فان العرب وقد فتحوا سوريا وفلسطين ومصر في منتصف القرن السابع واضطروا الدولة الرومانية الشرقية أن تنسحب من هذه الارزاء وتنكمش في آسيا الصغرى والبلقان قد طبعوا أهل تلك البلاد بلسانهم ودينهم وعاداتهم في أقل من قرن وكأئما قد قطعوا كل صلة بالماضى القريب ، فأمسوا ثم أصبحوا مسلمين يتكلمون العربية ويأتمرون بأوامر القرآن الكريم وينهجون سنة النبي ﷺ كأن لم تسكن المسيحية والاغريقية أو اللاتينية سائدة بينهم إلى وقت قريب في تلك الارزاء . وليس من شك في أن من أهم العوامل التي ساعدت على هذا الانقلاب العظيم حسن استعداد الشعوب لاستقبال الدين الجديد الذي أراحهم من الخلافات والاضطهادات الدينية التي أفسدت عليهم الحياة منذ قرون وخلصهم من الضرائب الثقيلة التي كانت تجبها بيزنطة من الشعوب الخاضعة لها على أن هذا الاستعراب الذي شمل شرقي البحر المتوسط لم يتم دون أن يترك أثره في الفاتحين أنفسهم، فالعرب من ناحيتهم قد تأثروا بالثقافة الهيلينية أو البيزنطية

استعصى على العرب فتح مغاليق أوروبا أمام القسطنطينية من الشرق فانهم قد فتحوا طريقهم إلى صميم أوروبا من الجنوب والغرب وأنشأوا لهم في الاندلس دولة دامت قرابة ثمانية قرون

وليس معنى هذا ان البحر المتوسط قد أصبح في عهد العرب بحيرة عربية كما كان بحيرة رومانية في عهد الرومان ، فان الدولة الرومانية الشرقية ظلت مسيطرة على سواحل آسيا الصغرى والمضائق وبحر إيجه وشبه جزيرة البلقان كما ظلت الدولة الرومانية المقدسة التي أنشأها شرلمان تسيطر على شمالي ووسط إيطاليا وجنوبي فرنسا . ولكن الأمر المحقق هو أن فتوح العرب في الشرق والجنوب قد قسمت حوض البحر المتوسط إلى قسمين متميزين لا يزال كل قسم منها حافظا لميزاته إلى الآن ، فقد طبع العرب شرقي البحر وجنوبه بالطابع العربي الاسلامي ودخل القسم الغربي منه في طور تاريخي جديد طبعه بالطابع التيوتوني المسيحي على رغم بقاء العرب مسيطرين على سواحل أندلوسيا وبعض أجزاء من جنوب إيطاليا عدة قرون

وبما لا شك فيه أن الملاحة والمواصلات البحرية قد تأثرت في الفترة التي ساد فيها نظام الأقطاع في أوروبا وازدهرت فيها المدنية الاسلامية في الشرق والجنوب فقد عنى العرب أكثر ما عنىوا بطرق القوافل وتأمينها وبتعبيد الطرق العامة وإقامة الجسور وحفر الترغ . وبذلك نشطت طرق التجارة البرية والنهرية لا في الشرق وحده بل وفي أوروبا أيضا بواسطة نهر الطونة والرين ، وظلت الملاحة البحرية في ركود حتى ظهرت المدن الإيطالية ونزل النور منديون من الشمال يخاطرون بسفنهم في مياه البحر المتوسط الدافئة وقامت أخيراً الحروب الصليبية في أواخر القرن الحادى عشر فعادت الحركة إلى البحر المتوسط وأفادت الملاحة والتجارة كما أفادت المدن الإيطالية من هذه الحروب خيراً كثيراً

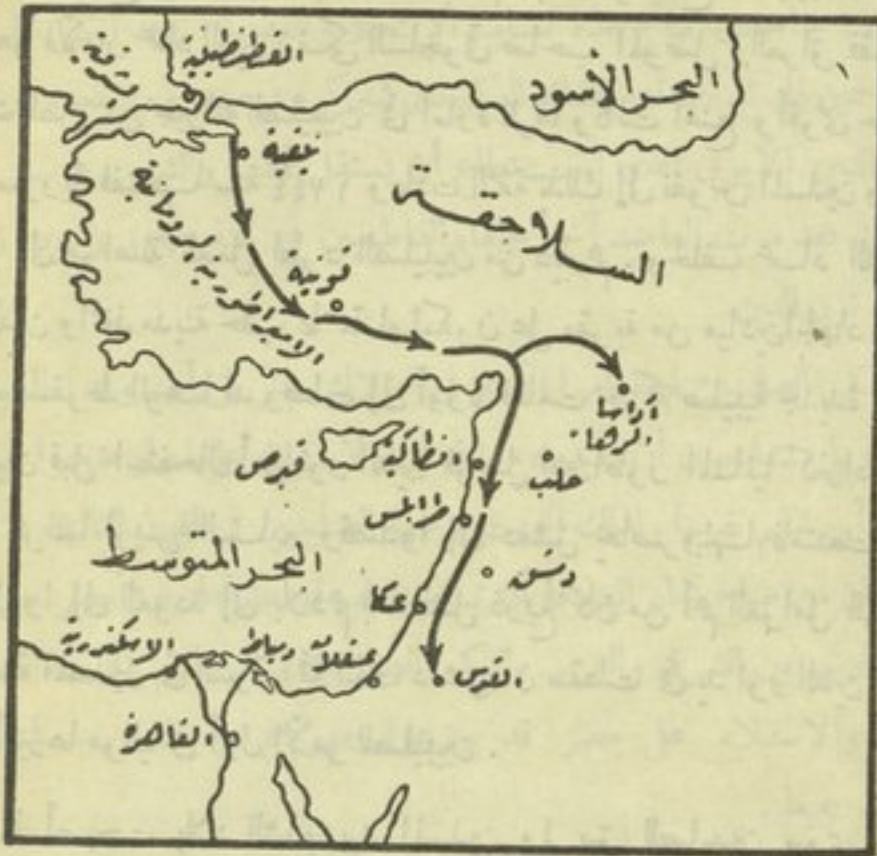
على أن الجموع الغفيرة التي حرقتها الكنييسة وأثارها الرهبان لتخليص أورشليم والبلاد المقدسة من أيدي الأتراك السلاجقة أو من أيدي الفاطميين كان لا بد لها

من اتخاذ إحدى سبيلين إلى الأرض المقدسة إما عن طريق بيزنطة وآسيا الصغرى ثم عبور جبال الطوروس والانحدار جنوباً إلى فلسطين . وأما الذهاب إلى إحدى المدن الإيطالية المستقلة كجنوة أو بيزا أو البندقية وركوب البحر منها إلى سواحل الأرض المقدسة . ولما كانت الطريق البرية الأولى مخوفة باخطار طبيعية وأخرى اجتماعية إذ كانوا يتعرضون فيها لهجوم السلاجقة في آسيا الصغرى واستبداد امبراطور بيزنطة في شئون معاشهم وتموينهم فإن الصليبيين فضلوا ركوب البحر من أحد الموانئ الإيطالية ولم يعمدوا إلى الطريق البري إلا نادراً وخاصة في الحملة الأولى التي اندفعوا فيها بحماسة الهوجاء وجهلهم المطبق بطبيعة البلاد والمسافات فلاقوا من أمرهم عنقا شديداً

فلما انتهى بهم المطاف واستطاعوا دخول بيت المقدس وإنشاء الدويلات الصليبية الأربع على سواحل المشرق وهي طرابلس وآنطاكية والرها وأورشليم تشجع الأوروبيون وأخذت وفودهم إلى البلاد المقدسة تتابع وبذلك بدأ العهد الصليبي الذي يسر لأهل الغرب أن يتصلوا بمدن المشرق ، وكان هذا الاتصال من أهم العوامل التي مهدت لحركة النهضة الحديثة في أوروبا . وكانت السفن الطليانية التي تحمل الصليبيين إلى البلاد المقدسة تتقاضاهم امتيازات تجارية لمواطنيها وتعود إلى أوروبا محملة بنفائس المشرق من أنواع الحرير والأبسطة والورق والتوابل ومصنوعات ومنسوجات مختلفة فتوزعها بأرباح كثيرة داخل أوروبا عن طريق ممر برز في جبال الألب فنهر الرين أو الدانوب . وكان أهم هذه المدن الإيطالية جنوة ثم البندقية وهي التي اتسع سلطانها شرقي البحر المتوسط وأصبحت لها فيه السيادة التجارية البحرية غير منازعة .

ولما نشبت الحرب الصليبية الأولى سنة ١٠٩٧ اتخذت طريقها إلى البلاد المقدسة برا عن طريق الدولة الرومانية الشرقية ولسكن الصليبيين مع ذلك لم يهملوا القوة البحرية فكانت السفن الإيطالية تعاونهم في أثناء زحفهم جنوباً إلى أورشليم وكانت من العوامل التي ساعدتهم على إخضاع آنطاكية بعد حصار دام ثمانية أشهر .

وما كاد الصليبيون يستولون على اورشليم سنة ١٠٩٩ بعد مذابح بشرية مروعة
خاض الصليبيون الدماء فيها إلى الركب حتى استطاعوا تثبيت نفوذهم في ميناء
عكا وصور وأصبح ساحل الشرق كله في قبضة أيديهم . أما في الداخل في دمشق
وحلب والموصل فكان الأمراء المسلمون أو الأتابكة متنازعين يحكمون مقاطعات
صغيرة متفرقة ولذلك سهل على الصليبيين فتح هذه البلاد . ولكن أمد الصليبيين
في الشرق لم يطل أكثر من قرنين على رغم تتابع الحملات الصليبية من أوروبا تارة
برئاسة ملوكها وأحيانا بزعامة نواب من لدن البابا وقيادة جماعة من الاشراف
الذين أولعوا بحب المخاطرة والفروسية .



الحملة الصليبية الأولى

وما كاد الصليبيون ينزلون بأرض الشرق حتى نقلوا إليه فوضى نظام الأقطاع
من أوروبا وزال من بين الصليبيين ما كان قد بدا في أمرهم أولا من روح الوحدة
والترايط فاحتدم بينهم النزاع وتمسكتهم روح الجشع والاثرة وجعلت الحماسة

الدينية تضعف فتسفر عن خبيء نفوسهم فاستباحوا لأنفسهم أن يتحالفوا مع الإمارات الاسلامية ضد منافسيهم من الأمراء الصليبيين ، وبعد أن كان البابا في روما يبنى نفسه بجمع كلمة المسيحيين أمام قبر المسيح عليه السلام فينشر سلطانة الروحي على مسيحيي الشرق والغرب نسي الصليبيون عهودهم للكنيسة وحكموا أورشليم كملوك مستقلين غير عابئين بحق البابا في روما أو الامبراطور في بيزنطة .

وأخيراً ظهر بين المسلمين ما كان يعوزهم قبيل الحرب الصليبية الأولى وهو زعيم قوى يجمع شتات قواتهم ويؤلف منهم جهة قوية تدفع الصليبيين إلى بلادهم ذلك هو الأمير عماد الدين زنكي السلجوقي صاحب الموصل والعراق فقد عمل على التخلص من جيرانه الصليبيين في أمانة الرها وكانت أمنع وأقوى حصونهم شمالي سوريا ففتحها سنة ١١٤٤ وعادت الثقة بذلك إلى نفوس المسلمين وحفزهم النصر إلى مواصلة العمل لطرد الصليبيين من ديارهم . وخلف عماد الدين ابنه نور الدين واتخذ مدينة حلب عاصمة له ليكون على مقربة من ميادين الجهاد . وكانت الأنباء بسقوط الرها قد وصلت إلى أوروبا فقامت حركة صليبية جديدة لانقاذ الصليبيين قبل استفحال أمر نور الدين فوصل امبراطور المانيا كنراد الثالث وملك فرنسا لويس السابع وقصدوا إلى دمشق يحاصرونها فامتنعت عليهم واضطروا إلى العودة إلى بلادهم بعد فشل ذريع كان من أهم العوامل التي أدت إلى نهضة المسلمين في الشرق فما لبثت دمشق أن سقطت في يد نور الدين بعد أن كان أميرها موالياً في أول الأمر للصليبيين .

ولما أصبحت بلاد الشام بيد المسلمين ولم يبق للصليبيين سوى أمارات السواحل وملككة بيت المقدس أيقنوا أنه لا نجاة لهم إلا عن طريق البحر المتوسط وأن السبيل إلى مقاتلة المسلمين من الشمال أى عن طريق الامبراطورية وآسيا الصغرى وسوريا قد أغلق دونهم لتفوق السلاجقة وعلى ذلك قر رأيهم على ضرورة غزو مصر حتى يستطيعوا الاحتفاظ ببيت المقدس . وكذلك وجد

السلطان نور الدين صاحب دمشق أنه لا أمل في قهر الصليبيين إلا إذا ضيق عليهم الخناق من جميع الجهات فلا يكون لهم إلا طريق البحر وهي وحدها لا تكفي لإقامة دولة في المشرق .

وعلى ذلك تسابق الجانبان للظفر بمصر وكانت الأحوال فيها قد تدهورت في آخر أيام الدولة الفاطمية وصار الوزراء فيها يقاتلون بعضهم بعضا ويستعينون في الحصول على مآربهم بالتقرب إلى الغزاة، فبعضهم يؤازر نور الدين وبعضهم مع الصليبيين وبذلك تعرضت البلاد لأقسى نحمة في تاريخها وكان حريق الفسطاط سنة ١١٦٨ م إحدى نتائج هذه السياسة الانتحارية العقيمة . وقد انتهى التسابق بين المهاجمين إلى ثبوت قدم القائد الكردي شيركوه في مصر ومن بعده ابن أخته صلاح الدين الأيوبي الذي استطاع أن يستقل بمصر والشام ويؤسس دولة الأيوبيين بعد موت العاضد آخر خلفاء الفاطميين في سنة ١١٧١ وموت زعيمه السلطان نور الدين .

ولكن الصليبيين لم يقطعوا الأمل في امتلاك مصر بل أنهم وقد اطلعوا على خيراتنا وما يستطيعون أن يفيدوه منها فضلوا الاستيلاء عليها ولو ضحوا في سبيلها بمملكة أورشليم نفسها ، لذلك اتجهت وجهة الصليبيين في القرن الثالث عشر إلى مصر وكان من صالح تجار البنادقة أن تكون لهم قواعد تجارية في مصر حتى يتسع مجال تجارتهم بين الشرق والغرب ولكن الصليبيين في محاولتهم الاحتفاظ ببית المقدس والاستيلاء على مصر قد وزعوا جهودهم وحبطت مساعيهم في الغرضين جميعا .

ولما صار الأمر كله لصلاح الدين في كل من الشام وحلب والموصل صار الصليبيون محصورين بقواته من الشمال والجنوب والشرق ولم تبق أمامهم إلا طريق البحر ثم نشب النزاع بين الفريقين فانتصر صلاح الدين في موقعة حطين ١١٨٧ انتصاراً حاسماً سقطت على أثره أهم حصون الصليبيين في عكا وناבלس والرملة ويافا وأخيراً سقطت أورشليم ولم يبق للصليبيين سوى ميناء صور . وهنا يظهر

الفرق واضحا بين تسامح العرب ومبلغ حضارتهم وما كان عليه الصليبيون من جهل حتى بالمبادئ الانسانية الأولى، فقد كان دخول الصليبيين بيت المقدس مقرونا بطوفان من الدماء البشرية على حين أظهر صلاح الدين بعد دخوله بيت المقدس من التسامح والرحمة ما سجله له تاريخ العصور الوسطى وأساطيره بالفخر فقد ترك للصليبيين فرصة أربعين يوماً يجلون فيها عن البلاد وقد سمح بفك أسر ملكهم مكتفياً بأخذ الموائيق عليه بالألواح المسليين . والسكن يجب أن نذكر أنه كان قد مضى على الحرب الصليبية الأولى نحو قرنين من الزمان وأن المسلمين والصليبيين معاً كانوا قد تخلقوا بصفات الكرم والفروسية وذهبت عنهم خشونة العداة الماضي وحادثة التعصب الديني الذي ساق شعوب أوروبا إلى تلك الحروب .

ولما ذاع خبر انهزام الصليبيين في حطين وفتح المسلمين بيت المقدس تحركت أوروبا لحرب صليبية ثالثة كان قوامها هذه المرة ملوك الدول الناشئة الذين تغلبوا تدريجاً على نظم الاقطاع التي كانت سائدة في الماضي وكونوا من شعوبهم قوميات مستقلة . فقام فيليب اغسطوس ملك فرنسا سنة ١١٩٠ ومعه رتشارد «قلب الأسد» ملك انجلترا وأجرا من ميناء مرسيلىا قاصدين بلاد الشرق . وقام فردريك بارباروس امبراطور المانيا بطريق البر ولقى في طريقه صعاباً كثيرة تغلب عليها ولكنه غرق في أحد أنهار آسيا الصغرى ولم تقو حملته على مواصلة السير من بعده فعادت أداراجها إلا نفراً قليلاً منها . ولما وصل الفرنسيون إلى ساحل المشرق حاصروا عكا واحتل رتشارد جزيرة قبرص وهو في طريقه إلى الشرق وجاء صلاح الدين فضيق الخناق على الصليبيين من البر في عكا ولكنه لم يستطع حمايتها من البحر ، إذ كانت السفن الايطالية متفوقة وكان البحر مفتوحاً أمام الصليبيين فظلت عكا تمتنع على صلاح الدين ولم تلبث أن سقطت في يد الصليبيين . ودب النزاع بين الصليبيين فعاد فيليب أوغسطوس إلى أوروبا وبقى رتشارد وجهاً لوجه أمام قوات صلاح الدين وقامت بين الفريقين معركة انتصر فيها رتشارد ثم

اتفق الفريقان على ابرام صلح الرملة ١١٩٢ وبمقتضاه ترك بيت المقدس بيد المسلمين على أن يسمح للمسيحيين بالزيارة والحج ويكون للصليبيين في مقابل ذلك ساحل الشام من صور إلى يافا ويرد المسلمون للصليبيين المخلفات التي وقعت في أيديهم . وما لبث ان اختفى البطلان الشهير ان رتشارد وصلاح الدين من الميدان أما أولها فعاد إلى أوربا حيث وقع أسيراً في يد النمسا وهو في طريقه إلى بلاده وأما صلاح الدين فأدركه أجله في السنة التالية سنة ١١٩٣ وكأتما أحس قبل موته بخطر هجوم الفرنجة على مصر فحصر سواحل مصر الشمالية وأنشأ أسطولا بحرياً كان له شأنه في الكفاح الذي قام من بعد بين خلفاء صلاح الدين والصليبيين وقد عرفوا بالفرنجة لأن الكثرة الغالبة منهم كان موطنهم فرنسا .

وليس أدل على تحول أغراض الحروب الصليبية الى اتجاهات أقلية فردية بحثة من مصير الحرب الصليبية الرابعة وقد قصد الصليبيون ومعظمهم من فرنسا إلى البندقية ليساوموا دوقها على أن ينقلهم إلى سواحل مصر على سفن البندقية وله في مقابل ذلك مال معين ونصف الأراضي التي يفتحونها ، ولكنهم حين عجزوا عن تقديم المال المتفق عليه أشار عليهم أن يؤدوا للبندقية خدمات بدل المال الذين عجزوا عن سداده . وفعلا قامت الحملة سنة ١٢٠٢ وقصدت إلى ميناء زارا التابع للبحر فاحتلوه للبنداقية . ولم يكتف البنداقية بهذا الكسب فوجهوهم نحو القسطنطينية نفسها وكان بها خلاف شديد على العرش فاجلسوا على العرش المرشح الذي كانت تناصره البندقية ، ولما لم يكافئهم الامبراطور الجديد على ما بذلوا من جهد لتوليته هاجموا العاصمة ووضعوا احدا للدولة البيزنطية الاغريقية سنة ١٢٠٤ . وخيل للبابا في روما أن الخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية قد زال وأصبحت الكنيسة الكاثوليكية كاسمها عالمية واحدة ، ولكن هذا الحلم لم يتحقق إلا لسنوات قليلة ظهر على أثرها ميخائيل باليلوجو فأعاد للامبراطورية صفتها الاغريقية ثانيا سنة ١٢٦١ وبقيت الدولة الشرقية تعاني ما تعاني بسبب الخلافات

الدينية وتقدم الأتراك السلاجقة أولا ثم ظهور الأتراك العثمانيين بعدهم حتى سقطت
القسطنطينية سنة ١٤٥٣ .

ويتضح من الاحداث التي صحبت الحملة الصليبية الرابعة مقدار تضاؤل الحافز
الديني في تجهيز هذه الحملات وتغلب العوامل السياسية والاقتصادية . وكانت البندقية
أول من أفاد من هذه الحملات فقد كانت تعمل على احتكار القواعد والأسواق التجارية
في شرقي البحر الأبيض المتوسط جميعه . ولما كانت مصر هي الطريق الطبيعي
للوصل إلى سواحل البحر الأحمر ثم إلى بلاد الهند والشرق الأقصى كان من الأهمية
بمكان أن توجه الحملات الصليبية في القرن الثالث عشر للاستيلاء على مصر
لا لتخليص بيت المقدس والتبرك بقبر المسيح عليه السلام كما كانت الدعوى في بدأ
الحروب الصليبية .

وعلى ذلك بدأت الحملات البحرية الصليبية ضد مصر وكانت أهدافها جميعا
إخضاع ميناء دمياط لتشق سفنهم فرع دمياط إلى قلب البلاد بمصاحبة القوات
البرية . وقد باءت هذه الحملات بالفشل لأن محاولة اختراق الدلتا وهي مليئة بفروع
النيل وقنواته وخاصة في فصل الفيضان لم تكن خطة مأمونة العواقب ، فكان
المصريون يتخذون من الجسور متاريس ومن الترع خنادق ليعوقوا سير الحملات
المعادية ولم تسبق في التاريخ أن هوجمت مصر عن طريق وسط الدلتا إلا في هذه
الحملات وكان الطريق الطبيعي الذي اتخذته الفرس والاسكندر والعرب لمهاجمة مصر
من الحدود الشمالية الشرقية .

وكانت أولى هذه الحملات في سنة ١٢١٨ حين كان الملك العادل سيف الدين
أخو صلاح الدين يحكم مصر وسوريا معا وكانت الأراضى المقدسة في أمن وسلام
دائمين ولم يحدث قط أن شكوا المسيحيون من ظلم أو عنت كما كان في عهد السلاجقة
ولسكن البابوية في عهد البابا انسنت الثالث كانت تتحرق حمية وشوقا إلى المملكة
اللاتينية في أورشليم وتريد بأى ثمن أن تستردها . فجمع البابا في روما مجلسا كنسيا مثلت فيه جميع المدن الغربية وقرر إرسال

حملة صليبية في تلك السنة وحصر جميع الموانئ في الشرق ووقف التجارة معها . وبدأت الحرب بحصار دمياط بزعامة جان دي برين المطالب بعرش أورشليم . وكان ينازعه في القيادة نائب البابا بلاجيوس . وقد سقطت دمياط في يد الصليبيين سنة ١٢١٩ وكان السلطان الكامل قد خلف أباه السلطان العادل على العرش وبقى الصليبيون نحو سنة في دمياط في انتظار باقي الصليبيين ثم اخترقوا الدلتا ووقفوا أمام القلعة الجديدة التي بناها السلطان الكامل وسمها المنصورة . وعند ذلك بدأت مفاوضات الصلح التي عرضها السلطان الأيوبي على أساس مغادرة الصليبيين لمصر مقابل النزول لهم عن جزء من مملكة أورشليم وإعادة الصليب الذي كان صلاح الدين قد استولى عليه . فقبل هذه الشروط الملك جان ورفضها نائب البابا فاستعد المصريون لاستئناف الحرب واضطر الفرنجة إلى التقهقر وقبول معاهدة الصلح سنة ١٢٢١ لمدة ثمانية أعوام دون أن يسترعدوا أورشليم . وبذلك انتهت الحملة الصليبية الخامسة دون أن يحقق الصليبيون غرضاً ، وظفروا من الغنيمة بالآياب .

ثم جاءت حملة بحرية أخرى بعد سبع سنوات . وليس من الحق أن نسميها حرباً صليبية لأن زعيمها الامبراطور فردريك الثاني كان محروماً من الكنيسة وكان رجال الدين ممنوعين من الاتصال به أو معاملته على أي صفة . ومع ذلك فقد استطاع فردريك أن يكسب للمسيحية مزايا ويحقق لها أهدافاً عجزت عن بلوغها الحملات الصليبية التي كان يراها البابا وتباركها الكنيسة . ومن عجب أن تقوم هذه الحملة مغضوبة عليها من الكنيسة والبابا وأن تظفر بتحقيق أمانى المسيحيين دون أن تشتبك مع المسلمين في موقعة . وتفصيل ذلك أن الامبراطور كان متزوجاً ابنة جان دي برين فأصبح بعد موت حميه صاحب الحق الشرعي في تاج أورشليم وقام بحملته من برنديزي سنة ١٢٢٧ وهناك أصابته الحمى فظن البابا أنه يتمارض ويهرب من عهده وميثاقه الصليبي فأصدر ضده قرار الحرمان في تلك السنة . ولكن فردريك لم يعبأ بالقرار البابوي وأبحر سنة ١٢٢٨ ومعه بضع مئات من الفرسان وبدأ مفاوضات مع الملك الكامل رأساً وخشى السلطان أن يعيد التاريخ نفسه فتسقط

دمياط وشمالي الدلتا في يد الصليبيين مرة ثانية ولذلك عجل بالاتفاق مع فردريك سنة ١٢٢٩ وكانت أهم شروط الاتفاق أن يأخذ فردريك بيت المقدس بشرط أن يحتفظ المسلمون بالاماكن الإسلامية المقدسة ويتعهد فردريك مقابل ذلك بمساعدة الملك الكامل ضد أعدائه سواء أكانوا مسلمين أم مسيحيين وبعدم ارسال نجدات صليبية أخرى لمساعدة الصليبيين الذين كانوا يقيمون على الساحل في الشام. وعلى ذلك دخل فردريك أورشليم وتوج نفسه بيده ملكا عليها وبقى بها نحو شهر ثم عاد إلى بلاده يدفع عنها هجوم البابا ويضطره من بعد إلى اصدار قرار الغفران عنه وبقيت أورشليم ١٥ سنة في أيدي المسيحيين ثم استردها القائد بيرس السلطان المملوكي سنة ١٢٤٤ ولم تدخل الأراضى المقدسة بعدها تحت حكم المسيحيين .

وقد أدى ضياع أورشليم مرة ثانية من أيدي الصليبيين إلى قيام حملة جديدة سنة ١٢٤٨ بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا الذي حمل الصليب وارتدى مسوح القديسين فسموه «سان لوى» وكانت هذه الحملة بحرية كسابقاتها ووجهتها دمياط كذلك وكانت الدولة الايوبية قد اتتبتها الاسقام في أواخر أيامها فسقطت دمياط دون مقاومة . ثم سارت الحملة قاصدة القاهرة فلما بلغت المنصورة توقفت كما فعلت حملة جان دي برين . وبنى الصليبيون أمام المنصورة عند البحر الصغير قنطرة استحكامات يحتمون بها . وفي هذه الأثناء مات الملك صالح ايوب فانفقت زوجته شجرة الدر مع الأمرام المحاربين على مواصلة الحرب ضد الصليبيين وألا يذاع بين الناس خبر وفاة السلطان واضطلعت شجرة الدر بمهام الأعمال حتى جاء توران شاه ابن السلطان الصالح بعد نحو ثلاثة شهور . وما كاد يتسلم زمام الأمور حتى نظم قوات الدفاع ونقل اجزاء السفن على ظهور الجمال إلى نقطة في شمالي دمياط حيث ركبت أجزاء السفن وانزلت إلى البحر وهاجمت الصليبيين وقطعت عنهم المدد وحاول لويس أن يهاجم المسلمين فلم يفلح واضطر إلى العودة بمعسكره إلى دمياط فتعقبهم المصريون حتى ادركوهم عند فارسكور فنشبت بينهما معركة حاسمة فقد فيها الصليبيون نحو ثلاثين الفا وأسرو فيها لويس وعدد من الاشراف الفرنسيين الذين كانوا يصحبونه ولم يفك أسره

إلا بعد تسليم دمياط و دفع فدية عظيمة من المال فغادر البلاد سنة ١٢٥٠ إلى عكا
وظل بها أربع سنوات في انتظار امدادات من أوروبا يستعين بها على تحقيق أمانيه
في استرداد أورشليم فلما لم يستمع لندائه أحد عاد إلى فرنسا واستمر الصليبيون
بعدد على ساحل الشام أربعين سنة أخرى. ولم يكن بقاؤهم تلك المدة عن استقرار
أو متعة ولسكن الظروف كانت تخدمهم فان الرابطة التي كانت تجمع بين مصر
وسوريا في عهد صلاح الدين وخلفائه قد انفصمت عراها بانتهاام دولة الايوبيين
في مصر وظهور سلاطين المالك ثم بزحف جموع المغول من أواسط آسيا بقيادة
هولاكو مكنسحين أمامهم كل شيء فسقطت بغداد في أيديهم المخربة سنة ١٢٥٨
وقتل المستعصم آخر خلفاء العباسيين، ومن بغداد زحفوا إلى الغرب يريدون التهام
سوريا ومصر. ولم يكن المغول يومئذ قد اسلموا وكان بينهم كثير من المسيحيين
فأمل الصليبيون في الشرق والغرب أن يتحالفوا مع المغول ضد المسلمين ويحملوهم
على اعتناق النصرانية وبذلك لا يقتصر نجاحهم على استرداد بيت المقدس بل
يكسبون الوسيلة لنشر المسيحية في ارجاء آسيا وسطها وغربها، ولسكن هذه
الاماني لم تتحقق وهاجم جيش هولاكو بلاد الشام واستولى على دمشق في سنة ١٢٦٠
ثم اتجه المغول جنوبا يقصدون مصر فانبرى لهم قطز سلطان المالك ومعه بيبرس
اكبر قواده وأقوى شخصية بين المالك ودارت بين الفريقين معركة حاسمة في
عين جالوت سنة ١٢٦٠ فانهمز المغول وقتل قائدهم ونجت مصر من غارات التتر.
وكانت نتيجة هذا النصر ان اتحدت قوات مصر والشام مرة ثانية كما كانت في عهد
صلاح الدين وأخذ بيبرس الذي ولي السلطنة بعد قطز يقوى جوشه وبحرته
وحصونه حتى استطاع أن يستولى على النقطة الصليبية على ساحل الشام واحدة بعد
أخرى فسقطت قيصرية وارسوف ١٢٦٥ ثم انطاكية سنة ١٢٦٨
وقامت على أثر ذلك حركة صليبية اخيرة في أوروبا بزعامة سان لوى ملك فرنسا
أيضاً ومعه اخوه شارل دوق انجو وملك صقايه وادوارد ملك انجلترا ولم يعاود
سان لوى خطته القديمة في غزو مصر بعد الدرر القاسمى الذى تلقاه عند المنصورة

في حملته الأولى فقرر أن ينزل هذه المرة بأرض تونس ويزحف منها شرقا ولكن
المنية عاجلته سنة ١٢٧٠ وعلى شفثيه اسم أورشليم يردده مع أنفاسه الأخيرة .
وحاول الصليبيون بعده تقوية مركزهم في عكا ولسكن الحمية الصليبية كانت قد آذنت
بالغروب فاستولى السلطان قلاوون على امارة طرابلس الصليبية ١٢٨٩ ثم لم تمض
سنتان حتى سقطت عكا آخر بلاد للصليبيين في يد السلطان خليل بن قلاوون .
وبضياع عكا زالت دولة الصليبيين اللاتينية من الأراضى المقدسة ولم يبق لهم في تلك
الاصقاع إلا بقايا ورسوم من حصونهم وقلاعهم التي بنوها شاهدة على جشع
النفوس البشرية وغرورها .

ومن عجب أن تبدأ الحروب الصليبية ووجهتها تثبتت نفوذ الكنيسة ونشر
المسيحية في الشرق ولا تسكون نهايتها بعد قرنين إلا وقد تأيد سلطان المسلمين في
الشرق وباتوا يهددون الدولة الرومانية الشرقية بل ويهددون المسيحيين في عقر
دارهم في غرب أوروبا . وكان ظهور الاتراك العثمانيين على هضاب الاناضول أول
نذير بالخطر الذي كان يترصد باوربا

والاتراك العثمانيون كأسلافهم الاتراك السلاجقة ينتسبون إلى الجنس التوراني،
وكان مهدم الأول وسط آسيا وشمالها وقد اعتنقوا الإسلام كسائر القبائل التركمانية
واستوطنوا آسيا الصغرى . وكان زعيمهم الأول ارطغرل قد آزر سلاجقة قونية
في حربهم ضد المغول فأقطعوه امارة صغيرة قرب انقره ثم مات ارطغرل سنة ١٢٨٨
تخلّفه ابنه عثمان وإليه ينتسب الاتراك وهو الذي أسس للاتراك العثمانيين دولة
مستقلة بعد موت السلطان السلجوقي وجعل يمد في نفوذها شمالا وغربا حتى ضم بروسه
سنة ١٢٢٦ وكانت تحت حكم الأغرقيق ووصل إلى سواحل بحر مرمره . وتوطدت
أركان الدولة الفتية في عهد أورخان إذ تحالف مع امبراطور القسطنطينية ضد
اعدائه من شعوب البلقان والعرب واليونان في الجنوب وجميعهم كانوا في نزاع
مستمر مع امبراطور القسطنطينية ، وعبر الاتراك لأول مرة مضيق الهلسبنت
في منتصف القرن الرابع عشر واتخذ لجيشه قواعد حربية في شبه جزيرة غاليبولى .

ومنها هاجم السلطان مراد الذى خلف اياه اورخان اراضى الدولة الشرقية حتى استولى على ادرنه العاصمة الثانية للدولة واتخذها عاصمة للاتراك سنة ١٣٦٧ ثم لم يلبث المسيحيون فى البلقان أن اتحدوا ضد الخطر التركى فجمعوا لحرهم جيشاً يبلغ عدده ١٠٠.٠٠٠ جنسى ودارت معركة قوصوه سنة ١٣٨٩ وفيها انهزم البلقانيون وتمهد الطريق لفتح البلقان . وكانت العلاقات بين اباطرة القسطنطينية وسلاطين الاتراك من الود والانسجام فى فترات طويلة بحيث كان الاباطرة يزوجون بناتهم لامراء العثمانيين أو للسلطان نفسه ويرسلون أبناءهم للخدمة فى الجيش التركى الذى أصبح نموذجاً للنظام والمهارة . ثم انقضى المغول بقيادة تيمورلنك على الاتراك فى موقعة انقره ١٤٠٢ فانهزم الاتراك واخذ السلطان بايزيد العثمانى أسيراً ثم مات بعد أن تشتت ملكه . ولكن المغول لم يعبروا الاناضول إلى أوروبا بل عادوا أدراجهم إلى سمرقند ثم لم تلبث دولتهم أن تجزأت على أثر موت تيمور فى ١٤٠٥ فاستطاع السلطان محمد الأول أن يجمع شتات الدولة وكانت أولى حسناته بعد أحياء الدولة التركية أن أنشأ نواة الاسطول التركى وقوامه بحارة من ملاحى الأغبريق فى بحر ايجيه . وكان السلاطين منذ فتح البلقان يفرضون على شعوب المسيحية التى خضعت لهم أن يقدموا عدداً من الاطفال سنوياً لينشئوهم منذ صغرهم على حب الدين الإسلامى والوطنية العثمانية فلا يعرفون لهم ابا غير السلطان ولا أما سوى تركيا ولا ديناً سوى الجهاد فى سبيل الإسلام ومن هؤلاء الشبان نشأت طائفة الانكشارية المشهورة فى الجيش وطائفة الملاحين فى الأسطول الناشئ . فلها حانت الفرصة لمحمد الثانى الذى اعتلى العرش سنة ١٤٥١ لم يتردد فى محاصرة القسطنطينية برا وبحراً وكانت الحكومة البيزنطية قد فقدت كل نفوذ خارج أسوار القسطنطينية وحاولت الشعوب المسيحية فى البلقان بقيادة البطل المجرى هنياد انقاذ البلاد من الاتراك أكثر من مرة فكانت الهزيمة تلحقهم اينما ساروا وكانت آخر هزيمة لهم أمام ورنه على البحر الأسود سنة ١٤٤٥ . لذلك كان اخضاع القسطنطينية القائمة على امنع نقطة استراتيجية فى البحر المتوسط أمراً مرتقبا تنوقه أوروبا فى أى وقت

ولما سنحت الفرصة للسلطان محمد الثاني للحرب الحاسمة التي أوشك أن يحقق فيها أحلام سلاطين آل عثمان سير جيشاً لا يقل عدده عن ١٥٠ ألف مقاتل ومعه ٨٠ سفينة في وقت لم يكن يملك فيه الامبراطور قسطنطين باليولوغس آخر بابطة القسطنطينية سوى بضعة آلاف من الجنود، ورضن عليه الغرب بالمساعدة فلم يتقدم لتجديته سوى مدد قليل من سفن مدينة جنوه ورجالها. ولما رأى السلطان أن دخول الميناء متعذر لوجود سلاسل ضخمة تحول دون اختراق مدخل الميناء اقام مجازاً من الخشب انزلت عليه السفن فوق السلاسل تحت جناح الظلام لمحاصرة المدينة العظيمة واستمر هذا الحصار خمسين يوماً استبدل فيها الجانبان وقتل فيها قسطنطين وهو يدافع بنفسه مع جنوده فوق أسوار المدينة ثم هجم الأتراك هجوماً الأخير في ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ فتسلقوا الأسوار ودخلوا المدينة فاتحين وحولوا كنيسة القديسة صوفيا إلى مسجد جامع للمسلمين وأصبحت مدينة قسطنطين من ذلك اليوم عاصمة للدولة التركية الإسلامية فاطلق عليها اسم اسطنبول، وبسقوط القسطنطينية في أيدي العثمانيين أخذ شرقي البحر المتوسط لونه الإسلامي الغالب إلى الآن .

وقد أدرك العثمانيون بعد تثبيت أقدامهم في المضائق ما للقوة البحرية من الأهمية لا سيما أن جمهورية البندقية كانت واقفة لهم بالمرصاد في شرقي البحر المتوسط فوجهوا همهم للعناية بالأسطول واستولوا على جزر بحر ايجه واحدة تلو أخرى وخاصة ما كان منها قريباً من مدخل المضائق ، وما زالت تركيا تناوى البنادقة حتى اضطرتهم في نهاية القرن الخامس عشر إلى دفع الجزية لتركيا وقد قوى مركز الأتراك في البحر المتوسط أثر فتح مصر وسوريا في عهد السلطان سليم الأول سنة ١٥١٧ وفتح رودس وسواحل افريقية الشمالية في عهد السلطان سليمان القانوني وبذلك أصبحت سيادة تركيا البحرية غير مقصورة على شرقي البحر المتوسط بل تجاوزته إلى الغرب أيضاً .

وبينما كان السلطان سليم القانوني يوطد أركان الدولة التركية برأ وبحراً طالع الناس انباء انقلاب بحري عظيم شغل حكومات الغرب فصرها شيئاً فشيئاً عن البحر

المتوسط وفتح امامها عالماً جديداً مليئاً بالثروات التي كانت تتضاءل امامها تجارة الشرق وموارده فقد استطاع كرسطوف كولمبس أن يكشف عن قارة امريكا الجديدة سنة ١٤٩٢ كما استطاع فاسكو دى جاما أن يسيح إلى الشرق حول رأس الرجاء الصالح ١٤٩٨ وبذلك انتقل نشاط الحكومات والشعوب الغربية إلى المحيط الاطلنطي وتحول مركز الثقل في العالم إلى ناحية الغرب ولم يعد البحر المتوسط كما كان مركزاً للعالم المتمدين ومصدراً للنشاط التجاري .

وعبثاً حاولت مصر في آخر أيام سلاطين المماليك الشرا كسة أن تسترد تفوقها التجاري والبحري في البحر الأحمر وشرقي البحر الأبيض المتوسط . فقد اخضع البرتغاليون سواحل الدكن في الهند وجزيرة هر مز عند مدخل خليج العجم وهاجموا عدن وصنعاء ومصوع واخذت سفنهم تجوب مياه البحر الأحمر وخليج العجم وتسطو على سفن المصريين والغريين والبنادقة وتستولى عليها .

ووصلت أنباء هذه القرصنة إلى مسامع السلطان الغورى . فشكا أولاً إلى بابا روما طالباً وقف البرتغاليين وعدم تعرضهم للتجارة المصرية من الشرق والبحر المتوسط وهدده بمهاجمة الأماكن المقدسة ، وكانت فلسطين مع سوريا وجزء من الاناضول تحت حكم المصريين . ولما لم تفد الشكوى جهز الغورى حملة بحرية قامت من السويس واشترك معه البنادقة لمعاوية البرتغاليين فانتصر المصريون أولاً ووقع القائد البرتغالى اسيراً ولسكن البرتغاليين عادوا فانتصروا في موقعة ديو سنة ١٥٠٩ وهي جزيرة صغيرة قرب ساحل الهند الغربى . وعلى أثر ذلك تحولت التجارة من موانئ عدن وجده وسواكن والسويس إلى طريق رأس الرجاء الصالح وانقطع طريق التجارة بين مصر والهند فكان لذلك أثر عظيم في سوء حالة البلاد الاقتصادية والسياسية لافى مصر وحدها ، وقد أصبحت أباله عثمانية منذ ١٥١٧ بل في جمهوريات ايطاليا أيضاً التي كانت تعتمد على تجارتها وأسواقها في الشرق . ولما ضعف شأن الملاحة في البحر المتوسط وتساقطت الدول الغربية نحو الأرض البكر الجديدة فى امريكا وفى الهند عن طريق الاقيانوس خلا الجو فى البحر

المتوسط لفئات من المرتزة والقراصنة الذين اغتتموا تلك الفرصة وأسسوا لانفسهم والحكموماتهم مجرداً اقاموه على الاتوات والعطايا التي كانوا يفرضونها على السفن التجارية التي كانت تخاطر بالملاحة في تلك الأرجاء . وكان من أثر ذلك تدهور شأن المدن الايطالية وزوال سلطانها التجارى والسياسى وقد شمل هذا التدهور حرض البحر المتوسط كله شرقية وغربية . وقد نشط الاتراك في عهد السلاطان سليمان وأقاموا لانفسهم دولة بحرية من الدرجة الأولى بفضل جهود القواد البحريين الذين اشتهروا بالمهارة والبطولة الدينية التي كانت تدفعهم أحياناً للقرصنة . وألع هؤلاء القواد ذكرأ هو خير الدين بربروس الذى أخضع الجزائر وبلاد تونس للدولة ، وطورغوت الذى اخضع طرابلس وجعلها ولاية عثمانية . وثمة قواد آخرون ساحوا في البحر الأحمر وأخضعوا اليمن وعدن وأعدوا الخرائط والرسوم للملاحة في البحر المتوسط وبحر ايجه والبحر الأحمر .

غير أن هذا التفوق لم يلبث أن تصدع بعد وفاة سليمان القانونى أمام اتحاد البندقية واسبانيا والبابوية فقد كون الجميع حلفاً مقدساً ضد تركيا في سنة ١٥٧١ برياسة أمير نمسوى ونشبت بين الطائفتين معركة بحرية حاسمة في ليبانتو Lepanto غربى شبه جزيرة المورة وفيها انهزم الاتراك وبدأ يغشاهم الضعف والركود الذى نشر رواقه على البحر المتوسط .

ثم جاءت فترة اصلاح نهضت فيها تركيا ثانيا على أبدى وزراء قديرين من أسرة كبريلى فاستردوا سيادتهم البحرية في شرقى البحر المتوسط واستطاعوا أن يستولوا على قبرص وكريت وشبه جزيرة المورة من البنادقة في أوائل القرن الثامن عشر . ولسكن هذه الفترة لم تطل أيضاً فسرعان ما ظهرت روسيا الجديدة وقد وضع لها بطرس الأكبر برنامجها السياسى البحرى فامتد سلطانها غرباً على حساب السويد وبولنده على سواحل البحر البلطى وجاءت بعده كترينه الثانية فحققت لروسيا الجزء الثانى من برنامج بطرس وهو الزحف جنوباً نحو البحر المتوسط بالاستيلاء على سواحل البحر الأسود والمضائق من تركيا . ومنذ ذلك اليوم قام السكفاح المير

بين تركيا وروسيا وتتابعت الحروب بينهما فتارة تنتهي بانتصار تركيا وتارة
بانهزامها ، وتقلص سلطان تركيا شيئا فشيئا عن شبه جزيرة القرم ثم عن سواحل
البحر الأسود . وكانت معاهدة كجوق فيناردجي سنة ١٧٧٤ أول دليل على
ما وصلت اليه تركيا من الضعف والخذلان أمام روسيا فبمقتضاها تمتعت روسيا
بحرية الملاحة التجارية في البحر الأسود والمضائق وأخذت روسيا تطالب بحماية
الشعوب الارثوذكسية التابعة للسلطان .

وبدخول روسيا ميدان السياسة العالمية واختراق سفنها التجارية للبحر الأسود
والمضائق إلى البحر المتوسط ظهر في حوض البحر المتوسط عامل جديد خطير
لم يلبث أن اعاد للبحر المتوسط أهميته وخطورته . ذلك أن التنافس الاستعماري
بين الدول الغربية الذي نشأ على أثر الاستكشافات البحرية الجديدة كل
قد استحال إلى كمناح ادى إلى حروب متتابة بين انجلترا وفرنسا حتى أوائل
القرن العشرين وكان البحر المتوسط من أهم مناطق التنافس بين الدولتين أولا
ثم بينهما من جهة وبين روسيا من جهة أخرى وبذلك عادت العواصف السياسية
تهب على حوض البحر المتوسط ابتداء من القرن التاسع عشر وذهب عنه الركود
الذي خيم عليه نحو قرنين من الزمان .

الفصل الثالث

البحر المتوسط في العصور الحديثة

كانت الثورة الفرنسية وحروب نابليون هي التي وجهت أنظار بريطانيا وسائر الدول الأوروبية إلى أهمية البحر المتوسط المتجددة وكانت هذه الدول قبل ذلك لا تكاد تلتقي إليه بالا . ولقد بلغ من قلة اكتراث الدول بشأن البحر المتوسط قبل الثورة الفرنسية ان نابليون حين قام بحملته الشهيرة قاصداً إلى مصر في صيف عام ١٧٩٨ استطاع أن يفلت من رقابة الأساطيل الانجليزية وهي إذ ذاك سيدة البحار ومعه سفن ونقالات تحمل أكثر من ثلاثين الف نفس بمهماتهم ومدافعهم ومختلف حاجاتهم وتم له ذلك على رغم ما ارصدته الحكومة الانجليزية من السفن الحربية لاستطلاع حركات الأسطول الفرنسي فلم يدرك الانجليز قصد نابليون بونابرت ولم يفتنوا إلى أن هدفه مصر واحتلال مالطه في طريقه إلا بعد فوات الوقت ونزول القوات الفرنسية بمصر ومالطه جميعا .

عند ذلك تنهت انجلترا إلى الخطر الذي تتعرض له مصالحها وممتلكاتها في الشرق إذا ربض عدوها في تلك المنطقة الحيوية التي اعتبرتها منذ ذلك الوقت شريان الامبراطورية الذي يصل بين الأمم ومستعمراتها في الهند فاخذت تعمل كل ما في وسعها لاجباط مسعى الفرنسيين لتثبيت نفوذهم في البلاد بالقوة أو بالسياسة . ومن أجل ذلك نشبت معركة أبوقير البحرية أو النيل سنة ١٧٩٨ وفيها دمر نلسون أمير البحر الانجليزي أسطول بونابرت وقضى على الحملة الفرنسية منذ ذلك الوقت بالخذلان . ولما طال بقاء الفرنسيين بمصر عقب الموقعة وعجزت تركيا بمفردها عن طرد الفرنسيين اتفقت انجلترا وتركيا على مهاجمة مصر بقصد تحريرها من الفرنسيين فقامت في سنة ١٨٠١ حملة انجليزية قاصدة مهاجمة مصر من الغرب وأرسلت تركيا قوتين احدهما برية تهاجم مصر من جهة حدودها الشرقية

والأخرى بحرية لتعاون الانجليز وأرسلت الهند قوة رابعة الى مصر عن طريق القصير . وفي أوائل مارس سنة ١٨٠١ وصلت الحملة الانجليزية الى أبي قير فانهمز الفرنسيون وحاصر البريطانيون الاسكندرية وسارت الحملة قاصدة القاهرة وعندئذ طلب الفرنسيون الصلح واتفقوا على أن يغادروا البلاد بعدددهم وأسلحتهم على سفن انجليزية وانتهت الحملة الفرنسية على مصر بعد ثلاثة سنوات وثلاثة أشهر

ومع أن الحملة لم تسكن لها نتيجة حربية تذكر فإن نتائجها السياسية والأدبية بالقياس إلى مصر وبلاد المشرق كانت ذات شأن عظيم . ويكفي أن يقال أن المسألة المصرية قد بدأت منذ اليوم الذي نزل فيه نابليون أرض مصر ، وان خروج الفرنسيين منها بعد ذلك لم يكن أكثر من اسدال الستار على الفصل الاول من الغشيلية التي قدر لها فيما بعد أن تكون في المكان الاول على مسرح السياسة الدولية بحوض البحر المتوسط .

أما الفصل الثاني فقد أزيح الستار عنه في سنة ١٨٠٧ وكان المنظر الأول منه يمثل الأسطول الانجليزي مخترقا المضائق ليرغم تركيا على ترك مخالفة نابليون والاشترك مع بريطانيا وروسيا في مهاضنه . وكان نابليون قد أرسل الى القسطنطينية سفيراً معروفاً بنشاطه وهمته اسمه الجنرال Sébastiani فما زال ذلك السفير الفرنسي يحض حكومة الباب العالي على مصادقة فرنسا ومناوأة أعدائها حتى رانس الأتراك مطالب إنجلترا ونشبت بينهما الحرب . فعمل سبستيانى مع الحكومة التركية على تحصين القلاع القائمة على جانبي المضائق وتسليحها وشحنها بالذخيرة والمؤن وواصل الجميع العمل ليل نهار حتى فاجأوا الأسطول الانجليزي المهاجم بنار حامية من الجانبين أصابت كثيراً من وحداته فلم يسع أمير البحر الانجليزي دكورت Duckworth سوى الانسحاب بسرعة . وكانت هذه أول محاولة من جانب الانجليز لاختراق المضائق حربيًا . أما المرة الثانية فكانت في سنة ١٩١٥ في أثناء الحرب العالمية الأولى

ولما باءت حملة دكورت بالخسران أرادت إنجلترا أن تدارى اخفاقها في

الدردينيل بارسال حملة بحرية بقيادة الجنرال فريزر Frazer لغزو مصر وكان الانجليز يمنون أنفسهم بانضمام المالك الذين كانوا يناوئون محمد علي الى صفوفهم ولكن الانجليز لم يكادوا يبلغون الاسكندرية لينهجوا طريق حملة نابليون حتى علموا بوفاة زعيمى المالك الالفى والبرديسى ففت ذلك في عضدهم ولسكنهم واصلوا هجومهم فاستولوا على الاسكندرية وأرسلوا قوة احتلت رشيد وخشى محمد علي مغبة الهجوم الانجليزى فسعى سعيه حتى تم الصلح بينه وبين المالك ثم جاءت الاخبار بانتصار حاكم مدينة رشيد على الحملة الانجليزية فتشجع وأخذ ينظم قوات الدفاع بمشورة صديقه قنصل فرنسا ويرسل النجدات لمساعدة حاكم رشيد حتى انتصر المصريون عند قرية ، الحماد ، جنوبي رشيد وقام محمد علي على رأس جيشه لمقابلة الانجليز الذين تحصنوا بالاسكندرية فعجل هؤلاء بفتح مفاوضات الصلح فتم ذلك وتبادل الفريقان الأسرى وأقلعت العمارة الانجليزية على عجل في سبتمبر سنة ١٨٠٧ ولم يكن السبب في تعجل الانجليز بأسمهم من استمالة المالك إلى جانبهم فحسب بل كان هنالك سبب آخر ، ذلك ان انقلاباً سياسياً حدث في أوروبا على أثر مقابلة نابليون وقصر روسيا في مدينة تلسنت ١٨٠٧ واتفاقهما معاً ضد انجلترا . وكانت المسألة الشرقية أو مصير الدولة العثمانية من أهم المسائل التي تفاوض العاهلان بشأنها وقد عرض القيصر أن تستولى روسيا على القسطنطينية والمضايق وامارات الدانوب على أن تأخذ فرنسا مصر فرفض نابليون أن يسلم بالمضايق والقسطنطينية عاصمة الدنيا لروسيا وفشل مشروع الاتفاق . فعاد الكفاح بين نابليون من جهة والشعوب الذى أذلها وأهدر استقلالها من جهة أخرى . وكان من أهم مظاهر ذلك الكفاح الحصر البحرى الذى فرضه نابليون ضد انجلترا وتجارها في البلاد التى كان يسيطر عليها واعتزام انجلترا مقاطعة الثغور الفرنسية وقد وجد الملاحون المحايدون في شدة الحصر البحرى بين انجلترا وفرنسا فرصا لنشاطهم التجارى في البحر وكان الشعب الاغريقى المشهور بولعه بالملاحة والتجارة في مقدمة الشعوب التى أفادت في تلك الفترة فوائد ساعدته من بعد في نهضته وثورته ضد تركيا

ولما انتهى الأمر بانضمام نابليون أمام الحلفاء في موقعة ليپزج سنة ١٨١٣ ثم
في موقعة واترلو سنة ١٨١٥ انعقد مؤتمر فينا لتنظيم خريطة أوروبا ووضع القواعد
الكفيلة بمنع نشوب ثورات أخرى كالثورة الفرنسية من شأنها أن تسبب
الاضطراب لملوك أوروبا وحكوماتها وينشأ عنها ما ينشأ من حروب دموية جديدة
تعرض الشعوب لسكوارث وويلات لعلها تكون أدهى وأمر مما تحملته في الماضي
وقد كان خليفاً بدول أوروبا وهي تحاول علاج مشاكلها أن تبحث أيضاً موضوع
المسألة الشرقية ومضايق البسفور والدردينيل، ولكن قيصر روسيا إذ ذاك الاسكندر
الاول وكان يعد نفسه مبعوث العناية الإلهية للقضاء على نابليون وحكمه في أوروبا
لم يشأ أن يكون مصير الدولة العثمانية مسألة دولية تهتم الدول جميعاً فتتناوها
بالدرس وتصدر فيها قرارات عامة قد تقيد حرية روسيا، ولذلك فضل القيصر أن
يستمر مصير تركيا معلقاً بمشئته روسيا وحدها فلا تسرى عليها الضمانات التي يتخذها
مؤتمر فينا لصيانة حقوق الملوك وأصحاب الحقوق الشرعية ضد الثورات والثائرين.
هذا من جهة ومن جهة أخرى أبت على تركيا كرامتها أن تشارك في مؤتمر دولي
يرتبط أعضاؤه برباط الاخاء المسيحي ويتسمون بسمة المخالفة المقدسة لتستجديه
ضماناً لاستقلالها وسلامة أرضها وعلى ذلك انعقد المؤتمر دون أن تشارك فيه تركيا
وكانت نتيجة ذلك أن حفل القرن التاسع عشر بمشاكل وحروب دارت معظمها
حول المسألة الشرقية وفي مقدمتها مشكلة المضايق.

وقد خرجت انجلترا من المؤتمر حاملة لواء التفوق في مياه البحر المتوسط فقد
كان لها حصن جبل طارق منذ أوائل القرن الثامن عشر. وكان يسيراً عليها أن تطالب
المؤتمر باقرار امتلاكها لتلك المستعمرة ولسكنها اكتفت بالحالة القائمة واتجهت
بسياستها وخططها وجهة شرقية بعد أن أيقنت بأهمية طريق الشرق داخل البحر
المتوسط وبخطورة المنطقة الجديدة التي كشفت عنها حملة بونابرت في مصر والشرق
الأوسط. لذلك استولت بمقتضى قرارات مؤتمر فينا على جزيرة مالطة في وسط
الطريق بين جبل طارق وبلاد الشرق. كما استولت على جزر الايونيان كورفو

وكفالونيا وزنطه لتشرف منها على سير الامور في منطقة البلقان المليئة
بالاحتمالات والنذر

وما لبثت الاخطار أن توالى فقد قامت ثورة الإغريق في سنة ١٨٢٢ ضد
تركيا وقد وجد الثوار من تفوقهم التجارى والبحرى في بحر إيجه والبحر المتوسط
ومن معاونة الشعوب الأوربية لهم أعظم عضد فتغلبوا على القوات التركية وكادوا
يفوزون باستقلالهم لو لم يلجأ السلطان محمود الثانى الى محمد على . وحينئذ تغير
وجه الحرب إذ أرسل محمد على إلى بلاد اليونان في سنة ١٨٢٤ حملة بحرية مدربة
تدريباً حديثاً بلغ عددها ١٧٠٠٠ جندي سافرت على أكثر من تسعين سفينة
منها ٦٣ قطعة مسلحة . وما لبث المصريون أن احتلوا جزيرة كريت ومنها اتصلوا
بالاسطول التركى وسرعان ما ظفروا بالثوار فى البحر ونزل المصريون بشبه
جزيرة المورة فأخذت مراكز الثوار وحصونهم تتساقط فى أيدي المصريين حصناً
بعد حصن حتى خضعت بلاد المورة جميعاً ولم يبق بيد الثوار إلا بعض جزر بحر
إيجه وكان بها مقر قيادتهم .

وعند ذلك نارت نائرة الشعوب المسيحية وخاصة فى روسيا فاضطرت
حكوماتها الى التدخل وأسرعت انجلترا فى دعوة فرنسا وروسيا الى عقد معاهدة
لندن سنة ١٨٢٧ لوقف الحرب بين تركيا واليونان والموافقة على منح اليونان
حق الاستقلال الذاتى فاذا أبت إحدى الدولتين المتحاربتين وقف الحرب تدخلت
الدول بالقوة . ويلاحظ أن النمسا لم تشترك مع الدول الثلاث لأن وزيرها مترنخ
صاحب سياسة مؤتمر فينا وما تلاه من المؤتمرات لتأييد أصحاب الحقوق
الشرعية وحميتهم من الثورات - لم يشأ أن يفرق بين الثورة فى إيطاليا أو أسبانيا
وبينها فى اليونان أو أن يميز بين أصحاب الحقوق الشرعية على اختلاف جنسياتهم .
وتنفيذا لشروط معاهدة لندن تألف اسطول مشترك من الدول الثلاث بقيادة
أمير البحر الانجليزى كدرنجتون . ولما توقفت تركيا عن تنفيذ شرط الهدنة ووقف
الحرب دخل الاسطول المتحد فى خليج نوارين حيث الاسطول المصرى التركى

واتفق مبدئيا على ان تبقى الحاملة كما هي حتى تصدر أوامر جديدة . ولكن وقع سوء تفاهم بين الاسطولين اثناء غياب القائد العام المصرى ابراهيم باشا داخل المورة . وكانت تعليمات القائد البحرى الانجليزى تقضى باستعمال القوة إذا دعت الحال فدارت واقعة نوارين البحرية فى اكتوبر سنة ١٨٢٧ وقضى على معظم سفن الاسطول المصرى العثمانى فى مدى ثلاث ساعات وبذلك تشجع الثوار وأخذوا يستردون مكاتهم الأولى

وعلى الرغم من أن انجلترا اسفت لوقوع حادث نوارين وجاءت وزارة جديدة كانت سياستها ضد التدخل بالقوة وعلى رغم أن فرنسا ارسلت إلى المورة قوة حربية بقيادة المرشال ميزون Maison واتفقت مع محمد على على التزام الحيدة وسحب قواته من المورة فان أبناء نوارين لم تكسد تبلغ مسامع الباب العالى حتى استشاط غضبا وأصدر منشورا عاما دعافيه المسلمين إلى الجهاد ضد روسيا ، وسرعان ما نشبت الحرب بين روسيا وتركيا وهددهما سنة ١٨٢٩ واخرقت القوات الروسية البلقان وهددت ادرنه والقسطنطينية نفسها فعجل السلطان بطلب الصلح واضطر إلى قبول معاهدة لندن من حيث الاعتراف باستقلال اليونان وخشيت الدول أن تصبح اليونان بعد ذلك تحت حماية روسيا فتدخلت سنة ١٨٣٢ لتضمن لليونان استقلالها تاما .

وبذلك ظهرت قوة بحرية جديدة فى شرقى البحر المتوسط وجعلت هذه القوة اليونانية تناوى تركيا تارة وتمالى انجلترا وفرنسا تارة أخرى حتى استطاعت بفضل مصاهرتها للاسرة المالكة فى بريطانيا أن تضم اليها جزر الايونيان . وقد نزلت عنها انجلترا لليونان من تلقاء نفسها فى سنة ١٨٦٣ بمناسبة المناداة بالأمير جورج الدنمركى ملكا على اليونان وكان جورج هذا شقيقا لزوجة ولى عهد انجلترا إذ ذاك والذى أصبح ملكا على انجلترا فيما بعد باسم ادورد السابع . وفى سنة ١٩٠٨ ضمت اليونان جزيرة كريت . ولما انتهت الحرب العالمية الأولى ضمت اليونان اليها معظم جزر بحر ايجه وهما هى الآن بعد الحرب العالمية الثانية تضم جزر الدوديكانيز التى كانت بيد ايطاليا ولعلها تطمع فى ضم جزيرة قبرص بعد زمن قريب .

وفي الوقت الذي كانت فيه اليونان تمد نفوذها في شرقي البحر المتوسط وتوسع رقعتها كانت تركيا لا تزال تصارع النوازل التي تتوالى عليها من الداخل والخارج .
ففي سنة ١٨٣٢ دخلت في حرب بينها وبين محمد علي فسارت حملة مصرية بقيادة ابراهيم باشا توازه قوة بحرية لغزو فلسطين والشام ووقفت قواته أمام حصن عكا المنيع ثمانية أشهر انتهت باخضاعها واخضاع سائر المدن السورية ومن ثم عبرت جيوشه جبال طوروس ونزلت بهضاب آسيا الصغرى وهناك عند قونية دارت معركة حاسمة بين المصريين والأتراك في سنة ١٨٣٢ انهزم فيها الأتراك هزيمة كاسحة فزحف ابراهيم شمالا قاصداً القسطنطينية ووقفت قواته عند بروسه اطاعة لاوامر والده .

وكان السلطان قد طلب إلى الحكومة الانجليزية ارسال قوة بحرية تساعده ضد الغزو المصري ولسكن انجلترا كانت في شغل عنه بشئون خارجية وداخلية ادعى إلى اهتمامها فاعتذرت واضطر الباب العالي إلى طلب المعونة من روسيا فلبت الطلب ووصلت الى تركيا قوة روسية عمادها ١٥٠.٠٠٠ جندي عسكرت على الضفة الاسيوية من البسفور وهذه أول مرة وطئت فيها جنود الروس أرض المضائق فثارت نائرة انجلترا وفرنسا وخيل اليهما أن روسيا ستحقق امانها بوضع القسطنطينية والمضائق تحت حمايتها فسارعت الحكومتان إلى النصح للسلطان بقبول الشروط التي طلبها محمد علي واخذتا تلحان عليه حتى تم الاتفاق بين محمد علي والسلطان في كوتاهيه سنة ١٨٣٢ على أن يكون حكم سوريا وادنه بيد محمد علي .
وحينئذ لم يبق ثمة مبرر لبقاء القوات الروسية الراسية على ضفاف البسفور فصدرت لها الأوامر بالانسحاب ولسكن ما كاد آخر جندي روسي يغادر تركيا حتى ظهر أن روسيا وتركيا قد ارتبطتا بمعاهدة دفاعية هي معاهدة هنكيار اسكلى في يولييه سنة ١٨٣٣ وفيها شرط سرى لخواه انه في مقابل المساعدة الحربية التي تعهد القيصر بتقديمها للسلطان إذا اعتدى عليه مهاجم تسكتفى روسيا من الباب العالي باغلاق الدردنيل في وجه السفن الحربية لجميع الدول الأخرى . وليس في هذا الشرط

ما يخالف القاعدة القديمة المتبعة بشأن المضائق فقد كانت القاعدة المرعية أن يغلّق السلطان المضائق في وجه السفن الحربية أمام الجميع . ولكن معاهدة هنكيار اسكلى اقتضت على ذكر الدردنيل ولم يرد فيها ذكر البسفور . والقسطنطينية كما نعلم واقعة على البسفور فنكأن المعاهدة جعلت البسفور مفتوحاً أمام روسيا وعرضت القسطنطينية لهجوم الروس على حين قد نصت على اغلاق الدردنيل في وجه جميع السفن الحربية التابعة للدول الأخرى . وفسرت الدول معاهدة هنكار اسكلى بين روسيا وتركيا بأنها محاولة لابعاد الدول عن الاشتراك في المسألة الشرقية ورضاء تركيا بأن تكون تحت حماية روسيا بمفردها ، فاحتجت إنجلترا وروسيا أمام حكومتى السلطان والقيصر وظلت الريب والشكوك تساور الحكومتين الغربيتين بشأن روسيا حتى قامت الحرب ثانية بين تركيا ومحمد على في سنة ١٨٣٩ وانهزمت جيوش السلطان في موقعة نزيب أو نصيين شمالى سوريا . ولما وصلت أخبار الهزيمة إلى الباب العالى كان السلطان محمود الثانى قد انتقل إلى رحمة الله وخلفه ابنه عبد المجيد وهو غلام فى السادسة عشرة من عمره فاضطرت شئون الدولة وجازف فوزى باشا أمير البحر العثماني بأسطول قاصداً إلى الاسكندرية حيث وضع الأسطول العثماني كله بين يدي محمد على .

وعند ذلك تدخلت الدول صيانة لمصالح الدولة العثمانية من جهة وخوفاً من انفراد روسيا من جهة أخرى بمعاونة الدولة كما فعلت فى سنة ١٨٣٢ . ولكن روسيا لم تبعث شروط معاهدة هنكيار اسكلى من مرقدتها وبرهنت للدول وللحكومة الانجليزية بصفة خاصة أنها توافق الدول على الاشتراك فى فتح محمد على وارغامه على قبول الشروط التى تضعها . وعند ذلك عقدت الدول معاهدة لندن فى ١٥ يوليه سنة ١٨٤٠ وفيها عرض على محمد على أن يقتصر على حكم مصر بحق الوراثة وحكم سوريا مدة حياته على أن ينزل عن الأقاليم الأخرى التى احتلها ويسلم الأسطول العثماني ، فاحتجت فرنسا صديقة محمد على على هذه الشروط وطالبت بحق محمد على فى التمتع بشمرة انتصاره على تركيا والاحتفاظ بحكم الأقاليم . - البحر الأبيض

الواقعة تحت يده . ولما أبى محمد على قبول هذه الشروط تألفت قوة بحرية مشتركة من الانجليز والنمسيين والروس ضد محمد على وقامت الثورة بايعاز من تركيا والحلفاء في سوريا ولبنان ضد القوات المصرية ولم تستطع قوات محمد على مواجهة ذلك الخطر المشترك فتقهقرت من سوريا وتحملت في أثناء انسحابها عننا وخسائر جمة وفي الوقت الذي كانت فيه فرنسا تهدد دول أوروبا بالحرب وتستعد لها جاءتها الأنباء بتقهقر قوات محمد على فعدلت عن المخاطرة بدخول الحرب وسقطت وزارة مسيوتيير Thiers التي كانت تدعو إلى الحرب وخلفتها وزارة أخرى مسالمة ما لبثت أن أصلحت من موقفها تجاه الدول، فرحبت الدول بعودة فرنسا إلى حظيرة المؤتمر الأوربي وجعلوا من جانبهم يحضون تركيا على ضرورة تسوية النزاع بينها وبين محمد على باجابته إلى الشروط التي طالب بها فصدر الفرمان بتوليته وفق مطالبه في يولييه سنة ١٨٤١

وفي يولييه من تلك السنة أصدرت الدول أول اتفاق دولي خاص بالمضايق وفيه تقر الدول حق السلطان في إغلاق المضايق أمام السفن الحربية لجميع الدول على إختلاف جنسياتها ما دام الباب العالي في حالة سلم . وقد قضى هذا الاتفاق على الميزة التي كسبتها روسيا بمقتضى معاهدة هنكياراسكاسى وأصبح موافق الدول جميعها سوا . أمام المضايق .

على أن اتفاق روسيا مع دولتي الغرب لم يدم طويلا فسرعان ما شبت ثورة سنة ١٨٤٨ في فرنسا ومنها انتقلت إلى ألمانيا والنمسا والمجر فأودت بمتروخ وبنظامه الرجعي وقام القيصر نيقولا الأول يحاول أن يسد الفراغ الذي خلفه بمتروخ بمناصره العناصر الرجعية في شرقي أوروبا وغربيها على السواء . وكانت روسيا تنقم على فرنسا إعلانها نظام الجمهورية برياسة لويس نابليون ابن أخ نابليون الأول - وقد قلب نظام الحكم في سنة ١٨٥٢ من الجمهورية إلى الامبراطورية واتخذ لنفسه لقب الامبراطور نابليون الثالث - فازدادت الكراهية بين الدولتين وعز على نيقولا الأول أن يعتلى عرش فرنسا ثانية واحد من ذرية نابليون وقد كانت روسيا تزعم

أن العناية الإلهية قد أرسلت قيصرها الاسكندر الأول أخو نيقولا ليخاص العالم من خطايا الثورة الفرنسية وسينات نابليون . وكان الامبراطور نابليون الثالث يبادل قيصر روسيا تلك الكراهية الموروثة بين الأسرتين وخاصة بعد أن أرسل القيصر إلى الامبراطور رسالة يوجه اليه فيها الخطاب بقوله « عزيزي ، بدلا من أخي ، كما يقضى العرف المصطلح عليه بين الملوك .

لذلك لم يكن غريباً أن تتطور الكراهية إلى عداوة وتتطور العداوة إلى حرب أوربية - كانت الأولى بعد انتهاء الحروب النابليونية سنة ١٨١٥ - وهي حرب القرم . وكان السبب المباشر للحرب خلافاً تافهاً بين الرهبان الكاثوليك والارثوذكس في بيت المقدس - أما الرهبان الكاثوليك فكانوا يستندون إلى معاونة فرنسا ابنة الكنيسة الكبرى ويعولون في نزاعهم على مساعدة الامبراطور نابليون الثالث وعلى أن فرنسا كانت أولى الدول الأوربية تعاقداً مع تركيا في القرن السادس عشر . وأما الرهبان الارثوذكس فقد لجأوا إلى قيصر روسيا وكانت روسيا تستند إلى كجوق

معاهدة فيناردجي سنة ١٧٧٤ في دعوى حماية المسيحيين الارثوذكس وهم الكثرة العظمى بين المسيحيين في الدولة العثمانية . ومن سخيرية القدر أن تقوم تركيا بمهمة الوسيط والحكم بين المتنازعين المسيحيين فحاولت الوصول إلى تسوية لموضوع النزاع واسكنها لم تلق قبولا من روسيا التي أكدت حقها في حماية الارثوذكس وطالبت الباب العالي باقرار ذلك الحق . فرفض السلطان دعوى روسيا بإيعاز السفير الانجليزي استراتفورد ده ردكليف Stratford de Redcliffe الذي كان يمقت روسيا وقيصرها . وعند ذلك تحركت الجيوش الروسية فعبرت نهر البروت واحتلت امارات الدانوب وكان هذا بمثابة إعلان الحرب على تركيا ، ولم تلبث روسيا أن دمرت الأسطول التركي في البحر الاسود عند سينوب فثارت نائرة الشعوب الغربية وخاصة في إنجلترا وأيقن الجميع أن روسيا إنما تريد القضاء على تركيا لتستولي على المضائق والقسطنطينية وتهدد مصالح بريطانيا وفرنسا في الشرق وفي البحر المتوسط . فلم يسع إنجلترا وفرنسا سوى إعلان الحرب والتقدم لمساعدة تركيا ضد روسيا . وقد

وقفت كل من النمسا وروسيا موقف الحياد ولكنهما كانتا تناصران الخلفاء أديباً وسياسياً على حين تقدمت مملكة بيدمونت الناشئة أو إيطاليا الحديثة بمساعدة الخلفاء حرياً قبل انتهاء الحرب .

وسارت القوات الانجليزية الفرنسية فاخترقت المضائق إلى البحر الاسود ووزلت بميناء ورنه على البحر الاسود وقد رأى الخلفاء أن خير وسيلة للثيل من روسيا هي غزو شبه جزيرة القرم وحصار سفاستبول وهي الميناء الحربى الحصين لروسيا على البحر الاسود . وقد وقف قيصر روسيا في تلك الحرب بمفرده أمام تركيا وحلفائها من دول أوروبا المسيحية التي اجتمعت بجيوشها وأساطيلها لمقاومة العدوان الروسى . وكان القيصر يقول أن خير حليف للروس في تلك الحرب هو القائد بناير وأخوه فبراير يشير بذلك إلى الصقيع القطبى الذى يهب عادة في هذين الشهرين فيعوق النشاط وينشر المرض . ولكن القائدين المذكورين لم يخرجوا عن حيدتهما في زمهرير ذلك الشتاء فقد حصد البرد والمرضى آلافاً من الجانبين ، وبكفى أن فكرة الصليب الأحمر لمساعدة الجرحى والمرضى لم تولد إلا في أثناء تلك الحرب وعلى يدى السيدة الانجليزية حاملة المصباح الاحمر فلورنس نيتنجيل Florence Nightingale التي أنارتها أخبار الكوارث في تلك الحرب فجاءت تضمد جروح الجرحى وتعنى بالمرضى حتى استيقظ ضمير الأمم المتحاربة فبدأت تهتم بتغذية جيوشها وتموينها وتمريضها وتوفير أسباب العلاج لها .

سقطت سفاستبول بعد حصار دام شهراً ولم تبق فائدة من إطالة الحرب فانتهدت . وعقد مؤتمر باريس سنة ١٨٥٦ وفيه تقرر قبول تركيا ضمن هيئة الدول الأوروبية وإعلان حيدة البحر الأسود ، ومقتضى هذا عدم تحصين موانيه وقلاعه ومنع إقامة السفن الحربية فى مياهه وكان هذا وحده هو العقاب الذى أصاب روسيا ومع ذلك لم يدم هذا الحظر على البحر الاسود أكثر من خمسة عشر عاماً فما كادت فرنسا تنهزم أمام بروسيا فى الحرب البروسية الفرنسية سنة ١٨٧١ حتى انتهزت روسيا الفرصة وتحررت من هذه الحيدة ثمناً لبقائها محايدة فى أثناء الحرب

وكان بسمرك المستشار الألماني صاحب الكلمة الأولى إذ ذاك في السياسة الأوروبية فلما تخرج الموقف بين روسيا وتركيا وقامت الحرب بينهما سنة ١٨٧٦ اجتمع برياسته مؤتمر برلين في سنة ١٨٧٨ وفيه تقرر استقلال الامارات البلقانية بلغاريا ورومانيا والجبل الأسود ومنع دولة بلغاريا الحديثة من الامتداد على بحر إيجه . ولم تتعرض المعاهدة لنظام المضائق أو الملاحة في البحر الاسود ، ولكن انجلترا اغتنمت فرصة هزيمة تركيا أمام روسيا فطلبت اليها أن تحتل جزيرة قبرص ثمناً لمعاونتها لتركيا في المستقبل فقبلت تركيا أن تستأجر انجلترا منها الجزيرة في عام ١٨٧٨ ويعتبر احتلال انجلترا لجزيرة قبرص جزءاً مكملًا لبرنامج الامتداد الانجليزي نحو الشرق . فقد طرأ تغيير في عالمي السياسة والتجارة في البحر المتوسط على أثر إنشاء قناة السويس وافتتاحها للملاحة في ١٨٦٩ إذ كان النفوذ الفرنسي غالباً في شركة القناة فأخذت الحكومة الانجليزية تعمل بمختلف الوسائل لمنع فرنسا من استغلال الحالة في مصر والقناة لمصلحتها وسارع الوزير الانجليزي دزرائيلي إلى شراء أسهم الخديو اسماعيل في القناة في ١٨٧٥ فأصبح من المحتوم بعد ذلك أن تكون لانجلترا قاعدة قريبة في شرق البحر المتوسط لتشرف منها على القناة من جهة ولترقب نشاط السياسة الروسية في الشرق الأدنى والاطراف من جهة أخرى وكان ذلك من عوامل إتمام صفقتها مع تركيا على قبرص .

وما فتئت انجلترا تواصل سياستها في شرق البحر المتوسط حتى أمسكتها التدخل بمفردها في النزاع الداخلي الذي قام في مصر بين الخديو توفيق والعرايين فأرسلت كل من انجلترا وفرنسا في أول الأمر أسطولا بحريا لمراقبة الحالة في مايو سنة ١٨٨٢ فلما أزمعت انجلترا التدخل بالقوة وضرب الاسكندرية أحجم الفرنسيون عن الاشتراك معها وتدخلت انجلترا بمفردها فكانت موقعة التل الكبير في سبتمبر سنة ١٨٨٢ وفيها انهزم العرايين وكان الاحتلال الانجليزي .

ولم يكن أحجام فرنسا عن زهد في مجال السيطرة والاستعمار ولكن فرنسا كانت حديثة عهد بالهزيمة أمام قوات ألمانيا الناشئة وكانت بحاجة شديدة إلى

مواالات انجلترا وعدم إثارها ضدها لتكون إلى جانبها عند الحاجة . وكانما أراد
بسمرك المستشار الألماني أن يصرف اهتمام فرنسا عن فكرة الإنتقام ومحاولة
استرداد الالزاس واللورين فترك لها أن تبذل فضل نشاطها في مجال الاستعمار
القريب بأفريقية لعله أن يشغلها عن السياسة الأوربية من جهة ويوقع الشحناء بينها
وبين انجلترا أو بينها وبين إيطاليا من جهة أخرى .

ومن خلال هذه السياسة ابتسم الحظ السعيد لفرنسا وواتها الظروف فأنشأت
في شمالي أفريقيا وحوض البحر المتوسط بعد هزيمتها المنسكرة في سنة ١٨٧١ دولة
استعمارية مترامية الأطراف لم تتح لدولة غيرها منذ عهد الرومان في التاريخ القديم
وللاتراك إلى حد ما في فترة تفوقهم خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر .
وكان الفرنسيون قد بدأوا باحتلال الجزائر في سنة ١٨٣٠ وأرادت فرنسا أن
تمد نفوذها شرقا نحو تونس وطرابلس وحاولت أن تغرى محمد علي على مشاركتها
في تنفيذ هذه السياسة من ناحية حدود مصر الغربية ولكن الحكومة الانجليزية
كانت قد تنهت إلى خطورة هذه السياسة فحالت دون إخراجها إلى حيز التنفيذ .
وبقيت فرنسا خمسين سنة تتحين الفرص لمد سياستها الاستعمارية في شمالي أفريقيا
حتى استطاعت أن تعلن حمايتها على تونس سنة ١٨٨١ متحدية في ذلك دولة
إيطاليا الحديثة التي كانت قد ألغت وحدتها السياسية وبانت تتلطف على إنشاء دولة
استعمارية لها تشبه بالدول الكبرى الأخرى وإحياء لاجداد الدولة الرومانية
القديمة . وكانت لإيطاليا جالية كبيرة العدد جمه المصالح في تونس التي لا تفصلها عن
أرض صقلية إلا بضعة كيلو مترات . فكان طبيعياً أن تتطلع إيطاليا إلى احتلالها
لولا أن فرنسا سبقتها . وكانت انجلترا قد تفتحت لها آفاق جديدة في أفريقية
باحتلالها مصر وسيطرتها على القناة ثم باشتراكها مع المصريين في إعادة فتح
السودان فتركت شؤون شمالي أفريقيا تتنازعها فرنسا وإيطاليا حتى تم التفاهم بينهما
على أن يكون إقليم طرابلس من نصيب إيطاليا وأن يكون لفرنسا حق الامتداد
غربا لتبسط سلطانها على مراکش .

ولما بان خط فرنسا ومطامعها الاستعمارية في بلاد المغرب قامت كل من إنجلترا وألمانيا تعارضان ذلك التوسع الفرنسي الخطير في حوض البحر المتوسط واشتد العداء بين إنجلترا وفرنسا حتى كاد الأمر يفضى إلى نشوب حرب بين الدولتين على أثر حادث فاشودة سنة ١٨٩٨ وذلك أنه بعد أن تم للصرين قمع الثورة المهدية واسترداد السودان بمساعدة نفر من الانجليز لا يزيدون على ٤٠٠٠ جندي وعلم القائد العام للجيش المصري كتشنر بوصول قوة فرنسية صغيرة من وسط أفريقية إلى قرب مصب نهر سوباط تريد أن تسكسب لفرنسا شيئاً من أراضي السودان التي استباحها الدول ورأتها نهياً لمن غلب على أثر استفحال الثورة المهدية وانسحاب المصريين في سنة ١٨٨٤ . حيثئذ أبحر كتشنر في النيل الأبيض على رأس قوة مصرية وتقابل مع الضابط الفرنسي مارشان Marchand عند فاشوده قرب مصب نهر سوباط ورفع العلم المصري على الأرض التي عسكر عليها الفرنسيون، ومالبت أن جاءت الأوامر إلى مارشان من حكومته بالانسحاب فزال الخطر وانهت الأزمّة بين الدولتين مؤقتاً في سنة ١٨٩٩ .

ثم حدث انقلاب خطير في جو السياسة بأوربا فقد ينست الحكومة الانجليزية من صداقة ألمانيا لها حين اتهم الامبراطور الألماني وليم الثاني سياسة عدائية نحو إنجلترا فناصر الرئيس كروجر زعيم البوير في ثورتهم وحرهم ضد الانجليز في جنوب افريقية، ثم حين قررت ألمانيا النهوض بقوتها البحرية وانشاء أسطول بحري يضارع أقوى أسطول في أوربا ليلانم المسكّنة التجارية والصناعية التي وصلت إليها ألمانيا أخيراً . وكان ملك الانجليز ادورد السابع الذي اعتلى العرش بعد وفاة والدته الملكة فيكتوريا في سنة ١٩٠١ شديد الميل إلى سياسة الوفاق مع فرنسا وكثير السكراهية لقريبه وليم الثاني فما زال يسعى بالود محاولاً تقريب مسافة الخلف بين الحكومتين الانجليزية والفرنسية حتى تم عقد الاتفاق الودي بين الدولتين في سنة ١٩٠٤ فكان نذيراً بأشياء كثيرة أولها اطلاق يد إنجلترا في مصر والسودان مقابل امتداد النفوذ الفرنسي غرباً إلى بلاد المغرب وثانيها تحفز ألمانيا

لعرقلة مساعي فرنسا في بلاد المغرب واصرارها على اقتناص فرصة تمييزها سواء في مراکش نفسها أو في جهة أخرى إذا استعصى عليها ذلك . وقد كان هذا الاتفاق الودي بين الحكومتين أول لبنة في تشييد جبهة الحلفاء في أوروبا ضد المحالفة الثلاثية القديمة بين ألمانيا والنمسا وإيطاليا تلك الجبهة التي انضمت إليها روسيا فيما بعد وظلت قوية راسخة حتى نشبت الحرب العالمية الأولى .

ولقد حاولت ألمانيا في حادثين تاريخيين أن تفوز بميزة لها في بلاد المغرب فلم تستطع أن تصمد أمام مناوأة إنجلترا لها واتفاقها مع الفرنسيين ففي الحادث الأول زار الامبراطور الألماني ميناء طنجة زيارة رسمية في سنة ١٩٠٥ وأعلن سيادة سلطان مراکش على تلك الأقاليم وصدقة ألمانيا له ، وكانت نتيجة هذه الزيارة اجتماع مؤتمر الجزيرة في جنوبي اسبانيا قرب جبل طارق وفيها أعلن المؤتمر سياسة الباب المفتوح في مراکش واقرار مركز فرنسا الخاص في تلك الأرجاء . وفي الحادث الثاني أرسلت ألمانيا سفينة حربية إلى ميناء أغادير على ساحل الاطلنطي في سنة ١٩١١ لمحاولة اثبات حق ألمانيا - إلى جانب فرنسا واسبانيا - في بلاد المغرب ، واحتجاجا على تدخل فرنسا في مراکش بالقوة . وكادت أزمة أغادير تؤدي إلى نشوب الحرب العالمية الأولى قبل موعدها بثلاث سنين لو لم تبادر إنجلترا باعلان عزمها على منع ألمانيا من احتلال أية بقعة في بلاد المغرب . وأخيراً سارعت فرنسا إلى مفاوضة ألمانيا رأساً وتعويضها بجزء كبير من أرض السكونغو الفرنسية ضمته ألمانيا إلى مستعمرتها في غرب أفريقية .

وكانت المظاهرتان المسرحيتان اللتان قامت بهما ألمانيا في غرب البحر المتوسط عند طنجة وأغادير في بدء القرن العشرين مقدمة لعواصف جديدة جمعت تهب على البحر المتوسط وتحرك أمواجه العاتية فتصطخب على صخورهِ وسواحلهِ وتلاطم شعوبه وسكانه حتى وقتنا هذا .

وكانت دولة إيطاليا الحديثة مصدر تلك العواصف الهوجاء التي جعلت من حوض البحر المتوسط وكرأ تومه زبانية الحرب من غواصات وألغام ومدمرات

وظائرات تنساب في جوه ومائه وتصيب الأعداء والمسالمين والمحايدين على السواء
وكان أول هبوب العاصفة على سواحل برقة و طرابلس إذ قامت إيطاليا في
سنة ١٩١١ وأعلنت الحرب على تركيا فأصدة غزو طرابلس فاحتلت جزر
الدوديكانيز واستولت على ميناء بنغازي وحاصرت ميناء طرابلس. وكانت شعوب
البلقان تتأمر هي أيضاً على تركيا وتحاول جمع كلمتها ضدها فسارعت تركيا إلى عقد
الصلح مع إيطاليا حتى تنفرغ للحرب البلقانية فتركت طرابلس والدوديكانيز
لإيطاليا التي أخذت في إخضاع داخل البلاد ، ولكن الظفر بهذه البلاد
لم يكن من السهولة بالدرجة التي ظنتها إيطاليا ، فقد لقيت معارضة ودفاعاً مجيدين
من جانب السنوسيين ورجال القبائل وبعض الضباط الأتراك الذين أبوا أن
يجلوا عن البلاد حتى بعد توقيع معاهدة الصلح
وقد خرجت تركيا من حرب البلقان خاسرة معظم أراضيها في مقدونيا و تراقيا
وحلت اليونان الحديثة محل تركيا في سلانيك وساحل بحر إيجه الشمالي . أما بلغاريا
وقد خسرت المعركة في الحرب البلقانية الثانية فلم تظفر بتحقيق أمانها في الحصول
على ميناء لها على ساحل بحر إيجه
ثم نشبت الحرب العالمية الأولى فظهر في عالم البحر المتوسط عالم جديد ، ذلك
ان مضيق جبل طارق وحصنه لم يحولا دون اختراق الغواصات الألمانية للضيق
وتسربها إلى مياه البحر المتوسط ، فقد أخذ عدد قليل من الغواصات الألمانية
يجول في البحر المتوسط ويختبئ في خلجانه وبين جزره العديدة وخاصة في بحر
إيجه ومياه البحر الادرياتي وكانت تنقض من مخابئها تلك على السفن التجارية
والنقلات المعادية فتضربها بالطوربيد وتغرقها . واستفحل أمر هذه الغواصات
في البحر المتوسط طوال الحرب العالمية الأولى حتى بلغت الخسائر الناتجة من
الغواصات في ذلك البحر نحو نصف مجموع خسائر الغواصات جميعا في كافة الانحاء
وقد اضطر الحلفاء إلى إهمال البحر المتوسط في الملاحة واستخدام طريق رأس
الرجاء الصالح في مواصلاتهم مع الشرق

ولما انتهت الحرب العالمية الأولى ثبتت إيطاليا في جزر الدوديكانيز وقوى
مركزها في البحر الادرياتي على أثر احتلالها لتريستا وجزر البحر الادرياتي
ثم ميناء فيومي

وما لبث أن علا ضجيج العواصف في البحر المتوسط على أثر انتصار الحركة
الفاشية واضطلاع مسولينى الزعيم الفاشى بشئون الحكم في إيطاليا منذ سنة ١٩٢٣،
فقد عمد الفاشيون إلى وسائل العنف والتهديد في سياستهم الخارجية، فأخضعوا
طرابلس وبرقة رغم استماتة الأهالي في الدفاع عن مراكزهم في الداخل وجعلوا
من ألبانيا في البلقان دولة مستقلة تابعة لسياستهم. وفي سنة ١٩٣٥ قام مسولينى
بمشروع غزو الحبشة متحديا في ذلك الحكومة الانجليزية ومن ورائها
الامبراطورية البريطانية وعصبة الأمم فسارعت جيوشه ومعداته الحربية تحت
سمع أوروبا وبصرها مخترقة البحر المتوسط وقناة السويس إلى البحر الأحمر ومنه
إلى بلاد الحبشة فاستولى عليها وواجه دول أوروبا بالأمر الواقع فأقرته على ذلك
وما كادت تفرغ إيطاليا من حرب الحبشة حتى قامت الحرب الأهلية في
أسبانيا بين الجمهوريين الشيوعيين والوطنيين. وكانت فرنسا وروسيا تسندان
حكومة الجمهورية تؤيدهما إنجلترا إلى حد ما على حين كانت إيطاليا وألمانيا
تسندان الجنرال فرنسكو زعيم الوطنيين. وانتهزت إيطاليا الفرصة فاحتلت إحدى
جزر البلقان لتتخذ منها قاعدة تشرف منها على الطريق بين فرنسا وأملاكها في
شمال أفريقيا وكذلك احتل الالمان في أسبانيا وفي منطقة مراکش الاسبانية
نقطة استراتيجية أهمها ميناء سبتة الذى يقع على الساحل الافريقى في مواجهة
جبل طارق فأخذوا يحصنونها ويسلحونها لمناوأة الانجليز عند الحاجة.

وقد انتصر الوطنيون في النهاية فانهجت دولتا المحور إيطاليا وألمانيا، ووقع في
وهمهما أن معدات الحرب عندهما تفوق ما أعدته روسيا وفرنسا. وعلى ذلك
انساق الدكتاتور الالماني إلى إشعال نار الحرب العالمية الثانية موقنا بأن الله الحرب
سيعقد فوق هامته اكليل النصر على شرط ألا يطول أمد الحرب إلى أكثر من

ثلاث سنين والالحقه الانجليز في استعدادهم الحربى وتفوقوا عليه . ولكن إله الحرب خذعه فألقمه الانتصارات الأولى حتى استنم اليه وصمد الانجليز وحلفاؤهم واستطالت الحرب إلى أكثر من ثلاث سنين فمال ميزان النصر إلى جانب الحلفاء شيئاً فشيئاً حتى تم لهم الفوز

وكان نصيب البحر المتوسط من الحرب العالمية الثانية أضعاف ما كان نصيبه في الحرب العالمية الأولى ففي الحرب الثانية انهارت فرنسا أمام ألمانيا انهياراً تاماً وبذلك ضاع السند الذى كانت تعتمد عليه إنجلترا في البحر المتوسط وخاصة في القواعد الفرنسية بشمال أفريقيا . ثم ان إيطاليا دخلت الحرب الثانية إلى جانب ألمانيا وكانت إلى جانب الحلفاء في الحرب الأولى . وبدخولها الحرب إلى جانب ألمانيا أصبح البحر المتوسط مغلقاً تقريباً في وجه الملاحة ، تجارية كانت أو حرية فصار طريق رأس الرجاء الصالح هو السبيل الوحيد للاتصال بالشرق وبميادين الحرب في البحر الأحمر وحتى في البحر المتوسط نفسه .

ولما هاجمت إيطاليا بلاد اليونان في عام ١٩٤١ أبدى اليونانيون بطولة عظيمة ردت قوات الدكتاتور العظيم على أديارها فسارعت ألمانيا إلى نجدة حليفها فاخترقت البلقان وأخذت دوله تتساقط واحدة تلو أخرى في أيدي ألمانيا حتى دانت لها شبه جزيرة البلقان كلها عدا تركيا وأصبح بحر إيجه وجزره بما في ذلك جزيرة كريت في يد ألمانيا . ومن كريت وصقلية استطاع الالمان أن يصوبوا غاراتهم الجوية ضد الشرق الأوسط وضد جزيرة مالطة خاصة وقد خصوها بوابل لا ينقطع من قذائفهم الجوية حتى كادوا يدكونها دكا . وكان غرض الالمان من ذلك تيسير نقل جيوشهم ومعداتهم الحربية إلى ساحل أفريقية الشمالى والزحف منه شرقاً إلى مصر والقناة

وبعد كفاح وجلاد وكر وفر ودفع ورد استطاع الحلفاء أن يكسروا حدة هجوم المحور في موقعة العلبين الشهيرة على ساحل البحر المتوسط في خريف سنة ١٩٤٢ فارتدت قوات المحور من حدود مصر إلى برقه ومنها إلى طرابلس فنونس

والحلفاء من ورائهم يتبعونهم ليطر دوهم من الشرق على حين كانت قوات أخرى من الحلفاء تواجههم من الغرب وقد قطعت عليهم الطريق برأ وبحرا من ساحل الاطلنطي إلى تونس . وأخيراً عبر الحلفاء البحر المتوسط إلى بنزالاريا فصقلية فياطاليا مطاردين فلول العدو . وعند ذلك تصدع المحور فخرجت إيطاليا من الحرب في سبتمبر سنة ١٩٤٣ وتفرغ الحلفاء لمهاجمة الالمان والتضييق عليهم شرقاً من ناحية الروس وغرباً من ناحية الهجوم النورماندى الذى قام به الحلفاء فالتقى الجميع تحت راية النصر في برلين في مايو سنة ١٩٤٥

وما كادت تنتهى الحرب في أوروبا حتى وضع للجميع أن توازن القوى في البحر المتوسط قد اختل اختلالاً جسيماً في أثناء الحرب فقد عادت فرنسا إلى نفسها وإلى مستعمراتها في شمال أفريقية ، ولكن بدون قوة بحرية تذكر فقد أغرق الضباط الفرنسيون سفنهم أمام ميناء طولون في ١٩٤٣ حتى لا تقع في أيدي الالمان أو الانجليز . وحاول الفرنسيون أن يستردوا نفوذهم في دولتي المشرق سوريا ولبنان فلم يستطيعوا واحتكم السوريون واللبنانيون إلى مجلس الأمن في هيئة الأمم المتحدة فنصرهم المجلس وتخلت فرنسا عن البلدين في صيف عام ١٩٤٦ وخريفه . وبعد ذلك تقلص النفوذ الفرنسى عن شرق البحر المتوسط وقد خرجت إيطاليا من الحرب منهزمة وأن كانت قد أصلحت من شأنها عقب سقوط النظام الفاشى بانضمامها إلى قوات الحلفاء فقد خسرت جزر الدوديكانيز التي انضمت إلى اليونان وأضاعت تفوقها في البحر الادرياتي بفقدتها أقام فينيزيا جوليا وبه موانئ فيومي وبولا وتريستا وجزر البحر الادرياتي وبذلك أصبحت يوغسلافيا سيده البحر الادرياتي . وكانت بلغاريا تمنى نفسها بتحقيق أحلامها القديمة بالحصول على ميناء على بحر ايجه فخانها الحظ مرة أخرى في هذه الحرب ولكن إذا كان عالم البحر المتوسط قد افتقد بعد الحرب قوة ايطاليا وشيئاً من قوة فرنسا فان روسيا قد تقدمت تريد أن تعوض الخلل في الميزان السياسى البحرى بأن تضع يدها على شيء من ميراث إيطاليا أما في طراباس وأما في جزر الدوديكانيز . فلما أبى عليها الحلفاء ذلك راحت تطالب بأن تضع قدمها في منطقة

المضايق حتى يخلو لها الطريق تماما إلى حوض البحر المتوسط. ولحكومة السوفيت الآن النفوذ السياسي الأول في البلقان في البانيا ورومانيا وبلغاريا فهي آمنة من ناحية البحر الادرياتي، ولكن تعرضها للهجوم من ناحية بحر ايجه والمضايق والبحر الاسود ما قىء يسهدا ويقض مضجعا إذ أن الحدود الجنوبية لروسيا هي المنفذ الوحيد الذي بقى مفتوحا أمام المهاجمين بعد ان أمنت نفسها وحصنت حدودها من الغرب بضم ولايات البحر البلطى وبالانفاق مع بولنده وفنلنده . أما من الشمال ومن الشرق فان روسيا تتمتع بحصانة طبيعية تستعصى على الهجوم . ولا يزال الصراع قائما بين روسيا والحكومات الغربية بشأن تركيا واليونان وهما الدولتان اللتان تعنيان بمشكلة المضايق . وقد أعلن الرئيس ترومان في ربيع ١٩٤٧ عزمه على مساعدة اليونان وتركيا باقراضهما . ٤٠ مليون دولار كدفعة أولى وقد قال في أثناء عرضه هذه المساعدة على مجلس الكونجرس الأمريكى الذى يجمع بين شيوخ الدولة ونوابها ما أتى : وانه فى سبيل تقدم الشعوب فى ظلال السلم وابعاد أسباب القهر والاستبداد نهضت الولايات المتحدة بدور رئيسى فى تكوين هيئة الأمم المتحدة . ولا يمكن أن نحقق أغراضنا الا إذا عقدنا النية على مساعدة الشعوب الحرة فى المحافظة على نظمها الحرة وسلامة وطنها ضد المبركات العدوانية التى تحاول فرض نظمها الدكتاتورية عليها . فاذا أمسكنا عن مساعدة اليونان وتركيا فى هذا الوقت العصيب فسيكون لامساكنا هذا آثار بعيدة المدى تصيب الغرب والشرق جميعا ، وتركيا واليونان كلاهما من الدول التسع عشرة التى تنتفع الآن من مشروع مارشال لانعاش أوروبا اقتصاديا وتناصر معسكر الدول الغربية . ومن هذا ترى أن البحر المتوسط الذى كان قد فقد أهميته على أثر كشف أمريكا والعالم الجديد قد استطاع فى النهاية أن يجذب أمريكا نفسها إلى سواحلها وأن تدفع بها تيارات السياسة إلى خوض الغار العالمى ملقية بمبدأ منرو وعزلتها السياسية عرض المحيط . وأكبر انظان أن ظهور الولايات المتحدة فى عالم البحر المتوسط سيصحح التوازن السياسى فيه كما صحح دخولها فى أيام الحرب ميزان القوى التى كانت تصطرع على سواحلها .

الفصل الرابع بوابات البحر المتوسط اليسفون والدردنيل

جزى الله آلهة الأغر يق القدماء كل خير فقد علموا شعوب أوربا كثيراً من دروس الحياة في حالتى الحرب والسلم ، وكان لهم - فيما وعته الأساطير من حسناتهم - فضل السبق فى كشف أهمية بوابات البحر المتوسط وتحصينها وتأمينها ضد المعتدين على بلادهم من لصوص البحر أو من القبائل والشعوب التى لا تمت بسبب إلى مدينتهم . فأقاموا على جانبي بوغاز مسينا ، بين جزيرة صقلية الهيلينية وأرض ايطاليا المتبربرة إذ ذاك حارسين ماردين هما سلا Scylla وشاربديس Charybdis قد كمن كل منها فى كهف قد من صخر ، ولكل منهما رموس عدة يتجه كل منها صوب جهة من الجهات الأصلية أو الفرعية ، وفى كل رأس ضفائر كالحبال وعيون كالمنائر وأذعة كالخطاطيف تأخذ كل سفينة منحوسة غصبا ، فما تزال تدور بها وسط دوامة البوغاز حتى تغرقها ومن عليها .

وكذلك فعل « دردانوس » ابن الآلهة الأكبر « زوس » لحماية البوابة التى تفصل أوربا عن آسيا باسم الهلسبوننت Hellespont التى عرفت بعد ذلك « بالدردنيل » إذ أنشأ مدينته « دردانا » لتشرف على البواغيز عند أضيق نقطة فى عروضها وتدفع غارات الاسويين الذين تحدتهم أنفسهم بغزو أرض هيلين أما « بوابة مسينا » فلم تلبث أن فقدت أهميتها على أثر ظهور روما واتساع سلطانها جنوباً حتى شمل جزيرة صقلية وغرباً حتى وصلت جنودها وأساطيلها إلى « عمد هرقل » (جبل طارق) وهى البوابة القائمة بين أفريقية وأوربا التى تحرس أبواب الاقيانوس فيما وراء البحر المتوسط

وأما بوابة « أترنتو » التي توصل بين البحر الأدرياتي والبحر المتوسط فان القدماء لم يحاولوا تحصينها أو حراستها لسعة بوزاها التي تبلغ ٤٧ ميلا ولم يسكن العلم قد كشف بعد طريقة للتحكم في مثل هذا المدى الواسع من الماء ولم تسكن هذه البوابات في أول الأمر إلا أهمية محلية كان يحدها اعتقاد الناس في ذلك الوقت ان البحر المتوسط هو مركز العالم، وأطرافه هي حدود الممورة غربا. فلما ازدهر عصر النهضة الأوربية في القرن الخامس عشر وكشف كولومبس عن قارة جديدة في غرب الاقيانوس وتقدمت الملاحة في عرض المحيط فأتبع لجلان الاسباني أن يسبح حول العالم، وتنافست الشعوب الغربية في الوصول إلى الهند وسائر بلاد الشرق واستغلال ما في هذه الأرجاء من نفائس وكنوز ومجال للتوسع والاستعمار أصبح لهذه البوابات أهمية دولية بالغة الخطر إذ جاء الملاحون والمستعمرون من مختلف الدول يريدون المرور داخل هذه البوابات وخارجها فأيقظوا أصحاب الدور التي تفتح عليها تلك البوابات من غفلتهم وأقلقوا راحتهم وقامت الدول البحرية تزود بيصرها نحو هذه البوابات وتمنى بجدع الأنف أن يكون لها مكان مرموق إلى جوارها أو تصبح بيدها مفاتيحها فتتحكم في فتحها وإغلاقها ضد منافسيها كلها دعت الحاجة. ومن ذلك نشأت الأهمية الاستراتيجية لهذه البوابات وللأراضي المجاورة لها. وقد زاد من شأن هذه الأهمية أن عصر النهضة كما كشف عن قارة أمريكا كشف أيضا عن استعمال البارود في الحرب فأصبح من المستطاع تحصين هذه البوابات وتسليحها بالمدافع التي يمكن تسليطها على سفن العدو إذا هي حاولت المرور دون إذن صاحب المفتاح.

ومع أن كشف أمريكا واستعمار بلاد الشرق قد قللا في أول الأمر من أهمية دول وموانئ إيطاليا الجمهورية التي ظلت متفوقة في البحر المتوسط طوال العصور الوسطى، فان اهتمام الدول به كطريق عالمي تؤدي بواباته إلى الشرق وإلى أمريكا قد تضاعف فأصبح مستقبل هذه البوابات أمرا يهم الدول جميعا لا أصحاب الدور فحسب.

وأولى هذه البوابات أهمية في التاريخ والسياسة معاً هي مضائق الدردنيل والبسفور ويبلغ طول مضيق الدردنيل الذي يوصل بين بحر إيجه وبحر مرمره ٤٠ ميلاً وعرضه يتراوح بين ميل وأربعة . ويبلغ طول مضيق البسفور الذي يوصل بين بحر مرمره والبحر الأسود ١٨ ميلاً ويتراوح عرضه بين ٨٠٠ ياردة وميلان وثلاثة أرباع الميل . وأما بحر مرمره فيبلغ طوله ١٧٠ ميلاً من الشرق إلى الغرب فيكون طول المضيق وبحر مرمره بينهما نحو ٢٣٠ ميلاً .

وقد بدت أهمية هذه المضائق من الوجهة الاستراتيجية في التاريخ القديم عندما زحف الفرس بحجافلهم وأساطيلهم من آسيا يعبرون الهلسبونت ويهددون بلاد الاغريق في القرن الخامس قبل الميلاد فوقف لهم الاغريق موقف البطولة في موقعة سلاميس الحاسمة وبذا تخلصت أوروبا من الوقوع تحت نير الفرس .

وقد استهوت مناعة هذه المضائق ومحاسنها قسطنطين أحد قياصرة الرومان فشيده في سنة ٣٣٠ ميلاديه على ضفاف البسفور حاضرة لدولته فاقت كل ما صنعته يد الآلهة حتى بزت روما نفسها وصارت تعرف بروما الجديدة . وأصبحت المضائق وعلى قرنها الذهبي بيزنطة أو مدينة قسطنطين العظيمة مفخرة الدنيا ومعجزة الطبيعة والصناعة معاً في روعتها وبأسها وموقعها الجغرافي الفذ وخصائصها التي تحدث بها العالم فكانت من أجلها موضع إعجاب الناس ومناظر حسدهم وحقدهم جميعاً وظلت بيزنطة أو القسطنطينية مركزاً حصيناً للسيحية في الشرق حتى ظهر الأتراك العثمانيون أمام المضائق في منتصف القرن الخامس عشر وكانوا في دفعتهم الحربية الأولى نحو الغرب قد غالبوا الطبيعة بإيمانهم فتغلبوا على ما أقامه أهل بيزنطة من حصون وسدود وسلاسل وأغلال شدوها وسط البوغاز لدرء خطر الهجوم، فلم يجد كل ذلك فتىلاً ودخل السلطان محمد الثاني القسطنطينية في سنة ١٤٥٣ وكان طبعاً أن يظل أمر المضائق من شئون تركيا وحدها بيدها مفاتيحها إن شاءت يسرت خلفاتها المرور فيها وإن شاءت أغلقتها في وجه الدول لا تبالي من تعاند، ولم يكن هذا يستغرب مادامت متفوقة في أوروبا وكانت لها الكلمة العليا على

الأقاليم المتاخمة لليواغيز . فلما بدأ ضعف تركيا وظهرت روسيا في أفق السياسة الدولية وقام بطرس الأكبر يرسم لها طريق النهوض والتفوق في أوروبا ووضع لها الأساس الدائم لسياستها الخارجية التي ما فتئت ترعاها إلى الآن ، وترمى هذه السياسة في جملتها إلى تخليص روسيا من عزلتها الجليدية بين بحار مغلقة أو متجمدة أكثر العام ، والأخذ بيدها نحو الغرب عن طريق البحر البلطى ومناهضة السويد وبولنده ، ونحو الجنوب عن طريق البحر الأسود ومنه إلى البسفور وبحر مرمره والدردينيل والبحر المتوسط حيث النشاط التجارى والمياه الدافئة .

وقد حقق بطرس الأكبر سيطرة روسيا على البحر البلطى وترك لسكترينا الثانية وخلفائها مهمة تحقيق الشطر الثاني من برنامجه وهى الزحف جنوبا على حساب تركيا . وعلى ذلك لم تعد مسألة المضائق من شأن تركيا وحدها بل ظهرت فى الميدان أمامها روسيا وبدأت سلسلة الحروب الروسية التركية وتتابعت على أثرها انهزامات تركيا وكان أول امتياز نالته روسيا فى سنة ١٧٧٤ بمقتضى معاهدة « كجوك قيناردجى » إذ سمح لها بحرية مرور سفنها التجارية داخل المضائق ثم ما لبثت الدول الأخرى أن انتفعت بهذه الميزة وجعلت بريطانيا وفرنسا تناهضان مطامع روسيا فى تركيا والمضائق وروسيا لا تنى لحظة عن توجيه ضرباتها واحدة تلو الأخرى ضد غريبتها ، وفى أثر كل ضربة كانت روسيا تأخذ أهبتها لبلوغ هدفها الأخير بالسيطرة على المضائق ، لكن الآلهة التى عهد القدماء إليها بحراسة البواغيز كانت دائماً إلى جانب الأتراك فخالفهم الحظ السعيد إلى الآن .

ويعتبر نابليون أول من لفت نظر الدول إلى أهمية المضائق فى التاريخ الحديث فقد تألبت ضده انجلترا وروسيا عندما فاجأ العالم بحملته على مصر فلما اضطر إلى الإفلات من مصر وتقلد الحكم فى فرنسا أرسل سفيره سبستيانى إلى القسطنطينية ليعمل على توثيق الروابط بينه وبين تركيا والحيلولة بينها وبين المحالفة المعادية لفرنسا . ونجح سبستيانى فى مهمته وأرادت انجلترا أن تؤدب تركيا فبعثت تطلب إليها إعلان الحرب على نابليون والإنضمام إلى جانب بريطانيا وروسيا ووضع

الأسطول التركي وحصون الدردنيل في يد الحلفاء فلما أبت تركيا قام أمير البحر الانجليزي دكورث Duckworth في مارس سنة ١٨٠٧ بحملة بحرية اقتحم بها المضائق وهدد القسطنطينية وكانت هذه أول محاولة في التاريخ الحديث لاستيلاء دولة أوروبية على المضائق . وما كاد الانجليز يبدأون بمحاولتهم حتى شمر الأتراك عن ساعد الجديعاعونهم الفرنسيون فأنشأوا الاستحكامات ونصبوا المدافع على مرتفعات المضائق وجمعوا الأسلحة من المخازن والمتاحف والمنازل وصنعوا القنابل والقذائف وظلوا في استعداداتهم ليل نهار حتى إذا وصل الأسطول الانجليزي إلى أقرب النقط منالاً للدفاعين انقض عليهم الأتراك بوابل من مدافعهم وقنابلهم وما زالوا بهم حتى ارتدوا على أعقابهم محملين بالحسائر مثقلين بخيبة الأمل .

ولم تجرؤ دولة أخرى على تكرار هذه المحاولة للإستيلاء على المضائق بهجوم مسلح إلا في أبان الحرب العالمية الأولى .

وجاءت فترة اتفاق فيها قيصر روسيا و نابليون في مدينة تلسيت Tilsit على حساب تركيا وكاد العاهلان يصلان إلى تسوية نهائية بشأن تقسيم أملاكها لولا تشدد نابليون في موضوع المضائق ومصير القسطنطينية وكان القيصر يريد لها من نصيب روسيا . وعلى ذلك سرعان ما حل التجافي بين الدولتين مكان الوفاق وقامت حرب الأمم ضد نابليون في روسيا أولا ثم في أسبانيا وألمانيا من بعد وبدأت قوات نابليون تتراجع أمام تصميم الشعوب على التخلص من طغيانه فانهمزم في موقعة ليبزج ١٨١٣ ثم في موقعة واترلو نهائياً في سنة ١٨١٥ .

وعلى أثر ذلك اجتمعت الدول في مؤتمر فينا سنة ١٨١٥ لتسوية المشاكل السياسية التي واجهتهم في اعقاب النظام النابليوني . وليس لمن شك في أن مشكلة المضائق ومصير تركيا وأملاكها كانت من أهم المسائل التي شغلت أذهان الدول وقتذاك ، ولكن روسيا آثرت أن تبقى المسألة الشرقية بعيدة عن متناول المؤتمرات الدولية حتى لا تتقيد روسيا أمام الدول بسياسة معينة بشأن تركيا ولكي تبقى المسألة الشرقية محصورة في دائرتها الضيقة بين تركيا وروسيا . وإذا لاحظنا إلى

ذلك أن تركيا لم تسكن كبرياؤها لتسمح لها أن تلتمس في مثل هذه المؤتمرات أسباب الضمان لاستقلالها وسلامة أراضيها لاسيما أن المبادئ الجديدة التي كانت تربط بين تلك الدول في سنة ١٨١٥ كانت تستند إلى روح التعاون الذي تفرضه الأخوة المسيحية بين ملوك أوروبا وأمراتها وفق نصوص المحالفة المقدسة - إذا لاحظنا ذلك أدركنا الأسباب التي جعلت مؤتمر فيينا يغفل موضوع المسألة الشرقية وكان اغفالها سببا لتوالي الحروب في هذه المنطقة في القرن التاسع عشر .

وكان موضوع المسألة الشرقية يتسكون من شعبتين رئيسيتين الأولى مشكلة المضايق والثانية مصير أملاك تركيا بعد ما بدا من ضعفها في الداخل والخارج . أما عن مصير أملاك الدولة فإن إنجلترا كانت لا تفتأ تبتدىء وتعيد عباراتها التقايدية بضرورة حفظ استقلال الدولة وسلامة أملاكها . ولكن ذلك لم يكن يعدو مجرد الكلام ولم تسكن إنجلترا مستعدة لضمان سلامة تركيا بالقوة اللهم إلا إذا مست مصالحها بطريق مباشرة . وعلى ذلك بقيت أملاك الدولة العثمانية عرضة للسلب والافتطاع حتى تم تمزيقها عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى .

وأما موضوع المضايق فلا يزال إلى الآن مثار نقاش وجدال بين الدول ، وكانت القاعدة القديمة التي سارت عليها تركيا وأقرتها الدول عرفياً أن تركيا هي صاحبة الأمر كله في المنطقة وان المضايق بصفة عامة يجب اغلاقها في وجه جميع السفن الحربية . أما السفن التجارية فقد رخصت معاهدة كجوك قيناردجي سنة ١٧٧٤ بمرورها ولما قامت الحرب الروسية التركية وعقدت بين المتحاربين معاهدة أدرنه سنة ١٨٢٩ تأيدت فيها حرية الملاحة للسفن التجارية في المضايق والبحر الأسود .

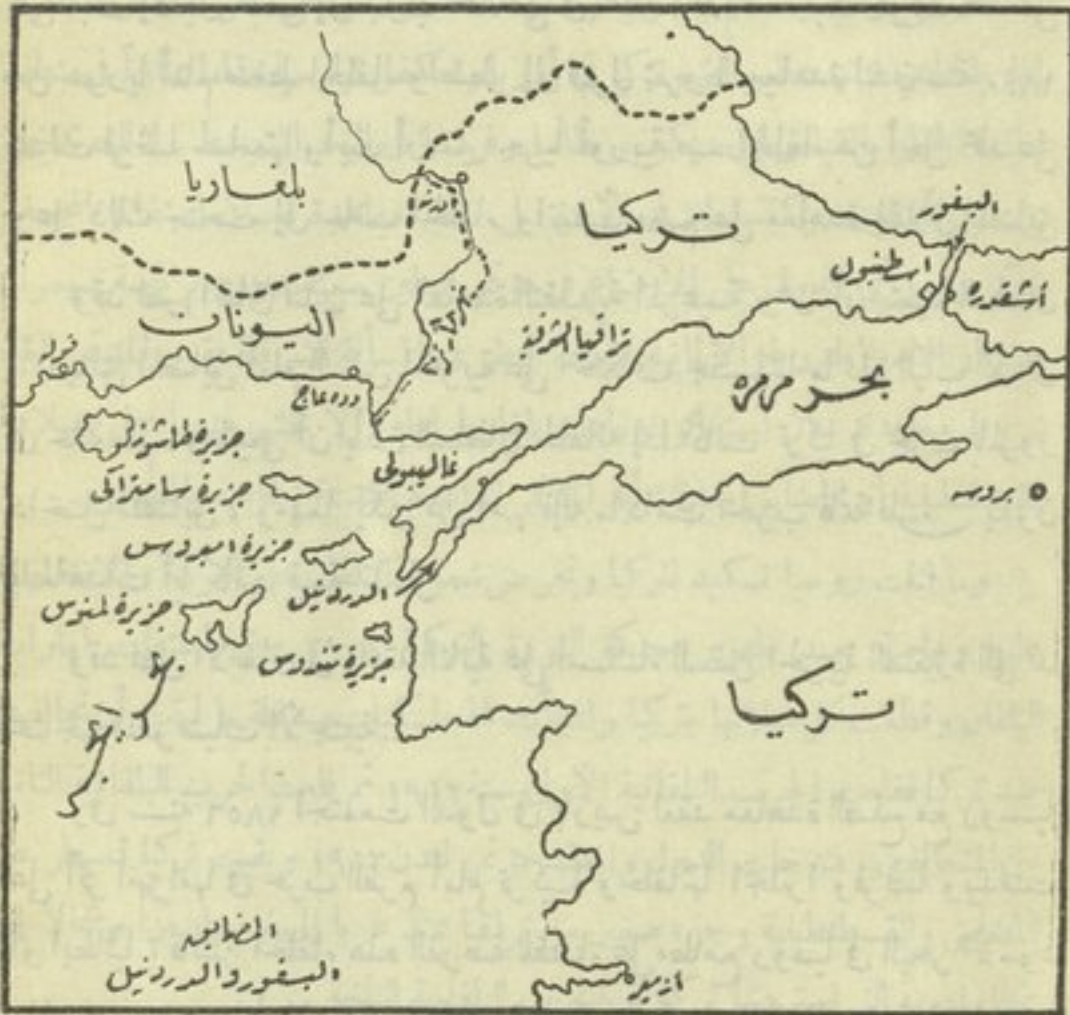
وكانت روسيا تعلم علم اليقين أن أي مساس بالقاعدة القديمة التي تمسكت بها تركيا لا بد أن يعرضها لمشاكل دولية قد تؤدي بها إلى الحرب . ولذلك انتهجت خطة تنطوي على الحذر وضبط النفس فلم تعتمد على الافادة من انتصاراتها بكسب خاص بها في منطقة المضايق . إلا مرة واحدة وكان ذلك في سنة ١٨٣٢ حين كان

محمد على الكبير يهدد القسطنطينية والمضايق على أثر انتصاره على قوات السلطان في موقعة قونية الشهيرة فقد طلبت تركيا المساعدة البحرية من إنجلترا فاعتذرت الحكومة الانجليزية . وعلى ذلك رحب السلطان محمود الثاني بما بدا من استعداد روسيا لمعاوته وفعلا أرسلت روسيا نجدتين بلغتا ١٥٠٠٠ جندي أقاموا أمام ترابيا على ضفة البسفور الاسيوية لحماية المضايق . عند ذلك ثارت نائرة الدولتين الغربيتين إنجلترا وفرنسا وبذلنا كل مافي وسعهما لعقد الصلح بين تركيا ومحمد على حتى لا يبقى أمام روسيا مبرر لابقاء قواتها .

وفعلا تم الصلح بين المتحاربين ولسكن روسيا لم تشأ أن تغادر أراضي تركيا قبل أن تأخذ ثمنا لنجدتها فعقدت مع الباب العالي معاهدة هنكيار اسكلى في يولييه سنة ١٨٢٣ وهى معاهدة حرية دفاعية اتفق فيها سرأ على أنه فى مقابل المساعدة الحربية التى يتمهد القيصر بتقديمها للسلطان عند الحاجة لا يريد القيصر أن يطالب السلطان بمساعدة فعلية وانما يكتبى منه باغلاق الدردنيل فى وجه جميع السفن الحربية لجميع الدول . ولم ينص فى المعاهدة على شىء خاص بالبسفور وهو المضيق الذى يوصل بحر مرمره بالبحر الاسود والذى تقع القسطنطينية على ضفته الاوربية . فكان معاهدة هنكيار اسكلى قد تركت البسفور تحت رحمة الاسطول الروسى إذا شاءت اخترقته وألقت مراسى أسطوطها أمام القسطنطينية على أن يظل الدردنيل مغلقاً أمام سفن الدول الأخرى . ومعنى هذا أن تصبح مفاتيح البوابة بيد روسيا أن شاءت طلبت إلى السلطان فتحها لتنفذ منها إلى البحر المتوسط وفى هذا مخالفة صريحة للقاعدة القديمة التى تجعل المضايق مغلقة فى وجه جميع الدول على السواء وتترك لسلطان تركيا وحده الهيمنة على المضايق .

ولذلك توترت العلاقات بين روسيا ودول الغرب وظهرت للعالم مطامع روسيا جلية بشأن تركيا ووضع لبريطانيا وضوحا لا لبس فيه ان روسيا تعمل جاهدة لافتحام منطقة البحر المتوسط وتهديد مصالح بريطانيا فى الشرق . وعلى ذلك اتخذت مشكلة المضايق صفتها الدولية العالمية واتجهت أنظار الدول إلى هذه المنطقة

الاستراتيجية الخطيرة فجعلت الدول تعمل مع تركيا الضعيفة لصيانة هذه المنطقة وتأمينها لا بالوسائل التي كانت سائغة عند آلهة الأغبوق القدماء ولا بمستحدثات الدفاع التي اخترعها العقل البشري وأنتجتها البحوث العلمية والنهضة الصناعية الحديثة ، ولكن بالاتفاقات والمعاهدات الدولية ، لعل ذلك أن يوقظ ضمير الدول السيامي ، ويجعل منه سنداً يحتتمى به الضعيف وقوة يرهها القوي .



وعلى ذلك جاءت سلسلة الاتفاقات الدولية التي أبرمت في أثناء القرنين التاسع عشر والعشرين بشأن المضائق وقد كان آخرها اتفاق منتر سنة ١٩٣٦ . أما أولها فكان اتفاق لندن في سنة ١٨٤١ وقد أبرمته الدول عقب الأزيمة الدولية التي أنارتها فتوح محمد علي الكبير وتهديده القسطنطينية بعد أنتصاره في وقعة

نصيين أو نزيب الشهيرة عام ١٨٣٩ فقد خشيت الدول إذ ذاك أن تتقدم روسيا بأساطيلها وجيوشها فتخترق البواغيز بمساعدة السلطان تنفيذاً لمعاهدة هنسكيار اسكلسي ثم تتخذ من هذه المساعدة مبرراً لكسب ميزات أقليمية أو سياسية تميزها على سائر الدول وبذلك تعيد مأساة سنة ١٨٣٢ . ولكن روسيا كانت قد سئمت العزلة السياسية فانضمت إلى إنجلترا والنمسا وبروسيا ضد محمد علي وضد فرنسا التي أبت إلا أن تقف إلى جانب محمد علي في محنته . فلما انسحبت قوات محمد علي من سوريا أمام ضغط الحلفاء واضطر إلى قبول شروط معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ عدلت فرنسا سياستها وأبت أن تثير حرباً أوربية ضد الحلفاء من أجل محمد علي وعلى ذلك جنحت إلى جانب الحلفاء واتفقت معهم على معاهدة اغلاق المضائق وقد نص اتفاق لندن على القاعدة التقليدية المرعية وهي أن يتعهد السلطان بأن يغلّق المضائق أمام السفن الحربية على اختلاف جنسياتها ما دام الباب العالي في حالة سلم . وطبيعي أن يأذن السلطان لحلفائه إذا كانت تركيا في حرب بالمرور داخل المضائق ، ومهما يكن من أمر فإنه ما دامت الحرب قائمة فلن يكون للمعاهدات أيا كانت قيمة تذكر .

وقد نص الاتفاق في مادته الثانية على استثناء السفن الحربية الصغيرة التي قد تحتاجها المفوضيات الأجنبية .

وفي سنة ١٨٥٦ اجتمعت الدول في باريس لعقد معاهدة الصلح مع روسيا على أثر انتهزامها في حرب القرم أمام تركيا وحلفائها إنجلترا وفرنسا وبيدمنت أو إيطاليا ، فانتهز الحلفاء هذه الفرصة للقضاء على مطامع روسيا في البحر الأسود والمضائق وقرروا أولاً توكيد القاعدة القديمة الخاصة بالمضائق ثم زادوا عليها تقرير حيدة البحر الأسود ، ومعناها إزالة القواعد البحرية ومنع تحصين الثغور وحظر إقامة الاساطيل الحربية في مياهه وامكان مرور اساطيل الدول بداخله في وقت الحرب وتهديد روسيا بكل سهولة . وكان هذا اكبر إذلال منيت به روسيا في القرن التاسع عشر . وظلت روسيا ترسّف في هذا القيد مدة خمسة عشر عاماً

إلى أن سنحت لها الفرصة للتخلص منه عقب الحرب الفرنسية البروسية سنة ١٨٧٠ فكان لها ما أرادت ثمنا لوقوفها على الحياد في الحرب الفرنسية البروسية .

وفي سنة ١٨٧٦ قامت الحرب من جديد بين روسيا وتركيا فزحفت الجيوش الروسية جنوبا مخترقة البلقان مهددة القسطنطينية والمضايق فسارع الباب العالي بطلب الصلح وعقد معاهدة سان استفانو ١٨٧٨ وبمقتضاها انشئت لبلغاريا دولة اشتملت على تراقيا ومعظم مقدونيا وصار لها ساحل ممتد على بحر ايجه وأصبحت بلغاريا الجديدة تهدد اليونان وتركيا في أوروبا وتسكفل لروسيا مقاما ممتازا في منطقة عظيمة الخطر بالقياس إلى مركز بريطانيا وفرنسا في البحر المتوسط . لذلك تدخل دزرائيلي أو لورد بيكنسفيلد في الأمر قبل تنفيذ معاهدة سان استفانو المحجفة بتركيا وقر رأى الدول على الاجتماع في مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ برئاسة بسمرك مستشار الامبراطورية الالمانية لاعادة النظر في المسألة الشرقية فقرر المؤتمر الغاء شروط معاهدة سان استفانو وعادت بلغاريا امارا لا يخشى منها على سلامة القسطنطينية أو المضايق وبذلك أيد المؤتمر القاعدة القديمة الخاصة بالمضايق .

وما فتئت روسيا تسكيد اتركيا وتحرض شعوب البلقان على الثورة والانتفاض عليها وخاصة بعد ظهور حركة الثورة التركية ١٩٠٨ حتى استقامت امارات البلقان وقطعت كل صلاتها بتركيا وانشأت لها ممالك مستقلة ما لبثت أن تحالفت ضد تركيا فقامت الحرب البلقانية الأولى سنة ١٩١٢ ثم قامت الحرب البلقانية الثانية بين المتحالفين ، فتدخلت الدول وانعقد مؤتمر لندن ١٩١٣ وبقيت تركيا تسيطر على المضايق والقسطنطينية وجزء صغير من تراقيا يمتد غربا إلى نهر ماريتزا وشمالا إلى شمال ادرنه التي استردتها تركيا في الحرب البلقانية الثانية .

ثم حدث تطور خطير قبيل نشوب الحرب العالمية الأولى فقد ضؤل شأن روسيا حربياً بسبب هزيمتها النكراء أمام اليابان برأ وبحرا في سنة ١٩٠٥ فلم يعد لها ذلك الشأن الذي كانت تخشاه انجلترا فقربت بينهما فرنسا وتعاقدت الدولتان في سنة ١٩٠٧ وأصبحت المانيا لا الروسية مصدر الخطر وموضع السخط

والسكراهية والخوف من الجميع . فلما نشبت الحرب العالمية الاولى كانت روسيا إلى جانب الحلفاء على حين انحازت تركيا إلى جانب المانيا فتعرضت المضايق من جراء ذلك لأقسى تجربة في تاريخها الحديث . فقد كان من صالح الحلفاء أن يستبقوا الروس إلى جانبهم ليقاتلوا الالمان في الجبهة الشرقية وكان الحافظ الوحيد السكفيل بانارة حماسهم للحرب أن يعدم الحلفاء بتحقيق امانهم في القسطنطينية والمضايق بعد انتهائها . وفعلا عقد اتفاق سرى في سنة ١٩١٥ بين بريطانيا وفرنسا وروسيا نص فيه على أن تكون القسطنطينية والمضايق بعد الحرب من نصيب روسيا بشرط أن يكون لانجلترا الجزيرتان اللتان تتحكما في مدخل الدردنيل وهماجزيرة « تندوس » من جهة الشرق و « امبروس » من الغرب . ومع أن هذا الاتفاق السرى لم يتحقق لنشوب الثورة البلشفية في روسيا وخروجها من الحرب قبل نهايته فان شروط الاتفاق وفداحة الثمن الذي دفعته بريطانيا تنهى عن حالة اليأس الشديد الذى كان مستوليا على السياسة الانجليزية في ذلك الوقت .

وكانت تركيا حين دخلت الحرب إلى جانب المانيا قد هاجمت روسيا في القوقاز فتعذر على روسيا المتهالكة المضعضة في ذلك الوقت ان تباشر بنجاح حربيين في ميدانين عظيمين بعيدى الشقة فطلبت إلى الحلفاء تخفيف الضغط عنها بحملة ترسلها انجلترا ضد المضايق فقامت حملة غاليبولى الشهيرة في مارس سنة ١٩١٥ وكان تشرشل وزير البحرية الانجليزية إذ ذاك اكبر داعية للحملة واضطرت انجلترا إلى سحبها بعد تسعة أشهر تحملت فيها خسائر جمة ولم تقو على ادراك شىء من غرضها الحربى الذى قصدت اليه من اختراق المضايق .

ثم انتهت الحرب في خريف سنة ١٩١٨ وكانت روسيا صاحبة المطامع والدعاوى العريضة في المضايق والبلقان عامة قد تركت الميدان غارقة في ثورتها زاهدة في كل ما كسبته من مزايا اقليمية بمقتضى معاهدة سنة ١٩١٥ وعلى ذلك قرر الحلفاء أن تشرف على المضايق والقسطنطينية لجنة دولية تمثل الحلفاء ، فاحتلوا القسطنطينية وأملوا على حكومة تركيا المهذمة شروط معاهدة « سيفر » Sévres سنة ١٩٢٠

وهي المعاهدة التي قررت النزول للاغريق عن جزء كبير من منطقة المضائق وجزء من آسيا الصغرى وتكوين لجنة من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا لمراقبة المضائق نفسها . وهي في النهاية معاهدة لم يقدر لها التنفيذ إذ ما لبث مصطفى كمال أن أعلن ثورته المشهورة وقاد الأمة التركية من نصر في ميادين الحرب إلى نصر سلمي جديد كانت له اثاره في نظم الحكم والاجتماع واضطر الحلفاء ان يعقدوا معه صلحا شريفاً في لوزان ٢٤ يولييه سنة ١٩٢٣ وفي هذا المؤتمر لم يمل الحلفاء شروطهم على تركيا كما اعتادوا أن يفعلوا من قديم أو كما املوها على المانيا والنمسا من قبل إذ أخذ عصمت باشا ممثل تركيا الحديده مكانه على قدم المساواة مع لورد كرزون Curzon ممثل انجلترا الارستقراطي العظيم وجعل يعرض مطالب تركيا غير هياب ولا وجل ويرد على اللورد حجة بحجة .

ولما جاء دور البحث في مشكلة المضائق لم ير الحلفاء بدأ من قبول شيشيرين Ohicherin ممثلاً لحكومة السوفيت الجديدة على رغم أن دول الحلفاء لم يكن يربطها بحكومة السوفيت صلة ما ، لا سياسية ولا اقتصادية . ومن العجب في هذا المؤتمر أن يكون ممثل روسيا عدوة تركيا القديمة أقوى نصير لتركيا الجديدة وأول محام عن قضيتها ضد الحلفاء وضد بريطانيا بصفة خاصة ، ذلك لأن بريطانيا التي ظلت قرناً أو أكثر تعلن عن صداقتها لتركيا وتنادى بضرورة التمسك بحق الساطان في أن يفلق المضائق أمام جميع السفن الحربية منعاً لروسيا من التسلل بأساطيلها إلى البحر المتوسط قد جاءت إلى مؤتمر لوزان تنشر مذهباً جديداً يناقض مذهبها القديم وتبشر بالمبادئ الجديدة التي تدعو إلى الإيمان بحرية البحار وحرية الملاحة للجميع . وعلى ذلك وجب على تركيا أن تترك المضائق حرة فلا يكون لها فيها قواعد بحرية أو جوية ولا يكون على ضفافها حصون أو قلاع أو حاميات أو طائرات ولا يرسو بمائها سفن مسلحة أو تبث فيه ألغام تعوق الملاحة في السلم أو في الحرب . وهنا تساءلت تركيا وروسيا لفائدة من هذه المبادئ الجديدة ؟ يقينا أنها لم تكن لفائدة تركيا فان حيدة المضائق تحرم عليها تسليحها وتجعلها هدفاً لهجوم الأعداء

في أي وقت . وظاهر أنها لم تكن لفائدة روسيا فان هذه الحيدة تيسر لبريطانيا وحلفائها اختراق المضائق بأساطيلها الحربية وتهديد روسيا في عمر دارها بالقرم . إذن لم يبق شك في أن الحلفاء إنما أرادوا بمبدأ حرية البحار الذي طلبوا تطبيقه على هذه المضائق أن يضمّنوا مصالحهم الخاصة وأن يكفّلوا لأساطيلهم الحربية حرية المرور في المضائق والبحر الأسود ضد السوفيت إذا اقتضت الحال . وقد بانّت أغراض الحلفاء هذه بالنجدات البحرية التي أرسلتها بريطانيا بطريق المضائق لمساعدة النافرين وقتذاك في روسيا البيضاء ضد السوفيت . وبعد نقاش وجدال وأخذ ورد لم يسع تركيا إزاء ما كسبته في لوزان من الاعتراف بحقها في استرداد أدرنه وتراقيا وغاليبولي إلى مزايا أقليمية أخرى - أن تسترسل في معارضة سياسة انجائرا بشأن المضائق فوافقتها على رغم احتجاج روسيا وإصرارها على تأكيد السياسة التقليدية التي تجعل شأن البواغيز بيد تركيا تغلقها أمام جميع السفن الحربية لكافة الدول على السواء . وكانت الدول قد اشترطت في حرية مرور السفن الحربية ألا تزيد مجموع حمولة السفن التي تخترق المضائق على مجموع حمولة أقوى دولة من دول البحر الأسود ولكن مندوب روسيا فطن إلى الخطر الذي يهدد روسيا من جراء ذلك فاعترض وتساءل عما يكون عليه الحال إذا اشترك في إختراق المضائق أكثر من دولة . ولكن اعتراض روسيا لم يلق قبولا من جانب الحلفاء ولا من جانب تركيا نفسها التي آثرت الاتفاق معهم

وعلى ذلك نصت معاهدة لوزان على حرية الملاحة في المضائق للجميع في الحرب والسلم بشروط معينة ومنها الشرط الذي يحدد حمولة السفن التي تمر بها ، ومنها أن الغواصات لا تمر إلا سابحة فوق الماء ، ومنها أيضاً ألا تبقى الأساطيل داخل المنطقة أكثر مما يستغرقه مرورها ، ومنها ألا تقوم أساطيل الدول المتحاربة بأعمال حربية داخل المضائق في زمن الحرب ، وإذا كانت تركيا في حرب فلها أن تفتش السفن التجارية في أثناء مرورها . وضمائنا لحرية الملاحة قررت الدول حيدة شبه جزيرة غاليبولي وجزيرتي تندوس وأمروس التابعتين لتركيا وجزيرتي لمنوس

وسامتراكي التابعتين لليونان وهذه الجزر تتحكم جميعاً في مدخل البواغيز ، وكذلك
تقررت حيدة ضفتي البسفور إلى بعد عشرة أميال في الداخل .
ولم يبخس الحلفاء حق تركيا جملة في تأمين نفسها فرخصوا لها بتحسين
القسطنطينية وجعلها قاعدة بحرية وإبقاء حامية حربية بها قوامها ١٢ر٠٠٠ جندي
وكونوا لجنة دولية برياسة تركيا لمراقبة تنفيذ هذه الشروط وكانت اللجنة تضم
عضواً من كل من : بريطانيا وفرنسا وإيطاليا واليابان وبلغاريا واليونان ورومانيا
وروسيا . وقد نصت المادة الثامنة عشرة من المعاهدة على أن تقوم بريطانيا وفرنسا
وإيطاليا واليابان باتخاذ الاجراءات التي تطلبها عصبة الأمم لضمان حرية الملاحة
في المضائق ورد العدوان عنها . وقد وافقت روسيا على المعاهدة في آخر الأمر
وبقيت شروط هذه المعاهدة قائمة أكثر من ١٢ عاماً استطاعت تركيا في أثناءها أن
تفرغ لتنفيذ برنامج الإصلاح الكيالي الذي خلق من تركيا دولة فنية موطدة الأركان ومن
الأترك شعباً ناهضاً سرعان ما انعقدت له الزعامة في البلقان وفي شرق البحر المتوسط
وفي سنة ١٩٣٥ - ١٩٣٦ اكفهر جو السياسة الدولية في أوروبا بل في العالم
كله فقد هاجمت إيطاليا أثيوبيا وجردت ضدها جيوشها وطائراتها وأساطيلها
وغازاتها السامة متحدية في ذلك بريطانيا ومن ورائها عصبة الأمم . ولما لم يفد توقيع
العقوبات الاقتصادية ضدها ووضح للناس خيبة أملهم في العصبة وفي مبدأ التأمين
الجمعي ضد العدوان وظهر أن ميثاق العصبة وحده لا يستطيع أن يدفع شراً أو
يمنع عدواناً - انتهزت تركيا هذه الفرصة السيكولوجية وأبدت رغبتها في ضرورة
تعديل معاهدة لوزان بشأن المضائق حتى لا يتعرض أمنها وسلامتها لعبث دولة
مهاجمة كإيطاليا . وكان من صالح انجلترا بعد أزمة الحبشة أن يسكون لها حلفاء
أقوياء في البحر المتوسط كتركيا وأن يكون هؤلاء الحلفاء مسلحين وبمأمن من
هجمات العدو ، فأجابت تركيا إلى ما طلبت .
و كذلك انحازت روسيا إلى تركيا إذ لم يكن في مصاحبتها أن تبقى البواغيز
مفتوحة لأساطيل الدول تهدد نغورها وقواعدها في البحر الأسود . وكانت

المخالفة بين البلدين قد ساعدت على تصفية الجو بينهما ونزع الضغائن من الصدور فلم يعد يضايق روسيا أن تسليح صديقتها تركيا وتمتشق حسامها ذياتاً عن البواغيز . ولم تشأ تركيا أن تشبه بألمانيا أو إيطاليا فتعمد في تحقيق أغراضها إلى القوة وخرق المعاهدات وآثرت أن تدعو الدول إلى مؤتمر سريع يجيب تركيا إلى رغباتها وانعقد المؤتمر في منترو في يولية سنة ١٩٣٦ وقرر الغاء القيود الدولية التي وضعت في مؤتمر لوزان بشأن الرقابة على المضائق ونص على حق تركيا في تسليحها وتحصينها كما تريد وقرر بشأن الملاحة ما يأتي :

١ - في وقت السلم تسكون الملاحة التجارية حرة للجميع ويسمح بمرور السفن الحربية عدا الغواصات وحاملات الطائرات والبوارج التي تزيد حمولتها على ١٠٠٠٠ طن .

٢ - وفي وقت الحرب إذا كانت تركيا محايدة يحظر على سفن الدول المحاربة المرور إلا بقرار من عصبة الأمم أو كان ذلك لمعاونة حايفة لتركيا سبق أن رتبقت معها بمخالفة أعلنت وسجلت في عصبة الأمم .

٣ - أما إذا كانت تركيا دولة محاربة فيحظر مرور السفن التجارية التابعة للعدو أو للسفن المحايدة التي تحمل رجالاً أو ذخيرة للعدو ويبقى حق التصريح بالمرور في المضائق بيد تركيا تستعمله كما تشاء حتى إذا لم تسكن هناك حرب واقعة وقد نصت المعاهدة في المادتين ١١ و ١٢ على أن الترخيص للدول الواقعة على البحر الأسود في إرسال سفنها الحربية السكبرى داخل المضائق بشرط مرور هذه السفن فرادى وإلا تحرسها أكثر من مدمرتين اثنتين ولها أن ترسل غواصاتها داخل المضائق بقصد الوصول إلى قواعدها إذا كانت الغواصات قد صنعت أو اشترت خارج البحر الاسود ولها أن ترسل هذه الغواصات للإصلاح أيضاً وفي جميع هذه الحالات تسكون الملاحة نهراً وعلى وجه الماء ويكون مرورها فرادى وبعد إخطار الحكومة التركية بوقت كاف .

وعلى ذلك عاد حق السيادة في المضائق كاملاً لتركيا ، ولأول مرة في تازيخ

المضايق اتفقت كلمة بريطانيا وروسيا وتركيا على مصلحة واحدة وأصبح مفتاح البواغيز بيد حارس البوابة وصاحب الدار . والدول التي اشتركت في هذه المعاهدة هي بريطانيا وفرنسا وروسيا واليابان وتركيا وبلغاريا ورومانيا ويوغسلافيا واليونان واستراليا . ولم تشترك إيطاليا كما لم تدع ألمانيا إلى الاشتراك

ولما نشبت الحرب العالمية الثانية أعلنت تركيا حيديتها وحافظت على هذه الحيادة إلى النهاية ووقعت إحداث كان يخشى منها أن تعتدى ألمانيا على حيادة المضايق . ولكن ألمانيا رغم اقترابها من سواحل المضايق وهي تحارب في البلقان ثم في روسيا لم تسكن في حاجة ملحة إلى استعمال المضايق لعدم كفايتها البحرية من جهة ولا اعتمادها على مواصلاتها وقواتها البرية من جهة أخرى . أما الحلفاء فانهم كانوا بطبيعة الحال يرحبون باستعمال المضايق للاتصال بروسيا ولكن الطريق إلى المضايق لم يسكن مهدداً أمام الحلفاء وقد تحصن الألمان في كريت وبحر إيجه وساحل تراقيا الشرقية وعلى ذلك لجأ الحلفاء إلى استخدام طريق إيران والخليج الفارسي لا احتراماً لمبدأ إغلاق المضايق بل عجزاً عن اختراقها

والآن بعد أن وضعت الحرب أوزارها واجتمع مؤتمر الصلح الأول في قصر لكسمبورج بباريس في يولييه سنة ١٩٤٦ لتقرير شروط الصلح مع الدول التي اشتركت في الحرب إلى جانب المحور ضد الحلفاء ، واجتمع ممثلو الدول الأربع في موسكو في مارس سنة ١٩٤٧ محاولين الاتفاق على شروط الصلح مع ألمانيا والنمسا فان مشكلة المضايق لا بد أن تطرح يوماً ما على بساط البحث وستكون حينئذ مثار خلاف شديد بين الدول ، فان روسيا بعد ان دعمت ثورتها في الداخل ووطدت مكائنها في أوروبا وفي العالم كله بفضل ما اضطلعت به من بطولة في مقاومة هتلر ثم في مطاردة فلور جيوشه إلى أسوار برلين ستعمل جاهدة على تبوء مكانها المرموق على مسرح السياسة الدولية ولن تسكت في هذه المرة بأن تلعب دور المتفرج في حلبة المشكلات الدولية الكبرى فترضى بأن تمسك تركيا بمفتاح البوابة إذ لم تعد تخشى مهاجمة الدول بعد أن نهضت حريياً وبحرياً وجوياً ، بل على العكس يهيمها

الآن أن تفتح أبواب المضائق وأن تكون حرة ليتسنى لها الاتصال بالعالم الخارجي متى وكيفما شاءت ولن تنسى روسيا المرارة التي ذاقتها في بدء هذه الحرب الأخيرة عند ما كانت تحارب إلى جانب الألمان وطالبت تركيا بأن تغلق المضائق في وجه بريطانيا وفرنسا فلم تستجب لها تركيا وتمسكت بحيدتها التي أعانتها منذ نشبت الحرب إلى نهايتها ، فانقلبت الصداقة القديمة بين البلدين إلى عداوة أعادت إلى الذاكرة ما كان بين الدولتين في العهد القيصري من جفاء ومرارة وعداء مستحكم . لذلك لم يكن مستغرباً أن تنذر روسيا تركيا بعدم رغبتها في تجديد معاهدة الصداقة الروسية التركية التي انتهت أجلها في سنة ١٩٤٥ كما أنها تقدمت في سنة ١٩٤٦ بمذكرة تطلب فيها إعادة النظر في معاهدة منترو الخاصة بالمضائق . وقد تضمنت المذكرة المبادئ التي ترى حكومة السوفيت أن تقوم عليها سياسة المضائق وهي :

١ - أن تظل المضائق مفتوحة دائماً لمرور السفن التجارية

لجميع الأمم

٢ - أن تظل المضائق مفتوحة دائماً لمرور السفن الحربية التابعة للدول

الواقعة على البحر الأسود

٣ - ألا يسمح - إلا في أحوال خاصة - للسفن الحربية غير التابعة

للدول الواقعة على البحر الأسود بالمرور في المضائق .

٤ - أن يلاحظ في النظام الجديد الذي يوضع للمضائق صالح تركيا والدول

الواقعة على البحر الأسود

٥ - أن تشترك حكومة الاتحاد السوفيتي و تركيا في تنظيم الدفاع عن الدردنيل

والحيولة دون استخدام الدول الأخرى للمضائق لأغراض تتعارض مع صالح

الدول الواقعة في البحر الأسود

وتعتقد الحكومة السوفيتية أن هذه المقترحات لا يمكن أن تؤثر بحال ما في

سيادة تركيا وأن التدابير الدفاعية التي يشترك في وضعها الاتحاد السوفيتي مع تركيا

ستكون أقوى وأدعى إلى الاطمئنان من التدابير التي تضعها تركيا بمفردها .

وتنص المادة ٢٨ من معاهدة منترو على أن مدتها عشرون سنة ولكن

المادة ٢٩ تجيز للدول أن تطلب تعديل موادها بعد انقضاء خمس سنوات

أو مضاعفتها من تاريخ سريانها ، وعلى ذلك تسكون المعاهدة قابلة للتعديل في نوفمبر سنة ١٩٤٦ بعد انقضاء فترتين عليها .

وقد أثار مقترحات روسيا زوبعة دبلوماسية على درجة عظيمة من الخطورة فان حكومة السوفيت أرادت أن تحصر مجال المناقشة في مواد المعاهدة على الدول ذوات المصالح في البحر الاسود وهي روسيا وتركيا ورومانيا وبلغاريا وأن تجعل مهمة الدفاع عن المضائق مقصورة على هذه الدول أو على روسيا وتركيا وحدهما ولذلك طالبت روسيا بأن يكون لها قواعد بحرية وجوية على المضائق . وتركيا مصممة تصميا أكيدا على التمسك بحقوقها ، والأتراك قد يقبلون الرأي الذي أبدته بريطانيا وأمريكا في أن تسكون المضائق حرة للملاحة لجميع الدول ولكنها تأتي أن توضع المضائق تحت اشراف لجنة تسيطر عليها روسيا ويكون من أعضائها رومانيا وبلغاريا وكتاتهما تدوران في الفلك السوفيتي وكاتنا من الدول التي تعاونت مع المحور أو أن يكون لروسيا قواعد بحرية أو جوية على شبر من أرضها .

وغنى عن البيان أن بريطانيا ومعها الولايات المتحدة ستتمسكان للنهاية بدولية المضائق ووجوب اشتراك الدول الكبرى في بحث موضوعها والاتفاق النهائي بشأنها على أن تشترك الولايات المتحدة في الاتفاق وتحل مكان اليابان إذ لم تسكن الولايات المتحدة من الدول الموقعة على معاهدة منترو . ووضع من خطاب مستر ترومان رئيس الولايات المتحدة أمام الكونغرس الأمريكي الذي يجمع بين نواب الأمة وشيوخها في مارس سنة ١٩٤٧ والذي طالب فيه بالموافقة على اعتماد مبلغ ٤٠٠ مليون دولار لمساعدة كل من اليونان وتركيا - أن أمريكا معتزمة التدخل في شؤون المضائق والبحر المتوسط بطريق لا تدع مجالاً للشك في أنها تريد أن تصحح الميزان السياسي بين القوى المتنافسة في البحر المتوسط . فاذا أصرت روسيا على تعديل معاهدة منترو وفق مصلحتها وعلى غير ما ترضى به تركيا وأصدقائها فلن يمضي وقت طويل حتى تظهر في أفق السياسة العالمية ، مسألة شرقية جديدة ، تختلف من أجلها الدول اختلافا شديداً وقد تشبكت بسببها في حرب طاحنة تناضل فيها تركيا وتقف منها كما وقفت في سنة ١٩١٩ لا كما كان يقف الرجل المريض أمام روسيا قبل ذلك التاريخ .

الفصل الخامس

بوابات البحر المتوسط

جبل طارق وطنججه

١ - جبل طارق:

إذا ذكر الانجليز في كتاباتهم أو في سياستهم كلمة «الصخر» The Rock ، اقترن الاسم بالمناة والمناعة وانصرف الذهن رأساً إلى تلك القلعة الجائمة فوق الجبل الذي يشرف على المضيق ، وكلاهما عرف باسم ذلك الفاتح العربي الذي كان أول من دل على أهمية ذلك الموقع من الوجهة الحربية في القرن السابع بعد الميلاد . وناهيك بمضيق تكنتفه الجبال الشوامخ شمالاً وجنوباً ويفصل بين قارتين عظيمتين كما يوصل بين بحرين خصمين أحدهما في وسط المعمورة تلامس أمواجه سواحل أعرق الأمم مدنية في حقب التاريخ المختلفة والثاني أحد المحيطات الخمسة التي تغمر نحو ثلاثة أرباع الكرة الأرضية بالماء وتجعل السكون من ورائها ظلمات بعضها فوق بعض .

وكان الفينيقيون القدماء أول من خاطر وافي البحر المتوسط غرباً واجتازوا المضيق شمالاً إلى البرتغال وجزر سبلي قرب سواحل انجلترا الجنوبية ، ولكنهم احتكروا الملاحة والتجارة في تلك الأصقاع وحرموها على غيرهم من ملاحى البحر المتوسط اربادها . ثم ذهبت دولة الفينيقين وقام الكفاح بين روما وقرطاجه فتغلب الرومان وجعلوا ينشرون سلطانهم رويداً رويداً حتى أصبح البحر المتوسط بحيرة رومانية واجتازت سفنهم ذلك المضيق الذي أطلقوا عليه «عمدهرقل» لمناعة المرتفعات التي تقوم على جانبيه من الناحيتين الأوربية والأفريقية وليس بينهما سوى ١٤ كيلومتراً . وكانت الصلات والروابط بين

الجانبيين من السهولة واليسر لدرجة دعت بعضهم إلى حسابان اسبانيا جرماً من أفريقية واعتبار جبال البرانس هي الحد الجنوبي الذي يفصل أوربا عن أفريقية . لذلك لم تظهر للمضيق في زمن الرومان أهمية حربية تذكر .

ولما زحفت القبائل الجرمانية المتبربرة في القرن الخامس بعد الميلاد تحتل الأرجاء التي زال عنها سلطان روما لم يكن لهؤلاء المتبربرين في أول أمرهم سابق عهد بالملاحة أو بالبحار عامة ، ولكنهم سرعان ما مروا على الملاحة والقرصنة حتى أضحي غرب البحر المتوسط مسرحاً لنشاطهم وسطوتهم فاحتل القوط الغربيون اسبانيا ، وجاء الوندال على أثرهم فاجتازوا المضيق إلى شمالي أفريقية فاحتلوها وكانوا قوماً معروفين بالفتك والتدمير فاندثرت حضارة أفريقية الشمالية بعد أن كانت من أغنى ولايات الامبراطورية الرومانية وأعلاها كعباً في الحضارة وقد حاول جوستينيان امبراطور الدولة الرومانية الشرقية استرجاع هذه الأرجاء تحت النفوذ الروماني وانتصر قائده بالساريوس على جموع المتبربرين عام ٥٢٣ ميلادية . ولكن هذه الفترة لم تدم طويلاً وظل الفساد والاضمحلال فاشيين في تلك الربوع إلى أن جاء العرب في القرن السابع فوجدوا الطريق ممهداً لفتوحهم فنشروا الدعوة الاسلامية في شمالي أفريقية وصبغوا بلاد البربر بالصبغة العربية التي لازمتها إلى وقتنا الحالي .

ولما أوفد موسى بن نصير عامل الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك على شمالي أفريقية قائده طارق بن زياد على رأس قوة من العرب والبربر لفتح الأندلس قصد طارق أولاً إلى ميناء « Ceuta » سبته ، المواجه لجبل طارق وهناك انضم إليه فريق من أعداء ردرريك « Roderick » ملك اسبانيا القوطي ومنهم حاكم سبته الذي أمد طارق بالسفن اللازمة لنقل قواته عبر المضيق إلى أرض الأندلس . ونزل طارق بالجزيرة في مواجهة الجبل الذي عرف باسمه ليؤمن مواصلاته مع أفريقية الشمالية وبنى على الجبل قلعة منيعة لا تزال أسوارها باقية إلى الآن . وكان بذلك أول من كشف عن أهمية ذلك « الزقاق » الضيق كما كان يسميه العرب .

وكان ردريك قد جمع جيشاً جراراً يبلغ عدده ثلاثة أضعاف قوات طارق
فرأى طارق أن يسمو بالروح المعنوية بين جنوده إلى حد الاستمالة وأن يجعل
من هذه الغزوة فتحاً مبيناً مقبلاً فأمر أن تحرق السفن التي أفلتهم إلى سواحل أندلوسيا
ونبه جنده في عبارته التاريخية المأثورة بأن العدو أمامهم والبحر من وراءهم
فامتسبوا في القتال وتغلبت فتهم القليلة على فئات العدو السكثيرة . ولقد
حالفهم النصر حتى دانت لهم شبه الجزيرة وبقى العرب بها زهاء ثمانية قرون
لم تنقطع الصلات في أثنائها بينهم وبين قبائل البربر في أفريقية الشمالية حتى
أمكن يوسف بن تاشفين أمير المرابطين بالمغرب أن يجمع في القرن الثاني عشر
بين ملك الأندلس والمغرب في آن واحد . ولما ترك العرب شبه الجزيرة نهائياً
في سنة ١٤٩٢ خلفوا وراهم فيما خلفوه كلمات عربية كثيرة لا تزال ظاهرة في
أسماء الأسبان وآثارهم ومعالم بلدانهم إلى الآن . ومن هذه الأسماء جبل طارق الذي
أطلقوه على المرتفعات الشمالية التي حصنها طارق وهكذا ذهبت « عمدهرقل »
البطل الأسطوري الأغرقي الأصل المنتسب إلى الآلهة الرومانية وبقى اسم
طارق القائد المتواضع الذي ينتمي إلى الشعب العربي .

ولم يفظن الأسبان ولا العرب في ذلك الوقت إلى أنه في اليوم الذي غادر فيه
آخر عربي أرض الأندلس قد ولدت مشكلة جبل طارق ، فقد انفصمت بخروج
العرب عرى الوحدة التي كانت تربط بين شبه الجزيرة وشمالي أفريقية وأصبح كل
من الجانيين تابعاً لسلطة تختلف جنساً وديناً و لغة ومدنية عن الأخرى وصار ممكناً
بعد هذا الانفصال أن تسطو دولة قوية على إحدى الجهتين فتعرض استقلال
الجهة الأخرى لخطر محقق فقد استولت البرتغال في سنة ١٦٥٦ على طنجة وندمتها
الأميرة كترينه البرتغالية Catherine de Braganza هدية العرس لزوجها
شارل الثاني ملك إنجلترا عند زواجها في سنة ١٦٦٢ ولو قد بقيت تحت يد إنجلترا
لتعرض جبل طارق وجنوبي إسبانيا لخطر الاحتلال الإنجليزي . ولكن إنجلترا
كانت تعاني أزمة مالية خطيرة بسبب حياة البذخ والاستهتار التي كان يعيشها الملك

والناس في عهد عودة الملكية، وكان الاحتفاظ بطنجه يكاف الحكومة نفقات طائلة بسبب تسلط قراصنة البحر في تلك الأرجاء وعلى ذلك سرعان ما نزلت إنجلترا عن طنجه سنة ١٦٨٤ وتركها بأيدي القبائل .
ومن غرائب القدر أن تفقد إنجلترا ميناء طنجه في الوقت الذي نشطت فيه حركة الاستكشافات فقام كولمب بساحاته الشهيرة لكشف العالم الجديد وساح فاسكودا جاما حول رأس الرجاء الصالح، وتجهت نية هولنده وإنجلترا نفسها لتأسيس شركات الملاحة التجارية للاتصال بدول الشرق والهند . ولما كانت مراكز هذا النشاط الجديد بعيدة عن سواحل البلاد صاحبة الشركات جعل الإنجليز يبحثون عن قاعدة مركزية لهم . منها يتارون وبها يتمتعون إذا اعترضهم عدو أو نال سفنهم عطب في الطريق . وكان طبيعياً أن تكون القاعدة في متناول خطوط الملاحة سواء منها الذاهبة إلى الشرق عن طريق رأس الرجاء الصالح أو القاصدة غرباً إلى العالم الجديد أو الميممة شطر بلاد المشرق شرقي البحر المتوسط . وبدا للإنجليز في أول الأمر أن ميناء قادمس البرتغالي يحقق ذلك الغرض كما يحققه ميناء طنجه على الساحل الأفريقي وتفتح للإنجليز آفاقاً جديدة في أفريقية الشمالية . ولكن الإنجليز كانوا يريدون إلى ذلك أن يطعنوا إسبانيا عدوتهم اللدود في صميم دارها فوطدوا عزيمتهم على احتلال جبل طارق ليجمعوا إلى الفائدة الحصانة الحربية .

وفي سنة ١٧٠٠ مات شارل الثاني ملك إسبانيا دون أن ينجب من يخلفه فسعى لويس الرابع عشر ملك فرنسا حتى اختير حفيده فيليب دوق انجو ملكاً على إسبانيا فخشيت إنجلترا أن يتحد التاجان الفرنسي والأسباني فتملك أسرة البوربون قوة بحرية مزدوجة على المحيط الأطلنطي وفي البحر المتوسط تهدد تفوق إنجلترا البحري من جهة وتخل بالتوازن الدولي في أوروبا من جهة أخرى . وتقاديا لذلك تألف حلف أوربي من النمسا وهولنده وإنجلترا لمنع فرنسا من التوسع في أوروبا بدرجة تعرض سلامة الدول الأخرى لخطر الغزو ونشبت لذلك حرب الوراثة الأسبانية سنة ١٧٠١ بين الفريقين .

وبذلك انجلترا في تلك الحرب جهودا جبارة في البر والبحر وانتصر فائدها الشهير « مارلبورو Marlborough » في عدة وقائع حربية معظمها في الأراضي المنخفضة واستطاع أمير البحر « روك Rooke » أن يحتل جبل طارق سنة ١٧٠٤ باسم الملكة آن وانتهت الحرب في سنة ١٧١٣ بمعاهدة اترخت. فاعتلى فيليب الخامس البربوني عرش أسبانيا على أن ينزل نهائيا عن حقه في تاج فرنسا وتطبيقا لشروط معاهدة الصلح استولت انجلترا على جبل طارق ولكن أسبانيا رفضت الاذعان لهذا الشرط وحاولت جهدها أن تسترد حصنها المنيع فحاصرته قواتها في أثناء القرن الثامن عشر مرتين كانت أولاهما في سنة ١٧٢٧ .

واستمر الحصار في المرة الثانية من ١٧٧٩ إلى ١٧٨٣ وكان حادثا دوليا على درجة عظيمة من الأهمية فقد كانت انجلترا مشتبكة وقتئذ مع مستعمراتها في حرب الاستقلال الأمريكي وكانت فرنسا وأسبانيا تؤيدان النوار ضدها وجاء الأمرام والقواد والمهندسون والخبراء من بلدان أوروبا المختلفة يشاهدون ذلك الصراع الحربي بين المحصورين والمحاصرين وقد تزود كل من الجانبين بخيرة رجاله وعناده، وكان مما لفت أنظار أوروبا القلعة العائمة التي اخترعها مهندس فرنسي وأمد بها المحاصرين

وقد سارت طائفة من هذه القلاع محملة بالمدافع في صبيحة يوم من أيام شهر سبتمبر سنة ١٧٨٢ وسط ضجيج هائل من النظارة الذين تسلقوا التلال القريبة ليشاهدوا معجزة اخضاع « الصخرة »، ولكن « اليوت Elliott » حاكم الصخرة الإنجليزي لم يكن رجلا أهلا للاستسلام، فقد أعد مفاجأة حامية أصلي بها المحاصرين وقلاعهم إذ أقام أفرانا عظيمة أوقد فيها النيران لصهر الرصاص وجعلت المدافع تقذف السفن والقلاع بالرصاص المصهور فدمر السفن وحصد الرجال وأوقع الرعب في قلوب المحاصرين فتركوا الميدان بعد أن تبكبدوا خسائر فادحة بلغت في الأنفس نحو أربعة آلاف على حين لم تزد خسارة المحصورين على بضعة رجال . ومنذ ذلك الوقت رسخ في الأذهان أن « الصخرة » حصن منيع لا يقهر فلم يجرؤ أحد من بعد على أن يقترب منها أو يناهها بسوء .

وفي نهاية القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر قامت الثورة الفرنسية وظهر نابليون بونابرت يقود حملته على مصر فاتجهت أنظار الدول نحو بلاد المشرق وبدأت العواصف تهب على مياه البحر المتوسط بعد أن ظلت ثلاثة قرون في شبه ركود بسبب كشف أمريكا وتحول مركز الملاحة والتجارة من البحر المتوسط إلى المحيط الأطلنطي . وأدرك نابليون وهو في طريقه إلى مصر أهمية جزيرة مالطة من الوجهة الحربية فاحتلها وجاء في أثره أمير البحر الانجليزي نلسون فأخرج منها الفرنسيين واحتل الانجليز الجزيرة منذ ذلك الوقت وقد تأيد احتلالهم لها في مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥ .

وبظهور هذه القاعدة الانجليزية الجديدة في وسط البحر المتوسط أخذت أهمية جبل طارق تنضام تدريجيا بالقياس إلى جزيرة مالطة . ولم يكن لمعركة الطرف الأغر التي انتصر فيها نلسون على الأسطول الفرنسي في سنة ١٨٠٥ أثر يذكر في زيادة أهمية الجبل . فلما انعقد مؤتمر فيينا لم تر انجلترا من الأسباب ما يدعوها إلى المطالبة باحتلال ميناء سبته أو طنجه لتقوية مركزها في جبل طارق ولوطالبت بشيء من ذلك لأجابه المؤتمر إلى ما طلبت . ولكنها آثرت أن تتجه بقواعدها شرقا فطالبت بجزر الايونيان غربى بلاد اليونان ووافقها المؤتمر على ذلك .

وقد بقي الانجليز بهذه الجزر إلى سنة ١٨٦٢ حين اعتلى الأمير جورج الدنمركي عرش اليونان فقدمتها إليه انجلترا هدية لتستميل الرأي العام إلى جانبه . ومن الصعب أن تنزل انجلترا لليونان طوعا عن جزر الايونيان ولا تنزل عن جبل طارق لاسبانيا رغم شكواها الأليمة على طول السنين . ولكن انجلترا استغلت ضعف اسبانيا واضطراب أحوالها الداخلية فلم تحرك ساكنا ولم تصنع إلى شيء من مطالب اسبانيا في جبل طارق وقد ثبتت قدمها فيه بمضى الوقت وأصبحت تلك الصخرة رمزا لثبات الامبراطورية البريطانية وعنوانا على تفوقها البحري . وفي أوائل القرن العشرين تتابعت أحداث سياسية هامة كان من شأنها أن تعيد إلى جبل طارق شيئا من أهميته الأولى، فبعد أن كانت بريطانيا توجه اهتمامها

صوب الشرق لمناهضة النفوذ الروسي الذي كان يزحف حينئذ نحو حدود الهند ويهدد المضائق والقسطنطينية للوصول إلى البحر المتوسط كلما سنحت فرصة، لم يلبث أن تغير الوضع حين خرت روسيا ذليلة مكسورة مهيضة الجناح أمام قوات اليابان البرية والبحرية فاذا هي تسارع إلى محالفة إنجلترا، وإذا العداوة المكيئة التي كانت تضمها بريطانيا لروسيا طوال النصف الأخير من القرن التاسع عشر تتحول إلى ألمانيا. فقد قدرت ألمانيا حين عقد الاتفاق الودي بين فرنسا وإنجلترا في سنة ١٩٠٤ و ثم أحن قوى هذا الاتفاق بانضمام روسيا إليهما ان هؤلاء الحلفاء قد يتحشون بها في وقت ما وحينئذ تضغط ألمانيا بين شقي الرحي : روسيا من الشرق وفرنسا وبريطانيا من الغرب .

وخوفا من هذه العاقبة رفعت ألمانيا القناع وأعلنت في قول صريح أنها تعمل على إنشاء أسطول حربي يلائم مركز ألمانيا العالمي في الصناعة والتجارة وانها تريد أن يكون لها نصيبها في الاستعمار كغيرها من الدول . وقد رنت ألمانيا بعينها شرقا وغربا تبحث عن مناطق جديدة للاستعمار . أما في الشرق فقد أوثقت علاقاتها مع تركيا وبدأت المشروع المعروف باسم الزحف نحو الشرق، ومدت خطا حديديا يصل بين برلين وبغداد . وأما في الغرب فقد أرادت أن تحول بين احتلال فرنسا واحتلال بلاد المغرب جميعها ، ووطدت عزمها على أن يكون لها نصيب في هذه الأرجاء الغنية بمعادنها وبما يترامى وراءها من أسواق وميادين للعدل والاستعمار . وبذلك عاد الاحتكاك القديم بين ألمانيا من جهة وفرنسا وإنجلترا من جهة أخرى ، وقد مهد وليم الثاني امبراطور ألمانيا للأزمة بزيارة جبل طارق في مارس ١٩٠٥ حيث قابل حاكم الصخرة ثم بزيارة طنجة في السنة نفسها ، ثم بمحاولة احتلال ثغر أغادير سنة ١٩١١ .

وما كادت تنتهي أزمة مراکش حتى نشبت الحرب الكبرى في سنة ١٩١٤ ولما كانت إيطاليا قد لزمت الحيطة في أول الحرب ثم انضمت إلى جانب الحلفاء في سنة ١٩١٥ فان الحلفاء لم يعانوا في هذا الحرب من السكرارث والخسائر ما عانوه من بعد في الحرب العالمية الثانية ، ومع ذلك استغلت ألمانيا سلاح الغواصات في

البحر المتوسط ضد الحلفاء ا كبر استغلال فقد اخترقت غواصاتها مضيق جبل طارق بسهولة ووجدت في سواحل هذا البحر القريبة وخليجانه الكثيرة وجزره المتقاربة - وخاصة التابعة منها لتركيا واليرانان في بحر ايجه أو للنمسا في البحر الادرياتي - مكان وأوكار تلجأ اليها عند الحاجة وتصلح من أمورها، وكان من نتيجة ذلك أن بلغت خسائر الحلفاء بسبب الغواصات الالمانية في البحر المتوسط نصف مجموع الخسائر التي لحقتها جميعاً ، وكان من نتيجتها كذلك أن الحلفاء - على رغم تفوقهم البحري - وجدوا أنفسهم مضطرين إلى توجيه خطوط ملاحتهم الشرقية إلى رأس الرجاء الصالح وترك البحر المتوسط مؤقفاً حتى تدبر الوسائل لمكافحة خطر الغواصات. وكما قلل سلاح الغواصات من شأن جبل طارق كان لسلاح الطيران واختراع المدافع البعيدة المدى تأثيرهما فيما تتعرض له الصخرة من اخطار محققة وخاصة إذا ساءت الصلات بين بريطانيا وحكومة اسبانيا. ولما كانت أرض الجبل لا تصلح لاقامة قاعدة جوية عليها فقد استعاضوا عن ذلك بحاملات الطائرات وتفادوا أخطار الجو بالاقامة في الكهوف المنحوتة في الجبل فاعدوا عدتهم إذا حزب الأمر وضيق الاسبان الخناق على أهل الجبل فبشوا الالغام في البرزخ الضيق الذي يصل بين أرض اسبانيا والجبل لينسفوا هذا البرزخ حين يبدو لهم الخطر ، وبذلك تصبح القلعة الحصينة جزيرة مستقلة تشرف على المضيق .

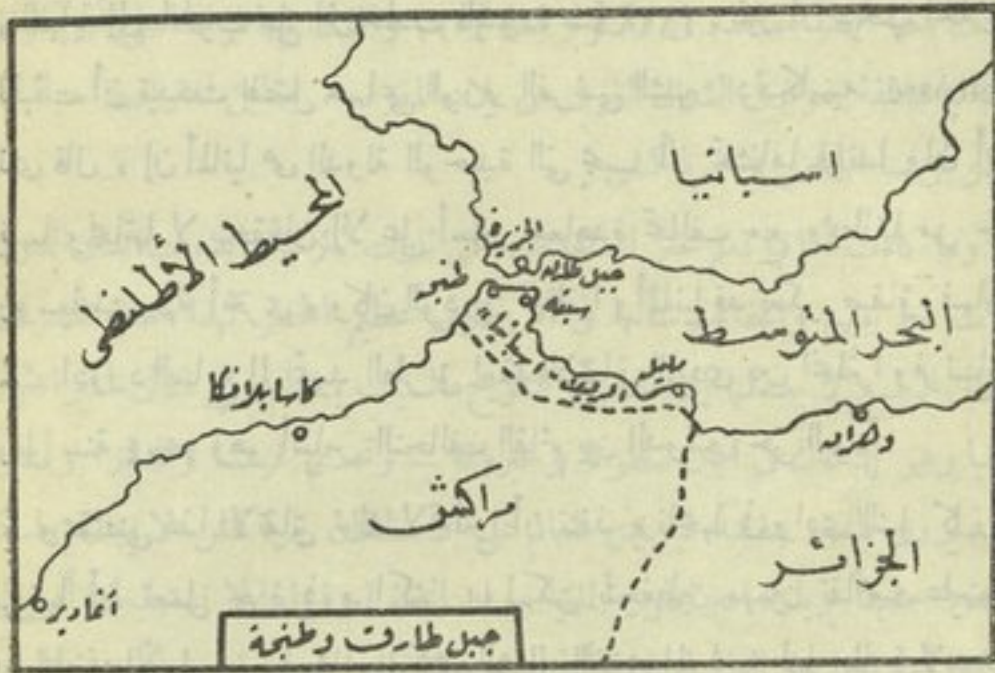
ويساعد بريطانيا على تشبثها بالبقاء في هذا المأزق حرصها على سمعتها الدولية من جهة ورغبتها من جهة أخرى في الاحتفاظ بالقواعد التي تحرس طريقها إلى الشرق مبتدئة من جبل طارق إلى مالطة ، إلى قبرص ، فقناة السويس ، فعدن ، ثم عليها بأن أهالي الجبل جميعاً قد تبرطنوا فلا يكاد أحد من سكانه ينتمى إلى اسبانيا. وتعتمد انجائنا في دعوى الاحتفاظ بجبل طارق على أن الانجائين قد قضوا فيه من الزمن ما يساوي تقريباً الزمن الذي مكثه الاسبان به فليس لهم إذن أمانى قومية تدفعهم إلى الانتقال على الحكم الانجليزي وليس ثمة تيارات وطنية تدفعهم إلى العصيان والثورة .

ولسكن الاسبان الوطنيين يعتبرون وجود الانجليز في جبل طارق جرحا لسكرامتهم، وليس من الممكن أن يقيموا على هذا الضيق طويلا فان جبل طارق جزء لا يتجزأ من بلادهم ولهم وفقا للقانون الدولي حق السيطرة على سواحل بلادهم والمياه التي تلامسها إلى مسافة ستة أميال . وقد حاول بريموه ريفيرا Primo de Rivera دكتاتور اسبانيا في سنة ١٩٢٣ أن يقنع الانجليز بالانسحاب عن الجبل على أن يتعوضوا منه بسبته على الساحل الأفريقي ، وقام نفر من كتاب الانجليز وغيرهم يبحثون الموضوع وينشرون آراءهم علنا في صالح هذا التبادل ولكن ذلك لم يجد شيئا . وقد اقترح بعضهم انشاء نفق يصل بين شبه الجزيرة وشمالي افريقية فظهر من بحث الموضوع أن مياه المضيق من العمق بحيث يجب أن يكون طول النفق ٣٥ كيلو مترا على الأقل وكان ذلك سببا للعدول عن الفكرة .

ولما قامت الحرب العالمية الثانية لزم اسبانيا الحيدة في الظاهر ولكنها آذرت قوات المحور بطرق مختلفة ، وسنحت لهتلر في بعض مراحل الحرب فكرة مرور قواته داخل اسبانيا ومنها تعبر المضيق إلى شمالي أفريقية . وقد أغرى الجنرال فرنكو زعيم اسبانيا الحالي بقبول هذا العرض ولاسبانيا في مقابل ذلك جبل طارق وان توسع منطقتها في مرا كش على حساب فرنسا ، ولكن الحلفاء احبطوا هذا التدبير فسارعوا باحتلال أفريقية الشمالية وبذلك ضاعت الفرصة على الدكتاتورين .

وقد برهنت الحرب العالمية الثانية على أن فائدة جبل طارق لاتعدوان تكون معقلا أو حصنا منيعا ، فلم ينتفع به الحلفاء كقاعدة جوية أو بحرية كما أنهم لم ينتفعوا كثيرا بجزيرة مالطه لقربها من قواعد ايطاليا الجوية وقد ركزوا قواتهم البحرية في ميناء الاسكندرية . ولكن هذا كله لم يكف لجعل بريطانيا تحيد عن سياستها القديمة فتنزل عن قاعدتها بجبل طارق ذلك لأن تفوقها البحري يقتضيها ان تملك بمفتاح البوابة الغربية للبحر المتوسط لاسيما بعد أن نبذت امريكا سياسة العزلة وبدأت تتجه بسياستها الدولية نحو الشرق عن طريق البحر المتوسط . كذلك تأتي روسيا إلا أن تكون لها قواعد في البحر المتوسط كغيرها . ويهم بريطانيا إلا تضيع من يدها مفاتيح

البوابات جميعاً . وهكذا يتشبث البريطانيون بالسياسة الحربية القديمة التي تقوم على أساس الخطط الثنائية البرية والبحرية ويأبون أن يعترفوا بالخطط الثلاثة التي تعطي القوة الجوية أهمية لا تقل عن أهمية السلاحين الأولين أن لم تفقهما .



ب - مشكلة طنجة

لقد شامت المصادفات السياسية العجيبة أن تخدم فرنسا في القرن التاسع عشر خدمة عظيمة لم تكن تخخطر لها على بال وخاصة بعد ضياع مستعمراتها في أمريكا وآسيا وبعد انضمامها على يد روسيا في سنة ١٨٧٠ إذ وأتتها الفرصة فأقامت على ساحل أفريقية الشمالية امبراطورية فرنسية عزيزة الجانب منيعة القواعد . وقد بدأت باحتلال الجزائر سنة ١٨٣٠ ثم أعلنت حمايتها على تونس سنة ١٨٨١ ومن هذين الأقليمين تغلغل النفوذ الفرنسي إلى مراكش .

ولما كانت مراكش على مقربة من بوابة جبل طارق ومنها تستطيع فرنسا إذا خلا لها الجو في منطقة المغرب الأقصى أن تمسك بأحد مصرعي تلك البوابة العظيمة في مواجهة جبل طارق منافسة أو مهددة - فقد قامت بريطانيا توارزها بعض الدول ذوات المصالح في البحر المتوسط تحول، دون تحقيق مآرب فرنسا ،

واشتدت أسباب الخلاف والتنافس بين الدولتين في أواخر القرن التاسع عشر فكانت فرنسا تعرقل مساعي إنجلترا في مصر والسودان وكانت إنجلترا والمانيا تعرقلان مساعي فرنسا في أفريقيا الشمالية حتى أوشك الخلاف بينهما أن يفضى في النهاية إلى الحرب على أثر حادث فاشودة سنة ١٨٩٨ . غير أن سحب الخلاف ما لبث أن تبددت بفضل مساعي الوزير الفرنسي الشهير دلكاسيه Deleassé الذي قال : إن ألمانيا هي الدولة الوحيدة التي يجب أن تخشاهما فرنسا وإن أمن فرنسا ونجاتها لا يتحققان إلا على أساس معاهدة تحالف مع بريطانيا من جهة وروسيا من جهة أخرى ، وكان الود بين إنجلترا وألمانيا قد تعمر صفاؤه فسارع الملك ادورد السابع إلى تمهيد الطريق لعقد الاتفاق الودي بين إنجلترا وفرنسا في إبريل سنة ١٩٠٤ وهو أساس التحالف القائم بين الدولتين حتى اليوم .

ويعتضى هذا الاتفاق ترك لانجلترا أن تنفذ برنامجها في وادي النيل كما ترك لفرنسا أن تعمل حرة في مراکش ، ولكن بتحفظين مهمين تفاهمت عليهما الدولتان : الأول أن ساحل مراکش الشمالي الغربي المواجه لجبل طارق لا يدخل في المنطقة الفرنسية بل يحتفظ به لاسبانيا ، وهي الدولة الضعيفة التي لا تقوى على مناهضة إنجلترا أو السكيد لها ، والثاني أن ميناء طنجة يصبح ميناء دولياً محايداً فتزال حصونه وتهدم قلاعها ويمنع تسليحه . وكان سلاطين بلاد المغرب قد أرادوا أن يحولوا دون توغل ممثلي الدول في داخل أراضي السلطنة فقررروا أن يكون مقامهم في ميناء طنجة بمنأى عن العواصم الوطنية ، فكأنما كان هذا أيداناً باصطباغ طنجه بالصبغة الدولية من بعد .

وكانت اسبانيا في تلك الفترة قد نهضت من السكبوة التي نالتها على أثر انهزامها في الحرب الأمريكية الاسبانية سنة ١٨٩٨ وضياع جزر الفلبين وكوبا وبورتوريكو من يدها وصممت أن تصلح من حالها وتعوض بعض ما فقدته في الداخل والخارج من ثروة ونفوذ فأحدثت انقلاباً اقتصادياً صناعياً نهضت على أثره البلاد نهضة شاملة . ثم ما لبثت أن أدركت أنها أقرب دول أوروبا إلى مراکش وأن الصلات

بينها وبين بلاد المغرب كانت في بعض أحقاب التاريخ من الوثيقة بدرجة جمعات من البلدين وحدة سياسية . ولم يكن هذا الشعور الذي يخلج في صدور الاسبانيين خائفاً على فرنسا ، فلم يتحدث بدأ من ارضاء اسبانيا جارتها وقرينتها اللاتينية البوربونية فعقدت معها أيضاً معاهدة في اكتوبر سنة ١٩٠٤ وافقت فيها فرنسا على أن يكون لاسبانيا منطقة نفوذ في الشمال الغربي من بلاد المغرب ، مقابل اعتراف اسبانيا بمركز فرنسا الخاص في مراکش .

وما كادت ألمانيا تعلم بخبر المعاهدتين حتى ثارت ثائرتها واعتبرت اتفاق الدول الثلاث فيما بينهم واغفالهم شأنها في أمر دولي عظيم الخطر كهذا اهانة للشرف الألماني الرفيع لا يغسلها إلا الدم أو التلويح بالسيف ؛ فقام وليم الثاني امبراطور ألمانيا وهو إذ ذاك في أبان سطوته وجبروته — وتحدى فرنسا وانجلترا وأعلن أنه سيوزر طنبجه بنفسه ليبرهن للعالم على أن سلطان مراکش لا يزال ملكاً مستقلاً حقيقياً بزيارة امبراطور ألمانيا ، وان انجلترا وفرنسا لا تستطيعان أن تفرضوا ارادتهما على العالم في غيبة ألمانيا . وفعلاً نزل الامبراطور بطنبجه في مارس سنة ١٩٠٥ في أثناء رحلته له في البحر المتوسط وحمل سلطان مراکش على أن يدعو الدول إلى مؤتمر دولي عقد في يناير سنة ١٩٠٦ في الجزيرة ، أحد موافق اسبانيا الجنوبية تجاه جبل طارق لبحث موضوع مراکش . وفي خلال ذلك سقط دلسكاسيه ، وزير خارجية فرنسا الذي عقد ذلك الاتفاق الودي ضد ألمانيا فكان سقوطه أكبر نصر سلبي صادفته سياسة وليم الثاني امبراطور ألمانيا

غير أن مؤتمر الجزيرة لم يحقق آمال ألمانيا فقد انحازت ايطاليا إلى جانب انجلترا ولم تستفد ألمانيا كثيراً من وجود النمسا إلى جانبها وانتهى المؤتمر بتقرير سياسة « الباب المفتوح » ، في مراکش مع المساواة الاقتصادية لجميع الدول كما قرر لفرنسا مركزاً خاصاً في مراکش لتجاور أراضيها وتقارب مصالحهما . وشجع هذا القرار فرنسا على مواصلة سياسة التدخل في مراکش معتمدة على صداقة بريطانيا وعلى سكوت ايطاليا بعد أن أعطيت طرابلس وجزر الدوديكانيز .

وفي سنة ١٩١١ دخلت القوات الفرنسية فاس فتحررت ألمانيا محاولة أن تلتقي
الرب في قلب فرنسا وأرسلت سفينة حربية أمام ميناء « اغادير » على ساحل
الاطلنطي فتراجعت فرنسا وطلبت المعونة من الحكومة الانجليزية . فأعلنت
انجلترا بلسان وزيرها لويد جورج ان انجلترا ستقف إلى جانب فرنسا وانها لن
تسمح بنزول الألمان في أية بقعة من الشمال الغربي لأفريقيه . فهدأت الحال
هدوءاً ما ، وسعت فرنسا إلى اكتساب رضا ألمانيا رأساً وقدمت لها لقمة دسمة
سائغة من إقليم السكنجو الفرنسي مقابل اعترافها بمركز فرنسا الخاص في مراکش
وبذلك انتهت الأزمة المغربية الثانية التي كادت تضرم نار الحرب بين الدول
وتقدم الحرب العالمية الأولى ثلاث سنوات قبل موعدها المحتوم .

ولم تلتق فرنسا بعد ذلك في بلاد المغرب اعتراضاً يؤبه له فأعلنت حمايتها سنة
١٩١٢ ، وبذلك انقسمت مراکش إلى ثلاث مناطق : المنطقة الكبرى وتخضع
للفوذ الفرنسي والمنطقة الريفية وتخضع للنفوذ الأسباني ولا تزيد مساحتها على
١٥٠٠٠ ك . م مربع وعدد سكانها ٧٥١٠٠٠ وبها ميناء « سبتة » ، الذي يضارع
جبل طارق في مناعته وإن كان في يد أسبانيا لا أهمية له . وفي هذه المنطقة قبائل
الريف المشهورون بشجاعتهم وحسن بلائهم ضد الأسبان وقد دوخ زعيمهم الأمير
عبد الكريم قواد أسبانيا من سنة ١٩٢٤ إلى سنة ١٩٢٧ ولولا تعاون الحكومتين
الفرنسية والأسبانية ضده لفضى عبد الكريم على النفوذ الأسباني في شمال
أفريقية . ثم منطقة طنجة الدولية ولا تزيد مساحتها على ٢٢٥ ميلاً مربعاً وسكانها
نحو ٨٠٠٠٠ أكثرهم مسلمون ومنهم ٨٠٠٠ من اليهود و ١٤٠٠٠ من الأسبان .
والمناطق الثلاث تخضع خضوعاً إسمياً لسيادة سلطان مراکش ويمثله « خليفة »
في المنطقة الريفية و « مندوب » ، في طنجة

وقد حاولت الدول أن تقرر نظاماً ثابتاً لطنجة خارج نطاق الحمايتين الفرنسية
والأسبانية لولا أن نشبت الحرب العالمية الأولى ، ثم شغلت الدول بعدها
فترة بمشاكل السلم فلم تستفق إلى طنجة إلا في سنة ١٩٢٣ وكانت فرنسا تطمح

— عقب الحرب العالمية الأولى — إلى تحقيق أمنيتها في ضم طنجة إلى منطقة الحماية الفرنسية ولسكن إنجلترا وأسبانيا عارضتا في ذلك واستقر الرأي في النهاية على وضع نظام دولي محايد خضعت له طنجة إلى سنة ١٩٤٠ حين تشجع فرنكو على أثر انسكاسار فرنسا في الحرب العالمية الثانية فأعلن انقضاء النظام الدولي وضم طنجة إلى منطقة النفوذ الأسباني .

ويقضى النظام الذي وافقت عليه الدول الثلاث فرنسا وإنجلترا وأسبانيا في باريس في ديسمبر سنة ١٩٢٣ بأن يكون لطنجة مجلس تشريعي مكون من ٢٦ عضوا تمثل فيه الجاليات الأجنبية والمسلمون واليهود كل طائفة بحسب أهميتها ، وتكون السلطة التنفيذية بيد هيئة المراقبة التي تتألف من ممثلي الدول الثلاث و مندوب السلطان ، ولهذه الهيئة بأكثرية الآراء حق منع تنفيذ القرارات التي يصدرها المجلس التشريعي . ويعين للبناء حاكم إداري فرنسي له مساعدان أحدهما أسباني والآخر بريطاني ، وللأجانب في طنجة محاكم مختلطة تقضى بينهم ، أما المسلمون واليهود فلهم محاكمهم الخاصة . ولم تشترك في هذا النظام في أول الأمر إيطاليا ولا أمريكا ولا روسيا ثم اشتركت إيطاليا في سنة ١٩٢٨ بمساعي إنجلترا ليكون صوتها وصوت أسبانيا إلى جانبها حين ينشأ نزاع بينها وبين فرنسا ولم يقع في وهم إنجلترا قط أن تنحاز إيطاليا وأسبانيا إلى صفوف أعدائها ولما كانت الجالية الأسبانية في طنجة هي أكثر الجاليات الأجنبية عددا فقد جعل مركز أسبانيا في طنجة يقوى على مر الزمن وخاصة بعد قيام الحكم الجمهوري بها سنة ١٩٣١ فعين أسباني لقيادة البوليس وعين وكيل أسباني للجارك كما عين أسقف أسباني للرياسة الدينية الكاثوليكية وزيد عدد ممثليها في اللجنة التشريعية . ولم تفد طنجة كثيرا من نظامها الدولي بل صارت مباءة لكل مفاسد النظم الدولية المعروفة من منازعات واستهتار وإفلات من حكم القانون والنظام . فلا عجب إذن أن يطرد تأخر طنجة التي كانت أعظم ثغور بلاد المغرب وان تغلبها على مكائنها الموانئ الجديدة التي أنشئت في المنطقة الفرنسية مثل الدار البيضاء ، أو كاسا بلانكا .

ولما نشبت الحرب العالمية الثانية كانت الثورة الوطنية في اسبانيا قد انتهت بفوز الوطنيين بزعامة فرنسكو ضد الجمهوريين وكانت دولتا المحور قد آزرتا فرنسكو بالعدد والرجال والمدافع والطائرات وبانت المانيا تترقب الفرصة التي تعلن فيها اسبانيا انضمامها إلى جانب المحور ، ولكن اسبانيا كانت قد انهكتها الحرب الأهلية فأعلن فرنسكو الحياد والنزاهة طوال الحرب، غير أنه كان حياً مشرباً بروح العطف على دولتي المحور. وقد تجلى هذا العطف في نواح عدة أهمها إرسال نجدة من متطوعي الاسبان لمعاونة المانيا في قتالها ضد روسيا والرضا باتخاذ الغواصات الالمانية بعض الموانئ الاسبانية مكامن وملاجئ وتزود منها سرا عند الحاجة . لذلك لم يكن مستغرباً أن يفتز فرنسكو فرصة انهيار فرنسا في صيف سنة ١٩٤٠ فيعان انفراد اسبانيا بالحكم في طنجه وانتهاء النظام الدولي بها .

واستمرت طنجه تتبع اسبانيا مباشرة إلى أن انتهت الحرب بهزيمة دولتي المحور وحينئذ طلبت بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة إلى فرنسكو في سبتمبر سنة ١٩٤٥ سحب قواته من طنجه ، وعلى ذلك عاد النظام الدولي إلى طنجه كما كان قبل الحرب العالمية الثانية .

ولما كانت روسيا مصممة أن تأخذ مكانها إلى جانب الدول الغربية في الشؤون الدولية فقد طالبت باشتراكها إلى جانب الولايات المتحدة في اللجنة التي ألفها الحلفاء لبحث موضوع طنجه ولم تكن روسيا ولا الولايات المتحدة من الدول المشتركة من قبل في نظام طنجه الدولي ، وقد قبل طلب روسيا على حين لم تدع اسبانيا إلى الاشتراك . وقد قرر الحلفاء ابقاء النظام الدولي بطنجه حتى يبحث موضوعها بحثاً جديداً في مؤتمر خاص قبل حلول أجل النظام الحالي في سنة ١٩٤٨ وكان هذا النظام قد تجدد من تلقاء نفسه سنة ١٩٣٦ حين كانت الدول مشغولة بأزمة ايطاليا والحبشة .

ولما كان النزاع الحالي بين كتلتى الدول الشرقية والغربية قد بلغ أشده فإن الأمل في انعقاد مؤتمر دولي خاص تبحث فيه مسألة طنجه يبدو الآن أمراً ضعيفاً بعيد الاحتمال .

الفصل السادس

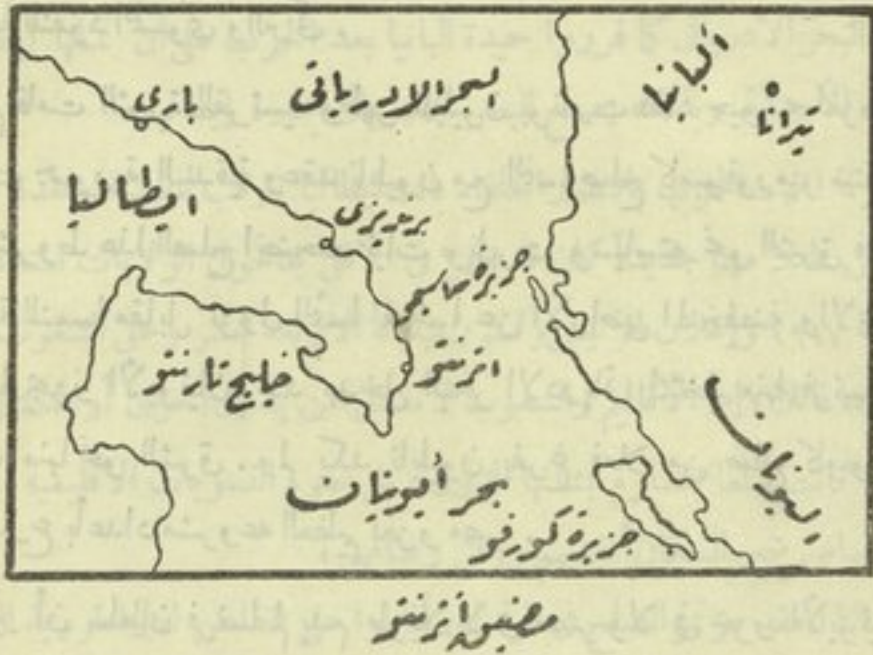
بوابات البحر المتوسط

مضيق اترنتو - البحر الأدرياتي ومشكلة تريستا

إذا وقفت عند اترنتو آخر موانئ إيطاليا في أقصى الشرق من الجنوب، وسرحت الطرف في عرض المضيق المعروف باسم هذا الميناء والذي يفصل إيطاليا عن البلقان استبان لك من وراء الأفق البعيد ظلال الجبال المرتفعة الواقعة على الساحل البلقاني بألوانها الجذابة التي تختلط بالسحب فتجعل منها لوحة فنية رائعة الجمال . ومع أن المسافة التي تفصل جانبي المضيق لا تقل عن ٤٧ كيلو مترا فان السيطرة على هذا المضيق خير منها في مضيق جبل طارق ذلك لأن مياه البحر في منطقة البحر الادرياتي أقل عمقا ، فبينما تستطيع الغواصات اختراق مضيق جبل طارق بسهولة كما اثبتت تجارب الحربين العالميتين فان الغواصات المعادية لا تستطيع الافلات من الشباك التي توضع عند مدخل اترنتو .

وليس لمضيق اترنتو أو للبحر الادرياتي أهمية سياسية تذكر بالقياس إلى أهمية بوابتي البحر المتوسط الشرقية والغربية عند قناة السويس وجبل طارق . ولكن تاريخ العصور الوسطى قد جعل للبحر الأدرياتي شأنًا فاق به أهمية البحر المتوسط نفسه . فقد ظهرت مدينة البندقية المشرفة على البحر الأدرياتي من عل واتسع نفوذها وتوثقت الروابط التجارية بينها وبين بلاد المشرق منذ بعيد، فكانت سفنها أول شيء حمل إلى أوروبا كنوز الشرق من حرير وجواهر وأبسطة وجلود وعطور وتوابل وكانت هذه النفائس تنقل من البندقية إلى فينا وأجزبرج وباريس ومنها إلى بلدان أوروبا المختلفة . ومن البندقية قامت جماعات كثيرة من الصليبيين مزودة ببركات البابا ودعواته لانتزاع البقاع المقدسة من أيدي المسلمين فكانت سفن

البندقية تحملهم في البحر الأدرياتي وتخرق بهم مضيق اترنتو ثم تتجه بهم شرقاً إلى البلاد المقدسة التي طالما أريقت في سبيلها الدماء رخيصة من لدن أهل الشرق والغرب جميعاً . وكانت سفن البندقية أيضاً هي التي تحمل من نجا منهم من الموت لتعود بهم إلى أوطانهم مخذولين فقراء إلا من رضا الله أو من رضا البابا أو من الذكريات والأحاديث عن الشرق ورواياته .



ولقد أفادت جمهورية البندقية من هذه الرحلات الصليبية وما جرت إليه من مغنم تجارية وفوائد كبرى، فجعلت تمد نفوذها على ساحل دلماسيا وجزر الأيونيان وقبرص وبحر إيجه حتى صارت لها الزعامة في الملاحة والتجارة في البحر المتوسط. وكانت البندقية تقيم في كل عام مهرجاناً بحرياً مقدساً تحتفل فيه بتفوقها على البحر فيقدم البابا للدوق، أو لرئيس حكومة البندقية خاتماً يباركه فيقذفه الدوق أثناء الحفل في البحر ليكون رمز التوثيق والصلة بين المدينة والبحر، كما يكون خاتم الخطبة بين الزوجين، كأنما خطبت البندقية البحر لنفسها وارتبطت إليه برباط الزواج المقدس .

وفي مستهل العصور الحديثة زحف الأتراك غرباً وجعلوا يناهضون نفوذ البندقية ثم جاءت الاستكشافات الحديثة في العالم الجديد وكان برتليودياز البرتغالي

قد ساج حول الرجاء الصالح وجاء فاسكودا جاما بعده ووصل عن الطريق نفسه إلى الهند في نهاية القرن الخامس عشر . فتحول الاهتمام من ذلك الوقت عن البحر المتوسط إلى المحيط الاطلنطي والمحيط الهندي وتضاءلت تبعاً لذلك أهمية جمهوريات الموانئ الإيطالية . وأخذ نفوذ الأتراك يقوى ويمتد في البلقان وفي البحر المتوسط حتى وقفت جيوشهم أمام أسوار فينا وأصبح ساحل دلماسيا خاضعاً للنفوذ النمساوي والتركي .

ثم قامت الثورة الفرنسية وظهر نابليون بوناپرت فقاد جيوشه لغزو ايطاليا فانهارت جمهورية البندقية وعقد نابليون مع النمسا صلح كامبوفورميو سنة ١٧٩٧ ومن شروط هذا الصلح اتضحت نيات بوناپرت وسياسته نحو الشرق فقد ترك البندقية للنمسا مقابل نزول النمسا لفرنسا عن الأراضي المنخفضة والاحتفاظ لفرنسا بجزر الأيونيان عند مدخل البحر الادرياتي لتتخذ منها فرنسا قواعد تزحف منها نحو الشرق . ولم يكد نابليون يفرغ فعلا من صلح كامبوفورميو حتى سارع بأعداد مشروعه العظيم بغزو مصر .

غير أن سلطان فرنسا لم يدم طويلا لا في مصر ولا في جزر الأيونيان التي احتلها الانجليز وفقا لقرارات مؤتمر فينا وبقي التفوق في البحر الادرياتي للنمسا التي حلت محل جمهورية البندقية القديمة . وظلت الحال كذلك حتى قامت حركة الوحدة الإيطالية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر واحتدم النزاع بين بيدمت أو إيطاليا الحديثة والنمسا، ولم تدخل البندقية في نطاق الوحدة إلا بعد هزيمة النمسا أمام بروسيا في سنة ١٨٦٦ فكان ضم البندقية إلى إيطاليا ثمناً لحيدتها في الحرب . ومنذ ذلك الوقت أصبح التفوق في البحر الادرياتي مشتركاً بين النمسا وإيطاليا . وقد كانت امبراطورية النمسا بالاتحاد مع المجر تملك ساحل دلماسيا وشبه جزيرة إستريا بما في ذلك موانئ تريستا وبولا وفيومي وجزر البحر الادرياتي أما إيطاليا فكان لها الساحل الغربي للبحر الادرياتي ولها في الشمال الغربي ميناء البندقية .

ونشبت الحرب العالمية الأولى فأعلنت إيطاليا حيدتها في أول الأمر رغم ارتباطها بدولتي الوسط بالمحالفه الثلاثية تم تحولت تدريجاً من الحيدة إلى مؤازرة الحلفاء الذين استمالوها الى جانبهم بما قدموا لها من مزايا اقليمية مغرية طالما تطلعت إيطاليا الى تحقيقها . فقد أذن لها الحلفاء بمعاهدة لندن السرية في سنة ١٩١٥ في أن تضم اليها بعد كسب الحرب تريستا وشبه جزيرة استريا ودلماسيا بما في ذلك جزر البحر الادرياتي كما قرروا حيدة البانيا بعد الحرب على أن تمثلها إيطاليا أمام الدول الأجنبية وبذلك يصبح البحر الادرياتي بحيرة إيطالية .

ولما انتهت الحرب بانتصار الحلفاء باتت إيطاليا تترقب تنفيذ المعاهدة بمخادفيرها ولكن عاملاً مهماً جديداً كان قد ظهر في الأفق بدخول الولايات المتحدة الحرب في سنة ١٩١٧ وإعلان الرئيس ولسون مبادئه الاربعة عشر وحق الشعوب في تقرير مصيرها قائلاً إن الأقاليم والشعوب لا تنتقل من يد إلى أخرى أو مملكة إلى أخرى كالألوان كانت سلعا تتساوم بشأنها الدول ، بل تقوم التسويات الاقليمية بين الدول على أساس خير السكان أنفسهم ووفق رغباتهم ،

فلما انعقد مؤتمر الصلح في فرساي أقاموا على انقاض امبراطورية النمسا دولا جديدة منها يوغسلافيا التي جمعت بين الصرب وكرواتيا والجبل الأسود والبوسنة والهرسك والشعب السلوفيني جنوبي البحر ، وبذلك أصبح للمملكة الجديدة ساحل دلماسيا شرقي البحر الادرياتي . وعبثاً طالبت إيطاليا بتنفيذ شروط معاهدة لندن بضم دلماسيا اليها واحتدم النزاع بين إيطاليا والحلفاء حتى غادر المندوب الايطالي مؤتمر الصلح غاضباً وعاد الى بلاده . غير أن الحلفاء سرعان ما استرضوا إيطاليا بضم إقليم فينيزيا جوليا اليها فأصبحت تريستا إيطالية بعد أن ظلت أكثر من خمسة قرون تابعة لأسرة هابسبرج وقد كانت للنمسا كالرئة للجسم فجعلت تهتم بشئونها وتجارتها حتى غطت أهميتها على البندقية وأصبحت سيدة البحر الادرياتي غير منازعة

ثم نشأ بين إيطاليا ويوغوسلافيا خلاف شديد بشأن ميناء فيومي الذي كان تابعاً للهجر فقد قرر المؤتمر ضمه الى يوغوسلافيا واسكن ددانزيو D'Annuzio الشاعر

الإيطالي تطوع على رأس حملة أهلية لاحتلال فيومي وأقام فيها حكومة مؤقتة سنة ١٩١٩ مستنداً إلى أكثرية الطليان في الميناء . وظل النزاع قائماً بين الدولتين بشأنها إلى أن تولى الفاشيون الحكم فعقد مسوليني مع يوغسلافيا إتفاق روما سنة ١٩٢٤ وبمقتضاه أصبحت فيومي وزارا تابعتين لإيطاليا وأخذت يوغسلافيا صاحبة سوساك القريبة من فيومي . وقد احتفظت إيطاليا بجزر البحر الادرياتي واتخذتها قواعد ترقب منها أسطول يوغسلافيا وحركاته كما كانت فرنسا ترقب من جزيرة قورسقه حركات الأسطول الإيطالي . وعلى ذلك أصبحت السيادة في بحر الادرياتي بعد الحرب العالمية الأولى موزعة توزيعاً غير عادل بين إيطاليا ويوغسلافيا ، إذ كانت القوات اليوغسلافية امام تفوق إيطاليا محصورة في البحر الادرياتي كما كان الأسطول الإيطالي نفسه كالمحصور في البحر المتوسط امام تفوق بريطانيا وفرنسا فيه .

ولقد حاولت إيطاليا في أول الامر أن تتقرب من دول البلقان لتسيطر على أسواقها وتزعم شعوبها ، وعقد مسوليني لهذه الغاية معاهدات صداقة مع حكومات البلقان المختلفة . غير أن السياسة التي سارت عليها تركيا واليونان والتي أفضت إلى تسكوين ميثاق البلقان سنة ١٩٣٤ بين دوله الاربع تركيا واليونان ويوغسلافيا ورومانيا - هذه السياسة أفسدت على إيطاليا خططها كما أفسدها أيضا انخياز يوغسلافيا إلى جانب فرنسا واطراد نمو العلاقات الاقتصادية بين ألمانيا ودول البلقان لذلك تراجعت إيطاليا وعدلت سياستها نحو البلقان واكتفت بأن أوثقت علاقاتها بألبانيا حتى كادت تبتلعها ثم لم تلبث أن ابتلعها فعلا قبل نشوب الحرب العالمية الثانية .

وكان مسوليني عظيم الاهتمام بسواحل البحر الادرياتي ولم يكتف بتحصين ميناء دراج وجزيرة ساسيمو عند مدخل خليج فولونا بألبانيا ، بل اهتم كذلك بالساحل الغربي وهو بطبيعته ساحل قحل قليل الموانئ فحصد ميناء برنديزي وانشأ في « باري » جامعة خصصها لاستقبال الطلاب القاصدين اليها من البلقان ومن بلاد المشرق ، وأقام فيها محطة للاذاعة جعلها مصدراً للدعاية الإيطالية ضد بريطانيا في الشرق العربي وكانت هذه الدعاية من العوامل التي أوغرت صدر بريطانيا ضد

إيطاليا قبل الحرب العالمية الأخيرة . وقد بلغ من اهتمام مسوليني بهذه المنطقة انه كان يعقد فيها في كل عام مهرجانا يعرض فيه كل ما يتصل بشئون الشرق ، وكان يخطب الناس في هذه المهرجانات . وقال في أحدها مرة ان « بارى ، هي الختام الذى يربط بين الشرق والغرب برباط الزواج المقدس فكأنه بذلك كان يحدد ذكرى الحفل الدينى الذى كانت تقيمه البندقية في أوج مجدها ويقذف فيه دوقها بالخاتم إلى البحر .

ولما اشتعلت نيران الحرب العالمية الثانية كانت إيطاليا تتحكم في البحر الادرياتي وكانت قد سطت قبل ذلك على ألبانيا في صبيحة الجمعة الحزينة من عام ١٩٣٩ فشردت ملكها وحكومتها وضمت البلاد إلى تاج إيطاليا فاتخذت منها قنطرة تهرب عليها جيوشها الى بلاد اليونان . ولكن ذلك الشعب الأبي الصغير لم يلبث أن استرعى إعجاب العالم ببسالته واستماتته في رد قوات الطاغية ودحرها حتى اضطر هتار إلى المبادرة لنجدة حليفه وإرسال قواته لاختراق البلقان واحتلال اليونان وكريت وبحر إيجه .

ولما كانت قوات المحور في أول سنى الحرب متفوقة في الجو بحيث كانت تستطيع من قواعدها في سردانية وصقلية وليبيا وكريت أن تتحكم في مياه البحر المتوسط وملاحته فقد اعتبر البحر المتوسط مغلقا دون الملاحة ، واضطر الحلفاء إلى تسيير سفنهم الى الشرق عن طريق رأس الرجاء الصالح والمحيط الهندي والبحر الاحمر . أما البحر المتوسط فقد استمر مغلقا الى قرب نهاية الحرب . على أن الاسطول البريطانى لم يقف عاجزاً أمام الاسطول الايطالى ولكن الاسطول الأخير لم يسكن ليجرؤ على الظهور خارج قواعده ، فكان الانجليز يستعينون بالسلاح الجوى فى الانقضاض على السفن الايطالية الحربية فى مخابئها فيحطمونها تحطيماً وبذلك استطاع الانجليز أن يحملوا الايطاليين خسائر جمة فى موقعى تارنتو (نوفبر سنة ١٩٤٠) جنوبي ايطاليا وماتبان غربى اليونان (مارس سنة ١٩٤١) على أن هذه الانتصارات لم تؤد إلى فتح البحر المتوسط وتوابعه الملاحة ما دامت

قوات المحور محتفظة بقواعدها الجوية في إيطاليا وجزر بحر ايجه .
ولما انتهت الحرب تغيرت الأوضاع على سواحل البحر الادرياتي فقامت في
يوغسلافيا وفي إلبانيا حكومتان سرعان ما قضتا على نظام الملكية فيهما واستندتا
في حكمهما على العناصر التي كانت تقاوم قوات المحور والتي كانت تعتنق المبادئ
الشيوعية بمساعدة حكومة اتحاد السوفييت . وقد سارعت القوات اليوغسلافية
بزعامه الجنرال تيتو إلى احتلال إقليم فنيزيا جوليا الذي كانت إيطاليا قد ضمته
في أعقاب الحرب العالمية الأولى . وفي مايو سنة ١٩٤٥ دخلت القوات البريطانية
الأمريكية ميناء تريستا وعلى أثرهم دخل اليوغسلافيون وقد أثاروا بدخولهم ضجة
هائلة . وتوترت على أثرها العلاقات بين الحلفاء واليوغسلافين حتى خيف أن
ينشب القتال بينهما فتعيد تريستا سيرة فيومي بعد الحرب العالمية الأولى ولكن
الآزمة لم تلبث طويلا وخضع الميناء لأوامر الحلفاء .

ومن أهم العوامل التي تؤثر اليوم في ميناء تريستا أن سكانها وسكان المدن
والموانئ في إقليم فنيزيا جوليا معظمهم من الطليان والأقلية فيها من السلوفين على
عكس الحال بين سكان القرى والريف . والطليان في هذه المنطقة هم أصحاب
الأعمال والصناعات الكبرى ويشتركون مع أهل البلاد من السلوفين والسكريات
في المذهب الكاثوليكي، ولكنهم على رغم كثرتهم ومكانتهم الاقتصادية ليست لهم
في المنطقة تقاليد أو أصول راسخة فان معظمهم من النازحين إليها في طلب الرزق
لذلك كان أكثرهم ممن يعتنقون المبادئ العالية الاشتراكية ويمقتون النظم الفاشية
من ذلك يتضح أن من حيث عدد السكان تعتبر تريستا إيطالية إذ أن مجموع سكان
المنطقة يبلغ ٣٦٠.٠٠٠ منهم نحو ٣٠٠.٠٠٠ من الإيطاليين . غير أن حاجة يوغسلافيا
الاقتصادية إليها قد تكون أشد من حاجة الطليان الذين يملكون ميناء البندقية
على البحر الادرياتي فضلا عن موانئ أخرى كبيرة على البحر المتوسط مثل جنوة
ونابلي . ولكن الخلاف الايديولوجي في حقيقة الأمر هو سبب اشتداد الآزمة
فن وراء يوغسلافيا روسيا واتباعها ومن وراء إيطاليا بريطانيا وأمريكا

من أجل ذلك لما اجتمع مؤتمر وزراء الخارجية في عام ١٩٤٧ واعيتهم الحيل في حل هذا المشكل رحبوا جميعاً باقتراح فرنسا وهو أن تصبح المنطقة دولية وقد حددوا مساحة المنطقة بثلاثين ميلاً طولاً في ١٨ ميلاً عرضاً . وقد قررت معاهدة الصلح التي أبرمت مع إيطاليا النظام الاساسى لمنطقة تريستا الحرة ، ونص هذا النظام على أن ينتخب مجلس الأمن حاكم المنطقة الذى يستمد سلطته من مجلس الامن رأساً فيكون مسئولاً أمامه، وأن يترك للحاكم أن يدعو الأهالى للانتخاب بعد مضي أربعة أشهر على قيامه بالعمل على أن يكون الانتخاب للبرلمان نسياً حتى يستطيع تمثيل جميع الطوائف فيه ، وحددت قوات الحلفاء بخمسة آلاف جندي لكل من بريطانيا والولايات المتحدة وللحاكم أن يقرر بعد تسعين يوماً من تسلمه العمل الاستغناء عن قوات الحلفاء إذا أراد، وله أن يعين أعضاء حكومته المؤقتة من بين أهالى المنطقة بعد التشاور بين الحكومتين الايطالية واليوغسلافية .

وقد نصت المادة الثامنة عشرة من القانون النظامى لتريستا بأن يختار للميناء مدير أجنبي لا ينتسب إلى إيطاليا أو يوغسلافيا وأن يفضل أهل المنطقة الحرة فى التعيين للوظائف الأخرى . وأن تؤلف لجنة دولية تشرف على المصالح العليا للميناء وتمثل فيها عدا الدول الأربع الكبرى إيطاليا ويوغسلافيا ومنطقة تريستا والدول التى ترتبط بمصالحها بالميناء وهى تشكوسلوفاكيا وبولنده والنمسا والمجر وسويسرا، وتسكون رئاسة اللجنة لمندوب تريستا وأعضاؤها يتمتعون بجزء التمثيل الأجنبي فلا تطبق عليهم قوانين البلاد . وقد أراد الحلفاء بذلك أن تصبح تريستا ميناء دولياً محايداً تفيد منه جميع الدول التى تلامس سواحلها البحر الادرياتي . أما يوغسلافيا فيكفيها ما ضمته فى نهاية الحرب الأخيرة بالقوة من إيطاليا ومنه شبه جزيرة استريا وميناء فيومى وبولا وجزر البحر الادرياتي وقد كانت جميعاً تابعة لإيطاليا .

منطقة ترينيا



وقد انقضى عامان والحكومتان الايطالية واليوغسلافية تتفاوضان بتكليف من مجلس الأمن بشأن انتخاب حاكم عام للمنطقة فلم توفقا إلى شخص ترضاه إيطاليا من جهة ويحوز رضاه الاتحاد السوفيتي من جهة أخرى. ولما أخطر المجلس بفشل هذه المساعي اقترحت الدول الغربية الثلاث بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا على روسيا أن ترد منطقة تريستا الحرة إلى إيطاليا. وكان ذلك في نهاية شهر مارس سنة ١٩٤٨ حين كان

الايطاليون على أبواب المعركة الانتخابية التي نشبت يوم ١٨ ابريل من ذلك العام. وقد تحولت الانتخابات في إيطاليا أخيراً من ظاهرة وطنية محلية إلى ظاهرة عالمية مذهبية وقف فيها حزب الديمقراطيين المسيحيين ومعه أحزاب اليمين أمام جبهة الاشتراكيين والشيوعيين وكأنما المعركة قائمة في حقيقة الأمر بين الدول الديمقراطية الغربية والدول الشرقية الشيوعية وقد انتهت المعركة بنجحة الحزب الشيوعي وفوز الديمقراطيين المسيحيين بزعامه دي جاسبري رئيس الوزارة الايطالية.

وليس في تطور الأمور على هذه الصورة شيئاً غريباً بعد ما ظهر من نشاط

الأحزاب الشيوعية أخيراً في المجر ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا وبعد ما وضح من نيات الولايات المتحدة بشأن تنفيذ مشروع انهاض أوروبا اقتصادياً وهو المعروف بمشروع مارشال الذي أقره الرئيس ترومان في أوائل شهر ابريل ١٩٤٨ وأصبح قانوناً تفيد منه دول أوروبا اقتصادياً وسياسياً بل وحريراً أيضاً . وكان من حسن طالع إيطاليا أو قل من سوء طالعها أن تقف إيطاليا بحكم موقعها الجغرافي على حافة الجسر بين السكتاتين السلافية والغربية وأن تكون تريستا واسطة هذا الاتصال بين الشرق والغرب . ولذلك كان النضال بشأنها عظيماً بين اتحاد السوفيت من جهة وبين الدول الغربية الكبرى من جهة أخرى . وكلما اشتد النزاع من السكتتين كلما حى التنافس بين الفريقين في سبيل كسب إيطاليا . فلا عجب أن تنبه إيطاليا اليوم بدلالها على المحبين من السكتتين وأن يأتيها المدد سريعاً من المعسكرين . واذا كان المندوب الروسي قد عاد أخيراً في مجلس وزراء الخارجية الأربعة الذي انعقد في باريس في سبتمبر سنة ١٩٤٨ وفي الجمعية الممومية لهيئة الأمم واقترح أن توضع جميع المستعمرات الإيطالية القديمة تحت وصاية هيئة الأمم فليس معنى ذلك أن روسيا تناهض إيطاليا

وها هي ذي الدول الغربية الثلاث تقترح على روسيا إعادة منطقة تريستا إلى إيطاليا دون شرط أو قيد مع أنه لم يمض على توقيع معاهدة الصلح سوى عام واحد . وها هو ذا وزير خارجية فرنسا يسارع إلى تورين لمقابلة وزير الخارجية الإيطالية ويوقعان معاً على اتفاق جمركي وسياسي سيكون من أثره حتماً أن يوثق الروابط بين البلدين اللاتينيين . ولن يمضى وقت طويل حتى نرى إيطاليا عضواً في هيئة الأمم المتحدة وخاصة بعد أن سوت إيطاليا مع اتحاد السوفيت

ماعليها نحوها من التعويضات وارتبطت الحكومتان بمعاهدة تجارية أو ثقت

الصلات بينها .

فاذا تحققت لإيطاليا هذه الغايات جميعا ودخلت تريستا في حوزتها ثانيا

واستطاعت إيطاليا الجديدة أن تسكسب صداقة الدول الغربية من جهة ورضاء

اتحاد السوفيت وصاحباته من جهة أخرى فان إيطاليا ستمسك بميزان القوى بين

السكرتلتين وستقف عند تريستا كالديديبان تحرس البوابة الكبرى بين الشرق والغرب

وهي التي ان فتحت وجدت الشيوعية طريقها الى الغرب والبحر المتوسط سر بها .

فهل تصمد إيطاليا أم سيغرقها الطوفان ؟

[Faint bleed-through text from the reverse side of the page, including the word 'الاتحاد' (The Union) and other illegible words.]

الفصل السابع

بوابات البحر المتوسط

قناة السويس

قال هيرودوت في تاريخه يصف مصر، أنها بلاد مصطنعة والنيل هو الذي اصطنعها هدية. ونحن نقول أن المسألة المصرية في تاريخها الحديث إنما هي من صنع قناة السويس حتى ان السياسيين الآن ليتحIRON أيهما أكثر أهمية وأعظم خطراً بالقياس إلى السياسة العالمية - مصر كلها أم القناة وحدها.

ومع ذلك فالقناة في أول أمرها لم تكن سوى أحد المشروعات الهندسية الكبرى التي حفل بها النصف الثاني من القرن التاسع عشر وجاءت في أثر حركة الانقلاب الصناعي في أوروبا معاصرة للسكك الحديدية والسفن البخارية وانشاء شركات الاستعمار والاستغلال التي تجاوزت حدود أوروبا وعبرت البحار إلى البلاد التي شاءت أن تسائر النهضة الصناعية في العالم. وهذه الأعمال جميعها كانت تبدأ تجارية عمرانية تستثمر أموالها لصالح الشركات حتى إذا أصابت نجاحاً جاء دور حملة الأسهم فإذا كانت كثيرتهم من الحكام أو الحكومات فما أسرع ما تتدخل السياسة وتضطبع الأعمال باللون السياسي الذي يوافق أغراض الحكومة صاحبة السكثرة. أما إذا كان حملة الأسهم من عباد الله القانعين الذين لا تمتد أمانهم إلى أبعد من أرصدتهم في المصارف فان الروح التجارية تظل غالبية في هذه الأعمال ولا يصيبها من التدخل السياسي إلا مقدار ضئيل.

وشركة قناة السويس التي كونها فرديند دلسبس De Lesseps في سنة ١٨٥٨ باسم:
الشركة العالمية Compagnie Universelle du canal maritime de Suez
لقناة السويس البحرية، هي شركة مصرية تألفت بناء على عقد امتياز أصدره سعيد باشا

والى مصر فى ذلك الوقت لوصول البحرين فى داخل أرض مصر . ومع أن مؤسس الشركة قد أعلن أن مشروعه مفتوح لا ككتاب المساهمين من جميع أقطار العالم على اختلاف جنسياتهم ولم يترك وسيلة إلا اتخذها لإذاعة فضائل الشركة والتبشير بمستقبلها، فإن حكومة واحدة لم تشترك فيها بنصيب كبير أو صغير . بل إن هناك دولاً كانجلترا التى كانت ولا تزال فى مقدمة البلاد التى أفادت من القناة لم يساهم أحد من مواطنيها فى تأسيس الشركة . وقد سئل بالمرستون Palmerston الوزير الانجليزى فى مجلس العموم فى يونيه سنة ١٨٥٧ عن أسباب اعتراضه على مشروع القناة فقال بصراحة المعتادة : إن حكومة جلالة الملكة قد استخدمت منذ خمسة عشر عاماً حتى اليوم كل نفوذها فى القسطنطينية لتمنع تنفيذ هذا المشروع، وإنى أعتقد أنه أحد تلك المشروعات الخيالية التى تفرض من حين إلى حين على الاغرار من أصحاب رؤوس الأموال . وأعتقد أنه لا سبيل إلى تنفيذه من الوجهة المادية إلا بنفقات تزيد كثيراً على ما يرجى منه من النفع ؛ ولذلك فإني أعتقد أن الذين قد يضعون أموالهم فى هذا المشروع سيجدون أنفسهم فى آخر الأمر مخدوعين خائبي الأمل . . .

ولما أقفل باب الاكتتاب فى أسهم الشركة كان عددها ٤٠٠.٠٠٠ سهم قيمة كل سهم ٥٠٠ فرنك وفى يونيه سنة ١٩٢٤ نصّف كل سهم من غير زيادة فى رأس المال وبذلك أصبح عدد الأسهم ٨٠٠.٠٠٠ قيمة كل منها الاسمية ٢٥٠ فرنكاً . وأكثر من نصف هذه الأسهم بيد الفرنسيين وتأتى مصر فى المكان الثانى بعد فرنسا سنة ١٨٥٦ ، فتمتلك أقل من نصف الأسهم ولكن باسم الوالى لا باسم الحكومة وتليها اسبانيا وإيطاليا وهولنده . وعلى ذلك بدأت الشركة عملها وليس لها صبغة سياسية خاصة تتميز بها دولة دون أخرى اللهم إلا فى مجلس إدارتها وموظفيها فقد كانت الجنسية الفرنسية متغلبة تبعاً لجنسية أكثر المساهمين وبذلك خلصت أعمال الشركة لخدمة صالح القناة ولتحقيق الأغراض التجارية الكبرى التى قصدت إليها باحداث ذلك التغيير الهائل فى جغرافية مصر الطبيعية

بل في جغرافية العالم كله . وظل طابع الخدمة العامة الشعار الذي امتازت به الشركة إلى اليوم . وكان عقدا الامتياز اللذين منحهما سعيد للشركة في سنتي ١٨٥٥ و ١٨٥٦ بمجحفين بحق مصر اجحافاً عظيماً . وأهم ما فيهما تصريح سعيد باشا عن نفسه وعن خلفائه من بعده ان الملاحة في القناة بين السويس وبلوز أو الفرما على البحر الأبيض المتوسط حرة لجميع سفن العالم بدون تمييز أو تحفظ بشرط دفع الضرائب المطلوبة . ومنها أنه لا يجوز للشركة أن تمنح أى فرد أو أية شركة امتيازات لا يتمتع بها الجميع وأن توزع أرباح الشركة على النحو الآتى : ١٥ ٪ للحكومة المصرية و ١٠ ٪ لمؤسسى الشركة و ٢ ٪ للمديرين والباقي لحاجات الشركة والمساهمين . وأن مدة عقد الشركة ٩٩ سنة ابتداء من افتتاحها ، وبعد انتهاء هذه المدة تصير القناة ملكاً للحكومة المصرية . واشترط في نهاية العقد لزوم موافقة الباب العالى قبل مباشرة العمل .

ولما توقف الباب العالى عن اقرار عقد الامتياز بايحاء من الحكومة الانجليزية اعتمد دلسيس على تقرير اللجنة الدولية التى تسكونت من كبار مهندسى العالم وزارت مصر سنة ١٨٥٦ لبحث الموضوع على الطبيعة ، وفيه اتفق رأيها على أن حفر القناة بين السويس وخليج بلوز هو الحل الوحيد لمسألة وصل مياه البحرين الأبيض والأحمر ، وان تنفيذ هذا المشروع ممكن ونجاحه مضمون . وعلى ذلك أخذ دلسيس على عاتقه بمساعدة الوالى مهمة البدء فى العمل فى ابريل سنة ١٨٥٩ دون انتظار لموافقة الباب العالى ، وقد تحمل سعيد باشا فى سبيل تنفيذ هذا العقد التزامات ثقيلة منها أنه اضطر إلى شراء ما تبقى من الاسهم دون توزيع وبلغ عددها ٥٨٥٥٦ اسهم وبذلك بلغ مجموع الاسهم التى اشترتها مصر ١٧٧٦٤٢ . ومنها تعهده بأن يكون أربعة أخماس ما يلزم من العمال مصريين . ومن الشروط الفادحة تخويل الشركة الحق فى امتلاك الاراضى التى قد تحتاج إليها على ضفتى القناة وتخويلها الحق كذلك فى حفر الترعة الحلوة — كل هذا قد دعا باشا إلى التورط فى عقد أول فرض مالى أجنبي كان فاتحة الأزمة المالية التى أودت باستقلال البلاد .

ولما اعتلى اسماعيل العرش بعد وفاة عمه في سنة ١٨٦٣ أعلن أنه موافق على انشاء القناة بشرط أن تكون والقناة لمصر لا مصر للقناة . وعلى ذلك عمل بموافقة الباب العالي على تخليص مصر من الالتزامات التي لا تلائم سيادة البلاد واستقلالها فطالب بالغاء السخرة واسترداد حق إنشاء الترع الحلوة وعودة الأراضي التي وضعت الشركة يدها عليها إلى الحكومة .



قناة السويس

فاعترضت الشركة واتفق على عرض الموضوع أمام الامبراطور نابليون الثالث للتحكيم فأجاب الإمبراطور اسماعيل إلى طلباته مقابل دفع تعويض للشركة قدره ٨٤ مليون فرنك (٣٣٦٠٠٠٠ ج) فقبل اسماعيل الحكم إيثاراً منه لمصلحة البلاد وعقد مع الشركة اتفاقاً احتفظ فيه للحكومة بحق بناء الشكبات والاستحكامات اللازمة لحماية البلاد في منطقة القناة كما تقرر أن يكون جميع سكان هذه المنطقة خاضعين لقوانين البلاد وادارتها .

وعلى أثر دفع التعويض تحسنت مالية الشركة وعادت إليها الحياة فاستأنفت عملها بنشاط ملحوظ وانضم إلى دلسيس عدد من شبان فرنسا الذين تخرجوا في الهندسة فساعدوه واضطلعوا بمعظم الأعمال الفنية واستخدمت الشركة الآلات والروافع التي اخترعت حديثاً لتنظيف القناة وحمل الأثقال فأمكن الاستغناء عن كثير من العمال ولم يسع الباب العالي بعد ذلك إلا أن يصدر فرمانه

بالموافقة على إنشاء الشركة في مارس سنة ١٨٦٦ فثبتت قدم الشركة في مصر وفي نظر الدول وتفرغت لإنجاز المشروع فتقدم العمل بسرعة ولم يأت عام ١٨٦٨ حتى اختلطت مياه البحرين وفي ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ افتتحت القناة وارتبط الشرق والغرب بأقصر الطرق .

غير أنه لم تسكد تمضى ست سنوات على افتتاح القناة حتى طرأ على الشركة حادث كان له أكبر الأثر في مركز القناة ومستقبلها ، ذلك أن الحكومة الانجليزية اشترت من الخديو اسماعيل أسهم القناة التي كانت لمصر وعددها إذ ذاك ١٧٦٦٠٢ سهماً بمبلغ أربعة ملايين من الجنيهات تقريباً وهي تساوى الآن نحو ٤٤ مليوناً وبذلك أصبح ما يقرب من نصف أسهم الشركة بأيدي الحكومة الانجليزية وأضحى انجلترا تتمتع في القناة بنصيب الأسد ، وجعل الناس يتوقعون لهذا الامتياز أخطر النتائج ، فقال بعضهم في إحدى المجلات الفرنسية ، ان شراء انجلترا لأسهم القناة عمل سياسى بحت . وإذا لم يكن معناه استحواد انجلترا على أرض مصر فهو الخطوة الأولى في سبيل تحقيق هذا الغرض ، إذ يستحيل على انجلترا بعد الآن أن تترك مصر وشأها . أما داسبس فقد اغتبط باتمام هذه الصفقة وقال ، ان انجلترا الآن تأخذ نصيبها في القناة وهو ما كنا قد احتفظنا به لها منذ البداية . واني لاعتبر هذا الارتباط الوثيق الذي انعقد بين رأس المال الانجليزي والفرنسي حادثاً سعيداً ستفيد منه القناة في جهودها السلبية لصالح التجارة والصناعة في العالم .

ولسكن اغتباط منشىء القناة لم يحل دون اثاره الريب والظنون في أذهان الدول الأخرى ، فها هي ذى دولة كبرى — هي سيدة البحار في العالم — قد تسلطت أخيراً على مصير القناة ، ولم تعد الدول تطمئن إلى مصاير مصالحها لا في القناة وحدها بل في الشرق كله .

ومع أن انجلترا قد اكتفت في أول الأمر بثلاثة مقاعد في مجلس إدارة الشركة إلى جانب واحد وعشرين مقعداً كانت لفرنسا ، وهي كل مقاعد المجلس

إذ ذلك (ويبلغ عدد أعضاء مجلس الإدارة الآن ٣٢ عضواً منهم ١٩ فرنسياً و ١٠ بريطانيين ومصريان وهولندي واحد) ؛ فإن النفوذ الانجليزي بدأ يتغلغل في الحكومة المصرية رويداً رويداً حتى تسلط على مالية البلاد ، ومن المالية مد أخطبوطه إلى الإدارة فالوزارة . وكان في بدايته نفوذاً ثنائياً مع فرنسا ثم تحول في سنة ١٨٨٢ على أثر الثورة العراقية إلى نفوذ انفرادي فاحتلال بريطاني لعبت فيه الفتاة دورها الخطير لصالح القوات المغيرة . إذ أراد الجنرال ولسلي Wolseley قائد الحملة الانجليزية أن يفاجيء العراقيين بإرسال قواته صوب القاهرة عن طريق القناة بدلا من طريق كفر الدوار وغرب الدلتا كما توقع العراقيون واستعدوا له فأعلن إنه أغلق القناة أربعة أيام وكانت هذه المدة كافية لتسيير قواته إلى الاسماعيلية ومنها إلى الموقعة الحاسمة عند التل الكبير .

وجال بخاطر العراقيين إذ ذلك أن يردموا القناة حتى يحولوا دون دخول الانجليز بسفنهم وقواتهم من جهة الشرق ؛ ولسكن دلسبس تمكن بدهانه أن يوحى عرابي بأن عقد الامتياز يمنع انجلترا من القيام بعمليات حربية في داخل القناة أو على سواحلها فغير عرابي رأيه ولم يفتن إلى خطئه إلا بعد فوات الفرصة .

وعلى أثر هذا الحادث بدأت أهمية القناة في نظر الدول تتضاءل من الوجهة التجارية وتعظم كثيراً من الوجهتين السياسية والاستراتيجية ، ووضع للدول بصفة قاطعة ضرورة تأمين مصالحهم في القناة بمقتضى اتفاق دولي تقره الدول صاحبات المصالح في القناة . وكان سفراء الدول قد اجتمعوا في مؤتمر رسمي في القسطنطينية للبحث مع تركيا في موضوع احتلال مصر وظل المؤتمر منعقد حتى رسخت أقدام الانجليز في البلاد ، وفي النهاية اكتفوا بأن أصدروا في ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٨٨ اتفاق القسطنطينية الخاص بالقناة .

وقد ظل هذا الاتفاق هو الاداة الدولية الوحيدة التي تحكم شؤون القناة منذ ذلك التاريخ فلم يلحقه تعديل ما حتى بعد الحرب العالمية الأولى ، فقد تأيد في معاهدة فرساي بمقتضى المادة ١٥٢ أن ألمانيا توافق على أن تتول إلى حكومة جلالة الملك

جميع الحقوق التي كانت لجلالة سلطان تركيا بمقتضى اتفاق القسطنطينية المنعقد في ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٨٨ بشأن حرية الملاحة في قناة السويس. وكان من بين التحفظات الأربعة التي احتفظت بها الحكومة الانجليزية بمقتضى تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ تحفظ خاص بقناة السويس باسم تأمين طريق الأمبراطورية في مصر. وظلت الحال كذلك إلى أن أبرمت مصر معاهدة التحالف مع بريطانيا في سنة ١٩٣٦.

ويقضى اتفاق القسطنطينية بأن تبقى القناة حرة مفتوحة في الحرب والسلم لجميع السفن التجارية والحربية من غير تمييز دولة وأخرى، وقد اتفق المتعاقدون نتيجة لذلك على ألا يتدخلوا في حرية استعمال القناة لا في زمن الحرب ولا في زمن السلم. وأن يحظر حصرها بحرياً كما يحظر تحصين سواحل القناة أو القيام بأعمال حربية فيها أو على مسافة ثلاثة أميال من سواحلها.

وقد نص في المادة الثانية عشرة من هذه الاتفاقية على مبدأ المساواة التامة بين الدول كأساس من الأسس المتفق عليها، وتطبيقاً لهذا المبدأ اتفق المتعاقدون على ألا تحاول دولة منهم أن تسكسب لنفسها في منطقة القناة امتيازات إقليمية أو تجارية أو سياسية أيا كانت.

وتعترف هذه الاتفاقية صراحة بحق مصر الطبيعي في القناة، فنص في المادة التاسعة على أن تتخذ الحكومة المصرية الاجراءات اللازمة لتأمين تنفيذ شروط الاتفاق في حدود الفرمانات الممنوحة لها وفقاً لشروط الاتفاق وذلك على الرغم من وجود قوات الاحتلال الانجليزي بالبلاد فان الدول لم تعترف فيما يتصل بنظام القناة إلا بحق الخديو والسلطان.

وقد وافقت على هذا الاتفاق الدول التي يهمها أمر القناة وهي بريطانيا وفرنسا وألمانيا وهولنده وإيطاليا وأسبانيا وروسيا وتركيا والنمسا. ولم تسكن مصر - وهي صاحبة الشأن الأول والأخير في القناة - بين هذه الدول لأنها من الوجهة الدولية كانت تابعة لتركيا. فلما زالت السيادة التركية عن مصر عقب الحرب العالمية الأولى حاولت انجلترا أن تأخذ لنفسها حق السيادة التي كانت لتركيا ولكن محاولتها

ذهبت عبثاً، فان تركيا لم تتنازل رسمياً عن حقها إلا في سنة ١٩٢٣ بمقتضى معاهدة لوزان، وأنها حين نزلت عن حقها لم يذكر في المعاهدة أنها نزلت عنه لبريطانيا بل تركته مبهماً حتى لا تسيء إلى مصر. ومهما يكن من أمر فان مصر كانت قبل ذلك قد أعلنت على الملأ استقلالها في سنة ١٩٢٢ وعلى ذلك أصبحت السيادة الشرعية لمصر وحدها رغم احتفاظ إنجلترا في تصريح سنة ١٩٢٢ بتأمين مواصلاتها ورغم انفرادها دون سائر الدول بمقتضى معاهدة سنة ١٩٣٦ بمعاونة مصر مؤقتاً في الدفاع عن القناة.

وكانت موافقة بريطانيا على اتفاق القسطنطينية بتحفظ شرطته وهو ألا يقيد هذا الاتفاق حريتها في العمل بمصر ما دام الاحتلال البريطاني باقياً. على أن الحكومة المصرية رغم هذا التحفظ احترمت حرية القناة و نفذت شروط الاتفاق بكل دقة في أثناء السلم وفي أثناء الحرب اللهم إلا في الفترتين اللتين نشبت فيهما الحربان العالميتان الأولى والثانية فان إنجلترا بحكم مركزها كانت قد تسلطت على حركة الملاحة بها. أما فيما عدا ذلك فكانت القناة مفتوحة للجميع ففي الحرب الأمريكية الإسبانية سنة ١٨٩٨ مرت السفن الحربية الإسبانية في القناة قاصدة جزر الفلبين للدفاع عنها. وفي سنة ١٩٠٥ مر الأسطول الروسي قاصداً البحر الأصفر لمحاربة اليابان. وفي سنة ١٩١١ حين نشبت الحرب الإيطالية التركية فتحت القناة للتجار بين جميعاً ولم تفد تركيا من سيادتها على مصر والقناة شيئاً يميزها عن عدوتها إيطاليا. ولما نشبت الحرب الإيطالية الأثيوبية سنة ١٩٣٥ مرت السفن الإيطالية والحربية والنجارية قاصدة غزو الحبشة دون أى اعتراض متحدية في ذلك بريطانيا ومن ورائها عصبة الأمم. ولم تخرق حيدة القناة إلا مرة في أثناء الثورة العراقية في أغسطس سنة ١٨٨٢ قبل عقد اتفاقية القسطنطينية حين استخدمها الإنجليز في نقل قواتهم إلى الإسماعيلية ومنها إلى التل الكبير بالقاهرة كما ذكرنا. ومرة أخرى في ٣ فبراير سنة ١٩١٥ حين حاول الجيش التركي عبور القناة في أثناء الحرب الكبرى، وكان الأتراك قد عبروا الصحراء الشرقية من سوريا

وفلسطين قاصدين غزو مصر ولم تدم المعركة عبر القناة أكثر من ساعات معدودة ارتد على أثرها الجيش التركي .

على أن إنجلترا قد سحبت تحفظها عند ما أبرمت مع فرنسا الاتفاق الودي سنة ١٩٠٤ ولم تستبق منه إلا شرط عدم التقييد بنص المادة الثامنة التي تقضى بتسكوب لجنة من ممثلي الدول بمصر لمراقبة تنفيذ شروط الاتفاق ، وهي لجنة لم يقدر لها أن ترى النور .

ويظهر أن الدول كانت تريد باتفاق القسطنطينية أن تسرى شروطه على القناة في مختلف الظروف ، فنص في المادة الرابعة عشرة على أن الدول الموقعة على الاتفاق توافق على أن التزامات هذه المعاهدة لن تكون رهناً بمدّة عقد الامتياز الممنوح للشركة . فاذا انتهى عقد الامتياز في نوفمبر سنة ١٩٦٨ ظلت شروط الاتفاق سارية .

ومن ينعم النظر في شروط اتفاق سنة ١٨٨٨ لا يرى فيه أثراً لنظام الدولية في القناة على رغم ما جاء في المادة الثامنة منه ، وفيها أن الدول الموقعة على الاتفاق ستعهد إلى ممثليها في مصر أن يراقبوا شروط الاتفاق وأن يكون اجتماعهم برياسة أقدمهم أو برياسة مندوب خاص من قبل سلطان تركيا أو من قبل خديو مصر . غير أن هذه المادة كما قلنا قد ولدت ميتة لحسن الحظ ولم يقدر لها التنفيذ .

ولما ضاق بعض الساسة المصريين ذرعاً بتشدد بريطانيا في ضرورة بقائها بمصر لحماية قناة السويس لأنها - فيما تزعم - الشريان الحيوي لإمبراطوريتها هان على هؤلاء الساسة في سبيل تحقيق استقلال البلاد أن يقترحوا على إنجلترا أن يوكل إلى عصبة الأمم أمر الدفاع عن القناة ، وكان حزب العمال يميل إلى تنفيذ مثل هذا الاقتراح قبل أن يلي وزراؤه الحكم في وزارتهم الأولى في سنة ١٩٢٤ فلما تمسوا بالأعمال لم يجدوا بداً من الاحتفاظ بكل مقومات الإمبراطورية البريطانية وفي مقدمتها شركة قناة السويس . فأعلن مستر آرثر هندرسون وزير الخارجية إذذاك : أن اتفاق سنة ١٨٨٨ يحدد حرية الملاحة في قناة السويس ، ولا ترى

حكومة جلالة الملك أن هناك من الأسباب ما يدعو إلى تغيير هذا الوضع ،
وحسناً فعلت إنجلترا حين رفضت هذا الاقتراح. ولو أنه نفذ وقتئذ لكانت القناة
اليوم في حالة شبيهة بنظام « طنجة » ، مباءة للمنافسات والخلافات الدولية .

ولما انتهت مصر من عقد معاهدة سنة ١٩٣٦ مع بريطانيا قدرت شركة القناة
ما يجب أن تتمتع به الحكومة المصرية من نصيب أوفى في أعمال الشركة فاتفق
الطرفان في سنة ١٩٣٧ على أن يكون لمصر عضوان مصريان في مجالس إدارة
الشركة وأن يعين ثالث إذا اقتضى الأمر زيادة عدد أعضاء المجلس وتمهدت الشركة
بدفع مبلغ ٣٠٠٠٠٠٠ جنيه سنوياً للحكومة وتوظيف عدد من المصريين في كل عام
حتى يصبح عددهم ثلث عدد الموظفين جميعاً ، وعلى ذلك تحسنت العلاقات بين
الشركة والحكومة المصرية . وكان قد وقع شيء من الجفاء بينهما على أثر طلب
تقدمت به الشركة في سنة ١٩١٠ طالبة مد عقدها ٤٠ سنة أخرى مقابل مبلغ كبير
تدفعه الشركة فرفضته الجمعية العمومية وأصبح فرضاً على مصر أن تعد نفسها من
يومئذ للاضطلاع بمهمة إدارة شؤون القناة متى حان الوقت .

واشتد قلق إيطاليا بعد استيلائها على الحبشة وزاد خوفها وسخطها على أثر
إبرام معاهدة الصداقة بين مصر وبريطانيا سنة ١٩٣٦ — وقد نص فيها على أن
لإنجلترا أن تساعد مصر في حماية القناة ورخص لها بصفة خاصة أن يكون لها
بمنطقة القناة حامية عددها ١٠٠٠٠ جندي و ٤٠٠ طيار .

وقد جاء في المادة الثامنة من المعاهدة بشأن منطقة القناة ما يأتي : —

« بما أن قناة السويس التي هي جزء لا يتجزأ من مصر هي في الوقت نفسه طريق
عالمى للدواصل بين الأجزاء المختلفة للإمبراطورية البريطانية فإلى أن يحين الوقت
الذي يتفق فيه الطرفان المتعاقدان على أن الجيش المصرى أصبح في حالة يستطيع
معها أن يكفل بمفرده حرية الملاحة على القناة وسلامتها التامة ، « يرخص صاحب
الجلالة ملك مصر لصاحب الجلالة الملك و الأباطور بأن يضع في الأراضى
المصرية بجوار القناة . . . قوات تتعاون مع القوات المصرية لضمان الدفاع عن

القناة . . . ولا يكون لوجود تلك القوات صفة الاحتلال، بأى حال من الأحوال، كما أنه لا يخل بأى وجه من الوجوه بحقوق السيادة المصرية .

وقد احتجت إيطاليا ورأت في ذلك مخالفة صريحة لاتفاق سنة ١٨٨٨ وطالبت باعادة النظر في شأن القناة وضرورة جعلها دولية حتى يتسنى لايطاليا أن تأخذ مكانها إلى جانب بريطانيا وفرنسا في مجلس إدارة القناة . وقد رد وكيل شركة القناة إذ ذاك على هذه المطالب بأن تعيين أعضاء مجلس إدارة الشركة متوقف على رغبة أعضاء الأسهم في جمعيتهم العمومية . أما تعديل نظام الشركة وقوانينها فلا بد فيه من أخذ رأى مصر صاحبة الشأن الأخير في القناة ، وكذلك رد رئيس الحكومة المصرية إذ ذاك المرحوم محمد محمود باشا قائلاً في جواب له على سؤال وجه إليه بمجلس النواب أنه لا يمكن إجراء أى تغيير في نظم الشركة الأساسية ما لم توافق عليه الحكومة المصرية لأن القناة تجرى في أرض مصرية ولأن مصر هى التى منحت عقد الامتياز ولأن القناة سوف تعود إلى مصر بعد انتهاء أجل ذلك العقد .

ولم يعد المصريون منذ إبرام معاهدة سنة ١٩٣٦ مع بريطانيا يتحدثون عن دولية ، القناة . فنظام الدولية فضلاً عن مخالفته لحقوق الشركة وأصحاب الأسهم فيها يتنافى مع حق مصر فى السيادة التامة على أرضها وفى داخل حدودها ، ولا يشرف مصر أن يقوم نظام دولى مهما يكن نوعه على أرض مصر أو أن تتعاون طائفة من الدول للدفاع عن جزء من أرضها ، بل أن واجبها الوطنى ليقترضها منذ الآن أن تضطلع وحدها بقواتها وأسلحتها المختلفة بمهمة الدفاع عن القناة بالاصالة عن نفسها وبالنيابة عن الأمم المتحدة . وظاهر أن هذا لا يمنع أن يكون اضطلاع مصر بواجباتها نحو القناة أمراً مكفولاً بموافقة الدول فهذا شئ آخر يختلف تمام الاختلاف عن جعل منطقة القناة منطقة دولية .

وليس فى ميثاق الأمم المتحدة الذى أقره مؤتمر الدول فى سان فرانسيسكو فى يونية سنة ١٩٤٥ ما يشير إلى اعتبار منافذ البحار مناطق استراتيجية تشرف عليها

الأمم المتحدة فقد نصت المادتان ٨٢ و ٨٣ من الميثاق المذكور على أنه « يجوز أن تحدد مناطق استراتيجية . . . في الأقاليم التي تخضع لنظام الوصاية وان مجلس الأمن هو الذي يباشر جميع مهام الأمم المتحدة الخاصة بهذه المناطق الاستراتيجية » وتنص المادة ٧٨ على أنه « لن يطبق نظام الوصاية على الأقاليم التي أصبحت أعضاء في هيئة الأمم المتحدة » . على أن هذا لا يمنع الدول من إعادة النظر في الاتفاقات الدولية التي تحكم بمقتضاها منافذ البحار ومن بينها اتفاق سنة ١٨٨٨ الخاص بالقناة . وعندئذ يتعين علينا أن ننبه الدول إلى أن قناة السويس منفذ بحري صناعي لا طبيعي كضيق جبل طارق أو الدردنيل أو باب المندب وأنه محفور في أرض مصرية بأمر من حكومة مصر . وقد تقاضانا حفره أرواحاً وأموالاً كثيرة ، وان أمره الآن بيد شركة مساهمة مصرية قانوناً وسيصبح قريباً ملكاً للدولة . وقد نص في المادة الثانية من ميثاق هيئة الأمم على أنه « ليس في هذا الميثاق ما يبيح للأمم المتحدة أن تتدخل في شؤون دولة ما إذا كانت هذه الشؤون من مستلزمات سلطتها الداخلي »

وليس في شروط اتفاقية سنة ١٨٨٨ نص صريح على حيده القناة . وليس معقولاً أن تتمتع القناة بنظام الحيده مع أنها جزء لا يتجزأ من مصر ، ولم تكن مصر أو تركيا يوماً دولة محايدة كسويسرا مثلاً . غير أننا نلاحظ أن اتفاق سنة ١٨٨٨ تضمن جميع مستلزمات الحيده تقريباً فنص في المادة الأولى منه على حرية القناة وأنها مفتوحة لجميع السفن على اختلاف أنواعها في الحرب وفي السلم كما نص على عدم إقامة الحصون على ضفاف القناة وعلى بعد ثلاثة أميال من سواحلها . كذلك نص في عقد الامتياز سنة ١٨٥٦ على أن القناة وموانئها مفتوحة كطريق محايد *comme passage neutre* لجميع السفن على السواء . فإذا كانت الحيده بمعنى الحرية فإنها مكفولة بشروط اتفاق سنة ١٨٨٨

أما نظام الحيده المعروف دولياً والذي تخضع له سويسرا أو كانت تخضع له بلجيكا فقد أصبح بعد انشاء عصبة الأمم عقب الحرب الأوربية الأولى وبعد

إقرار ميثاق الأمم المتحدة في هذا العهد نظاماً عتيقاً بالياً إذ لا بد لسكل دولة تحترم نفسها وتؤمن بمستقبلها ومكانتها بين الأمم أن تأخذ مكانها إلى جانب زميلاتها وأن تتعاون معهم في نصرة المبادئ الديمقراطية ونشر رواق السلم ورد عدوان الدولة أو الدول المعتدية على حرية السلام ولو اقتضى ذلك استخدام القوة .
ووظاهر أن مبدأ استخدام القوة لا يتفق مع نظام الحيدة .

أن الحيدة كما قررها علماء القانون الدولي هي انتقاص لاستقلال البلاد ووحدة من حريتها في التوسع والتحالف السياسي مع من تشاء من الدول . ونحن نعرف أن مصر مقبلة على طور جديد وخطير في حياتها الدولية فقد أنشأت مع أخواتها جامعة الدول العربية للذود عن صالح الأمم العربية . وقيام هذه الجامعة العربية ووحده ينافي تماماً مبدأ الحيدة ، ولا تزال أمام مصر أهداف سياسية وإقليمية تسعى لإدراكها ولا أمل في بلوغها مع التواكل والقناعة والاستسلام وجميعها مرادفات لمعنى الحيدة ،

• • •

ولما عرضت مصر قضيتها أمام مجلس الأمن في خريف سنة ١٩٤٧ كان موضوع الدفاع عن القنارة في مقدمة المسائل التي اختلف عليها الرأي . فقد دافع الوفد المصري عن حق مصر في الانفراد بحماية القنارة اكتفاء باشتراكها في هيئة الأمم المتحدة وباستنادها في الأزمات الدولية إلى ميثاقها . واتهم الوفد الحكومة الإنجليزية بأنها بادعائها حق الدفاع عن القنارة دون سائر الدول قد نقضت اتفاق القسطنطينية الدولي الذي أبرم في أكتوبر سنة ١٨٨٨ والذي تنص المادة الثانية عشرة منه على ، ان مبدأ المساواة بين الدول في حرية استعمال القنارة هو من الاسس التي تقوم عليها المعاهدة . وان الدول المتعاقدة تطبيقاً لهذا المبدأ متفقة على أنه لن تحاول أية واحدة منها أن تحصل فيما يخص القنارة على أية امتيازات أو أن تدخل في تدبيرات دولية تؤدي إلى مثل هذه الامتيازات . فقال المندوب البريطاني في رده أن الحكومة الإنجليزية في موقفها بشأن القنارة لم تتجاوز

نطاق اتفاق سنة ١٨٨٨ وانها لم تفعل أكثر من تنفيذ المادة التاسعة من الاتفاق المذكور . وهذه المادة تقول ، أن الحكومة المصرية تقوم في حدود السلطات المخولة لها بالفرمانات السلطانية باتخاذ الاجراءات اللازمة لتأمين تنفيذ نصوص هذا الاتفاق . فاذا لم تتوافر لدى الحكومة المصرية الوسائل اللازمة لجأت إلى الحكومة العثمانية وعلى هذه الحكومة أن تستجيب إلى دعوتها وتخطر الدول بذلك .

واستنتج المندوب البريطاني استنادا إلى هذه المادة أن المسئول عن القناة دولتان هما مصر أولا ثم بريطانيا ثانيا بعد ان حلت مكان الدولة العثمانية ، ونسى المندوب البريطاني ان إنجلترا كانت في ذلك الوقت تحتل مصر وتعمل فيها كأنها باقية بها إلى ما شاء الله ولو أرادت الدول أن يكون لبريطانيا نصيب في الدفاع مهما يكن ضئيلا لجاء النص مبينا ذلك ولما وجدت الدول غضاضة في ذكره ما دامت بريطانيا محتلة البلاد . ولكن الدول تعمدت عدم ذكر الدولة المحتلة حتى لا تتحول مصر والقناة إلى مستعمرة بريطانية . ونصت المادة قصدا على ذكر تركيا .

وإذا كانت بريطانيا قد أرادت في معاهدة فرساي أن تسبغ على مركزها في مصر والقناة صفة شرعية فجعلت المانيا توافق على المادة ١٥٢ من المعاهدة المذكورة التي نصت على أن تتول إلى حكومة جلالته الملك جميع الحقوق التي كانت لجلالة سلطان تركيا بمقتضى اتفاق القسطنطينية ، فإنه يكفي في نقض هذه المادة من أساسها أنه لا تركيا ولا مصر كانت بين الدول التي دعيت إلى مؤتمر فرساي أو التي وافقت على قراراته . وإذا اعترضتنا إنجلترا مرة ثانية بدعوى أن تركيا قد أقرت ذلك التنازل أولا في معاهدة سيفر سنة ١٩٢٠ التي لم يصادق عليها وثانيا في معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ وقد نزلت تركيا عن حقوقها في مصر والسودان بمقتضى المادة السابعة عشرة ونص فيها على أن يصبح التنازل نافذا من ٥ نوفمبر سنة ١٩١٤ وهو تاريخ دخول تركيا الحرب العالمية الأولى ضد الحلفاء - فإن

الباحث المنصف لا يلبث أن يقتنع بأن الحقوق التي نزلت عنها تركيا يجب أن تتول قانونا لمصر صاحبة هذه الحقوق الاصلية وما كان ينبغي أن تنزل تركيا عنها لفريق ثالث إلا برضاء مصر وموافقتها .

على أن حق مصر تأيد كاملا بأعلان استقلالها في ١٥ مارس سنة ١٩٢٢ على حين كان أبرام معاهدة لوزان في ٢٤ يولية سنة ١٩٢٣ أى بعد إعلان الاستقلال بستة عشر شهراً ، وبذلك تكون تركيا حين وقعت على معاهدة لوزان لم يكن لها حق ولا شبه حق على مصر حتى تنزل عنه لفريق ثالث لأن حقوق مصر كانت قد ردت إليها كاملة عند دخول تركيا الحرب ضد الحلفاء في سنة ١٩١٤ وتأيد ذلك بإعلان استقلال البلاد في سنة ١٩٢٢ .

وأما أن إنجلترا قد احتفظت بتأمين مواصلاتها الامبراطورية في مصر عند ما أعلنت مصر استقلالها فهو قول مردود لأن اعلان التحفظات فضلا عن كونه افتنانا على سيادة مصر فانه كان بمقتضى تصريح من جانب واحد لم تشترك مصر في اعلانه أو توقيعه . وأما إذا اعترضتنا إنجلترا للمرة الثالثة بدعوى أنها قد جمعت من ذلك التحفظ أمراً قانونياً أو ضمنته معاهدة سنة ١٩٣٦ في المادة الثامنة كما سبق القول فان مصر ما فتئت تنادى منذ أن انتهت الحرب العالمية الثانية ببطان هذه المعاهدة لان كيانها لا يتفق ونصوص ميثاق هيئة الأمم المتحدة من جهة ولأن المعاهدة من جهة أخرى تتناقض ونص اتفاق القسطنطينية الدولي الذي لا يزال قائماً ولم يستبدل به اتفاق دولي جديد إلى الآن .

على أن مخالفة إنجلترا لنصوص معاهدة سنة ١٨٨٨ لم تقتصر على استنثارها بحق الدفاع عن القناة بل أن التجارب القاسية في الحربين العالميتين قد برهنت على أن حرية المرور في القناة المكفولة لجميع الدول في السلم والحرب إنما هي في حقيقة الأمر مجرد خرافة في زمن الحرب فان بريطانيا بحكم تفوقها في البحر وفي مصر

كانت تسارع بالتحكم في القناة كما تشاء فتسمح بالمرور لسفنها وسفن حلفائها دون الآخرين، وقد جاءت الحرب، العالمية الأولى فأكدت خرافة حرية المرور وحيدة القناة في أثناء الحرب . فقد استطاعت قوة تركية بقيادة جمال باشا على رأس ٣٠ ألف جندي مزودة بكل ما تحتاج إليه من مؤن ومياه وسفن وجسور متحركة أن تهاجم القناة في ٣ فبراير سنة ١٩١٥ عند محطة طوسون بين البحيرات المرة والقنطرة ، وقد أفلح فريق من المهاجمين في عبور القناة ولكن الحلفاء استطاعوا احباط هذه المحاولة الجريئة بمساعدة سفينتين حربيين فرنسيين كانتاراسيتين في القناة فارتد المهاجمون ولم يلحق بهم الحلفاء . ولو قدر للحملة التركية الألمانية النجاح لتغير وجه الحرب قطعاً . وقد وضح في الحرب العالمية الثانية وضوحاً جليلاً أن القناة قد تعرضت في أثناء الحرب لآخطار من جانب العدو كادت تشل حركتها تماماً بما كان يتساقط عليها من الجو من مختلف القذائف . وبذلك زالت الحصانة التي كانت للقناة في الماضي كما زالت حصانة الصحراء أمام السكشوف العلية الحديثة التي انتجت السيارات والطائرات والقنابل الطائرة والرادار والقنابل الذرية للفتك بكل ما يعترض سير الجيوش الحديثة من موانع بشرية كانت أو طبيعية .

هذه الدروس جميعاً يجب ان تبصرنا بمصيرنا إزاء القناة . فقد استخدمت إنجلترا القناة في سنة ١٨٨٢ للتدخل في شئون مصر وقمع حريات الشعب المصري والاعتداء على استقلاله . وفي سنة ١٩١٥ استطاعت دولة أن تسير جيشاً عرمرماً عبر القناة لغزو مصر . وفي الحربين العالميتين هوجمت البلاد ووطئت أرضها الجيوش المحاربة ضد إرادتها وذلك بسبب القناة . وأكبر الظن أن مثل هذه العمليات قد تتكرر في المستقبل أن لم يكن من جانب الانجليز فمن جانب غيرهم مادامت الحيدة أو حرية المرور في القناة مكفولة للجميع في أثناء الحرب . ومن حق مصر إذن أن تطالب بحقوقها في تحصين قناة السويس وتسليحها كما تحصن الولايات

الفصل الثامن

جزر البحر المتوسط

لو نظرت في خريطة افريقية الشمالية إلى رأس « بن » ، ثم تابعت النظر من هذا الرأس إلى جزيرة صقلية عبر الجزر الصغيرة المتناثرة هنا وهناك أذن لأدهشك أن ترى كأن عنقا من أفريقية تريد أن يستطيل حتى يلامس رأس العنق الآخر المقابل في صقلية . وحينئذ لا يبقى في ذهنك أقل شك بأن القارتين كانتا في الازمنة الجيولوجية القديمة متصلتين ، فالمسافة بين الرأسين لا تزيد على ٧٥ ميلا ومظاهر الطبيعة والحياة في المنطقتين واحدة فهي جميعا بيئة البحر المتوسط بشمسها الدافئة وزيتونه وأعنابه ونخيله وأشجاره ذات الأوراق الخضراء الداكنة وبماشيته ونسيمه وشفقه وأصيله ذى الألوان البنفسجية الرائعة .

وعند هذا الملتقى المائى ينقسم البحر المتوسط إلى قسمين عظيمين شرقي وغربي لكل منهما جزره وخصائصه وميزاته وعندده أيضا تتقابل أو تتعارض مصالح أكبر الدول شأننا في البحر المتوسط ، ففرنسا تونس ولايباليا صقلية وجزيرتا بنطاليريا ولبيدوسا ولبريطانيا مالطه وجوزو .

مالطه :

وكانت جزيرة مالطه إلى وقت قريب تعتبر أهم قاعدة استراتيجية في البحر المتوسط إذ تستطيع الدولة التي تمتلكها أن تتحكم في ملاحمة البحر المتوسط شرقيه وغريبه ، ولكن تطور السلاح الجوى فى السنوات الاخيرة التى سبقت الحرب العالمية الثانية وفى اثنائها قد قلل من أهمية الجزيرة شيئا ما ، إذ أصبحت هدفا قريبا ميسرا للهجوم الجوى من إيطاليا ومن شمالي افريقية وهو أمر دعا

انجلترا قبيل الحرب العالمية الثانية إلى نقل أسطولها من مالطة وحشده في الاسكندرية وحيفا .

على أن الحرب الأخيرة قد كشفت أيضا عن جانب عظيم من الأهمية وهو أن جزر البحر المتوسط تستطيع إذا أحكم الدفاع عنها جويًا أن تكون معقل وحصونا لا تغلب ، فقد ثبتت جزيرة مالطة ثبوت الصخرة الراسخة أمام هجمات الاعداء التي لم تنقطع طوال المدة التي استغرقتها الحرب في شمالي افريقية ، كما ثبت الألمان في جزيرة كريت واثبت الطليان والألمان في جزر الدوديكانيز. ولم يستطع أحد الجانبين المتحاربين أن ينال من مناعة هذه القلاع والرواسي .

ولقد كان صمود مالطة امام الاعداء عجيبا إذ كانت انجلترا تعتمد في تموين مالطة واستكمال الدفاع عنها على فرنسا وما كان لها من قواعد في تونس وغيرها في شمالي افريقية، فلما انهزمت فرنسا وخرجت من الميدان وتولت الأمر حكومة فيشى أغلقت تونس وشمالي افريقية في وجه بريطانيا وأصبح بين مالطة وأقرب قاعدة صديقة لبريطانيا ٨٠ ميل على الأقل عل حين لم يكن بين مالطة وأقرب قاعدة جوية للعدو سوى ٦٠ ميلا تقريبا، هذا فضلا عن أن مالطة قد أصبحت بعد خروج فرنسا من الميدان القاعدة الوحيدة التي تعتمد عليها بريطانيا بين جبل طارق وقناة السويس . وقد تفاقمت الحال حين أقام الألمان قواعدهم الجوية في صقلية تمهيدا لهجوم القائد الألماني رومل نحو الشرق وشمالي افريقية سنة ١٩٤١ وقد وضع بجلاء امام الألمان أنه لأجل تيسير عمليات التموين والنقل بين إيطاليا وشمالي إفريقيا يجب القضاء على مالطة التي أصبحت مطارا مكبرا أو على حد قول بعضهم حاملة طائرات لاسبيل إلى إفريقيا . حينئذ بدأ الهجوم الجوي الجنوبي على مالطة وقد أصاب الفريقين خسائر جمة ، ولولا متاعب ألمانيا في الميدان الروسي لاستطاع الألمان القضاء على مالطة ، لكنهم كانوا الحسن الحظ يحاربون على جبهتين متسعيتين عظمتي الخطر فلم يستطيعوا تركيز جهودهم في أحداها وكانت النتيجة أنهم خسروا المعركة في الميدانين . وهكذا انقذت مالطة من خراب محقق بعد أن انقذت هي

بدورها مصير الجيش الثامن الانجليزي الذي كان يقاتل في الموقعة الحاسمة على أبواب الاسكندرية .

غير أن صمود مالطة أمام هجمات العدو لم يكن معناه أن انجلترا قد أستردت تفوقها في البحر المتوسط ، فإن طرق الملاحة التجارية والحربية قد تحولت منذ دخول إيطاليا الحرب من حوض البحر المتوسط إلى طريق رأس الرجاء الصالح فالبحر الأحمر فقناة السويس . واستمرت هذه الحال حتى طرد الألمان من شمالي إفريقيا وعبر الحلفاء إلى جزيرة صقلية وأرض إيطاليا وحينئذ عقدت إيطاليا الهدنة مع الحلفاء في سبتمبر سنة ١٩٤٣ .

وليس من شك في أن انجلترا وقد انتهت الحرب بانتصار الحلفاء ستتشبث بامتلاك هذه الجزيرة مستندة إلى الأسباب نفسها التي دعت إلى احتلالها منذ قرن ونصف تقريبا . ذلك لان التيارات السياسية والاقتصادية التي تجذب انجلترا نحو الشرق لاتزال على قوتها ، ومصالح انجلترا كدولة بحرية عالمية تقتضيها أن يكون لها قواعد ومحطات على طول طريقها إلى الشرق تشرف منها على حركة الملاحة وتلوذ بها عند الحاجة .

وكان احتلال انجلترا لمالطة في سنة ١٨٠٠ بعد أن فاجأ بونابرت انجلترا ودول أوروبا بحملته على مصر واستطاع وهو في طريقه أن يحتل مالطة ويستخلصها في أيام قلائل من أيدي فرسان القديس يوحنا الذين ظلوا يحكمون الجزيرة منذ سنة ١٥١٣ . ويعتبر نابليون أول من دل على أهمية الجزيرة من الوجهة الاستراتيجية في البحر المتوسط . على أن الفرنسيين لم يبقوا في الجزيرة إلا تسعة أشهر اسأوا الحكم فيها وكان حكما عسكريا صارما فاستنجد الأهالي بملك صقلية وكانت الجزيرة تابعة له اسميا واستأذنه في استقبال الأسطول الانجليزي لانقاذهم ، فجاء نلسون واحتل الجزيرة بارادة الاهالي واتخذت منها انجلترا منذ ذلك اليوم قاعدة متوسطة بين جبل طارق ومصر التي كانت وقتئذ مفتاح الطريق البري إلى الشرق ، وقد تأيد امتلاك انجلترا للجزيرة بمقتضى قرارات مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥ .

وقد سارت إنجلترا في حكم الجزيرة في أول الأمر على عاداتها من حيث عدم التدخل في شؤون الأهالي الدينية أو اللغوية فتركوا الناس يتعلمون اللغة الإيطالية ويستخدمونها في المحاكم ، مع أن أكثر من ٨٥ ٪ من سكانها لا يتكلمون اللغة الطليانية ولغتهم المتداولة هي اللغة المالطية وهي خليط من اللغتين العربية والفينيقية القديمة . وهم مع ذلك شديد والتمسك بمذهبهم الكاثوليكي وبعلاقاتهم بالبابا ولذلك وللروابط التاريخية والجغرافية التي تربطهم بصقلية تأثرت مالطه بالطابع الطلياني . ولم تفتن إنجلترا إلى خطر هذه السياسة إلا بعد أن تمت حركة الوحدة الإيطالية وبدأت إيطاليا المتحدة تتشبه بالدول الكبرى وتطالب بأن يكون لها مستعمرات في شرقي إفريقيا ثم شمالها . ولما كانت العناصر الموالية لإيطاليا في الجزيرة تتمتع بنفوذ ديني وثقافي ظاهر فقد خشيت إنجلترا على سلامة مركزها في البلاد فجعلت اللغة الإنجليزية لغة رسمية وأصلحت اللغة المالطية . وجعلتها لغة صالحة للتعليم في المدارس .

ولما أنتهت الحرب العالمية الأولى وكان أهل البلاد قد أبلوا فيها بلاء حسنا إلى جانب إنجلترا ، تطلع الأهالي إلى تغيير نظام الحكم الاستعماري ليستبدلوا به نظاما يحقق المبادئ التي أعلنها الرئيس ولسون ونادي بها الحلفاء في اثناء الحرب . ولما لم يروا الأهالي تغييرا ناروا ضد الانجليز فعجلت الحكومة الإنجليزية بتحقيق أمانهم السياسية ومنحتهم في سنة ١٩٢١ دستورا جعل السلطة التنفيذية بيد وزارة مسؤولة أمام برلمان مكون من مجلسين . واحتفظ للحاكم العام الإنجليزي بحق إصدار القوانين في شؤون الدفاع والعلاقات الخارجية والعملة والتجارة الخارجية ، فبدأت الحال بضع سنين ثم قامت بين الأحزاب التي كانت تتناوب الحكم منازعات داخلية حول استعمال اللغة الإيطالية في التعليم وحقوق رجال الكنيسة . وفي سنة ١٩٢٧ أبطلت اللغة الإيطالية بالمدارس الابتدائية وعلى أثر ذلك أصدر رجال الدين قرارا بالحرمان ضد جميع الذين يقبلون هذا التشريع وغيره من القوانين التي أصدرتها حكومة لورد ستركلاند Strickland الوزير المالطي

الاييرلندي الأصل ورئيس الحزب الدستوري بمالطه فأوقف الحاكم العام العمل بالدستور ثم ألغاه في سنة ١٩٢٣ وعادت مالطه إلى نظام الحكم القديم كمستعمرة تابعة للتاج .

ولما اشتد مسوليني في عدائه لانجلترا وجعل يمهّد لغزو الحبشة بدعايته وعبونه وصنائه في البلاد التي يسكنها الايطاليون ومنها مالطه أخذت انجلترا تحتاط ضد إيطاليا فأبطلت استعمال اللغة الطليانية في محاكم مالطه سنة ١٩٣٤ وأبعدت عن الجزيرة العناصر التي تتوجس منها الشر ، والتي كانت تعمل لمصلحة ايطاليا وانشأت بالجزيرة مطاراً عظيماً وحصنت قاعدتها البحرية ، ثم عملت على استمالة العناصر الوطنية فأوسعت في سنة ١٩٣٩ نطاق مجلس الحاكم حتى شمل عشرة أعضاء ينتخبهم الأهالي وفق دستور سنة ١٩٢١ من غير رجال الدين وهذا العدد يعادل نصف أعضاء المجلس .

وقد أوثقت الحرب الأخيرة روابط الصداقة بين الانجليز والأهالي بقدر ما أضعفت من نفوذ الموالين لايطاليا . وقد أظهرت مالطه من البطولة في أثناء حصارها في الحرب الأخيرة ما أعاد إلى الأذهان قصة بطولتها في سبتمبر سنة ١٥٦٥ حين ارتد عنها الأتراك بعد حصار دام خمسة أشهر وكان زعيم الدفاع عن مالطه إذ ذاك الفارس الصليبي « لافاليت La Valette » الذي يرجع إليه فضل انشاء التحصينات العجيبة التي عرفت بها الجزيرة والذي سمي باسمه ميناء « فالتا ، الشهير الذي تقوم به عاصمة الجزيرة .

واعترافاً بهذه البطولة قرر البرلمان الانجليزي أخيراً منح الجزيرة عشرة ملايين من الجنيهات لتعمير ما خربته الحرب كما أنعم عليها الملك جورج بوسام لثباتها وبسالتها في الحرب .

وأهالي مالطه يعتزون بلغتهم وباستقلال جنسهم عن الطليان وغيرهم ويفخرون بماضيهم المجيد وبكفاحهم في عصور التاريخ المختلفة في سبيل الحرية والاستقلال

وأكبر الظن أنه لن يمضي وقت طويل حتى تسترد مالطه استقلالها الذاتي داخل نطاق المجموعة البريطانية للأمم الحرة .

وتبلغ مساحة جزيرة مالطة ٩٥ ميلاً مربعاً وجزيرة جوزو ٢٦ ميلاً وجزيرة كومنيو ميلاً مربعاً واحداً . ويبلغ عدد سكان هذه الجزر جميعاً ٢٦٧٧٠٠ نفس (١٩٤٠)

وعلى مقربة من مالطة وفي وسط المسافة بينها وبين تونس جزيرة صغيرة اسمها « يانتاليريا » وهي تابعة لإيطاليا ولا تزيد مساحتها على ٣١ ميلاً مربعاً وسكانها ١٠٠٠٠٠ نفس . وقد كانت في الماضي منفي للجرميين من الطليان ولسكن الحكومة انفاشية جعلت منها سنة ١٩٣٦ قاعدة بحرية وجوية وحظرت على الأجانب دخولها والطيران فوقها وقد كان الظن أنها ستصبح قاعدة استراتيجية خطيرة تفيد منها إيطاليا وقت الحرب ولسكن الحرب الأخيرة اثبتت ضآلة أهميتها ولم يجد الحلفاء صعوبة تذكر في احتلالها في يونيو سنة ١٩٤٣ . وليس بالجزيرة ميناء صالح والسكنها مخبيء جيد للغواصات .

وعلى مقربة من هذه الجزيرة أيضاً جزر صغيرة أخرى أهمها لمبدوسا وقد احتلها الانجليز ولا يزالون بها إلى الآن . ويظهر ان انجلترا تعتزم أن تؤمن مركزها في البحر المتوسط بانشاء قواعد أخرى لها أو لأصدقائها إلى جانب مالطه في هذه الجزر الصغيرة التي ذكرناها وربما في صقلية أيضاً وقد بعثت في الأهالي أخيراً رغبة جديدة في التحرر من نير إيطاليا الشمالية .

جزر البليار :

وتتكون هذه الجزر من أربع جزر كبيرة هي منورقه وبجورقه أو ميورقه وايزه أو يابسه وفورمنتيرا . وإلى جانب هذه الجزر عدة جزرات صغيرة . وتنحصر أهمية هذه الجزر في أنها تقع في منتصف الطريق بين فرنسا وبلاد الجزائر على حين لا تقل المسافة بينها وبين ساحل اسبانيا صاحبة هذه الجزر عن المسافة

بينها وبين ساحل جزيرة سودانية التابعة لإيطاليا ، وتقع هذه الجزر كذلك في الطريق بين جبل طارق ومالطة . لذلك أصبح لها أهمية استراتيجية عظيمة الخطار في نظر دول البحر المتوسط ، فاذا وقعت هذه الجزر أو أحدها في يد دولة معادية لانجلترا أو لفرنسا استطاعت هذه الدولة أن تكبد لهما في الحرب كيدا عظيما إذ تقطع عليهما خط مواصلتهما في البحر المتوسط وتضطرهما إلى إتخاذ طريق المحيط الاطلسي . ولما كان اتصال فرنسا بأفريقيا في شمال أفريقيا امرأ حيويا يتوقف عليه امدادها بالموثون والرجال لذلك كان اهتمامها عظيما بشأن هذه الجزر وبشأن علاقاتها بحكومة أسبانيا .

ولما قامت الحرب الأهلية في أسبانيا في سنة ١٩٣٦ بين الجمهوريين والوطنيين قامت هذه الجزر بأعظم دور في العلاقات بين دول البحر المتوسط . فقد كانت إيطاليا الفاشية والمانيا النازية تعضدان الجنرال فرانكو واتباعه الوطنيين وتحتلان جزيرتي ميورقه وبيزه وتتخذان منهما قواعد جوية لمهاجمة قوات الجمهوريين في برشلونه ومدريد وكانت تؤيدهم روسيا وفرنسا . أما جزيرة منورقه فظلت بيد الجمهوريين واتخذت بعض الدول من هذه الجزر مخبأ لغواصاتها فكانت تسطو على سفن المحايدين وغيرهم سطوا جعل الملاحة في البحر المتوسط في ذلك الوقت أمرا محفوفا بأشد الأخطار . وكانت إيطاليا تهدف بمساعدتها الوطنيين إلى أن تمد نفوذها غربا فتحتل إحدى جزر البليار ثمنا لمساعدتها وتقف حجر عثرة في طريق كل من فرنسا وانجلترا .

ولكن الدول كانت إذ ذاك شديدة الحذر من نيات إيطاليا فقرر الرأى فيما بينها رسميا على عدم التدخل بين المتحاربين ، ثم اجتمع مؤتمر نيون Nyon ، في سنة ١٩٣٧ لتأمين الملاحة في البحر المتوسط وأعلنت كل من إيطاليا وبريطانيا أنهما يؤيدان بقاء الحالة الحاضرة في البحر المتوسط ، ويعتبران حرية الملاحة في ذلك البحر امرأ حيويا لهما . وكذلك أعلن الجنرال فرانكو أنه لن ينزل عن شبر من

أرض اسبانيا لاية دولة أجنبية وبذلك عاد السلام والطمأنينة في حوض البحر المتوسط ولم يكن لهذه الجزر شأن يذكر في أثناء الحرب العالمية الثانية إذ كانت أسبانيا على الحياد في الحرب، وقد كان التنافس شديداً بين المتحاربين بشأن حيدة أسبانيا لأهمية هذه الجزر من جهة وللمعدن التي كانت تصدرها أسبانيا وتنتفع بها دول المحور من جهة أخرى. ولما كانت ميول حكومة فرانكو في أسبانيا تتجه نحو المحور كان سخط الحلفاء على حكومة فرانكو ومقتهم له من أهم الأسباب التي دعت إلى إهمال شأن أسبانيا دولياً بعد نهاية الحرب إلى الوقت الحاضر.

وتاريخ جزر البليار لا يختلف كثيراً عن تاريخ أسبانيا نفسها فقد كانت تابعة لقرطاجة القديمة ثم صارت جزءاً من الدولة الرومانية ثم استولت عليها قبائل الوندال والقوط الغربيين ثم أخضعها العرب وبقيت بحوزتهم خمسة قرون ونصف اتحدت بعدها مع أسبانيا في القرن الرابع عشر. وحدث في حرب الوراثة الأسبانية أن احتلت إنجلترا جزيرة منورقه سنة ١٧٠٨ وعاصمتها بورت ماهون من أحسن موانئ البحر المتوسط. ولم تصبر فرنسا أو أسبانيا على هذا الاحتلال طويلاً فلم تلبث فرنسا أن انتزعتها من يد إنجلترا سنة ١٧٥٦ ولم يسع إنجلترا في ذلك الوقت إلا أن تحكم بالأعدام على القائد الإنجليزي المنهزم أمير البحر بنج Byng. ثم أستردها إنجلترا في صلح باريس سنة ١٧٦٣ وظلت تتراوح بين إنجلترا وفرنسا ومعها أسبانيا إلى أن ثبتت فيها أسبانيا نهائياً سنة ١٨٠٢ بمقتضى صلح أمين Amiens بين فرنسا وإنجلترا. وكان كل هم إنجلترا أن تحول دون امتلاك فرنسا لهذه الجزيرة خوفاً على مواصلاتها بين جبل طارق ومالطة.

وتبلغ مساحة البليار ١٩٣٥ ميلاً مربعاً وعدد سكانها جميعاً ٤١٠.٠٠٠ ر نفس وهم على صلات عنصرية وتجارية متينة بالشعب السكتالاندي الذي يسكن برشلونه وبلنسية على ساحل أسبانيا الشرقى وأكبر هذه الجزر وأهمها ميورقه أو ملورقه وعاصمتها بالماء.

قورسقه وسردانية:

هاتان الجزيرتان من أكبر جزر البحر المتوسط ولا يفصلهما بينهما سوى مضيق لا يزيد عرضه على تسعة أميال، والسكان في كلتا الجزيرتين يتكلمون اللغة الإيطالية وينتمون إلى جنس واحد، ولكن الجزيرتان تتبعان دولتين متنافستين فقورسقه لفرنسا وسردانيا لإيطاليا. ولكل من الدولتين قواعد محصنة على سواحل الجزيرتين تستطيعانها عند الحاجة أن تقفأ وجهها لوجه في قوى متكافئة. والمسافة بين ساحل قورسقه والساحل الإيطالي أقرب منها بين الجزيرة وساحل فرنسا إذ لا تزيد المسافة بين قورسقه وساحل إيطاليا على ٥٢ ميلاً. ولذلك تعتبرها إيطاليا نافذة تطل منها فرنسا على حركات إيطاليا في البحر ومنها تستطيع أن تهددها بحرا وجوا، ولذلك كان من برنامج الدعاية الفاشية أن تضم قورسقه إلى إيطاليا.

ومع أن قورسقه لم تنضم إلى فرنسا إلا سنة ١٧٦٨ حين باعها جمهورية جنوة الضعيفة إلى فرنسا خشية أن تؤول في النهاية إلى بريطانيا فان الشعور الفرنسي بين الأهالي قد طغى على كل علاقة بين أهل قورسقه وإيطاليا، وذلك بسبب الكبرياء الوطنية التي تحملهم جميعاً على الزهو برجلهم العظيم نابليون بونابرت الذي نشأ شاباً عادياً في الجزيرة ثم لم يلبث أن تولى عرش الإمبراطورية الفرنسية وأصبح أعظم قائد حكم في أوروبا في العصر الحديث. فقد أضحى كل شيء تقريباً في اجاكسيو عاصمة الجزيرة يحمل أسماً عزيزاً يتصل بنابليون والثورة الفرنسية وأهل الجزيرة بذلك كله معتزون فخورون.

أما سردانية فكانت علاقتها السياسية في الماضي باراغونه التي انضمت إلى قشتاله وكونتا مملكة أسبانيا الحديثة، واستمرت هذه الرابطة الإسبانية نحو ثلاثة قرون. وفي سنة ١٧٢٠ انضمت إلى دوق سافوى ومن سردانية أخذ أمراء سافوى لقب الملك، وأستمروا كذلك حتى توحدت إيطاليا الشمالية في سنة ١٨٦١

فأصبح فكتور عمانويل الثاني دوق سافوي وملك سردانية ملكا على إيطاليا .
وتعتبر سردانية الآن جزءا من إيطاليا والشعور فيها ايطالي بحت وليست
لها مشاكل سياسية أو دولية .

جزر سرقى البحر المتوسط

هذه جزر متناثرة بغير حساب معظمها في بحر أيجه ، منها ما هو أهل بالسكان
ومنها ما هو صغير مهجور الا من أكواخ يسكنها النساك أو يقيمها بعض صائدي
الأسماك ، ومنها ما تقوم عليه آثار بعض معابد الأغريق القدماء فتجعلها في صمتها
وعزلتها كأنها صور ابدعتها يد الزمن على صفحة التاريخ القديم .

وتسطع شمس البحر المتوسط الدافئة على هذه الجزر جميعاً فتغلي حولها المياه
غليانها في المراحل وتلفحها رياح السيروكو العاتية فتدوي أصداؤها في جنبات
الارخبيل وتعصف الطبيعة الغاضبة بالفلك التي تجتاز المسالك المائية بينها وحينئذ
لا يعصمها من الدمار الذي يتربص بها إلا أن تلوذ بأحصان المرافئ والخارجان
الطبيعية التي تفتت عنها ثغور هذه الجزر السحرية الغامضة .

من ذلك اشتقت هذه الجزر اهميتها الاستراتيجية ، فمن كانت له الكلمة العليا في
هذه المنطقة استطاع في وقت الحرب أن يجد منها مخاض لغواصاته وأوكارا اسفنته
الخفيفة وقواعد يمتار منها ويلوذ بها إذا أصابه عطب ، أو يتخذها عتبات يقفز منها
جوا إلى الميادين القريبة سواء في أوروبا أو بلاد المشرق أو في شمالي أفريقيا . ولولم
تقع هذه الجزر في أيدي الألمان عقب غزوهم اليونان ما استطاعوا تموين جيش
رومل وتهديد بلاد المشرق طوال المدة التي انقضت بين سقوط كريت في ١٩٤١
ونزول الحلفاء في صقلية في صيف ١٩٤٣ .

ولذلك كان هم روسيا بعد خروج إيطاليا من ساحة الحرب الأخيرة أن تنشئ
قاعدة لها في حوض البحر المتوسط باحتلال جزر الدوديكانيز باسم الحلفاء أو

بالوصاية عليها نيابة عن هيئة الأمم المتحدة ، ولكن إنجلترا وأمريكا لم
تمكننا لها .

ومما يشمر باهتمام إنجلترا بموضوع هذه الجزر أنها لما قررت مع فرنسا في
اثناء الحرب العالمية الأولى أن تضمن بقاء روسيا إلى جانبها باغرائها بالاستحواذ
على القسطنطينية والمضائق بعد أن هزم تركيا ودول الوسط في نهاية الحرب راعت
إنجلترا أن تحتفظ بجزيرتين من جزر بحر إيجه هما «تندوس» و«امبروس» وكلاهما
تتحكمان في مدخل الدردنيل .

وعندما قرر مؤتمر لوزان في سنة ١٩٢٣ حق تركيا الجديدة في السيطرة على
المضائق مع حيدة معظم هذه المنطقة تركت الجزيرتان المذكورتان بيد تركيا ، كما
ترك لليونان مع جزر الارخبيل جزيرتان أخريان هما لمنوس وسامتراكي وكلاهما
تقومان قرب مدخل الدردنيل .

ولما قرر مؤتمر منترو في سنة ١٩٣٦ أن يكون لتركيا مطلق الحرية في تسليح
منطقة المضائق وتحصينها لم تتوان تركيا في تحصين الجزيرتين اللتين تحتاهما . ولتوافق
العلاقات بين تركيا واليونان ، ولما يتكلفه التحصين من نفقات تركت اليونان جزيرتها
دون تحصين اكتفاء بما عملته تركيا وتديلا على ما تكنه اليونان لتركيا من عواطف
المودة وتبادل الثقة بينهما . وليس من شك في أنه إذا أحكم تحصين هذه الجزر
أمكن الوقوف أمام أساطيل روسيا أو غيرها من دول البحر الأسود التي قد
تخاطر باختراق المضائق إلى مياه البحر المتوسط .

ولما أكد فهرجو السياسية الدولية في أوروبا على أثر اعتداء إيطاليا على
على الحبشة وتحدى مسوليني لعصبة الأمم وبريطانيا توثقت العلاقات بين بريطانيا
وتركيا واليونان وعقدت بينها معاهدات لتبادل المساعدة عند الخطر فكان الاسطول
الانجليزى في البحر المتوسط ينتقل بحرية وسط مياه بحر إيجه وبقيء إلى موانئه

وخلجانه عند الحاجة، وكثيراً ما لقي الأسطول من خليج سودا في كريت ومدروس في جزيرة لمنوس ومن خليج فولو بين أثينا وسلا نيك ملاذاً رحباً وحفاوة من الأغر يق . وفي صيف سنة ١٩٣٦ كان ملك انجلترا أدوارد الثامن يطوف في هذه المياه على يخته الخاص ويقابل الرئيس أتاتورك وقريبه الملك جورج الثاني ملك اليونان لتوكيد الصداقة بين بريطانيا وتركيا واليونان .

جزر الايونيا

وأكبر مجموعة من جزر شرقي البحر المتوسط هي جزر الايونيان وتتكون من كورفو وكفالونيا وزنطى . وأهمها جزيرة كورفو التي تقع في مواجهة ثلاث دول مختلفة لجزرها الشمالي يواجه البانيا وتتطلع اليها إيطاليا من الغرب وتواجه اليونان من الجنوب والشرق . وسكان هذه الجزر من اليونانيين ولكن أثر الطليان فيها يمتد إلى أكثر من خمسة قرون، فقد خضعت هذه الجزيرة لجمهوريه البندقية من سنة ١٢٥٠ إلى سنة ١٧٩٧ حين هاجم نابليون إيطاليا ، واحتلت القوات الفرنسية هذه الجزر إلى سنة ١٧٩٩ ثم جلا عنها الفرنسيون ثم لم يلبثوا أن عادوا إليها في سنة ١٨٠٧ وظلوا بها إلى سنة ١٨١٠ حين احتلها الانجليز وافر مؤتمر فينا بقاءهم بها وأستمروا إلى سنة ١٨٦٣ حين نزلت عنها انجلترا لليونان لمناسبة ارتقاء الأمير جورج الدنمركي عرش اليونان وكان صهرا للأسرة المالكة الانجليزية .

وليس لهذه الجزر مشكلة سياسية أو عنصرية سوى ان إيطاليا كانت ترنو ببصرها نحو جزيرة كورفو فهي أقرب إليها من جزيرة كدانيه وهي في الوقت نفسه أغنى جزر اليونان وأهمها . ولقد سنحت لمسوليني في سنة ١٩٢٣ فرصة احتلالها قسراً على أثر حادث الاعتداء على أعضاء اللجنة الإيطالية التي كانت تشترك في تعيين الحدود بين اليونان والبانيا ، ولكن مجلس العصبة سارع بالتدخل وحسم الخلاف بين الحكومتين فاضطر مسوليني إلى سحب أسطوله وقبول تعويض من

اليونان ، ولا يزال أهل كورفو يذكرون ذلك الاحتلال الفاشي وبحسبون حسابا لمطامع إيطاليا في جزيرتهم .
أما أهمية هذه الجزر من الوجهة الاستراتيجية فقاومة على أنها حصون طبيعيه تحمي خليج باتراس وقناة كورنث وكلاهما داخل في صميم أرض اليونان . وكذلك تقع جزيرة كورفو عند مدخل مضيق اترنتو وتتحكم في ملاحه البحر الانديانى .

كريت

ومن أكبر جزر شرقي البحر المتوسط جزيرة كريت . وتبلغ مساحتها ٢٩٥٠ ميلا مربعا وعدد سكانها ٣٣٦.٠٠٠ نفس وأكثرية سكانها كباقي جزر هذه المنطقة من الأغريق . وقد كانت تابعة للبندقية حتى بدأ الأتراك يحتلونها في منتصف القرن السابع عشر . ولما قامت حرب الاستقلال اليونانى فى سنة ١٨٢١ وتدخل محمد على الكبير بحملته على شبه جزيرة المورة أخضع المصريون جزيرة كريت فى سنة ١٨٢٤ ، ولما قررت الدول فى سنة ١٨٣١ استقلال اليونان عن تركيا لم يشمل قرار الاستقلال جزيرة كريت فظلت الجزيرة تابعة لمصر حتى بعد أن قررت الدول قصر محمد على على حكم مصر بالورائه فى سنة ١٨٤٠ . فقد بقى مصطفى باشا حاكم الجزيرة الألبانى الأصل متوليا الحكم فيها إلى سنة ١٨٥٢

ويعتبر هذا العهد الذى خضعت فيه الجزيرة لمحمد على الكبير وواليه مصطفى باشا العهد الذهبى لأهل الجزيرة فقد استتب فيها الامن وانشئت الطرق وانقذت البلاد من أيدي قطاع الطرق ، هذا إلى اهتمام الحكومة بشئون الزراعة والبوليس والعدالة . وما كاد عهد مصطفى باشا ينتضى حتى أخذ الأتراك بمقاليد الأمور فاختل النظام وبدأت فى سنة ١٨٥٦ أول ثورة ضد الأتراك ، ما برحت العلاقات بين الأتراك وأهل الجزيرة تهدأ حيننا وتتوتر أحيانا وكان الحكم التركى فى الجزيرة دستوريا حيننا ، فرديا حيننا آخر ، وظل ذلك شأنها تحت سلطان الأتراك حتى سنة ١٨٩٨ حين قررت الدول أنسحاب القوات التركية واليونانية وأعتبرت الجزيرة متمتعة بالحكم الذاتى .

وفي سنة ١٩٠٢ أرسلت كريت نوابها إلى مجلس النواب اليوناني وفي سنة ١٩١٣
أعتبرت الجزيرة جزءاً من الوطن اليوناني وكان زعيم حركة الاندماج فينييلوس
الزعيم الوطني . وقد اتخذ منها الألمان في أثناء الحرب الأخيرة قاعدة جوية وبحرية
استطاعوا منها أن يتسلطوا على ساحل أفريقية الشمالي في أثناء الفترة التي كان رومل
يزحف فيها شرقاً قاصداً مصر وقناة السويس . وليس لهذه الجزيرة مشكلة
سياسية أو دولية تنفرد بها دون باقي بلاد اليونان .

قبرص

أما جزيرة قبرص فإن الأهالي لا يزالون ينظرون إلى أمهم اليونان بعين العطف
مشوقين إلى الارتقاء بين أحضانها . ولولا الصداقة التي جمعت بين بريطانيا
واليونان قبل الحرب الأخيرة وبعدها لتفاقت الحال في قبرص وأندلعت
فيها زيران الثورة على مثال ما كان في كريت قبل انضمامها إلى اليونان .

وكانت الجزيرة في أول أمرها تابعة كغيرها لجمهورية البندقية ثم أخذها
الأتراك في سنة ١٥٧١ وظل شأن الجزيرة خاملاً إلى الربع الأخير من القرن
التاسع عشر حين افتتحت قناة السويس وبدأ الخطر الروسي في البلقان والشرق
الأوسط يشغل بال السياسيين الانجليز . وكان اسم هذه الجزيرة يقترن في ذكرياتهم
بتاريخ ملكهم رتشارد الملقب بقلب الأسد، وهو الذي ضمها إلى التاج البريطاني
في أثناء الحرب الصليبية سنة ١١٩١ قبل أن ينتزعاها ملوك أورشليم ثم البنادقة في
القرن الخامس عشر .

فلما قامت الحرب بين روسيا وتركيا في سنة ١٨٧٧ وأنعقد مؤتمر برلين
الدولي سنة ١٨٧٨ لانقاذ تركيا بدأت المفاوضات بين تركيا والحكومة الانجليزية

بشأن تأجير جزيرة قبرص لانجلترا لتشرف منها على قناة السويس من جهة
ولتكون من جهة أخرى على مقربة من أملاك تركيا في غرب آسيا إذا ما هددتها
روسيا يوما بحرب جديدة . وكان دزرائيلي (لورد بيكنسفيلد) رئيس الحكومة
الانجليزية إذ ذاك يعمل على توطيد أركان الامبراطورية البريطانية فنادى بالملسكة
فكستوريا امبراطورة على الهند وأشترى للحكومة الانجليزية أسهم قناة
السويس التي كانت بيد الخديوى اسماعيل، ثم استكمل دزرائيلي للحكومة الانجليزية
قواعدها بأخذه قبرص سنة ١٨٧٨ فصار لها في البحر المتوسط جبل طارق ومالطه وقبرص
غير أن أهتمام انجلترا بقبرص مالبث أن تناقص حين هيأت لها الظروف
مكانا ممتازا في مصر وقناة السويس بعد احتلالها البلاد في سنة ١٨٨٢ . ثم كادت
تزلزل هذه الأهمية عند ما أنهزمت روسيا أمام اليابان في أوائل القرن التاسع
عشر وعقدت حلفا مع بريطانيا في سنة ١٩٠٧ وبدأ الخطر الألماني يظهر في
أفق السياسة الدولية .

وفي سنة ١٩١٥ أثناء الحرب العالمية الأولى كانت الحكومة الانجليزية مستعدة
للنزول عن قبرص لليونان لو أن ملكها قسطنطين قد انحاز وقتذاك إلى جانب
الحلفاء في الحرب، ولسكن قسطنطين كان قد اتهمج خطة موالية لصهره امبراطور
المانيا فاضطر الحلفاء إلى التدخل وعزل قسطنطين وضاعت بذلك فرصة ضم
قبرص إلى أمها اليونان . وقد تأيد مركز بريطانيا في الجزيرة على اثر ظهور
الحركة الفاشية في إيطاليا فقد كانت مطامع إيطاليا لا تقتصر على شرق البحر
المتوسط بل تشمل البحر الأبيض كله، وكان لإيطاليا قواعد بحرية وجوية في جزر
الدوديكانيز فكان من الحتم على انجلترا أن تحتفظ بقبرص حتى ترقب حركات
إيطاليا في مياه البحر المتوسط الشرقية وتشرف على أنابيب البترول في حيفا
وطرابلس الشام .

ولقد سار الانجليز في حكمهم جزيرة قبرص وفق سياستهم التقايدية فتركوا
لاهل الجزيرة حرية الاعتقاد والتعليم ولم يقوموا فيها باصلاحات تلفت النظر كما
فعل الطليسان في جزيرة رودس مثلا . لذلك لم يجد رجال الدين صعوبة في إثارة

الآهالى ضد الحكم البريطانى وفعلا نشبت الثورة فى سنة ١٩٣١ وطالب الثوار بزعامة المطران الارثوذكسى الانضمام الى اليونان وقام الآهالى فخرقوا قصر الحاكم فى نيقوسيا ، واشتدت انجلترا فى قمع الثورة فنفت من الجزيرة المطران كيرلس وعداداً من زملائه الأساقفة وغيرهم من قادة الثورة وراقبت بدقة حركة الدعاية السياسية ، ولا تزال الدعوة الى الانضمام لليونان قائمة ومستولية على نفوس أهل الجزيرة وهم لا يفتأون يوازنون بين حالهم وحال أهل جزيرة كريت الذين جنوا بانضمامهم الى اليونان فوائد كثيرة .

ومع أن الحرب الأخرى قد انتهت بخروج إيطاليا من ميدان التنافس الحربى فى البحر المتوسط فقد حرصت انجلترا على التمسك بقواعدها لمراقبة روسيا التى تسعى إلى تأمين حدودها جنوباً من ناحية البحر المتوسط والمضائق فهى فى نظرها الجهة الوحيدة التى قد ينفذ منها عدوها ويعرضها للخطر سواء من الشرق أو من الغرب . ولا ننس انه لا يفصل جزيرة قبرص عن أرض تركيا جنوبى الأناضول سوى ٥٤ ميلاً . وأكبر الظن انه متى استقرت الأحوال فى بلاد اليونان والشرق الأوسط فان انجلترا ستنزل لليونان عن قبرص كما نزلت فى الماضى عن جزر الأيونيان ولسكنها قد تحتفظ فيها ببعض قواعد جوية وبحرية بالاتفاق مع اليونان إذا استمرت الصداقة بينهما أسوة بما فعلته انجلترا فى شرق الاردن . وتبلغ مساحة قبرص ٢٥٧٢ ميلاً مربعاً وسكانها ٣٨٣ر٠٠٠ نفس منهم ٦٥ر٠٠٠ تركى .

روسيا والدوديكانيز :

فى سنة ١٩١٢ فى أثناء الحرب الايطالية التركية احتلت ايطاليا هذه الجزر عقب قتال يسير مع القوات التركية واتخذت منها قاعدة بحرية قريبة من برقة وطرابلس . ومع انه قد نص فى معاهدة الصلح مع تركيا سنة ١٩١٢ على أن تجلو لإيطاليا عن جزر الدوديكانيز متى تم خروج الاتراك من ليبيا فقد بقيت ايطاليا فى هذه الجزر إلى نهاية الحرب الأخيرة . وكانت تحتج إذا طولبت بالجلء عنها بأنها باقية بها إلى أن يجلو الانجليز عن قبرص أو عن مصر . والسكثرة فى هذه الجزر كغيرها فى شرق البحر المتوسط من الإغريق ولهذا كان العداء مستحكما

في السنين الأخيرة بين إيطاليا والإغريق . وكان لإيطاليا في أعقاب الحرب العالمية الأولى مطامع في آسيا الصغرى وفق ما جاء في معاهدة لندن السرية سنة ١٨١٥ التي استطاع بها الحلفاء إغراء إيطاليا على هجر دول الوسط والدخول في الحرب الى جانبهم، ولذلك احتفظت إيطاليا بجزر الدوديكانيز غير أنها حين رأت بوادر الحركة الكمالية في تركيا لم تتورط كفرنسا وانجلترا في معاداة تركيا الجديدة بل راعت جانب السكياسة والاعتدال وظلت بمنأى عن الحلفاء ولذلك استحققت شكر الكماليين وتقديرهم في أول الأمر فلم يطالبوا بإقصائها عن هذه الجزر وجاءت معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ فأقرت احتلال إيطاليا لها .

وقد كان الحكم الإيطالي في هذه الجزر بداية لإصلاح حالها بعد إن كانت مهملة في عهد الأتراك الذين اعتادوا اقطاعها مالياً لجماعات من أهل الجزر . فلما وليها الطليان انشأوا جامعة في رودس اشتهرت بكليتها في الطب وخططوا مدينة رودس وأنشأوا بها الطرق والفنادق وشيدوا قاعدة بحرية جوية في جزيرة ليروس وحرموا زيارتها على الأجانب .

واسم الدوديكانيز يدل على أن عدد هذه الجزر اثنتا عشرة جزيرة على حين يبلغ عددها في الحقيقة الأربعين أكبرها رودس وتليها اثنتا عشرة جزيرة أخرى . وهناك جزيرة أخرى في نهاية تلك المجموعة من الجنوب الغربي اسمها « كاستلريزو » وهي تابعة لإيطاليا منذ الحرب العالمية الأولى .

وتركيا في هذه الجزر مصلحة وأقلية محترمة يبلغ عددها ربع السكان في جزيرة رودس . ولا تزيد المسافة بين هذه الجزيرة وسواحل الأناضول على عشرة أميال، وليس من صالح تركيا ان تستولى إحدى الدول الكبرى على هذه الجزر بل تفضل ان تستقل الجزر استقلالاً ذاتياً أو تضم إلى اليونان . ووجه الاهتمام بهذه الجزر من الوجهة الاستراتيجية انها واقعة في وسط المسافة بين اسطنبول والشرق الأوسط ولذلك اتجهت سياسة روسيا بعد الحرب الأخيرة إلى إحتلال إحدى هذه الجزر . وقد قررت معاهدة الصلح مع إيطاليا سنة ١٩٤٧ أن تضم هذه الجزر إلى اليونان

الفصل التاسع

بريطانيا في البحر المتوسط

لم يكن الانجليز السكسون يوما من الشعوب التي سكنت حوض البحر المتوسط وليس لهم في هذا البحر مصالح تفوق مصالح الشعوب الأوربية أو الشرقية التي لها سواحل تلامس مياه هذا البحر ، ومع ذلك فقد حرصت بريطانيا منذ صار لها ممتلكات واسعة في الهند على أن تكون لها السيادة في هذا البحر .

وليس معنى السيادة هنا أن تكون للدولة جيوش وأساطيل وقواعد ومطارات بحسب فقد توفر لفرنسا من هذه الوسائل في البحر المتوسط أكثر مما توفر لبريطانيا، وكان لايطاليا منها في بدء الحرب الأخيرة شيء كثير . ولكن الدولتين لم يفيدا من ذلك فتبلا . ذلك لأن للبحر المتوسط بوابتين رئيسيتين تحكمان اغلاقه ، احدهما عند قناة السويس شرقا والآخرى عند جبل طارق غربا . وانما تكون السيادة للدولة التي تملك مفتاحي البوابتين أو احدهما على الأقل . ولكن بريطانيا لم تكف بالقبض على مفتاحي البوابتين بل انشأت على طول طريق البحر محطات أو نقاطا بوليسية للحراسة تشرف منها على حركة الملاحة في البحر وتلوذها عند الحاجة . وفي امتلاك انجلترا لكل من هذه المحطات دلالة على تطور خاص في سياسة بريطانيا أزاء الموقف الدولي العام .

أما معقل جبل طارق فاحتلته انجلترا سنة ١٧١٣ بمقتضى معاهدة أترخت التي انتهت بها حرب الوراثة الاسبانية . وكانت انجلترا قد خشيت عاقبة انضمام قوات فرنسا واسبانيا ضدها بعد أن صار فيليب الخامس حفيد لويس الرابع عشر ملكا على اسبانيا فسارعت باحتلال هذه النقطة الحصينة ، أمعانا في أيام عدوتها اسبانيا من جهة ولكي تشرف منها على طريق الملاحة إلى الشرق : طريق البحر المتوسط وطريق رأس الرجاء الصالح . وكانت انجلترا في ذلك الوقت قد بدأت تنشر نفوذها

في الهند فأنشأت شركة الهند الشرقية وباتت الملاحة بين انجلترا واهلاكها في الشرق تتطلب الحماية والتأمين .

وأما احتلال مالطه فكان في سنة ١٨٠٠ وكان نابليون بونابرت قد لفت بحملته على مصر أنظار الدول إلى أهمية موقع مصر الحربى والجغرافى وإلى عظم شأن الطريق البرى إلى الشرق . فرأت انجلترا أن تسكون لها قاعدة متوسطة بين جبل طارق ومصر، ولم تجد صعوبة في الاستيلاء على الجزيرة من يد الفرنسيين وكانوا قد احتلوها وهم في طريقهم إلى مصر . وقد تأيد امتلاك انجلترا لمالطه في مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥ .

ولما افتتحت قناة السويس سنة ١٨٦٩ وتحولت إليها طرق الملاحة بين الشرق والغرب لم تر انجلترا بدا من انشاء محطة قريبة من منطقة القناة تشرف منها على أملاك تركيا في غرب آسيا وترقب منها القناة عن كسب . وكانت روسيا تعمل جاهدة في ذلك الوقت على اضعاف تركيا وطردها من أوروبا فأبهرت انجلترا اللذود عنها في مؤتمر براين سنة ١٨٧٨ وكان نصيب انجلترا في مقابل ذلك أن تنازلت لها تركيا عن جزيرة قبرص .

ثم وقعت الأزمة المالية في مصر في أواخر عهد الخديو اسماعيل وقامت الثورة العراقية فتدخلت انجلترا في شئون مصر المالية أولاً واشترت نصيب مصر في أسهم قناة السويس ثم مالبت ان انفردت باحتلال البلاد سنة ١٨٨٢ وظلت بعد ذلك تسيطر على القناة بطريق ما .

ولما ظهرت في أعقاب الحرب العالمية الأولى بوادر الوعى القومى فى شعوب الشرق الأوسط العربى رأت انجلترا أن تحتفظ بفلسطين وشرق الأردن باسم الانتداب، لتقوى مركزها فى الدفاع عن القناة من جهة ، ولترقب من جهة أخرى حركة التقدم العربى عن كسب .

والسياسة التقليدية التى سارت عليها انجلترا فيما يخص حوض البحر المتوسط أن تحول دون قيام دولة بحرية قوية تناهض النفوذ البريطانى فى ذلك البحر وعلى

هذا الأساس ظلت إنجلترا طوال القرن التاسع عشر تعرقل مساعي روسيا في التصلط على المضائق والنسرب منها إلى المياه الدافئة في البحر المتوسط . ولم تفتري عزيمه إنجلترا وتسترخى قواها إلا في أبان الحرب العالمية الأولى حين أراد الحلفاء أن يضموا بقاء روسيا إلى جانبهم ففنتها إنجلترا وفرنسا بالقسطنطينية والمضائق إذا ما انتهت الحرب بهزيمة ألمانيا وحلفائها ، وكان ذلك بمقتضى معاهدة سرية عقدت بين روسيا وبريطانيا وفرنسا سنة ١٩١٥ . وقد جاءت الثورة البلشفية بعد ذلك فمحت فيما تحت هذه المعاهدة وكل أثر للسياسة القيصرية العتيقة .

وعلى هذا الأساس أيضا حالت إنجلترا دون تسلط فرنسا على الجزء الشمالى الغربى من مراكش حتى لا يتعرض مركزها في جبل طارق لآى خطر وفضلت أن تكون اسبانيا الدولة الضعيفة نسبيا هى صاحبة النفوذ في تلك المنطقة التى تواجه جبل طارق وفيها ثغران خطيران هما سبتة وطنجة . وقد أفلحت إنجلترا في جعل طنجة ميناء دوليا محايدا لا يجوز تحصينه أو تسليحه .

وتطبيقات هذه السياسة أيضا كانت وقفة إنجلترا في الماضى إلى جانب تركيا ضد محمد على الكبير حين آنست منه رغبة في محالفة فرنسا ، وكان لمحمد على من القوة البحرية ما يجعله عاملا خطيرا في تهديد مركز بريطانيا في البحر المتوسط وانضم إلى فرنسا . واقتضت هذه السياسة أيضا أن تعمل إنجلترا قدر طاقتها على اضعاف النفوذ الفرنسى في مصر والقناة حتى لا يفلك من يدها مفتاح البوابة الكبرى التى اصطنعتها الهندسة الفرنسية بإنشاء قناة السويس وتحكمت بها في الملاحة بين المحيطين الأطلنطى والهندي . وما فتئت إنجلترا تعمل والظروف تؤازرها حتى أبعدت فرنسا عن الميدان ثم ما لبثت أن ارتبطت فرنسا مع إنجلترا في سنة ١٩٠٤ بالاتفاق الودى الشهير . ولو أن اتفاقا مثل هذا قد تم في القرن التاسع عشر بين فرنسا وروسيا بدلا من إنجلترا لتعرضت سيادة إنجلترا في البحر المتوسط لاعظم خطر .

وكانت هذه السياسة التقليدية التى اتبعتها إنجلترا في حوض البحر المتوسط انجيلا آمنت به جميع الحكومات الانجليزية التى تعاقبت على الحكم على اختلاف

آراء رجالها ومذاهبهم السياسية . ففي عهد حكومة هـ الهويج ، أو الأحرار القدماء أيام الوزير بالمستون استولت إنجلترا على ميناء عدن وعلى جزيرة بريم . وكلاهما تتحكمان في مدخل البحر الأحمر من ناحية المحيط الهندي ، وما البحر الأحمر في حقيقة الأمر بعد شق القناة - سوى امتداد للبحر المتوسط . وفي عهد حكومة المحافظين أيام الوزير دزرائيلي (لورد بيكنسفيلد) اشترت الحكومة الانجليزية أسهم القناة التي كانت للاخديو اسماعيل ثم احتلت جزيرة قبرص بالاتفاق مع تركيا . وفي عهد وزارة الأحرار برئاسة غلادستون احتل الانجليز مصر واضطر المصريون إلى إخلاء السودان تمهيداً لاعادة فتحه بأيدي المصريين وبمساعدة الانجليز .

وظلت إنجلترا معتزة بمركزها في البحر المتوسط لا يورقها هم فاشي ولا يقض مضجعها كابوس نازي حتى أوشك فجر القرن العشرين أن ينبجج وعندئذ اختفى الخطر الروسي الذي كان وحده الشغل الشاغل للسياسة الانجليزية ، فقد انهزمت روسيا أمام اليابان برأ وبحراً في سنة ١٩٠٥ وانعقدت المحالفة الروسية الانجليزية سنة ١٩٠٧ وبدأت ألمانيا تتحدى إنجلترا ونحل محل روسيا في مناهضتها للسيادة البريطانية . وحاول الامبراطور وليم الثاني أن يمكن لمانيا في جزء من مراكش أو شمالي أفريقية اسوة بفرنسا أو ايطاليا التي كانت تنصب شباكها وقتئذ لاحتلال طرابلس

ولم تكن السياسة البريطانية كانت واقفة بالمرصاد فحبطت مساعي المانيا ولم تفد شيئاً من زيارة الامبراطور لميناء طنجه عام ١٩٠٥ ولا من ارسالها لإحدى سفنها الحربية أمام ميناء أغادير سنة ١٩١١ . وكادت الحرب تنشب في هاتين الأزميتين بين ألمانيا وفرنسا لو لم تسارع إنجلترا إلى نجدة فرنسا وعلان عزمها صريحاً على منع ألمانيا من النزول بقواتها في أي جزء من أرض أفريقية الشمالية . ولما فشلت سياسة المانيا في البحر المتوسط اتجهت نحو الشرق وركزت جهودها في انجاز مشروع الزحف إلى الشرق من برلين إلى بغداد ومنها إلى الخليج الفارسي ، وكادت ألمانيا تصل إلى مبتغاها لو لم تنشب الحرب العالمية الأولى

ولما قامت الحرب العالمية الأولى لم يكن يهدد مركز بريطانيا في البحر المتوسط سوى خطر سلاح الغواصات الألمانية وكان خطراً داهماً حقاً فاجأت به ألمانيا العالم لا في البحر المتوسط وحده بل في المحيط الاطلنطي أيضاً وحيثما وجدت الغواصات مسالك لها في عرض البحار والمحيطات . وقد اضطرت انجلترا أمام هذا الخطر أن تحول ملاحظتها من البحر المتوسط والقناة إلى طريق رأس الرجاء الصالح وان تشدد التسكير على ألمانيا وحلفائها بما فرضته من الحصر البحري على موانئها .

وكان خطر سلاح الغواصات من جانب ألمانيا ومبدأ الحصر البحري من جانب بريطانيا على المحاربين والمحايدين جميعاً من أهم المسائل التي استرعت اهتمام ولسون رئيس الولايات المتحدة ، فما كادت تلوح بشائر النصر في جانب الحلفاء على أثر انضمام أمريكا إلى صفوفهم حتى أعلن على رموس الملاً مبادئ الأربعة عشر الشهيرة وكان مما أعلنه في النطقة الثالثة أن حرية الملاحة مكفولة للجميع في الحرب وفي السلم إلا إذا كان الحصر البحري نتيجة قرار من هيئة دولية لتنفيذ ميثاق دولي . ومع أن هذا المبدأ لم يواجه أي نقد أو اعتراض من جانب الحلفاء عندما كانت ربحي الحرب تدور فان شروط الصلح قد أغفلته فلم تشر إليه بشيء ، وذلك لتسك انجلترا بذلك الحق الذي تستمده من تفوقها البحري الذي يتيح لها في زمن الحرب فرصة مضايقة أعدائها بعدم توصيل المؤن والذخائر التي ترد إليهم من حلفائهم أو من الدول المحايدة ، ولما كانت انجلترا حريصة على التمسك بهذا الحق لاعتمادها السكلي في موارد غذائها على واردات مستعمراتها والبلاد الأجنبية ولاضطرارها في مقابل ذلك إلى تصدير مصنوعاتا إلى الخارج ولأن الاسطول هو الوسيلة الوحيدة لربط شتات أجزاء امبراطوريتها الواسعة - لذلك كله فان الدول المجتمعة في مؤتمر السلم رأت الا تثير الخلاف بين بعضها وبعض بسبب النص على مبدأ حرية البحار لاسيما أن تقرير مبدأ حرية البحار لا يهيم الدول إلا في أثناء الحرب أما في أوقات السلم فلا مصادرة ولا حصر

بحريا البتة، وعلى ذلك وضعت معاهدة فرساي وليس فيها قيد يحد من سيادة بريطانيا
البحرية لا في البحر المتوسط ولا في غيره من البحار .

وخرجت إنجلترا من الحرب العالمية الأولى وقد زادت مسؤوليتها في البحر
المتوسط زيادة كلفتها دماً غالياً ونفقات طائلة في سبيل صيانه والذود عنه ،
فقد حملت على عاتقها مهمة الانتداب على فلسطين وشرق الأردن رغم تعقد شئون
فلسطين بسبب مشكلة الوطن القومي لليهود، وجعلت من ميناء حيفا وطرابلس
نهايتين لأنابيب البترول الذي تنتجه العراق من آبار الموصل وكركوك - الأولى
لامداد السفن الانجليزية والثانية لامداد السفن الفرنسية . وكان هذا أهم ما أفادته
إنجلترا من انتدابها في المشرق .

أما فيما عدا ذلك فلم تكن إنجلترا من فلسطين سوى الحوادث الدامية
والثورات المتعاقبة وقيام مشكلة قومية تعد من أعقد وأشد ما واجهه العالم من
مشكلات الشرق الأوسط . ولو قد بر الحلفاء بعودهم للعرب في أثناء الحرب
العالمية الأولى فأقاموا اتحاداً عربياً مستقلاً لما تفاقم خطر مشكلة الصهيونيين
إلى الحد الذي نراه الآن، لأن اليهود الذين عاشوا مع العرب جيراناً وأصدقاء قروناً
طويلة كانوا يستطيعون أن يتفاهموا مع العرب رأساً على شروط اقامتهم قبل
أن يتجسم خطر الوطن القومي وتتعمر مشكلتهم بالمهاجرة المشروعة وغير المشروعة
وحشر اليهود حشراً في ذلك الأقليم الضيق المجدب من الأرض حتى أضحت
فلسطين أخطر حلقة في مجموعة دول الشرق الأوسط .

٥٥٥

وظلت الحال كذلك في حوض البحر المتوسط حتى أكفهر الجو السياسية
الدولية سنة ١٩٣٥ وقامت إيطاليا الفاشية تتحدى بريطانيا وعصبة الأمم
بهجومها على اثيوبيا وباتت الحرب متوقعة بين إيطاليا وبريطانيا . ولكن
مسؤوليني كان على يقين بان بريطانيا وحدها لن تستطيع التعرض لإثارة حرب

أوربية لم تتخذ لها عدتها ، وبأن الرأي العام البريطاني الجانح إلى السلم لا يرضى أن يخوض غمار حرب طاحنة من أجل سبب ثانوي في أهميته كالحبشة . وعلى ذلك مضى مسويني في مشروعه غير مكترث بتوقيع العقوبات الاقتصادية ولا بالتهديدات الجوفاء التي كانت تتناقلها الصحف إذ ذلك كحشد الأسطول الانجليزي في مياه الاسكندرية وامكان إغلاق القناة في وجه إيطاليا . وقد اضطرت بريطانيا وسائر الدول في النهاية إلى الاعتراف بالأمر الواقع وقيام الامبراطورية الإيطالية في الحبشة .

ولكن الأزمة الحبشية قد فتحت عيون الانجائز على الهاوية التي تردت فيها سياسة التآعين الجمعي التي ابتدعتها عصبة الأمم ، فأدركوا انه لا سبيل إلى تفادي الحرب المقبلة حتماً إلا بالاستعداد لها ، فقد كشفت الأزمة الغطاء عن ضعف بريطانيا وعظم استعداد إيطاليا وخاصة في الجو والبحر إذ تضاعف عدد غواصاتها إلى أربعة أمثاله ، كما تضاعف عدد مدمراتها هذا فضلاً عن السفن الحربية الصغيرة الخفيفة التي أنشأتها إيطاليا بكثرة خصيصاً للعمل في البحار الضيقة كالبحر المتوسط وفضلاً عن تحصينها جزيرة بينتلاريا بين مالطة وصقلية وساحل تونس .

وزادت الحال حرجاً في البحر المتوسط عند ما قامت الحرب الأهلية في أسبانيا بين الوطنيين تؤيدهم إيطاليا وألمانيا ، والجمهوريين تشد أزهم فرنسا وروسيا وكان البحر المتوسط مسرحاً لعبت فيه القوى البحرية دوراً هاماً فاستطاعت إيطاليا أن تحتل جزيرتي « ميورقه » و « يابسة أو افيزه » من جزر البليار التابعة لآسبانيا ، وقبل في ذلك الوقت انها تعزم الاحتفاظ بميورقة حتى تقطع على فرنسا خط مواصلاتها مع أملاكها في افريقية الشمالية . وكذلك احتلت ألمانيا ميناء فيرول في شمالي أسبانيا الغربي وحصنت ميناء سبته على ساحل مراکش الاسبانية في مواجهة جبل طارق .

وقد نجم عن الحرب الأهلية في أسبانيا واهتمام دول أوربا بنتيجة السكفاح

بين المتحاربين ان اضطرت مياه غربي البحر المتوسط ونشطت فيه أعمال السطو والقرصنة بواسطة الطائرات والغواصات والطوربيد وكلها بمجھولة الأصل ان اتفقت كل من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا في مؤتمر نيون Nyon سنة ١٩٣٧ على توزيع مناطق المراقبة فيما بينهم على سواحل أسبانيا وجزر البليار . وقد أتت المراقبة بالثمرة المطلوبة فعاد الأمن في البحر، ولكن الحرب الأهلية في أسبانيا مع ما اقترنت به من تحزب الدول الكبرى بين الفريقين المتحاربين كانت نذيراً بقرب اشتعال نار الحرب العامة .

وعلى ذلك لم يبق شك في ان توازن القوى في البحر المتوسط قبيل الحرب الأخيرة كان قد اختل وأن سيادة بريطانيا في هذا البحر أو على الأقل في القسم الغربي منه قد أصبحت مهددة بأعظم الأخطار، ولم يعد ثمة شك في انه متى قامت الحرب فان فرنسا ستشغل بمصيرها في أوروبا وتترك بريطانيا وحدها تضطلع بمهمة الدفاع عن مراكزها في البحر شرقاً وغرباً

وكان أكثر ما تخشاه بريطانيا من الحرب في البحر المتوسط ان تحرم من البترول الذي يرد إليها من العراق بالأنابيب التي تنتهي إلى حيفا وطرابلس ويبلغ مقدار ذلك ٠.٥١ من مجموع ما يرد إليها وان تنقطع عنها الخامات وسائر الواردات التي تصل إليها من الشرق عن طريق البحر المتوسط وتبلغ نسبة هذه الواردات ٠.٢٠ من مجموع واردات بريطانيا . فاذا قدر لفرنسا ان تختفي من الميدان في أثناء الحرب لمزيمتها أو لأي سبب آخر فان مهمة بريطانيا تصبح باهظة وهيئات للأسطول البريطاني وحده ومعها السلاح الجوي أن ينال من قوى العدو مجتمعة في بحر ضيق كالبحر المتوسط تكثر جزره وخلجانه وتستطيع الغواصات والطائرات المعاونة شل حركة الملاحة فيه بسهولة .

وفعلاً ما كادت تندلع نيران الحرب العالمية الثانية وتنضم إيطاليا إلى حليفها ألمانيا بعد كارثة فرنسا في صيف سنة ١٩٤٠ حتى أصبح حوض البحر المتوسط في عزلة تامة وخاصة في قسمه الغربي واضطرت بريطانيا ان تحول خطوط ملاحتها حول

رأس الرجاء الصالح واستمرت كذلك حتى خرجت إيطاليا من نطاق المحور في

صيف سنة ١٩٤٣

ولقد كان لإنهزام فرنسا وقيام حكومة فيشي بالاتفاق مع ألمانيا أثر كبير في ضياع النفوذ البريطاني في حوض البحر المتوسط إذ خسرت بريطانيا أسطول حليفتها القديمة فرنسا كما خسرت قواعدها في شمال أفريقيا وأصبح الطريق إلى مصر واليونان مهدأ أمام إيطاليا، وما لبثت ألمانيا أن انقضت على البلقان فكتسحت أمامها يوغوسلافيا واليونان ثم هاجم جنودها كريت من الجو واستولوا عليها فجأة بفضل تفوقهم في الطيران وبامت بريطانيا بخسائر فادحة رغم انتصارها البحري الموقت على الأسطول الإيطالي في موقعة رأس ماتبان غربي شبه جزيرة الموره حيث خسرت الطليان خمس سفن حربية مقابل طائرة واحدة للحلفاء. واستغل الألمان تفوقهم الظاهر في البحر المتوسط فانزلوا على سواحل ليبيا طائراتهم ودباباتهم وجيوشهم وعتادهم وزحفوا شرقاً مطاردين أمامهم القوات الانجليزية، وكانت آلهة النصر في ذلك الوقت تؤثر الألمان وترفرق فوق رؤوسهم وتقودهم من فتح إلى آخر حتى وقف هتلر وسط هالة من المجد يناضل بين خطتين كلتاهما تدفعه إلى عرش السيادة العالمية، إذ كان عليه أن يختار بين اختراق تركيا إلى العراق فخليج فارس فالهند أو مهاجمة روسيا من الغرب والرحف إلى أوكرانيا فالقرم والقوقاز ومن ثم إلى خليج فارس فالهند وفي الحالين الالتقاء في النهاية بقوات اليابان.

وشامت الأقدار التي لا تغلب أن يختار هتلر روسيا - تلك التي أذلت نابليون من قبل، فأمر في ٢٢ يونية سنة ١٩٤١ أن تضرب روسيا على جبهة يبلغ طولها ألف ميل. ثم لم يمض بعد ذلك إلا أشهر قلائل حتى دخلت أمريكا الحرب في ديسمبر سنة ١٩٤١ فأحدث دخولها انقلاباً هائلاً في ميزان القوى المتحاربة. وظهر أثر ذلك جلياً في الصراع الذي كان دائراً في شمالي أفريقيا بين قوات المحور وبين الحلفاء. وكان أول ما أسترعى اهتمام الولايات المتحدة قبل دخولها الحرب وبعدها أن

تقنع حكومة فيشي الجديدة في فرنسا أن تبقى على أسطولها البحري حتى لا تستولى عليه ألمانيا أو إيطاليا فيختل ميزان القوى في البحر المتوسط وفي المحيط الاطلنطي اختلالا يكون وخيم العاقبة على الحلفاء ، ومن حسن الحظ ان شروط الهدنة التي عقدها المارشال بيتان Pétain مع الالمان أبقى معظم الأسطول بيد الفرنسيين . وظلت حكومة الولايات المتحدة متصلة بحكومة فيشي حتى تستطيع أن توفد رسلها وبعيونها وتدبر مساعيها لنجاح حملة الحلفاء في شمالي افريقية . ولما أقتربت ساعة التنفيذ أعتمدت في جهودها على أمير البحر الفرنسي دارلان Darlan الذي كان وقتذاك يتولى القيادة العليا لقوات فيشي فاصدر أوامره من الجزائر - وكان إذ ذاك يزور ابنه المريض - إلى القوات الفرنسية في شمالي أفريقية للانضمام إلى صفوف الحلفاء ، كما أصدر أوامره إلى الأسطول الفرنسي الراسي في ميناء تولون لمعاونة أساطيل الحلفاء التي كانت تحرس الحملة في أثناء نزولها على البر فتردد الضباط في أطاعة تلك الأوامر وأبوا الانصياع لها وأعقب ذلك قتل دارلان نفسه في ديسمبر من تلك السنة . وكانت انباء الحملة الامريكية قد وصلت إلى ألمانيا فسارعت باحتلال المنطقة الحرة في فرنسا وحاولت أن تضع يدها على الأسطول الفرنسي فرأى الضباط الفرنسيون البواسل انهم أمام سياستين كلتاهما شر فأنثروا الموت على العار والاستسلام وأغرقوا الأسطول خارج ميناء تولون في أواخر نوفمبر سنة ١٩٤٢ .

وفي تلك الأثناء كانت قوات الحلفاء التي اوقفت هجوم رومل أمام العلبين قد احكمت خططها وجاءتها الامدادات من أمريكا فاستطاع القائدان منتجو مري والاكسندر على رأس قوات الحلفاء أن يجمعا على جبهة الحرب نحو ثمانمائة دبابة مالبثت أن دكت قوات رومل دكا مريعا اضطر على أثره إلى الارتداد في أوائل نوفمبر على طول الساحل الشمالي والحلفاء من ورائه يطاردون حتى قطعوا نحو ١٣٥٠ ميلا في مدى ٨٢ يوما . وكانت خطة الحلفاء تقضي بحصر قرات المحور بين قوتين أحدهما من الشرق

عمادها الجيش الثامن بقيادة منتجومرى Montgomery والأخرى من الغرب بقيادة الجنرال أيزنهاور Eisenhower الأمريكي . ففي الأسبوع الأول من نوفمبر نزلت الجيوش الأمريكية والبريطانية على ساحل الاطلنطي عند كاسابلانكا ورباط و على ساحل الجزائر عند وهران . وتعتبر حملة شمال أفريقيا في أثناء الحرب العالمية الثانية أكبر وأضخم حملة تحركت على مياه البحر المتوسط وسواحلها إذ كانت تتألف من ٨٥٠ سفينة حربية وتجارية ولا يقل عدد قواتها عن ١٤٠ ألف جندي .

واستطاع الحلفاء أن يوالوا انتصاراتهم على طول ساحل أفريقيا الشمالية فكان إيزنهاور الأمريكي القائد الأعلى لجيوش الحلفاء يزحف من بلاد المغرب والاكسندر ومونتجمرى يطويان فيافي طرابلس متجهين غربا حتى قضوا في النهاية على قوات المحور عند خط الدفاع الذي أقامه رومل على طول مرتفعات مارت في تونس . وعلى أثر ذلك غادر رومل أفريقيا إلى ألمانيا وترك قوات المحور تتلقى ضربات الانكسار النهائي في شمال أفريقيا ، فقد سقطت تونس ثم بنزرت ووقع في الأسر ما تبقى من قوات المحور وعتادها وقد بلغ عدد أسراهم نحو ٢٥٠.٠٠٠ جندي . وقد أفاد الحلفاء من ذلك النصر فائدة عظيمة إذ تحررت مواصلاتهم في البحر المتوسط بين شرقية وغربية وأصبح الوثوب من تونس وبنزرت إلى جزيرتي بينتلاريا وصقايه ومنها إلى إيطاليا حقيقة متوقعة وقد كان منذ شهور قليلة حلما لا يصدقه العيان .

وقد كشفت الحرب الأخيرة عن أمر على جانب عظيم من الأهمية وهو استخدام الطائرات لتكامل عمل الغواصات ، فقد ظهر أن تنسيق الجمع بين السلاحين في بحر ضيق المسالك كثير الخلل كالبحر المتوسط لا بد أن يتيح لصاحبه تفوقا ظاهرا . وقد بدت آثار ذلك جلية في أثناء هذه الحرب فقد كان تفوق انجلترا في شرق البحر المتوسط من أهم العوامل التي ساعدت الحلفاء على الاحتفاظ بسواحل بلاد المشرق وأجباط مساعي الألمان في غربي آسيا .

أسباب رده على المشرق في الشرق الأوسط

وأخيرا يتضح من ذلك كله أن القول بأن البحر المتوسط مع قناة السويس هو بمنزلة الشريان للامبراطورية البريطانية وصف مبالغ فيه كثيرا . والشريان إذا انقطع أو بتر أنعدمت الحياة . وقد برهنت الحربان العالميتان على أن الامبراطورية البريطانية تستطيع أن تعيش وتقوى رغم استغنائها عن استعمال هذا الشريان مدة بلغت في الحرب الأخيرة أكثر من أربع سنوات . ذلك لأن هناك طرقا أخرى تربط انجلترا بأملا كها وحلفائها وأهمها طريق رأس الرجاء الصالح وهو لا يستغرق من الوقت الآن أكثر مما كان يستغرقه طريق البحر المتوسط في بدء أفتتاح القناة .

وقد يظن البعض أنه باستقلال الهندستان والباكستان قد يضعف اهتمام بريطانيا بالبحر المتوسط ولو قليلا . وهذا وهم لا يؤيده الواقع . فلبريطانيا عدا علاقاتها التجارية والثقافية بالهند والباكستان صلاتها الوثيقة الباقية على الزمن باستراليا ونيوزيلنדה . وإذا كان اهتمام نيوزيلنדה بطريق السويس قد يقل عن اهتمامها بقناة بناما فإن مصالح استراليا في البحر المتوسط والقناة ستبقى على الدوام مرتبطة بطريق السويس وتأمينه ضد الأعداء . ولا تنس بترول إيران والسكويت والبحرين الذي يمر في سفنه الخاصة بطريق السويس إلى أوروبا . فإذا كانت ثروة البحر المتوسط من ذلك السائل النفيس ومن الفحم والحديد قليلة لا تكاد تذكر فإن مرور البترول من الشرق داخل القناة ووصول أنابيبه من العراق إلى ساحل فلسطين مما يجعل للبحر المتوسط أهمية فائقة في نظر بريطانيا أولا وفي نظر سائر الدول الأوروبية . وإذا كانت بريطانيا وحلفاؤها قد أوقفت في أثناء الحرب جانبا كبيرا من ملاحظتها في البحر المتوسط واستعاضت عنه بطريق رأس الرجاء الصالح والمحيط الهندي فإن بريطانيا لم يفترها الاحتفاظ بسيادتها فيه . فقد كانت تستخدم في مواصلاتها البحر الأحمر وقناة السويس من ناحية الجنوب في المحيط الهندي كما كانت تستخدم الطريق البري داخل الصحراء بين بحيرة تشاد والخرطوم على النيل

ومع أن اليابانيين كانوا متفوقين في سنغافورة والملايو وبورما فإن الانجليز ظلوا على اتصال بحرى بايران وخليج فارس عن طريق القناة والبحر الأحمر .

على أن هناك صعابا لا تزال بريطانيا تواجهها في حوض البحر المتوسط منها ان أسبانيا لم تنس جبل طارق وانه رغم مرور أكثر من قرنين ونصف قرن على احتلال انجلترا لهذه القلعة الحصينة فإن الشعور الوطنى فى أسبانيا لا يستسيغ الاحتلال الأجنبي لجزء من أرض الوطن ولا بد أن تظهر آثار هذا الشعور يوما ما

وهناك قناة السويس ، فان عقد هذه الشركة سينتهى فى نوفمبر سنة ١٩٦٨ وحينئذ تصبح القناة ملكا لمصر صاحبة الفضل وسيدة الأرض التى حفرت فيها . ومع أن القناة طريق بحرى حر لجميع الدول فى السلم وفى الحرب فلا بد من تقرير هذه القاعدة فى معاهدات تبرم لهذا الغرض حتى يزول أثر المعاهدة المصرية الانجليزية المنعقدة فى سنة ١٩٣٦ والتي انفردت فيها بريطانيا بميزة الدفاع عن القناة إلى جانب مصر .

ويزعم بعضهم أن بريطانيا وأمريكا تفكران فى حفر قناة أخرى تصل بين العقبة فى شرق الأردن وغزة فى فلسطين وذلك حتى لا تتعرض مصالحهما للخطر متى آلت القناة لمصر نهائيا . وانا لنستبعد تحقيق هذا الزعم لالضخامة المشروع وطول القناة وعظم نفقاته من غير مبرر فى وقت تشكو فيه بريطانيا من كثرة ديونها الداخلية والخارجية - بل لأن الحلفاء مقيدون بتنفيذ المادة السابعة من ميثاق الاطمانطى التى تقول ، أن الصلح يجب أن يكفل الحرية للناس جميعا بأن يجتازوا البحار والمحيطات بدون عائق ، . ومعنى هذا أن المستقبل كفىل بأن يجعل المضائق والمسالك المائية جميعا تحت رقابة مجلس الأمن ، فلا يعقل إذن أن تحفر قناة عالمية جديدة لتكون تحت سيطرة دولة بعينها . على أن مصر ستكون متى آلت إليها القناة حارسة لها نيابة عن مجلس الامن وهيئة الأمم المتحدة .

وليس فى مآلظه الآن أثر للحركة التى كانت ترمى إلى الانضمام إلى ايطاليا . وأما فى جزيرة قبرص فالسكان موالون بوجه عام للانجليز ولسكن السكثرة العظمى

تود الانضمام إلى اليونان امهم الكبرى كما حدث في رودس وجزر الدوديكانيز التي كانت تابعة لاطاليا .

أما عن جلاء الانجليز عن فلسطين واحتمال جلائها كليا عن مصر فذلك أمر قد وطدت بريطانيا العزم على مواجهته . وقد انتهى انتدابها فعلا على فلسطين في ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ ولسكنها قد عوضت خروج فلسطين من سيطرتها بتثبيت نفوذها في برقة وطرابلس بعد أن اضطلعت فيها بالحراسة الحربية من سنة ١٩٤٣ إلى الآن . حتى إذا اتحدت ليبيا واعترفت الدول باستقلالها فانها ستبقى في حاجة إلى معونة انجلترا المادية والثقافية ولا يبعد ان تتوثق الصلات بين الاثنين بمعاهدة تعقد بينها . على أن السياسة الانجليزية دائبة التطور والتغير طوعا لظروف السياسة العالمية فهي الآن تركز استعداداتها الحربية والجوية في شرق افريقيه في كينيا وزنجبار وتتخذ من هذه المنطقة قاعدة استراتيجية للمستقبل تعوضها عما قد تخسره متى تم جلائها عن مصر .

وعلاقات بريطانيا ودية مع جميع دول البحر المتوسط . وإذا كانت روسيا تعتبر صاحبة النفوذ الأول في جزء من البلقان فان قوات بريطانيا الحربية لا تزال باقية في اليونان برضاء حكومتها حتى تستقر الحال فيها . وبينها وبين تركيا معاهدة تبادل المساعدة منذ سنة ١٩٣٩ . وقد تأيدت هذه المعاهدة أخيراً على أثر مطالب حكومة السوفيت من تركيا بشأن المضائق . ولا بد أن يؤدي هذا التنافس بين روسيا وبريطانيا إلى حدوث سوء تفاهم بين الحكومة الانجليزية واحدى الدول التي تنتمى إلى اتحاد السوفيت كما حدث أخيراً بين انجلترا والباينا بشأن كسح الألغام من خليج كرفو ، فقد اعترضت البانيا على قيام الأسطول البريطاني بعملية التطهير وكانت النتيجة ان اغرقت سفينتان حربييتان من سفن الأسطول البريطاني وفقد ٤٤ نفساً وانبنى على ذلك أن طالبت بريطانيا الحكومة الألبانية بتقديم الاعتذار الكافي ودفع تعويض على الاضرار التي لحقت بسفنها . وقد وصل الأمر

بين الدولتين إلى التجاؤ بريطانيا إلى مجلس الأمن ثم إلى محكمة العدل الدولية .
وقد أصدرت المحكمة قرارها أخيراً بأدانة البانيا

وأخيراً يبدو ان روسيا منذ اختل التوازن السياسي في حوض البحر المتوسط
بمخروج الطليان من مضمار التنافس البحري قد بدأت تحاول تصحيح الميزان وتطالب
لنفسها أو لصاحباتها بقواعد في البحر المتوسط . فقد ضاقت روسيا ذرعاً بتجمد مياه
البحار المحيطة بها في معظم شهور السنة وتريد أن يكون لها منفذ على البحر المتوسط
وقواعد في مختلف أنحاء باسمها أو باسم حليفاتها، فإذا تشبثت تركيا بمفتاح البوابة
الجزائرية عند الدردنيل وصمم الحلفاء على اقصاء روسيا عن مياه البحر المتوسط
فأكثر الظن أن روسيا ومعها الدول الصغرى لن تهدأ لها نائرة حتى ترى مفاتيح
بوابات هذا البحر عظيمة ومنافذه جميعاً قد أصبحت محايدة وحررة للجميع في السلم
وفي الحرب على السواء .

بالتالي ان روسيا قد بدأت تتجه نحو البحر المتوسط وتطالب بقواعد في البحر المتوسط
وقواعد في مختلف أنحاء باسمها أو باسم حليفاتها، فإذا تشبثت تركيا بمفتاح البوابة
الجزائرية عند الدردنيل وصمم الحلفاء على اقصاء روسيا عن مياه البحر المتوسط
فأكثر الظن أن روسيا ومعها الدول الصغرى لن تهدأ لها نائرة حتى ترى مفاتيح
بوابات هذا البحر عظيمة ومنافذه جميعاً قد أصبحت محايدة وحررة للجميع في السلم
وفي الحرب على السواء .

الفصل العاشر

فرنسا في البحر المتوسط

١ - فرنسا وبلاد المشرق

علاقات فرنسا بالشرق قديمة قدم امبراطورية شرلمان الذي وصل رسله إلى بلاط هارون الرشيد في بغداد وتبذلت بينهما الرسائل والهدايا، ويقول بعض المؤرخين ان الفرنجة نالوا من لدن أمير المؤمنين مزايا خصهم بها في الأماكن المقدسة . وقد تجدد اتصال الفرنجة بالشرق في أيام الحروب الصليبية، وكانت كثرة الصليبيين من الفرنسيين وكذلك كانت الأمارات الصليبية التي قامت في بلاد المشرق في آخر القرن الحادى عشر والتي ظلت باقية نحو قرنين في الداخل وعلى الساحل ثم على الساحل وحده وكان الحكم فيها وفق النظام الاقطاعى الفرنسى . وما نسى الفرنسيون أنهم في العصور الوسطى جهزوا أكثر من حملة صليبية إلى مصر بقيادة ملكهم لويس التاسع أو القديس لويس سان لوى St. Louis كما حلالهم ان يلقبوه وهو الذى انهزم أمام المنصورة ، في عهد بنى أيوب واقتيد اسيراً فلم يفك اسره إلا بعد أن دفع دية عظيمة من المال ، وقد تركت تلك الحملات التي اقترنت باسم ملكهم أثراً نفسياً دينياً بقى بين الفرنسيين طويلاً .

وفي مطلع العصور الحديثة كان الفرنسيون أول الشعوب الأوروبية تحالفاً مع سلاطين آل عثمان ، فقد ارتبط فرنسوا الأول ملك فرنسا مع السلطان سليمان القانونى في سنة ١٥٣٥ ضد الامبراطور شارل الخامس ، وكان من نتائج ذلك التحالف ان عقدت أولى معاهدات الامتيازات فنال بها الفرنسيون منذ ذلك الوقت في أملاك الدولة مركزاً خاصاً ممتازاً دعا غيرهم من الأجانب إلى التشبه بهم . وكانت تلك المعاهدة أساساً للامتيازات الأجنبية التي قصد بها

أولا حماية الدولة لرعايا الدول الأجنبية ثم صارت بعد ضعف الدولة حقوقاً
مكتسبة يتمتع بها الأجانب على حساب الدولة . وبفضل معاهدة سنة ١٥٣٥ أصبح
لفرنسا في أنحاء الدولة امتيازات أدبية وسياسية ودينية بقي أثرها كحامية للطوائف
الكاثوليكية إلى وقت قريب .

وقرب نهاية القرن الثامن عشر قامت الثورة الفرنسية وعصفت بأوروبا
حروب نابليون بونابرت التي امتدت به إلى البندقية وساحل دلماسيا شرق
البحر الادرياتي ومن هناك حلق بها الخيال إلى مصر وبلاد المشرق حيث أمل أن
تسكون له دولة مترامية الأطراف فيقطع على انجلترا طريقها إلى مستعمراتها
في الشرق وفي الهند ويؤسس لفرنسا في الشرق على حساب تركيا الضعيفة سلطاناً
استعماريًا يعوض عليها ما فقدته في أمريكا وفي الهند . وبدأ نابليون يعد العدة
لتحقيق ذلك الخيال حتى كان يوم من صيف عام ١٧٩٨ حين تغفل بونابرت
البحرية الانجليزية فأفلت من رقابة الأسطول الانجليزي وقام بحملته الشهيرة
على مصر فنزل بها فجأة وسار توأ من الاسكندرية قاصداً القاهرة وتقابلت القوات
الفرنسية بفرسان المماليك عند موقعة امبابه فانهزم المماليك ولم تلبث القاهرة
ان سلمت وأصبحت البلاد تحت حكم بونابرت .

فلما تنبه نلسون أمير البحر الانجليزي إلى حقيقة أغراض بونابرت سارع
إلى تدبير أمره ، فخطم الأسطول الفرنسي الذي حمل نابليون ورجاله إلى الشرق
وأخذت انجلترا تضيق الحصر البحري على فرنسا من جهة وتؤلف المحالفات ضدها
من جهة أخرى ، حتى يتس بونابرت من نجاح مشروعه العظيم في الشرق وفر هارباً
من مصر عقب ارتداده عن حصن عكا ثم لحقته البقية الباقية من الحملة الفرنسية
بعد ثلاث سنوات وثلاثة أشهر من تاريخ نزولهم بالبلاد .

ومع ان الحملة الفرنسية كانت عقيمة من حيث نتائجها الحربية فإنها من الوجهة
السياسية تعتبر بداية عهد جديد تفتحت فيه أعين الدول إلى الأهمية الاستراتيجية
والتجارية التي لبلاد الشرق الأوسط باعتبارها طريقاً إلى الاتصال بالهند

والشرق الأقصى : السويس والقاهرة والاسكندرية في مصر ، ومن خليج العجم
ونهر الفرات وحلب واسكندرونه في سوريا والعراق .
أما إنجلترا ففطنت على الفور إلى أن للشرق الأوسط مركزاً حيوياً بالنسبة
لمستعمراتها في الشرق وأيقنت أنها إذا لم تسارع إلى اتخاذ أهبتها في مصر تعرضت
مصالحها الاستعمارية للخسارة والضياع بتاتاً ، ولذلك لم تأل جهداً منذ ذلك الوقت
في انتهاز كل فرصة لتوطيد مركزها في البحر الأبيض المتوسط بصفة عامة
وفي شرقيه بصفة خاصة .

أما فرنسا فظلت طوال القرن التاسع عشر تحن إلى ذكرى الحملة الفرنسية
وبطولة نابليون في الشرق وتعمل على توثيق أو إصر القربى الروحية والثقافية
والاقتصادية بينها وبين شعوب الشرق الأوسط ، حتى جاء الاتفاق الفرنسي
الانجليزي سنة ١٩٠٤ نجيب أمل المصريين نهائياً في الاعتماد على الصداقة الفرنسية
ثم جاءت الحرب العالمية الأولى فهدت لفرنسا من جديد طريق النسلط السيامي
في شرق البحر الأبيض المتوسط .

وكانت فرنسا تعتبر نفسها نصيرة المسيحيين الكاثوليك في بلاد الدولة العثمانية
كما كانت روسيا تعد نفسها حامية الكنيسة الارثوذكسية فيها ، وقد كان مظهر
حماية فرنسا للكاثوليك في الشرق الأوسط بارزاً بصفة قاطعة في لبنان ، حيث
كانت الحروب الأهلية والمذابح لا تنقطع بين سكان الجبل من الدرروز والمسيحيين
والموارنة والمسلمين . وحدث في عام ١٨٦٠ ان وقعت مذبحه قتل فيها عدد
عظيم من المسيحيين فأرسلت فرنسا حملة حربية احتلت الجبل عاماً واضطر
الباب العالي بضغط من الدول إلى اصدار دستور ينظم حكومة لبنان نص فيه
على أن يكون حاكمها مشيراً مسيحياً يعاونه مجلس مكون من اثني عشر عضواً
يمثلون الطوائف الثلاث : المسيحيين والدرروز والمسلمين .

وقد استقرت الأمور نوعاً على أثر تنفيذ هذا النظام الشبيه بالاستقلال الذاتي
وتحسنت موارد البلاد وزاد عدد سكانها ، غير انه لما كانت موارد البلاد الطبيعية

والصناعية تضيق على سكانها لجأت طائفة نشيطة من اللبنانيين إلى الهجرة إلى مصر والولايات المتحدة وجنوبي أمريكا . وظلت فرنسا ترنو ببصرها نحو سوريا ولبنان حتى وقف مسيو بوانكاريه رئيس الحكومة الفرنسية في مجاس الشيوخ الفرنسي ذات يوم من أواخر سنة ١٩١٢ يقول : أن لفرنسا في سوريا ولبنان مصالح قد عقدنا العزم على ضرورة احترامها والمحافظة عليها . مشيراً بذلك إلى خطر امتداد النفوذ الألماني في تلك الاصقاع وكان النفوذ الألماني قد تغلغل في الدولة العثمانية اقتصادياً وسياسياً بدرجة جمعت الدول تأخذ حذرهما .

ولما قامت الحرب العالمية الأولى ودخلت تركيا الحرب إلى جانب المانيا سارعت فرنسا إلى تأييد مطالبها في الشرق الأوسط فانفقت مع بريطانيا بتمتضي المعاهدة السرية المعروفة باسم المفاوضات الانجليزية والفرنسية على التوالي سيكس - بيكو Sykes-Picot في عام ١٩١٦ على خطة مقتضاها ان تكون لبنان وسوريا بعد الحرب في منطقة النفوذ الفرنسي، والعراق في منطقة النفوذ البريطاني. ويتفق على نظام دولي خاص لفلسطين بشرط أن يكون لبريطانيا فيها ميناء حيفا وعكا . ونجرت الحال في سوريا في أول سني تلك الحرب إذ انتقم الأتراك من الوطنيين السوريين واللبنانيين الذين كانوا على اتصال دائم بفرنسا لتحقيق أمانهم الوطنية واتهمتهم تركيا بالخيانة العظمى فاعدت منهم عددا كبيرا كانت دماؤهم أول ماغذى شجرة الحرية والوطنية في سوريا الحديثة .

وأخيراً قام الجنرال اللنبي ضد الأتراك في الشرق فطاردهم حتى طردهم من فلسطين أولاً ثم دخل سوريا وانضمت اليه قوات العرب بزعامة الأمير فيصل الذي دخل دمشق ظافراً واسبس فيها سنة ١٩٢٠ حكومة ملكية عربية مستقلة . وسكن الحكومة الفيصلية ما كادت تضطلع بالأعمال حتى انبرت فرنسا تطالب بتنفيذ الاتفاق السري بينها وبين بريطانيا فدخلت جيوشها سوريا واضطر الملك فيصل واعوانه إلى الجلاء عن البلاد . وفي سنة ١٩٢٢ وافقت عصبة الأمم على انتداب فرنسا لسوريا ولبنان .

وعلى الرغم من أن المادة الثانية والعشرين من ميثاق عصبة الأمم قد نصت صراحة على أنه في حالة الشعوب الراقية التي كانت تحت حكم الأتراك والتي وصلت في رقيها إلى درجة تدعو إلى الاعتراف مؤقتاً باستقلالها، فإن مسؤولية الدولة المنتدبة تقتصر على تقديم المشورة والمساعدة الإدارية. كما أنها نصت فوق ذلك على وجوب استقصاء رغبات الشعوب كعامل مهم في الدولة التي تندب لهم. على الرغم من ذلك كله فإن الحلفاء قد فرضوا فرنسا على بلاد المشرق فلانفرنسا أعلنت استقلال البلاد مؤقتاً ولا استقصى الحلفاء رغبات الأهالي. حتى اللجنة الأمريكية التي تألفت من مستر كرين ومستركينج والتي اقترحت صراحة استقلال بلاد المشرق وانتداب الولايات المتحدة عليها أو بريطانيا دون فرنسا إذا اقتضى الحال، فإن الحلفاء لم يأخذوا برأي اللجنة مادام أن أمريكا قد رفضت الموافقة على معاهدة فرساي ولم تشترك في العصبة. وأخيراً اجتمع الحلفاء في مؤتمر سان ريمو سنة ١٩٢٢ وقرروا وضع العراق وفلسطين تحت الانتداب البريطاني وسوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي وقد وافق مجلس العصبة على ذلك في العام نفسه.

ومع أن نظام الانتداب قد غير الأساس الذي كان يقوم عليه الاستعمار قديماً فجعل واجب الدولة صاحبة الانتداب هو العمل على مساعدة الشعب المنتدبة له وتهيئته لحكم نفسه وتقديم حساب عن كل ذلك إلى لجنة الانتدابات بالعصبة - مع كل ذلك سارت فرنسا في سوريا ولبنان وفق سياستها الاستعمارية والتقليدية التي ترمي إلى خدمة فرنسا الكبرى بادماج العناصر الوطنية داخل دائرة الجنسية الفرنسية المرنة فتغذى بها ثقافتها وجيوشها لتخرج فرنسا من ذلك كله قوية عزيزة الجانب وقد اتخذت لها شعاراً من المبادئ التي ورثتها عن الثورة الفرنسية: الاخاء والمساواة دون الحرية التي لم تسمح منها بقليل أو كثير للشعوب التي انتدبت لها أو التي وضعتها تحت حمايتها بل جعلتها خاصة بفرنسا وحدها - ودون الاستقلال أو الحكم الذاتي الذي لم تخط خطوة واحدة في سبيل تحقيقه لبلد تحت سلطانتها. ولما دخل الفرنسيون سوريا راعوا قبل كل شيء مبدأ التفرقة بين الجماعات

الوطنية واكدوا فيها الفروق الدينية فكونوا جمهورية أكثرها مسيحية في لبنان
ليمكن أن توازن بها دولة سوريا ، واوجدوا دويلات محلية مستقلة عن سوريا
كجبل الدروز واقليم العلويين وسنجق اسكندرونه . كل ذلك لأن الشعور
بالاستقلال والوحدة العربية في سوريا كان قويا وكانت فرنسا تخشاه بدرجة
جعلتها تقسو في مناهضة الحركة ففقدت بذلك المكانة الممتازة التي كانت لها قبل
الحرب لا في سوريا وحدها بل في لبنان أيضا .

ومما زاد السخط على فرنسا سياستها الاقتصادية العقيمة التي انتهجتها في تلك البلاد
فقد كانت ثمة رؤس أموال كثيرة جاء بها السوريون واللبنانيون بعد الحرب من
بلاد المهجر وخاصة من أمريكا ، وكان يمكن استغلالها في إقامة المشروعات العامة
وإنشاء الصناعات الكبرى التي تصلح في تلك الأصقاع مثل صناعة الجلود والصابون
والاسمنت والحديد وحفظ الفواكه واستخراج العطور ، ولكن فرنسا عرقلت
هذه المساعي ولم تعمل على حمايتها أو تشجيعها ، بل على العكس من ذلك فتحت
الأبواب لبضائعها واختصت رجالها وشركاتها وجمعياتها التعاونية بكل موارد
الرزق ومصادر الاستيراد واعفت بضائعها من الضرائب فضلا عن احتكار
الفرنسيين للسكك الحديدية وميناء بيروت ، وعن شركات الاحتكار للباء والاضاءة
وتعسفها في فرض الأسعار وتكوين البنوك بروس أموال معظمها فرنسي وربط
عملة البلاد بالفرنك الفرنسي رغم تقلباته وعدم استقراره .

وقد ظنت فرنسا بذلك أنها تستطيع أن تطبق على شعوب شرقي البحر الأبيض
المتوسط نفس الأساليب والقواعد التي سارت عليها في أملاكها بآسيا وأفريقية ،
ونسيت أن شعوب البحر الأبيض المتوسط شعوب راقية لها لغة وأديان
إلهية وفنون وأديبات ولها تاريخ مجيد ومدنية كان لها على المدينة الأوربية الحديثة
فضل كبير زادها نوراً وعرفاناً ، ولها على ماضيها المجيد شواهد وأثار تحفزها
إلى العمل على استرداد ذلك المجد الغابر . وقد كالت هذه الشعوب أفرادا وجماعات
عندما أعلن العرب ثورتهم على الأتراك وضحوا وأبلوا بلاء حسناً لينعموا

بالاستقلال الذي وعدوا به لاليشقوا بالاستعمار الفرنسي .

لذلك لم يكن غريباً أن تقوم الثورات ضد المستعمرين آونة بعد آونة وأن تفشل الدولة الحاكمة في محاولتها الحصول على موافقة الشعب على بقاء الانتداب الفرنسي .

وكانت فرنسا جرياً على عاداتها تعين حكماً عسكريين على هذه البلاد فلما قامت ثورة الدروز سنة ١٩٢٥ وانضم إليهم السوريون تخرج مركز الفرنسيين حتى اضطروا إلى ضرب دمشق بالمدافع مدة ثمانية وأربعين ساعة، وعلى أثر ذلك ثار الشعور العربي بل والغربي أيضاً ضد تصرفات فرنسا فدعا ذلك لجنة الانتدابات في عصبة الأمم أن تنحى باللائمة عليها ولذلك عدلت فرنسا عن الحكام العسكريين وعينت من السياسيين د.ه جوفنل de Jouvenel و بونسو Ponsot د.ه مارتل de Martel واستطاعت بذلك أن تهدى حركة الثوار مؤقتاً ولكنها فشلت في تنفيذ المادة الأولى من وثيقة الانتداب التي تقضى بإصدار دستور نظامي لحكم البلاد .

وفي سنة ١٩٣٦ اكفهر جو السياسة الدولية في أوروبا وقامت اضطرابات جديدة في بلاد المشرق تضامن فيها السوريون واللبنانيون على أساس أن تحترم سوريا استقلال لبنان وحدوده . وكانت هذه الاضطرابات على أثر الحركة التي ظهرت في مصر سنة ١٩٣٥ وانتهت بتكوين الجبهة الوطنية المصرية وعقدت المحالفة مع بريطانيا ، فقبلت فرنسا أن تنظم علاقاتها مع سوريا ولبنان على أساس استقلالها وارتباط كل منهما بمعاهدة تشبه المعاهدة التي تربط بريطانيا بالعراق أو بمصر .

وفد عرضت فرنسا المعاهدتين على البرلمان الفرنسي لاقرارها فلم توافق عليهما لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ والنواب على أساس أن المعاهدتين لا يحققان مصالح فرنسا، وأن فكرة تكوين دولة مستقلة موحدة في سوريا فكرة خاطئة لتعدد الطوائف فيها وتباين عقائدها وأغراضها . ونتيجة لذلك عادت الاضطرابات ثانية في سوريا . وقد ساعد على تفاقم الحال أن فرنسا من تلقاء

نفسها ومن غير أن تستشير سوريا نزلت لتركيا عن سنجق اسكندرونة (١٩٣٨ -
١٩٣٩) عربوناً للوادة بينهما بحجة أن ٤٠٪ من سكانها من الأتراك وباقي السكان
خليط من العرب وغيرهم . وكانت اسكندرونة داخلة منذ سنة ١٩١٨ في حدود
سوريا الشالية الغربية ويعد ميناؤها من أهم موانئ البحر الأبيض المتوسط .
وقد عز على سوريا أن يقطع منها هذا الميناء على غير رضا منها وبعد أن ضمت
إليها جبل الدروز وإقليم العلويين وكانت فرنسا قد فصلتهما عن سوريا أولاً .
ولا تزال سوريا تن من هذا الجرح الاليم الى اليوم

ولما قامت الحرب العالمية الثانية كانت فرنسا قد عينت لسوريا ولبنان قائداً
من أحسن قوادها هو الجنرال ويجاند Wiegand ووطدت مركزها في الشرق
بعقد المعاهدة الانجليزية التركية الفرنسية في ١٩٣٩ وقد هدأت مخاوفها عندما
التزمت إيطاليا الحيدة في الشهور الأولى من الحرب . ولكن الحال تغير عندما
انهارت فرنسا وأصبحت الحكومة المركزية تحت رحمة المانيا . وكان من دواعي
الاطمئنان نوعاً ما إن الهدنة بين المانيا وفرنسا لم تمس حالة أملاك فرنسا في
عرض البحار ولكن بريطانيا وحلفاءها كانوا يعلمون أهمية سوريا ولبنان
من الوجهة الحربية فقد كانت دولتا المحور تهددان مصر من جهة حدودها
الغربية وكان الحلفاء يستمدون من حيفا وطرابلس البترول الذي تنقله الأنابيب
الممتدة من آبار الموصل وكر كوك بالعراق . لذلك أعلنت انجلترا أنها لن تسمح
بأن يستخدم الأعداء بلاد المشرق وسيلة للهجوم على النقط الاستراتيجية في
قناة السويس وخليج العجم .

وكانت ألمانيا قد اكتسحت بلاد البلقان وبدأت تتصل بأعوان حكومة فيشي
في سوريا ولبنان لتستخدم قواعدهما الجوية لمساعدة الثوار في العراق ، فأجمع
الحلفاء نيتهم على تحرير سوريا ولبنان من قوات حكومة فيشي . وتكونت قوة
مؤلفة من الجنود البريطانية وجنود فرنسا الحرة بقيادة الجنرال ميتلند ولسون ومعه
القائد العام الفرنسي الجنرال كاترو Catroux لضم بلاد المشرق إلى الحلفاء وزحفت

هذه القوة في خريف عام ١٩٤١ فلم تجد صعوبة في كسر مقاومة جنود حكومة فيشي وقد سبق قيام الحملة وأعقبها إعلان من حكومة فرنسا الحرة ومن الحكومة الانجليزية بموافقتها على استقلال سوريا ولبنان وانتهاء الانتداب الفرنسي عليها واعتبار كل منهما دولة ذات سيادة . فاطمان الأحرار في الدولتين وساعدوا الحلفاء ضد أعوان حكومة فيشي .

وبدخول الأنجليز منتصرين بلاد المشرق بدأت في البلاد سياسة جديدة فقد أصبح للانجليز المسكنة الحربية الأولى في البلاد وتأخرت منزلة فرنسا ، وبرفع الحصر البحري عن البلاد دخلت أعمالها وتجارها في دائرة المعاملات الانجليزية الاسترلينية . وكان الوطنيون قد انتهزوا فرصة انكسار حكومة فرنسا المركزية فقررروا في دخيلة أنفسهم أن يقطعوا الأسباب السياسية التي كانت تربطهم بها وكانهم وجدوا في أرتباطهم بفرنسا بعد انكسارها شيئاً من المهانة والذلة فلم يعودوا يأنهون بحاجات فرنسا أو طلباتها . وكان إعلان الاستقلال الذي أصدرته حكومة ديغول de Gaulle يشير إلى ضرورة تسوية الروابط بين الطرفين في معاهدة حرة تعقد بينهما بعد الحرب . ولكن الوطنيون أبوا الاعتراف بحق الانتداب نفسه وقالوا أن حكومة فيشي قد انفصلت عن عصبة الأمم في ١٩٤١ فلم يعد للانتداب على بلادهم أصل قانوني وهم خليقون لذلك أن يتمتعوا بالاستقلال وكل مظاهره من حكم نيابي ديمقراطي وتمثيل أجنبي وقوات سورية أو لبنانية أصلية دون أي تدخل أو اعتراض من جانب فرنسا .

وأضطرت فرنسا إلى الخضوع في أول الأمر، وأنضم الدروز والعلويون إلى سوريا وجرت انتخابات جديدة في سوريا سنة ١٩٤٣ أنتخب على أثرها الزعيم شكري القوتلي رئيساً للجمهورية ، كما جرت انتخابات جديدة في لبنان في تلك السنة نفسها وأنتخب الزعيم بشاره الخوري رئيساً للجمهورية، وكان الحزب الذي يتزعمه الرئيس اللبناني يناصر حركة الوحدة العربية ويؤيد الاستقلال اللبناني التام فما عتم المجلس الجديد أن قرر تعديل الدستور اللبناني وحذف ما كان فيه للدولة

المنتدبة من ميزات وألغى اللغة الفرنسية كلغة رسمية في البلاد فخلق المندوب السامي هلو Hellen وأصدر قرارا بالغاء الدستور وفض المجلس النيابي وقبض على رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة وبعض الوزراء وأعتقلهم خارج بيروت في نوفمبر ١٩٤٣ فكان ذلك إيذانا بميلاد روح جديدة شملت البلاد من أقصاها إلى أقصاها ، لاروح ثورة وعنفة ولكن روح إيمان بحق الوطن والثقة بالنفس فتعاون اللبنانيون على اختلاف أحزابهم ودبروا أمرهم وأيقنوا أن حق الوطن عليهم يقتضيه أن يفسلوا تلك الاهانة التي لحقت مسيحيهم ومسلميهم جميعاً لا بالحرب ولكن بتصفية نفوسهم وتجريدها من أدران الطائفية وكل أثر من أثار التبعية الفرنسية . وكأنما أيقنوا بتأييد العالم العربي لهم ضد فرنسا وبمشاركة بريطانيا لهم في شعورهم فتذرعوا بالأناة والصبر وفعلا لم تكذبتمضى أيام قلائل حتى تدخلت إنجلترا وتدخلت مصر وأخواتها الدول العربية ، ولم يسع اللجنة الفرنسية الحرة التي كانت تقوم إذ ذاك في الجزائر إلا الخضوع، ففك أعتقال الوطنيين وعاد الأبطال إلى أوطانهم منصورين .

ولما أنتهت الحرب وتحررت فرنسا عادت الحكومة الفرنسية إلى باريس وعادت معها بقايا الروح الاستعمارية القديمة، وكأنما عز على الفرنسيين أن يفقدوا أملاكهم وجاههم في عرض البحار بسبب المانيا فطلبوا - وتشبثوا بطلبهم - توكيد استقلال سوريا ولبنان بمعاهدتين سياسيتين على النسق القديم ، ونسوا أن الروح القومية الجديدة التي نشأت في أعقاب الحرب العالمية الثانية والتي فتحت أعين الشباب في أثناء الحرب على مبادئ ميثاق الاطلنطي ومن بعده على ميثاق سان فرنسكو لم تعد تقر الدول الاستعمارية على نظريتها في ضرورة ارتباط الدول الصغيرة مع الدول الكبيرة بمعاهدات سياسية حرية تبيح للدول الكبيرة فرادى ما كفله ميثاق سان فرنسكو للجميع من حيث رد عدوان البغاة والدفاع عن السلم بالوسائل التي يقرها مجلس الأمن وهيئة الأمم المتحدة . وعبثا حاولت إنجلترا أن تبرهن لفرنسا على أيثارها وتجريدها من المصالح الخاصة في بلاد المشرق

كما حاولت عبثاً أن تؤكد للسوريين واللبنانيين انها - مع اعترافها باستقلال بلادها وبسيادتهما - تعترف أيضاً لفرنسا بمركزها الخاص في تلك البلاد . فان الوطنيين لم يأبهوا لذلك وشجعهم في موقفهم أن روسيا وأمريكا كانتا قد اشترطتا حينما اعترفتا باستقلال البلدين الا يكون لأية دولة أجنبية صفة خاصة فيهما .

وقد ازداد مركز الوطنيين قوة على اثر اعلانهم الحرب على ألمانيا واليابان في فبراير سنة ١٩٤٥ واشترك الدولتين في مؤتمر سان فرانسيسكو جنباً إلى جنب مع ممثلي الدول الكبرى . وكانت جامعة الدول العربية قد نألفت واجتمع مؤتمرها الأول في مارس من تلك السنة فلقبت الشعوب العربية من الجامعة أكبر سند في كفاحها مع الدول المستعمرة ووجدت هذه من الجامعة صفاً متراصاً يشد بعضه بعضاً فبدأت تحسب له ألف حساب

وفي الوقت الذي كانت فيه المفاوضات جارية بين حكومة فرنسا وحكومتى المشرق بشأن إنشاء الجيش الوطني وتسليم بعض المصالح المشتركة التي كانت تباشرها فرنسا إلى الحكومتين الوطنيتين كانت فرنسا تعزز قواتها سرأً وعلانية في سوريا ولبنان وأهمة انها تستطيع بذلك متى جاء الوقت المناسب أن تملئ ارادتها بالقوة على الجمهوريتين فنثار الشعور الوطني ضد تصرفات فرنسا ، وسرعان ما أعاد الفرنسيون مأساة سنة ١٩٢٥ فتعرضت دمشق وحلب والمدن السورية الأخرى لقذائف المدافع الفرنسية من جديد كأنما كان الحلفاء يسلحون الفرنسيين الأحرار لتكون لهم الحرية في الاعتداء على الامم البريئة .

ومن سوء طالع فرنسا أن جاء اعتداؤها على استقلال البلدين في الوقت الذي كان فيه ممثلوهما يؤكدون استقلالهما وسيادتهما بالاشتراك على قدم المساواة مع مندوبي الأمم المتحدة في سان فرانسيسكو لا فرق بين كبيرها وصغيرها . وقد جاء الميثاق في النهاية معززاً لحق الدول الصغيرة حامياً لها من افتئات الدول الكبرى ، فنصت المادة السابعة من الميثاق على أنه « ليس في هذا الميثاق ما يتبجح للامم المتحدة أن تتدخل في شئون دولة ما إذا كانت هذه الشئون من مستلزمات سلطاتها الداخلية ،

ومن شأن هذا النص أن يدحض حجة فرنسا في التدخل بشأن إنشاء القوات الوطنية. وجاء في المادة ٧٨ ، لن يطبق نظام الوصاية على الدول المشتركة في هيئة الأمم المتحدة وستكون العلاقة بينها قائمة على احترام مبدأ المساواة في السيادة ، وفي هذا صيانة صريحة لحق دولتي المشرق من فرنسا التي طالما تذرعت بحقوق الانتداب . لذلك لجأت الدولتان الشريقتان بشكواهما من فرنسا إلى مجلس الامن وهما اثقتان من قوة حقهما فلها عرض الموضوع لزمّت فرنسا الحجة ومن ثم اتفق الطرفان فيما بينهما ووجلت القوات الفرنسية والانجليزية عن سوريا ولبنان في صيف وخريف سنة ١٩٤٦ على التوالي جلاء ناجز أخالصاً من المعاهدات الحربية ولجان الدفاع المشتركة وغيرها وليس من شك في أن قيام جامعة الدولة العربية وامتحان الشعوب العربية وغيرها من شعوب جنوبي آسيا وشرقي البحر المتوسط وجنوبه في أتون الحرب الماضية قد بعث في هذه الشعوب روحاً متوثبة جديدة لا بد أن تقودها عاجلاً إلى آفاق جديدة في ميادين السياسة والقوة والعلم ، وستنظر معها الدول الغربية حتماً إلى النزول عما تزعم من حق لها في الوصاية أو القوامة على هذه الشعوب .

ولا بد أن يسكون السكفاح بين هذه الشعوب وبين الدول صاحبات المصالح عظيمًا ، ففي هذه الأقاليم التي تتقابل فيها القارات الثلاث وتتحكم شعوبها في أهم مراكز المواصلات العالمية وطرقها فوق ما تجنّه أرضها من كنوز معدنية وعيون زيتية وما على ظهرها من أسواق تجارية وثقافية رائجة - في هذه الأقاليم لا يمكن أن تنفرد دولة كبرى بالنفوذ مهما بلغت ولن تستطيع تحقيق مطامعها لاسيا وأن روسيا قد نزلت إلى الميدان وهي أقرب الدول الكبرى إلى تركيا وبلدان الشرقين الأوسط والأقصى ويهمها أن ترعى مصالحها كغيرها - فلا بد أن تتضارب في تلك الأصمغاص مصالح بريطانيا والولايات المتحدة وروسيا . وستكون هذه البلاد حقولا للنجارب تفيد منها شعوبها إذا صمدت وتمسكت بوحدتها ومصالحها - حقولا تنبت فيها أغصان الزيتون أو أسنة الرماح حسب اختلاف الخطة التي ستسلكها الدول الكبرى والسياسة التي ستتبعها هيئة الأمم المتحدة ،،

الفصل الحادي عشر

مشكلة أسكندرونه

سبق لنا القول أنه في ربيع عام ٣٣٤ قبل الميلاد عبر الاسكندر الأكبر مضيق « الهلسبونت » بين أوروبا وآسيا على رأس جيش مدرب من المقدونيين والأغريق وطلع به فوق هضاب آسيا الصغرى ثم سار في محاذاة ساحل البحر قاصدا فتح الشرق وتقويض دولة الفرس . وبعد نزال وجلاذ مع جنود الفرس الذين كانوا يحتلون تلك البلاد أرتد الفرس نحو الشرق وأستمر الاسكندر يزحف شرقا ويحتل في طريقه المدن والأقاليم التي يحلو عنها العدو حتى التقى بدارا الثالث ملك الفرس . جاء يقود جيشا عرمرما تجمعت كتابته من أطراف أمبراطوريته الواسعة وتقابلا في موقعة « أسوس » عند رأس الخليج الذي يفصل بين جبال الطورس وسهول سوريا وهناك انتصر الاسكندر على الفرس أنتصارا حاسما فتح له الطريق إلى سوريا وفلسطين ومصر ثم عاد الاسكندر يطارد دارا شرقا وما زال به حتى دانت له بلاد ميديا وبابل وما بين النهرين وبلاد فارس نفسها وشمالي الهند إلى ما وراء نهر السند شرقا .

وقد تم للأسكندر هذا النصر العريض الذي أمتدت به فتوحه من البحر الأدرياتي غربا إلى نهر السند شرقا والذي فاق به الاوائل والأواخر من الفاتحين في مدى لا يتجاوز عشر سنوات كان فيها الاسكندر كالشهاب الناقب لم يكده يضيء . ويهر أنظار العالم الشرقي بأسمه وبأسه وفتوحه حتى تهادى وأفل نجم حياته فجأة وأختطفته الحى وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره . فلا عجب إذا كان العالم على اختلاف أجناسه وأديانه قد خلد أسم الاسكندر فى قصصه وأساطيره وكتبه وآثاره .

ومن الآثار التي بقيت على الزمن تلك المدن التي أختطها الاسكندر نفسه أو التي أقامها خلفاؤه تخليداً لذكري فتوحه وانتصاراته، وقد أطلقوا عليها جميعاً اسم الاسكندر أو نسبوها إليه نسبة صحيحة أو محرفة على اختلاف اللهجات اللسانية التي كانت تنطق بها الشعوب التي أخضعها الاسكندر .

وعلى الساحل الشرقي للبحر الابيض المتوسط قامت مدينتان تحمل كل منهما اسمه الاسكندرية التي أسسها الاسكندر نفسه قرب مصب الفرع الغربي للنيل والتي لم تلبث أن أصبحت أهم الموانئ التجارية في البحر الابيض المتوسط ، « واسكندرونه » التي أنشئت على قرب من المكان الذي وقعت فيه معركة « أسوس » ولما كانت الاسكندرية أعظم شأننا وأقرب منا إلى الاغريق فقد عرفوا الاسكندرونه بصيغة التصغير فقالوا Alexandretta وعرفها الاتراك باسكندرونه ولست أدري على وجه الدقة ماذا يقال في اللغة العربية لتصغير الاسكندرية . وقد لا تكون في اللغة العربية صيغة لتصغير أعلام المدن البتة . ولكن الشيء الذي أعرفه يقينا أن اسم « اسكندرونه » قد زال الآن أو كاد من المعاجم والخرائط الحديثة، فقد أغنتنا تركيا أخيراً عن البحث عن قياس عربي لتصغير أسماء المدن والبلدان فحلت اسم اسكندرونه كله محوا وأطلقت على المكان اسما آخر قديماً هو « هاتاي Hatay » ، ايعيدوا - أولاً - إلى أذهان الناس مجد « الحيطيين » القدماء الذين ينتسب اليهم الاتراك والذين استوطنوا اسيا الصغرى وفيها ازدهرت مدينتهم قبل عهد الاسكندر بألف عام ، وثانياً - ليزيلوا كل أثر عربي أو إغريقي قد يعلق باسم الميناء أو الاقليم أو السنجق بعد أن نزلت عنه فرنسا لتركيا في سنة ١٩٣٩ ، ولا ننسى أن الاتراك السكاليين قد غيروا اسم القسطنطينية وأبدلوا به اسم اسطنبول التركي حتى يقضوا نهائياً على الخرافة القائلة باعادة الدولة البيزنطية لزعامة الإغريق أو غيرهم .

ولسكن حق الاتراك في التمسك باسطنبول يقوم على العوامل الجغرافية والتاريخية. وهذه العوامل نفسها هي التي تحول دون « تبرك الاسكندرونه » ، وإليها

يستند السوريون في المطالبة بردها إليهم فهي داخلة جغرافيا في حدود سوريا الشمالية وهي الميناء الطبيعي لمدينة حلب وأقليمها ، وحلب هي المدينة السورية التي تلي دمشق في الأهمية .

ولقد كانت اسكندرونة ذات أهمية تجارية عظيمة القدر بالنسبة إلى سوريا قبل فتح قناة السويس حين كان طريق التجارة البري بين آسيا وأوروبا يمر بخليج فارس والبصرة ونهر الفرات وحلب واسكندرونة ومنها إلى موانئ أوروبا ، ثم عادت لها أهميتها على أثر جهود الألمان قبل الحرب العالمية الأولى في إنشاء الخط الحديدي الذي كان سيصل برلين ببغداد فقد مد الألمان خطا فرعيا ربط اسكندرونة بالخط الأصلي في الأناضول فبرزت مكانتها فجأة بعد أن تدهورت على أثر حفر القناة .

ثم نشبت الحرب فقضت على أحلام الألمان وقامت الثورة العربية ضد الأتراك حلفاء ألمانيا يقودها أنجال الشريف حسين وتوازروهم قوات الحلفاء حتى إذا كانت سنة ١٩١٧ زحف القائد الانجليزي اللنبي Allenby ففتح فلسطين وأخذت المدن السورية ترفع أعلام النهضة وتفتح أبوابها للفتاحين من العرب والانجليز . وكانت اسكندرونة من هذه المدن فسرى عليها ما سرى على الأقاليم العربية التي كانت تابعة لتركيا وتحررت في نهاية الحرب . ومن الانصاف أن نذكر هنا أن السير هنري ماكماهون Memahon المندوب البريطاني في مصر الذي خاطب الشريف حسين قبل ثورة العرب نيابة عن الحكومة البريطانية كان قد استثنى من الدولة العربية المنتظرة إقليم اسكندرونة وجهات أخرى غربي سوريا بحجة أن كثرتها ليست عربية . ولسكن الشريف حسين في رده لم يقبل هذا الاستثناء ولو أنه قبل الاستثناء في جهات أخرى .

ولسكن يظهر أن فرنسا قبل الحرب الكبرى وبعدها كانت تطمع في ضم سوريا ولبنان إلى امبراطوريتها الواسعة في حوض البحر الأبيض المتوسط ، فلما خاب أملها في الضم ولم تفز إلا بالانتداب على هذين الاقليمين عولت على أن تتبع

في حكم هذه البلاد سياسة عقيمة أرهقت بها الأهالي بدرجة نفرت أصدقاءها قبل أعدائها على نحو ما فصلناه في الفصل السابق . فقد سارت فرنسا في سوريا ولبنان وفق سياستها الاستعمارية التقليدية عاملة على إسعاد الفرنسيين بالوظائف والمكاسب وإضعاف الوطنيين سياسياً واقتصادياً بكافة الطرق .

وكان مبدأ التفرقة بين الطوائف والجماعات الوطنية أول معول استخدمته فرنسا لقتل الروح الوطنية القومية بين أهل البلاد وجعلوا أساس التفرقة المذهب الديني ليزداد التجافي والنشاحن بين الأهالي ولتظفر فرنسا بمنزلة الحكم المتسلط عليهم جميعاً . وعلى هذه القاعدة أقاموا في لبنان جمهورية أكثريتها مسيحية لتوازن بها دولة سوريا المسلمة ، وأوجدوا دويلات محلية اصطناعية جعلوها مستقلة عن سوريا كجبل الدروز في الجنوب وأقليم العلويين وسنجق اسكندرونه في الشمال الغربي ولم يكن يفصل بين اسكندرونه وحدود الأناضول سوى اثني عشر ميلاً .

وتبلغ مساحة هذا السنجق ١٩٣٠ ميلاً مربعاً وعدد سكانه ٢٢٨٠٠٠٠ منهم ٨٥٠٠٠٠ تركي و ٢٣٠٠٠٠ من المسلمين السفين و ٦٢٠٠٠ من العلويين و ٤٩٠٠٠٠ من المسيحيين على اختلاف مذاهبهم . وتدخل في هذا السنجق مدينة انطاكية ذات الشهرة التاريخية

وإنما دفع فرنسا إلى انتهاج هذه السياسة عليها بأن الشعور القومي بين الأهالي كان قويا وأن السوريين كانوا في طبيعة المجاهدين الذين لبوا نداء الثورة العربية وكافحوا وبذلوا أرواحهم في سبيل الاستقلال والوحدة العربية — تلك الوحدة التي كانت تقض مضجع فرنسا فتعمل جاهدة على قمعها إذ كان نجاحها لا بد أن يؤدي إلى تفوق النفوذ الانجليزي أولاً ثم إلى تقويض دولة فرنسا لافي شرق البحر المتوسط فحسب بل في جنوبه وغربه حيث أهل المغرب والجزائر وتونس الذين تربطهم وشائج نسب وقربى بالعرب في مختلف الأقطار



منطقة سكندرونه - حماة

ولم يكف فرنسا أنها قطعت أوصال سوريا وسدت عليها منافذ البحر بما أقامته من الحكومات المستقلة في لبنان وبه ثغر بيروت العظيم ، وقد ضمت إليه ثغر طرابلس ، وفي إقليم العلويين وبه ميناء اللاذقية ، وسنجق اسكندرونه وبه مينأؤه الكبير - لم يسكفها هذا فراحت تحاول محاولة أخرى ، وحين رأت نجاح الحركة الكمالية في تركيا وبهرها ما أصابه الكماليون من تفوق وانصر مطارد على اليونانيين وتوقعت أن يكون لتركيا الجديدة من السطوة والسؤد في البلقان والشرق الأوسط ما يدعوها إلى اكتساب مودتها فسارعت وأرسلت في سنة ١٩٢١ إلى تركيا مندوبا من قبلها هو فرنكلين بويون Franklin - Bouillon ليبلغ الحكومة الجديدة في أنقرة اعتراف فرنسا بها ورغبتها في توثيق أواصر المودة بينهما. وكان فرنسا قد خشيت أن يتجه الكماليون وهم في نشوة النصر نحو الجنوب قيستردوا بعض ما فقدوه في سوريا فأسرعت بالتنازل لهم عن بعض الأراضي على الحدود بين سوريا والآناضول وقررت إرضاء للشعور التركي أن يكون لسنجق اسكندرونه استقلال إداري خاص ، ولم يسكن لفرنسا بمقتضى

صك الانتداب أن تنزل لدولة أخرى عن شيء من أرض البلاد التي انتدبت لها إلا بموافقة العصبة، ولكنها فعلت - ثم جاء مؤتمر لوزان سنة ١٩٢٣ لتصفية ما بين الحلفاء وتركيا فأقر حدود تركيا الجديدة واعترفت تركيا بزوال سيادتها عن الأقاليم العربية التي كانت تحت حكمها ومنها سينجق اسكندرونه

واستمر إقليم اسكندرونه يعاني مع باقي الاجزاء السورية متاعب الانتداب الفرنسي وما تبعه من ثورات وحروب وأزمات إلى عام ١٩٣٥ - ١٩٣٦ وفيه تلبد الجو الدولي السياسي في أوروبا واضطربت أحوال العالم جميعه من جراء عدوان إيطاليا على الحبشة وتحديها بريطانيا ومعها السكثرة العظمى من الدول الممثلة في عصبة الامم . وكان أول مظهر من بوادر هذه الاضطرابات في الشرق حيث قامت في مصر حركة وطنية انتهت بتسكوين الجبهة الوطنية المصرية وعقد معاهدة التحالف مع بريطانيا سنة ١٩٣٦ . ومن مصر انتقلت شرارة الثورة إلى فلسطين ثم إلى سوريا وكانت الحال في أوروبا قد ازدادت حرجا ، فاندلعت الثورة الاهلية في أسبانيا ورفعت النازية في ألمانيا رأسها تهدد أوروبا بشر مستطير، وتوالت نذر الحرب العالمية الثانية وحينئذ لم تجد فرنسا إلا أن تقبل مرغمة تنظيم علاقاتها مع سوريا ولبنان على أساس استقلالهما وارتباط كل منهما بفرنسا بمعاهدة تشبه المعاهدة التي ربطت بريطانيا بدولتي العراق ومصر

وكان أول مقومات هذا الاستقلال أن تعود الدويلات التي اقتطعتها فرنسا من جسم سوريا اليها . وأن تتعاون سوريا ولبنان على المصالح المشتركة بينها بشرط احترام استقلال لبنان وعدول سوريا عن مشروع اتحاد سوريا بلبنان وتسكوين دولة كبرى واحدة . وفعلا تضامنت الحكومتان مخلصتين في سياستهما الوطنية ازاء الدولة المنتدبة، وأخذ البلدان يعملان لادراك أهدافهما الوطنية وجعلت فرنسا تعطى حيناً وتمنع أحيانا ، وتجوّد وتبخل وتعجل وتبعلىء ولم تزل في ترددها هذا حتى اكفهر الجو الدولي واستهدف العالم للحرب العالمية الثانية قبل أن تقر فرنسا معاهدتي الاستقلال بينها وبين الدولتين العربيتين .

وفي هذه الاثناء قامت الاضطرابات في انطاكية ، وعزى على تركيا أن يؤدي استقلال سوريا وانتهاء الانتداب الفرنسي إلى عودة اسكندرونة إلى سوريا مع أن الجالية التركية في هذا الاقليم تناهز ٤٠ ٪ من سكانه وهم من أقوى العناصر التي استوطنت الاقليم ، فقام الأتراك يطالبون باستقلال اسكندرونة وفصلها عن سوريا وتوطئة لضمها إلى تركيا في الوقت المناسب

عند ذلك رأت فرنسا أن مصالحها الحقيقية تحملها على تحقيق رغبات تركيا . على حين تأبى عليها هذه المصالح أن تساعد على تقوية الجامعة العربية بضم اسكندرونة اليها وهي عالمة أنها بذلك تستهدف لسخط الوطنيين في سوريا ولبنان ولكنها آثرت مصلحتها فقررت عرض الموضوع على مجلس عصبة الامم ، وندبت العصبة لجنة لبحث الحالة في اسكندرونة . وكانت النتيجة أن قررت العصبة أن توافق الحكومتان على احترام استقلال اسكندرونة الذاتي تحت إشراف العصبة وأصدر المجلس قانونا ينظم حكومة السنجق فتتولى السلطة التشريعية جمعية منتخبة بطريق التصويت العام على درجتين ويمثل القوة التنفيذية مندوب فرنسي تعاونه قوة بوليسية مؤلفة من ١٥٠٠ فرنسي ويده حق الفيتو أو وقف تنفيذ القوانين التي لا يوافق عليها . وعلى ذلك تقرر حيدة اسكندرونة وأصبحت اللغتان العربية والتركية فيها رسميتين

ولكن هذا النظام لم يرق في نظر العرب ولا في نظر تركيا فاتصلت فرنسا بتركيا رأسا دون وساطة العصبة وانفقتا في أغسطس سنة ١٩٣٨ على أن يكون لتركيا في اسكندرونة قوة مساوية للقوة الفرنسية وعلى هذا عقد بين الحكومتين معاهدة صداقة وتعاون . وعلى أثر ذلك أجريت الانتخابات للجمعية التشريعية بعد أن مهدت لها تركيا ، فنال الأتراك ٣٢ مقعداً من ٤٠ واجتمعت الجمعية الوطنية في انطاكية في ٢ سبتمبر سنة ١٩٣٨ وقررت إطلاق اسم « هاتاي » على السنجق وانتخبت رئيسا تركيا للدولة الجديدة كما اختارت الجمعية رئيسها ورئيس الوزراء وكلاهما من الأتراك واتخذت الجمعية علما للسنجق لا يختلف عن العلم

التركي إلا في النجم الذي يتوسط الهلال فجعلوه نجما مفرغا لا يغطيه البياض ولكن يحيط به ، ومنذ ذلك الوقت بدأ الأتراك « يتركون » المنطقة فجعلوا اللغة التركية وحدها اللغة الرسمية ولغة التعليم ، وأبعدوا الموظفين العرب سواء منهم المسلمون والمسيحيون ، وهاجر من المنطقة عدد كبير من الأرمن أنشأوا لهم قرية بين بيروت ودمشق ، أوى إليها نحو ألفين منهم . وفي يونية سنة ١٩٣٩ وقد ظهرت بوادر الحرب تخلت فرنسا لتركيا عن اسكندرونة من تلقاء نفسها ومن غير أن تستشير سوريا ومنذ ذلك اليوم أصبحت اسكندرونة جزءا من تركيا . وقد عز على سوريا أن يقطع منها هذا الأقليم على غير رضا منها فنقم السوريون على فرنسا تصرفها في أرض لا تملكها وجعلوا يترقبون الفرص لا سترداد حقوقهم في هذا الأقليم .

ولقد أبرزت الحرب الأخيرة بصفة خاصة أهمية اسكندرونة لا من الوجهة الاستراتيجية فحسب حيث تقوم اسكندرونة على رأس خليج عميق الغور تحوطه الجبال فتكون له بمثابة حصن يقيه هجمات الأعداء ومن هبوب الرياح الشمالية الباردة بل من الوجهة الاقتصادية أيضا فقد وجد في المنطقة معدن السكروم وزيت البترول فأصبح الخلاف بشأنها شديدا وبلغ كفاح السوريين من أجلها منتهى القوة . وقد سبق لنا القول أن اسكندرونة لا غنى لسوريا عنها لأنها تجدها العوض عن ثغرى بيروت وطرابلس الشام ولأنها الميناء الطبيعي لجزء مهم من الشام وهو قسم حلب . وليست حاجة تركيا إليها بأشد من حاجة سوريا الحيوية . وإذا كان الأتراك يقرعون حجة السوريين بحجة أخرى هي أن جاليتهم كبيرة في هذا الأقليم وعددهم يزيد على من عداهم من الطوائف الأخرى فإن بمجموع العرب — إذا أضفنا المسلمين السنين إلى العلويين والمسيحيين — يفوق عدد الأتراك فضلا عن الشواهد الجغرافية والتاريخية التي تؤيد دعوى السوريين .

والآن تقف اسكندرونة حجر عثرة في سبيل الاتفاق بين العرب من جهة وتركيا من جهة أخرى إذ لا يخفى أن هناك ميثاق « سعد أباد » السياسي الذي

أبرم سنة ١٩٣٧ وبه ارتبطت تركيا والعراق وأفغانستان وإيران للتشاور والتعاون
معا وأعضاء هذا الميثاق يهمهم وقد انتهت الحرب أن يجددوه وأن يلائموا
بينه وبين أغراض جامعة الدول العربية وليس هذا مستطاعا ما دامت مشكلة
اسكندرونة قائمة .

ولو أن موضوع الخلاف عرض على هيئة دولية فأكبر الظن أن روسيا لن
تؤيد تركيا في طلبها ، كما يغلب على الظن أن بريطانيا صديقة تركيا وسوريا ستقف محايدة
فلا يبقى إلى جانب تركيا إلا فرنسا التي خلقت هذه المشكلة من أول الأمر . أما
الولايات المتحدة فأكبر الظن أنها تقف مع انجلترا على الحياد من هذا النزاع .
وقد تقترح الجامعة العربية على الدول - كما اقترحت بشأن ليبيا - إجراء
استفتاء شعبي محايد في المنطقة . وحسنا تفعل الجامعة وتفعل هيئة الأمم المتحدة
إذا لجأت جميعا في حل مشكلاتها الإقليمية إلى احترام إرادة الشعوب وخاصة إذا
اقترن ذلك بالضمانات التي تكفل صحة التعبير عن هذه الإرادة بالصراحة والحرية
الكاملتين . وإذا كانوا في الماضي يقولون أن الملوك والنبات لا يخطئون فقد
جاء الوقت الذي ينبغي أن يعترف فيه الجميع بأن حق الشعوب في تقرير مصيرها
هو حق إلهي لا يغلبه باطل القوة ، وان صوت الشعوب من صوت الله .

الفصل الثاني عشر

فرنسا في شمال أفريقيا

يحق لفرنسا أن تباهى بممتلكاتها في شمال أفريقيا فهي منها على مسافة قريبة لا يفصلها عنها سوى مياه البحر المتوسط الذي تلاطم أمواجه سواحل فرنسا الجنوبية كما تلامس سواحل أفريقيا الشمالية، ولا تزيد المسافة بين تولون قاعدة فرنسا البحرية في الجنوب وبين بونة إحدى قواعد بلاد الجزائر على اربعائة ميل أو أكثر قليلا يقطعها المسافر على متن الجو أو البحر في ساعات قليلة. وتمتد ممتلكات فرنسا هذه على ساحل البحر المتوسط من تونس شرقا إلى ساحل المحيط الأطلسي غربا ومن وراء ذلك في داخل الصحراء الكبرى إلى بحيرة تشاد جنوبا ولا يقل عدد سكان هذه الأقاليم عن عشرين مليونا من الأنفس. هذا عدا ما لفرنسا من مصالح مادية وثقافية في بلاد المشرق ومصر وما لها من الزعامة بين الطوائف الكاثوليكية في جميع هذه الأرجاء.

لذلك كان اعتزاز فرنسا بأملها وملحقاتها في شمال أفريقيا عظيما وكان تصميمها على الاحتفاظ بسلطانها حكما لا يقبل طعنا أو نقضا مهما اختلفت الحكومات في فرنسا وتنوع نظم الحكم فيها. ففي عهد الملكية أرسلت حكومة شارل العاشر في سنة ١٨٣٠ حملتها الحربية لاحتلال الجزائر في عهد الامبراطورية الثانية توطن سلطان فرنسا في الجزائر واستطاعت أن تقضى على الحركة الوطنية التي قامت بزعامة الأمير عبد القادر لمناوئة الحكم الفرنسي. وفي عهد الجمهورية الثالثة أعلنت الحماية على تونس سنة ١٨٨١ ومنها زحفت فرنسا غربا إلى مراکش في أوائل القرن العشرين.

وها هي ذى فرنسا في عهد الجمهورية الرابعة تولى أفريقيا الشمالية من الاهتمام

ما هو خليق بالأرض الطيبة التي فتحت أبوابها لايواء الفرنسيين الأحرار حين احتل الألمان فرنسا وضيقوا عليهم الخناق في أوروبا فاستقبلت أفريقية الشمالية جمعية التحرير الوطني الفرنسية وأكرمت وفادتها وأضافتها حتى تم تحرير فرنسا نهائيا . وأول ما امتلسته فرنسا في شمال أفريقية بلاد الجزائر وقد بررت فرنسا احتلالها بأن أهانة وجهها حاكم الجزائر إلى قنصل فرنسي سنة ١٨٢٧ إذ لطمه على وجهه بمذبة كانت بيده على أثر منافسة حادة شجرت بينهما بشأن رسالة كان الوالي قد بعث بها إلى الحكومة الفرنسية ولم يصله جوابها ، فسير الوزير الفرنسي بولنيك Polignac في سنة ١٨٣٠ حملة لغزو بلاد الجزائر . وكانت البلاد إذ ذاك تابعة إسميا لتركيا وتمسك بأزمة الحكم فيها أسرة عرف امرؤها بلقب « الداي » .

وكانت تركيا وقت ذلك متخمة بأملأها شرقا وغربا كما كانت إنجلترا مهتمة بحركة الإصلاح النيابي في بلادها ، لذلك لم تلق فرنسا صعوبة تذكر في الاستيلاء على الجزائر ، ولم تسكد تركيا تحس بفقدان هذه البلاد لطول عهدها بالانقطاع عنها . وكذلك لم تعر إنجلترا احتلال فرنسا لتلك المنطقة في ذلك الوقت أهمية خاصة إذ لم يقع في وهمها أن فرنسا ستتخذ من بلاد الجزائر قاعدة تزحف منها شرقا وغربا وجنوبا فتتشر سلطانها على طول ساحل أفريقية الشالي ومن الساحل تتسرب قواتها إلى الداخل جنوبا حتى تصطدم بمصالح إنجلترا في وسط أفريقية . ومن الجزائر نفسها فيما بعد قامت بعثة الضابط الفرنسي مارشان Marchand جنوبا إلى قلب أفريقية وحوض النيل حيث وقف وجهها لوجه أمام القوات المصرية يقودها كرتشر في حادث فاشودة المشهور سنة ١٨٩٩ .

وقامت الحملة الفرنسية إلى الجزائر من ثغر تولون في مايو سنة ١٨٣٠ مؤلفة من أربعة وثلاثين ألف رجل و٦٠ سفينة حربية ونحو أربعائة سفينة للنقل وغير ذلك وكان بين رجال هذه الحملة كثير من العلماء والأدباء والفنانين والخبراء فكانما أراد الفرنسيون بتلك الحملة ان يعيدوا تمثيل حملة بونايرت على مصر منذ ثلاثين سنة مضت . وقد حاول الوالي أن يرد الغزاة ولسكنه كان حاكما متعجرفا

مكروها من الأهالي فضاعت جهوده سدى . وسرعان ما استولى الفرنسيون على مدينة الجزائر وغادر الوالي وجنوده البلاد فسقطت في أيدي الفرنسيين إلا في المناطق الداخلية من الجنوب والغرب حيث قام الزعيم عبد القادر بجمع العرب والبربر حوله لمقاومة الفرنسيين وتقويض دعائم حكمهم ، وقد عظم شأن الزعيم عبد القادر وأيده سلطان مراکش مولاي عبد الرحمن فجعل يمدّه بالمال والرجال حتى تخرج مركز الفرنسيين أمامه وأضطروا إلى مفاوضته . وأخيرا وبعد جهاد إدام سبعة عشر عاما استسلم الأمير المجاهد للفرنسيين في سنة ١٨٤٧ بعد أن انقلب عليه سلطان مراکش ولم يجد أمامه مخرجا سوى التسليم . والفرنسيون يعتبرون بلاد الجزائر اليوم جزءا من فرنسا فهي لا تتبع في ادارتها وزارة الخارجية ولا وزارة المستعمرات بل تتبع وزارة الداخلية رأسا .

أما تونس فأقل عمرا نأ ومدنية من الجزائر ولكنها أشد تمسكا بتقاليدها واعدت مشكلات منها . ومركز فرنسا في تونس مركز الدولة الحامية ولا تزال بها حكومة وطنية اسمية بيد الباي وهو أمير تونسي . ويرجع دخول الفرنسيين تونس إلى سنة ١٨٨١ . وحماية فرنسا لها هي أول كسب سياسي أصابته فرنسا بعد انضمامها أمام البروسيين في سنة ١٨٧١ . ويظهر أن بسمرك أراد أن يصرف انظار الفرنسيين عن الالزاس واللورين وعن فكرة الانتقام من البروسيين ، فترك لهم هذه القصة يتبلغون بما فيها ويتلهون آملا أن تتولد بينهم وبين جيرانهم الطليان على الأيام بذور البغضاء والعداوة وبذلك يضمن انضمام إيطاليا إلى جانب ألمانيا إذا دعت الحال . ومع أن سياسة بسمرك لم تتحقق سريعا لأن إيطاليا رغم تحالفها مع ألمانيا في أول الحرب العالمية الأولى لم تلبث ان انضمت إلى الحلفاء فلا شك في أن ما شاهدناه في تونس قبل الحرب العالمية الثانية من اضطرابات وانحياز بعض القوات إلى جانب المحور كان نتيجة محتومة لما نصبه بسمرك من شبك سياسية اصطدمت بها مصالح الدولتين اللاتينيتين الكاثوليكيتين .

ولم يكن غريبا أن يقوم النزاع بين فرنسا وإيطاليا بشأن تونس فإلمسافة بين

صقلية وتونس لا تزيد على ٧٠ ميلا . وكانت تونس محط أنظار الساسة الطليان منذ احتلال فرنسا للجزائر وتدخلها هي وانجلترا في شئون مصر وقناة السويس . والإيطاليون على عكس الفرنسيين والانجليز سريعو الاندماج مع شعوب البحر الأبيض المتوسط ومستوى معيشتهم يداني مستوى هذه الشعوب . لذلك كان الإيطاليون أسبق من الفرنسيين إلى التغلغل في داخل تونس حتى أنهم أبرموا معاهدة مع الباي في سنة ١٨٦٨ تصون مصالح الإيطاليين في تلك البلاد وتحفظ لهم جنسيتهم فلما دخل الفرنسيون تونس لم يروا من الشهامة أن يحرموا جيرانهم الضعفاء مزاياء تلك المعاهدة بعد أن حالوا بينهم وبين تحقيق بغيتهم ، فعقدوا معهم معاهدة سنة ١٨٦٨ وتركوا الإيطاليين محتفظين بجنسيتهم داخل تونس كما احتفظوا لهم بمدارسهم ولغتهم وشهاداتهم . وما دعا فرنسا إلى رعاية جانب الإيطاليين والعطف عليهم ما أصابهم في نهاية القرن التاسع عشر من ذلة الانكسار على أثر هزيمتهم في الحبشة في واقعة عدوه سنة ١٨٩٦ . وكان هذا أيضا من الأسباب التي جعلت فرنسا توافق على احتلال إيطاليا لطرابلس في سنة ١٩١١ .

ولكن إيطاليا بعد الحرب العالمية الأولى وتحت حكم الفاشيين لم تكن مثلها قبل الحرب ، فقد أخذت تعد العدة لاستعادة سابق مجدها الاستعماري في حوض البحر المتوسط وكانت تونس في مقدمة الأقطار التي ترنو إليها . ولما كان الإيطاليون حتى قبل الحكم الفاشي قوما يعتقدون أن من حقهم المباهاة بين الأمم بكثرة النسل فقد أخذ عدد الإيطاليين في تونس يزداد مع الزمن حتى بلغ حدا اضطر فرنسا أن تعيد النظر في قانون التجنس ، ففرضت الجنسية الفرنسية على الأطفال الذين يولدون في الجزائر كما شجعت بمختلف الوسائل على التجنس بالجنسية الفرنسية ، فضجت إيطاليا واعتبرت هذا نقضا للمعاهدة ، وقاومت هذه التدابير بأن كانت تنقل الإيطاليات الحوامل على سفن إيطالية إلى حيث يضعن أطفالهن على أرض إيطالية وبذا يصبح المواليد إيطاليين لا فرنسيين كما أرادت فرنسا .

ثم نشأت مشكلة الحبشة في سنة ١٩٣٥ فرأى مسولينى ضرورة التقرب من فرنسا حتى تقف إلى جانب إيطاليا في عصبة الأمم ولا تعرقل مساعيها في فتح الحبشة. فدعا لافال Laval وزير خارجية فرنسا إلى روما لتسوية الخلافات بين فرنسا وإيطاليا، وكأما أراد لافال أن يصرف نظر إيطاليا عن شمال أفريقية وتولى وجهها نحو شرق أفريقية فرحب مسولينى بالفرصة وتم الاتفاق بين الاثنين وظهر للعالم كأن الدولتين اللاتينيتين قد تفاهمتا أخيراً. وكان فخوى هذا الاتفاق أن يصبح الإيطاليون الذين يولدون في تونس فرنسيين وأن تصبح المدارس الإيطالية في تونس خاضعة لفرنسا وألا تعتبر في التوظيف أو في مزاوله المهن الحرة إلا الشهادات والدرجات العلمية الفرنسية. ولكن متى؟ لقد نجح مسولينى في جعل موعد تطبيق قانون التجنس الفرنسى إبتداء سنة ١٩٦٥ وقانون الشهادات الفرنسية إبتداء سنة ١٩٤٥. وبذا ضمن موسولينى كسب فرنسا إلى جانبه في أزمة سنة ١٩٣٥ وأفلح في أرجاء تطبيق القوانين الجديدة حتى تسنح الفرصة له فيعدل المعاهدة أو يتنكر لها كما حدث فعلاً.

والمهم من حيث المركز السياسى في تونس أن في البلاد ثلاثة معسكرات متعارضة المعسكر الوطنى. وقد تنبه الوطنيون أخيراً وكونوا حزبا قويا يعرف بحزب الإصلاح يؤيد مبادئ غاندى أحيانا ويسير وفق منهج المصريين بصفة عامة ويقتدى بسياستهم وخططهم ويتغذى بأدبهم وكتاباتهم ويطالب فرنسا بالاعتراف باستقلال تونس على أساس معاهدة تحالف وصدقة تعقد بينهم وبين فرنسا. ويبلغ عدد التونسيين نحو ٩٢٦٠٠٠ نفس منهم نحو ١٠٨٠٠٠ فرنسى و ٩٤٠٠٠ إيطالى و ٨٠٠٠ مالطى. وهناك المعسكر الفرنسى وهم يشعرون في قرارة أنفسهم بما قد تتعرض له تونس من أخطار ولذلك تراهم لا يهابون كثيراً بمصالح تونس ولا يميلون إلى إجابة مطالب التونسيين خوفاً من إثارة أهل الجزائر ضددهم وصرونا لمصالح جيش كبير من الموظفين الفرنسيين المقيمين في البلاد. أما الإيطاليون وعددهم في تونس يقارب عدد الفرنسيين أو يزيد فكانوا قبل الحرب الأخيرة

يهددون الفرنسيين من ناحية صقلية شرقا وشمالا ومن ليبيا غربا . وقد أسقط الآن حسابهم مؤقتاً كعامل سياسي في شمال أفريقيا .

أما مراكش فهي — على أنها أقل مدينة من تونس والجزائر — أكثر منهما ثروة وأعز نفراً وأشد حرصاً على تقاليدھا القومية . ومع أن اتصالها بأوروبا لم ينقطع على مر الأزمان والدهور وخاصة بأسبانيا وفرنسا فهي حتى اليوم أقل البلاد العربية تأثراً بالمدينة الأوربية وأشدھا حفاظاً على تراث الماضي . ويرجع تاريخ دخول الفرنسيين مراكش الى نهاية القرن التاسع عشر حين بدأ سلاطين مراكش يصلحون من أحوال بلادهم وخاصة في الجيش على أيدي ضباط من الفرنسيين . وكانت مطامع فرنسا الاستعمارية في شمال أفريقيا قد لفتت انظار الدول وكان التنافس قد اشتد بين فرنسا وانجلترا حتى كاد الخلاف يفضي إلى إعلان الحرب بين الدولتين على أثر حادث فاشودة سنة ١٨٩٩ . ولكن ما كاد الملك أدورد السابع يعتلي عرش انجلترا بعد والدته الملكة فكتوريا حتى حل الاتفاق الودي بين الشعبين محل العداء والكرهية وتركت انجلترا تنفذ برنامجها في وادي النيل على أن تترك فرنسا حرة في مراكش بشرطين : الأول أن تكون المنطقة الشمالية الغربية المواجهة لجبل طارق بيد أسبانيا والثاني أن تكون طنجة ميناء دوليا محايداً . وقد جاء في المادة الثانية من الاتفاق الودي ، أن الحكومة الفرنسية تقرر أنه ليس في عزمها أن تغير الحالة السياسية في مراكش . وتعترف الحكومة الانجليزية من جهة أخرى بحق فرنسا بصفة خاصة في مراعاة استتباب الهدوء والنظام في تلك البلاد التي تناخها إلى حد كبير ولها أن تقدم لها المساعدات الحربية والمالية والادارية التي قد تحتاجها .

وعمدت فرنسا مع أسبانيا معاهدة كالاتافية التي تمت مع انجلترا . وقد اعترفت فيها أسبانيا بمركز فرنسا الخاص في مراكش كما اعترفت فرنسا بمركز أسبانيا في المنطقة الشمالية الغربية . وقد تأيدت هذه المعاهدة واعلنت في سنة ١٩١٢ وعلى أثر ذلك تشجعت فرنسا فلم تبال باعتراضات المانيا وأخذت تتغلغل

في الداخل . وكان السلطان مولاي الحسن ١٨٧٣ - ١٨٩٤ أول من أوجد حكومة موحدة للبلاد في تاريخها الحديث وأول من اهتم بادخال الاصلاحات الحديثة تشبها بالخديو اسماعيل في مصر . ومن أعماله أنه عين عددا من الضباط الفرنسيين لتعليم فنون الحرب الحديثة في جيشه . وجاء بعده ابنه عبد العزيز فاشتط في حكمه وأسرف فعزل في سنة ١٩٠٨ وتولى العرش بعده مولاي عبد الحفيظ وفي عهده ثارت القبائل حول مدينة فاس فطلب النجدة من فرنسا ودخل الفرنسيون فاس سنة ١٩١١ وقامت الازمة بين فرنسا وألمانيا وهي الازمة التي انتهت باعتراف ألمانيا بمركز فرنسا الخاص في مراکش . وعقد الفرنسيون مع مولاي الحفيظ معاهدة الحماية في ٣٠ مارس سنة ١٩١٢ وعين الجنرال ليوتي Lyautey مقبلاً عاماً في مراکش فوجه السياسة الفرنسية على نمط يغيّر سياسة فرنسا في الجزائر وتونس إذ احتفظ للبراكشيين بكل مظاهر قوميتهم في الإدارة والنشر والتعليم والجيش مع الاحتفاظ لفرنسا بالسلطة النهائية في جميع الأمور . وقد أبعده مولاي عبد الحفيظ عن العرش وخلفه ابنه يوسف ثم اعتلى العرش في سنة ١٩٢٧ السلطان الحالي مولاي محمد بن يوسف .

وفي ١٩٢٣ ثارت قبائل الريف في الشمال الغربي بزعامة الأمير عبدالكريم ضد الاسبان ، وكان قد اجتمع للبربر في أثناء الحرب العالمية الأولى كثير من السلاح والمال مما كان الألمان يوزعونه سرا لاثارة القبائل ضد فرنسا فاستخدمه المغاربة بعد الحرب ضد اسبانيا وأوقعوا بقواتها عند بلدة مليله هزيمة منكرة كاد الاسبان على أثرها يجلون نهائياً من مراکش . ولكن الحكومة الفرنسية تدخلت وأنقذت سمعة الاستعمار الأوربي في شمال أفريقيا بتجهيز حملة قوية ضد عبدالكريم فتضافرت القوتان الفرنسية والاسبانية ضد قوات الزعيم عبدالكريم فلم يسعه سوى الاستسلام للفرنسيين في عام ١٩٢٧ ونفى إلى جزيرة ريونيون Reunion في المحيط الهندي . وظل المغاربة يتغنون ببطولة عبدالكريم ويشيدون ببسالته في أغانيهم وإسمارهم ، وما فتئت

ذكراه تفعل في نفوس المراكشيين سواء في المنطقة الاسبانية أو الفرنسية فعل
السكر حتى استصرخوا أخيراً جامعة الدول العربية فتقدمت إلى الحكومة
الفرنسية بطلب اطلاق سراح الزعيم المغربي فقبلت على شرط أن يقيم في فرنسا
وبينما هو في طريقه من المنفى في صيف ١٩٤٧ إذ نزل ببورسعيد لاجئاً سياسياً
في حى الفاروق ملك مصر .

وقد اضطلع ليوتى بمهمته في مراكش مدة طويلة استطاع في أثناءها
أن يحتفظ لفرنسا بمكاتها الاستعمارية المتفوقة حتى في أعصأ أوقات الحرب
العالمية الأولى واختط ليوتى لنفسه خطة إدارية مستنيرة جعلته في نظر الفرنسيين
يضارع اللورد كرومر في مصر في نظر الانجليز . وقد استجاب المراكشيون
في الحرب العالمية الثانية لداعى الحلفاء فلم يغدروا بفرنسا المهزومة وعاونوا الحلفاء
في حملتهم على طول الساحل في شمال أفريقية . وأفادت فرنسا نفسها كثيراً حتى
في أيام الاحتلال الألماني من منتجات شمال أفريقية التي كانت تصدر إلى فرنسا
فيفيد منها الألمان والفرنسيون على السواء . وبات المراكشيون الآن في مقدمة
أهل المغرب يترقبون الفرص للحصول على استقلالهم والتحرر من الضغط
الفرنسى . وقد تأثر المراكشيون كغيرهم من الشعوب العربية بالروح القومية العامة
التي سرت بين الشعوب الشرقية العربية بعد الحربين العالميتين كما أخذت فكرة
الجامعة الإسلامية تزداد قوة بين القبائل وخاصة قبائل الريف الخاضعين للحكم
الاسبانى . ويبدو أن دور مراكش على مسرح السياسة وفي الميدان الاقتصادى
لم يبلغ مداه بعد ، ومتى استكمل فان مراكش بثروتها المعدنية وموقعها الجغرافى
الخطير وشدة بأس رجالها ستلعب مع جيرانها أهل الجزائر وتونس دوراً هاماً
في عالم البحر المتوسط .

ومع أن الامبراطورية الفرنسية الواسعة قد نشأت واتسعت وازدهرت تحت سمع دول أوروبا وبصرها لم تتحرك الدول بصفة جدية طوال القرن الماضي لمناهضة فرنسا أو مقاسمتها ذلك الغنم الكبير. أما إنجلترا فكانت قد تحالفت مع فرنسا سنة ١٩٠٤ وخلا لها الميدان للعمل في مصر والسودان، وأما إيطاليا فقد رضيت بنصيبها في طرابلس وبرقة، وأما روسيا فكانت تتمخض عن ثورتها الباشفية الكبرى فلم تسكن تتطلع إلى مد نفوذها ولم تنشأ لها مطامع في البحر المتوسط إلا في أعقاب الحرب العالمية الثانية. وكانت فرنسا على اتفاق مع أسبانيا كما كانت على اتفاق مع إنجلترا.

ولما نشبت الحرب العالمية الأولى وانتصر الحلفاء خسرت ألمانيا جميع مستعمراتها وخرجت نهائياً من ميدان المنافسة الاستعمارية تاركة فرنسا تتمتع بأكبر نفوذ استعماري في حوض البحر المتوسط جنوبيه وشرقيه.

• • •

وقد سارت فرنسا في سياستها الاستعمارية في شمال أفريقية وفق خطة منظمة صريحة أساسها أن يبقى الحكم مركزاً بيد الحكومة الفرنسية وأن تهيأ المستعمرات أولاً وأخيراً لخدمة فرنسا بالذات. فمن الوجهة الاقتصادية يجب أن يكون معظم صادراتها ووارداتها لمصلحة فرنسا، فكانت فرنسا تشتري قبل الحرب من مجموعة صادرات كل من الجزائر وتونس ومراكش ما يعادل ٨٤٪ و ٥٦٪ و ٤٥٪ على التوالي وتبيع إلى تلك البلاد من مجموع الواردات ما يوازي ٧٥٪ و ٦٢٪ و ٣٥٪. وكان بهم فرنسا من الوجهة الحربية وهي تعاني اطراد النقص في مواردها أن تلتزم العوض من ذلك بتجنيد رجال المستعمرات دون أي تفرقة بين الفرنسي أو الأوربي أو الوطني، وبذلك استطاعت فرنسا أن تحتفظ بمكائنها كدولة كبرى أمام منافساتها من الدول التي تباها بكثرة سكانها ووفرة مواردها.

وفي مقابل ما تجنيه فرنسا من مستعمراتها من خير وما تستخدم من رجال
كان مذهب الحكومة الفرنسية في خارج بلادها كما كان شأنها في الداخل أن
تنشر المبادئ الانسانية الكبرى التي ورثتها عن الثورة الفرنسية بشأن حقوق
الانسان . فهناك كما في فرنسا أعلنت الاخاء والمساواة بين الجميع ، ولكنها حرصت
على أن تحتفظ بالمبدأ الثالث مبدأ الحرية السياسية للمواطنين الفرنسيين دون غيرهم .
وليس في برنامج السياسة الفرنسية الاستعمارية كما قد يكون أحياناً في السياسة
الانجليزية مكان ملحوظ لهيئة الوطنيين لحكم انفسهم وتقرير مصيرهم . كما أنه
لم يكن لظهور مبدأ الانتداب في ميثاق عصبة الأمم بدلا من نظام الاستعمار القديم
أثر ما في طريقة حكم فرنسا لمستعمراتها في شمال افريقية أو في المشرق حيث كانت
فرنسا منتدبة . لذلك كانت الحكومات الفرنسية تتعز وتربك وتخطيء وتمعن
في الخطأ كلما ثار بعض هذه الشعوب على الحكم الفرنسي وقاموا يطالبون
بالاستقلال أو الحكم الذاتي . وكانت فرنسا ولا تزال تقابل مثل هذه الحركات
بأعنف وسائل القمع . ذلك لأنها تعتقد مخلصه عن خطأ أو عن صواب أنها مبعوثة
المدنية والثقافة الاوربية إلى هذه الشعوب ، وأنها دون دول أوربا جميعا تؤمن بمبادئ
المساواة والاخاء وتطبقها دون تمييز بين الاجناس والالوان أو العقائد ، وأن غايتها
العليا من حكمها انما هي « فرنسة » هذه الشعوب كما كانت تفعل روما قديما ومنحها
جميعاً نفس الحقوق التي يتمتع بها الفرنسي في بلاده وباله من أمل تتناول إليه
الاعتناق وترخص في سييله المهج والأرواح .

وما دمنا قد ذكرنا موضوع الفرنسية أو الأدماج وهي السياسة التي يعبر عنها
بالفرنسية والانجليزية بكلمة Assimilation فيجدر بنا أن نفرق بين السياسة
التي تتبعها فرنسا في بلاد الجزائر والسياسة التي تتبعها في مراکش وتونس . ففي
هذين البلدين لا يزال عهد الفرنسيين حديثا ولا تزال السلطة الشرعية في البلاد
قائمة وما برح ولي الأمر الشرعي يصدر المراسيم ويعين الوزراء . ولكن كل هذا
لا يتم إلا بمشورة المقيم الفرنسي إذ هو وحده المسئول أمام الحكومة الفرنسية

رأساً عن حكومة البلاد وأمنها، ويساعد المقيم الفرنسي طائفة من الموظفين وقوات
حربية كافية لحراسة البلاد وحفظ النظام بها .

أما في الجزائر فان عهد الفرنسيين فيها يرجع إلى نحو مائة وعشرين عاما
وتعتبر البلاد - ماعدا إقليم الصحارى - في حقيقة الأمر جزءا من فرنسا وهي
مقسمة على النظام الفرنسي إلى دوائر انتخابية وكان لها ثلاثة شيوخ وعشرة نواب
يمثلونها في البرلمان الفرنسي في عهد الجمهورية الثالثة ويحكمها حاكم عام يساعده
بجلسان استشاريان .

وفي بلاد الجزائر بصفة خاصة اتبعت فرنسا سياسة «الفرنسة» أو الادمج
وتقضى هذه السياسة بان ينشأ الأهالي على اختلاف أجناسهم وألوانهم على النظم
الفرنسية في التربية والتعليم والمعاملات وأن يطبق القانون الفرنسي عليهم جميعاً
على السواء فليس ثمة مانع من أن يتجنس البربر والعرب واليهود بالجنسية الفرنسية
فيخدموا في الجيش والاسطول ويعينوا في الوظائف الحربية والمدنية ويشتركوا
في جميع الحقوق التي يتمتع بها المواطن الفرنسي ومن ذلك حق التصويت والانتخاب
للبرلمان الفرنسي

ولم يستعص على هذه السياسة إلا المسلمون فقد عجز نظام «الفرنسة» أو الادمج
عن هضمهم أو تمثيلهم في الوطن الفرنسي ونشأت عن ذلك مشكلة سياسية ذات خطر
عظيم. ذلك أن المسلمين في الجزائر يؤلفون السكثرة العظمى فلو سمح لهم بالتمتع بالحقوق
السياسية كغيرهم من المواطنين الفرنسيين لاصبحت لهم الغلبة في الانتخابات واكتسحوا
الدوائر البرلمانية كلها أو جلها. فسكان الجزائر يبلغون الآن ثمانية ملايين من
الانفس منهم مليون واحد من المواطنين الفرنسيين ، أو المتفرنسين والباقي مسلمون
وإنما نشأت هذه المشكلة لأن الحكومة الفرنسية - وهي أول حكومة
علمانية في أوروبا ليس للدولة فيها دين رسمي - قد تعهدت حين دخولها الجزائر بأن
ترك لأهالي البلاد المسلمين حرية العبادة والا تتدخل في شؤونهم الدينية . ولما
كانت المعاملات بين المسلمين تجرى وفق الشريعة السمحة وفيها من القواعد

والنصوص الشرعية ما يخالف القانون الفرنسي العام وخاصة في شؤون الميراث والزواج والطلاق فقد تعذر على أولى الأمران يخولوا المسلمين جميع حقوق المواطنين الفرنسيين وما داموا لا يخضعون للقانون الفرنسي في مسائل تعتبرها الحكومة الفرنسية ذات أهمية بالغة فقد ترتب على ذلك أن سياسة فرنسا ، أو الإدماج التي اتبعتها الحكومة في الجزائر قد شملت كل شيء تقريبا إلا أن يتمتع المواطنين المسلمون بالحقوق السياسية التي يتمتع بها غيرهم من مواطنيهم .

وحاولت الحكومة أن تعالج هذه المشكلة فأصدرت في سنة ١٨٦٥ قانونا يبيح لكل وطني مسلم ان يتمتع بحقوق المواطن الفرنسي اذا تقدم بطلب ذلك وفي هذه الحالة يصبح خاضعا للقانون المدني الفرنسي في جميع أحكامه . ومعنى ذلك أن الوطني إذا أراد أن يباشر حقوقه السياسية فعليه أن ينزل عن القواعد والحقوق التي اشترعها الاسلام وجرى بها الشرع والعرف بين المسلمين في جميع الأنحاء على اختلاف العصور . لذلك لم يكن غريبا أن يؤثر المسلمون دينهم على أن يصيبوا من الحقوق السياسية شيئا لا يغني عن عذاب الآخرة قليلا .

ثم حاولت الحكومة الفرنسية إصلاح هذا القانون في سنة ١٩١٩ فاشتترط للتمتع بحق المواطن الفرنسي أن يكون الوطني عزبا أو متزوجا من واحدة فقط كما اشتترط الا تقل سنه عن ٢٥ سنة وأن يكون قد أدى الخدمة العسكرية في الجيش أو يكون ملها بالقراءة والكتابة باللغة الفرنسية أو موظفا عاملا في الحكومة أو بالمعاش . ولكن هذه الشروط أيضا لم تغر الوطنيين على طلب التمتع بحقوق المواطن الفرنسي ولم يكن مما يشرف الوطني أن يخالف قومه وعشيرته فيطلب لنفسه مزايا قد تحط من قدره وتعرضه للوم والسخط في نظر مواطنيه .

ولما تعذر على فرنسا تطبيق مبدأ فرنسا ، الفرنسية ، بخذافيره اضطرت أمام ضخامة المشروع وعظم خطره أن تعتمد إلى سياسة أخرى أقل عمقا من سياسة الإدماج وهي سياسة المشاركة Association . ولا تتطلب هذه السياسة أن ينزل الوطني

السلم عن قانون أحواله الشخصية لكي يصبح مواطنا فرنسيا بل تركت له أن يجمع بين الميزتين . وقد أملت فرنسا بهذا النظام أن تجتذب الصفوة الممتازة من الأهلالي فتحملهم على التفرس وتترك سواد الشعب يتقدم على مهل مع العمل على تعميم اللغة الفرنسية وتحسين مستوى الشعب الاجتماعي بقدر ما تسمح به الظروف .

ووجه الخضر من سياسة المشاركة هذه أنها سبيل إلى التفرقة بين أبناء الشعب الواحد وانقسامه فتظهر فيه أقلية ضئيلة تتمتع بمزايا وحقوق ليست ميسرة لسائر الشعب ، ويظل الشعب محروما من قاداته وزعمائه ومن جهود صفوة أبنائه .

وسواء اتبعت فرنسا في خطتها الاستعمارية سياسة الادمج أو مبدأ المشاركة فإن الأمر الذي لاشك فيه أنها لم تستهدف يوما في برنامجها استقلال الشعوب الخاضعة لها أو تأخذ بيدها مخلصه في هذا الطريق . لذلك كان من المتوقع أن تغرى هزيمة فرنسا في سنة ١٩٤٠ وتدهور كيانها السياسي شعوب افريقية الشمالية على الثورة والانتفاض على المستعمرين . ولكن هذه الشعوب تمسكت أمام محنة فرنسا بفضيلتي الكرم وضبط النفس فأخلدت إلى السكينة والهدوء وظلت موالية لفرنسا حتى انقشعت عنها الغمة وزال الخضر . ويظهر أن كراهة الوطنيين لاطاليا كانت من أقوى العوامل التي ساعدت على توثيق الروابط بين الوطنيين والمستعمرين ، فتاريخ إيطاليا الفاشية في ليبيا وما قاساه السنوسيون من التشريد والتعذيب والتقتيل كان يحفظه الوطنيون في صدورهم يخافوا أن يبدلوا استعمارا بآخر وأن يتخلصوا من فرنسا فيقعوا آخر الأمر بين برائن الطليان .

ولما تألفت حكومة الجنرال ديغول المؤقتة في سنة ١٩٤٤ رأت أن تكافئ أهل الجزائر على حسن ضياقتهم للفرنسيين الأحرار فأصدرت في مارس سنة ١٩٤٤ قانونا يمنح الفرنسيين المسلمين في بلاد الجزائر جميع الحقوق التي يتمتع بها الفرنسيون غير المسلمين دون أي مساس بحق تمتعهم بقانون أحوالهم الشخصية إلا الذين يعلنون في صراحة أنهم يريدون أن يخضعوا في أحوالهم الشخصية للقانون الفرنسي . أما الحقوق السياسية فقد تركت الحكومة للجمعية التأسيسية أن تنظر في منح

الوطنيين جميعا حق المواطنين الفرنسيين وان كان عدد منهم لا يزيد على ٣٥٠٠٠ قد استوفى شروطا معينة تخوله التمتع بهذه الحقوق . وقد صدر الدستور الجديد للجمهورية الفرنسية الرابعة في أواخر عام ١٩٤٧ وفيه ماسمى بالاتحاد الفرنسي . ويجمع الاتحاد بين فرنسا والأقاليم الفرنسية فيما وراء البحار والدول المشتركة مع فرنسا ، وقد خول الدستور جميع المواطنين حقوقا متساوية واحتفظ بحق اصدار قوانين خاصة لتحديد شروط استعمال حق المواطن . وليس في احتفاظ المواطن بقانون أحواله الشخصية ما يمنع من التمتع بحقوقه كموطن فرنسي .

ويبدو أن الوطنيين في الجزائر لا ترضيهم سياسة الادماج أو سياسة المشاركة فهم كاخوانهم في تونس ومراكش يريدون أن يكون لهم كيان وطني مستقل يستعيدون به سابق مجدهم أيام خير الدين بربرو سافى غربى البحر المتوسط وفي المحيط الأطلسى وبحر الشمال حين كان رؤساؤهم وقراصنتهم يسيطرون على البحار ويلقون الرعب في قلوب الملاحين من جميع الأمم إلا من افتدى نفسه أو أدى لهم الجزية . وأنهم ليتغنون حتى اليوم بمواقف بطلهم الوطنى الرئيس حميدو في القرن التاسع عشر ويسمرون بقصصه ومفاخره . والوطنيون يعلمون تمام العلم أن سياسة الاستعمار القديمة قد أصبحت بالية بعيدة عن روح العصر وأنها لا تلائم سياسة الوصاية التي جاء بها ميثاق الأمم المتحدة كما أنها لا تلائم مع مظاهر النهضة العربية الحديثة التي ادهشت العالم الغربى وفرضت عليه الاعتراف بقوتها وحقها في الاستقلال والحريه . وشعوب شمال أفريقيا تربطهم بالشعوب العربية وشائج نسب وقربى وتجمعهم لغة وديانة وأديبات ومشاعر واحدة . ويلوح أن الانجاء الاشتراكي الجديد للحكومة الفرنسية الذى أوحى اليها أن تتفق مع السوريين واللبنانيين بعد تشدد وعناد يؤذن بأن فرنسا ستجنب العثرات منذ اليسوم في طريقها الاستعماري . وأمامها المثل ظاهرة للعيان فهناك مجموعها الأمم الحرة البريطانية التي تتمتع باستقلال ذاتي لاشك فيه ، وهناك أملاك الولايات المتحدة المستقلة

استقلالاً ذاتياً في جزر الفلبين وكوبا . وها نحن أولاء نشهد مسلك بريطانيا اتجاه
 الهند وبورما وسيلان . فاذا كانت فرنسا والدول الاستعمارية تصبوحاً إلى التماسك
 فما أجدرها أن تعلم بأن التماسك بين الشعوب لا يقوم على الماديات وحدها ، فهناك
 الترابط المعنوي والأدبي والثقافي الذي يقوم على حسن التفاهم وتبادل الثقة والمنافع
 وهو رباط لا يقل في قيمته عن الرباط المادي ان لم يفقه لان الرباط المعنوي
 يستتبع الرباط المادي ولا عكس . وليس هناك سبيل إلى توثيق هذا الرباط
 المعنوي إلا إذا راجعت الدول الكبرى سياسة الاستعمار وقلبتها من أساسها
 فاعترفت بادية ذى بدء بحق الشعوب التي أخضعها الدول الغربية قهراً وعدواناً
 وعلى كره منها في أن تحيا الحياة التي ترضاها ، وأن تعيش حرة كريمة في نفسها
 وبين أصدقائها .

[Faint bleed-through text from the reverse side of the page, mostly illegible due to fading and ghosting.]

الفصل الثالث عشر

إيطاليا والبحر المتوسط

سخر مسوليني مرة - كما كان يسخر كثيراً من إنجلترا - من قول شاعرها « إن الشرق شرق والغرب غرب ، ولن يلتقيا أبد الدهر » . فقال تعقيماً على كلمة الشاعر الإنجليزي : ما هذا إلا سخف وقول هراء ؛ فقد جمعت روما قديماً بين الشرق والغرب في دولة واحدة وتحت قانون واحد ، وكان البحر المتوسط هو واسطة هذه الوحدة التي استمرت عدة قرون . وقد كان البحر المتوسط خليقاً بأن يظل يربط بين الشرق والغرب لولا الاختراعات العلية والكشوف الجغرافية الحديثة التي أوجدت طرقاً أخرى للملاحة وأنشأت أسواقاً جديدة للتجارة ، فحمل شأن البحر المتوسط وقامت في العالم مدينة غربية جديدة موسومة بطغيان المادة . وكان مسوليني يؤكد أن الحكومة الفاشية كفيلة بأن تبعث في إيطاليا روحاً جديدة تعيد إلى البحر المتوسط أهميته كعامل يربط الشرق والغرب ، تحدياً لبريطانيا وشاعرها .

والحق أن الحكومة الفاشية في إيطاليا ما فتئت تعمل وتشر دعايتها عن البحر المتوسط طوال عهدها ، حتى وقر في النفوس ورسخ في أذهان القوم أن البحر المتوسط مقترن باسم إيطاليا وقوتها ، وأنه جدير بأن يسموه في كتبهم وخطبهم « بحرنا » . ولم يكتف الفاشيون بالاعلان والدعاية المجردة ، بل رسموا سياستهم الخارجية وخططهم الدفاعية على أساس القوة البحرية حتى أصبح للبحر المتوسط منذ العهد الفاشي في إيطاليا كيان سياسي قائم لم تلبث الدول أن خصته بأكبر نصيب من اهتمامها وجعلت له مكاناً هاماً في خططها الحربية والدفاعية . وتمتاز إيطاليا بأنها شبه جزيرة تغمرها المياه من جميع جهاتها تقريباً ، وأن

البحر المتوسط يلامس سواحلها الشمالية والغربية والجنوبية على حين تطل
سواحلها الشرقية على البحر الادرياتي الذي يتصل بالبحر المتوسط بمضيق
أترنتو الذي تبلغ سعته ٤٦ ميلا . ولذلك كانت إيطاليا تقول إن حقها
في البحر المتوسط لا تداينها فيه أية دولة أخرى ، فليس لفرنسا على البحر المتوسط
سوى ساحل صغير في الجنوب . أما إنجلترا فليس لها فيه أية حقوق ثابتة إذا
ما أسقطنا من حسابنا المصالح الاستعمارية التي تدعيها بريطانيا وفرنسا في أجزائه
المختلفة . ومع ذلك فقد ظلت إيطاليا وما زالت إلى اليوم تعتبر نفسها دولة سجيئة
في البحر المتوسط ، وسجانوها هم منافسوها من الانجليز والفرنسيين . فبينما نرى
لإنجلترا وفرنسا منافذ ومسالك تجارية عدة تعبر المحيط الأطلنطي عن غير طريق
البحر المتوسط تستطيع كلتاهما أن تلجأ إليها عند الحاجة ، لا تجد إيطاليا أمامها
منفذاً آخر غير البحر المتوسط إذا بدا لها أن تولى وجهها نحو الشرق أو الغرب ،
ولا مندوحة لها إذا أعوزتها الظروف إلى التماس منفذ آخر عن طرق إحدى
البوابتين اللتين تتحكما في مدخل البحر فيما قناة السويس شرقا وإما جبل طارق
غرباً وكلتاهما تقف على حراسها إنجلترا وفي يدها دون غيرها المفتاح . لذلك
ركزت إيطاليا الفاشية جهودها وسياستها لتحقيق غرض نهائي واحد هو أن تقاتل
من ذلك الحصر أو السجن البحري . ولا تستطيع أن تبلغ ذلك إلا عن طريق التفوق
البحري والتوسع الخارجي .

أما القوة البحرية فان مسوليني لم ين عن تذكير الشعب الإيطالي بماضيه البحري
وتفوق جنوة والبندقية في مياه البحر المتوسط طوال العصور الوسطى وأوائل
العصور الحديثة ، وكان يردد دائماً قوله إن مصير إيطاليا مرتبط منذ القدم بالبحر
وسيظل مرتبطاً به ، ولا يحق لأحد أن يزعم أن إيطاليا مقلدة في ذلك أية دولة
أخرى . وقد شفع القول كدأبه بالعمل . فأقام المصانع السكرى لبناء السفن في
جنوة وتريستا ونابلي ، فلم تمض إلا سنوات قليلة حتى صار لإيطاليا أسطول كبير
به من الغواصات الصالحة للعمل في البحر المتوسط وفي المحيطات ما يزيد عدده على

المائة ، فضلا عن البوارج والمدمرات وسفن الطوربيد والقوارب المسلحة إلى السفن الحربية الصغيرة التي تلائم حاجة الملاحة والهجوم في البحر المتوسط والتي زادت إيطاليا إنتاجها إلى درجة فاقت كل تقدير .

وقد حاول مسوليني أن يجرب حظّه في البحر قبل أن يكتمل استعدادّه ، فأمر باحتلال جزيرة كورفو من جزر الأيونيان التابعة لليونان ، ولسكن الدول اضطرتّه إلى التراجع . فقد حدث أن اعتدى اليونانيون في أغسطس ١٩٢٣ على الرئيس الايطالى للجنة الدولية التي كانت تعين الحدود بين اليونان وألبانيا فاغتالوه ومن معه من الطليان ، ولما تباطأت اليونان في الاعتذار ودفع الغرامة التي طلبها مسوليني وحدد لها أجلا ، أمر فتحرك الأسطول الايطالى واحتل جزيرة كورفو بالقوة فلبأت اليونان إلى عصبة الأمم فتدخل مجلس العصبة في الأمر وفرض على اليونان أن تدفع التعويض الذي طلبته إيطاليا وقدره ٥٠ مليون ليرة إيطالية ، فقبحت اليونان التحكيم وسحبت إيطاليا قواتها من كورفو بعد أن تعلم مسوليني الدرس الأول وهو أن إيطاليا بمفردها لا تستطيع أن تتحدى الدول مجتمعة مالم تنهض بقواتها إلى مستوى يفوق مستوى فرنسا ويدانى مستوى إنجلترا منافستها في البحر المتوسط .

وعلى ذلك اضطلعت الحكومة الفاشية بحركة الإصلاحات الشاملة التي تناولت جميع المرافق في إيطاليا ، وفي مقدمتها تقوية أساطح البر والبحر والجو ، حتى إذا اكتملت معدات الهجوم أو كادت لاحت أمام مسوليني أهدافه الكبرى قريبة المنال ، ليفلت من البحر المتوسط ويتوسع ماشاءت له أطاعه بالسطو على البلاد المستقلة الوحيدة التي تركها الاستعمار الأوربي دون أن يحتجزها لإحدى الدول وهي بلاد الحبشة ، حتى إذا ماتم له الاستيلاء عليها أصبحت إيطاليا بمنأى عن خنادق البحر المتوسط من جهة وعلى مقربة من بوابة المحيط الهندي وأرض اليمن الدولة الصديقة لإيطاليا من جهة أخرى . وقدّر مسوليني في نفسه أن بريطانيا ومن ورائها عصبة الأمم ستقف لإيطاليا بالمرصاد وتعمل جاهدة على إحباط

المشروع الإيطالي ، ولكنه أمعن في درس موضوعه واستجلاء العوامل الدولية والسياسية التي تحيط به مآثر منها وما بطن ، فأدى به الدرس والتحليل إلى أن القوات التي تتسلح بها الدول في الميادين المختلفة لا يقتصر قياسها وتقدير قيمها على حسب عددها وأنواعها ومدى مفعولها ، بل لا بد إلى ذلك من حساب عامل معنوي آخر على درجة عظيمة من الخطورة وهو مقدار استعداد الدولة صاحبة الشأن لا استخدام تلك القوات ومبلغ قوة إرادة الشعب الذي تستند إليه الحكومات في ذلك الشأن . وقد هداه النظر في هذه الاعتبارات إلى أن قوات إنجلترا سواء في البحر أو الجو أو البر ليس لها خطر ولا ينبغي أن تدخل في حسابها مادامت الحكومة الإنجليزية إذ ذاك تبذل غاية جهدها لتفادي الحرب ، وما دام الشعب الإنجليزي على اختلاف طبقاته يمتثل للحرب ويؤمن بميثاق العصبة ونظرية السلام العام .

وعلى هذا الأساس رمى مسوليني بسهمه وهو واثق من إصابة الهدف ، فتحدى بريطانيا ومعها العصبة ، واعتدت قواته على استقلال الحبشة ووطئت أرضها جيوش إيطاليا بمعداتها وطائراتها وغازاتها السامة مخترقة قناة السويس التي كانت تسيطر عليها بريطانيا ، وتم ذلك كله تحت سمع عصبة الأمم وبصرها . ومع إجماع بريطانيا وسائر دول العصبة على توقيع العقوبات الاقتصادية على إيطاليا فلم تقف إلى جانبها من بين الدول المشتركة في العصبة إلا ألبانيا والنمسا والمجر وإلا ألمانيا التي كانت خارجة على العصبة منذ سنة ١٩٣٣ فان إيطاليا لم تتعثر في طريقها أو تردد في مواصلة عدوانها معتمدة على الحالة النفسية التي ذكرناها وعلى ما بدا من خلاف في الرأي بين إنجلترا وفرنسا عقب زيارة الوزير الفرنسي لافال لمسوليني في روما سنة ١٩٣٥ . وكان تنفيذ العقوبات الاقتصادية على إيطاليا من أقوى العوامل التي استغلها مسوليني في إثارة حماسة الشعب الإيطالي ضد الدول ، وفي تقوية عزمه على المضي في تنفيذ خطته الحربية مهما كلفه ذلك من تضحية وحرمان .

وعلى ذلك بدأت الحرب بين إيطاليا والحبشة في أكتوبر سنة ١٩٣٥ ولم تستطع الحبشة أن تقاوم طويلاً أمام جحافل إيطاليا ووسائلها الحربية الحديثة المشروعة فيها وغير المشروعة ، فتم لإيطاليا النصر بعد ستة أشهر وأعلن مسوليني ضم إثيوبيا إلى التاج الإيطالي ، وأعلن ملك إيطاليا نفسه إمبراطوراً عليها . ولم يسع الدول بعد ذلك سوى تخفيف عرق الخجل ومواجهة الأمر الواقع فاعترفت واحدة تلو الأخرى بالامبراطورية الجديدة التي أنشأتها إيطاليا في شرق أفريقيا والتي وقفت فيها على قرب المحيط الهندي تهدد النفوذ الفرنسي في جيوبتي في الصومال الفرنسي من جهة وتهدد بريطانيا في السودان المصري من جهة أخرى .

وما كاد مسوليني يخرج ظافراً من حلبة النزاع الإيطالي الحبشي حتى اندلعت شرارة الحرب الأهلية في أسبانيا بين الوطنيين يرأسهم الجنرال فرنكو والجمهوريين الشيوعيين تناصرهم روسيا وفرنسا وقات من المتطوعين الانجليز وغيرهم . فرأى مسوليني في محنة أسبانيا فرصة يغتنمها فيقف عند بوابة جبل طارق حائلاً دون نفعها بالاستيلاء على إحدى جزر البليار ، وبذلك تقف إيطاليا حجر عثرة في طريق مواصلات إنجلترا في البحر المتوسط من جهة وتهدد الخط الحيوي الذي يربط فرنسا بمستعمراتها في شمال أفريقيا من جهة أخرى . فضلاً عما تفيدته إيطاليا إذا انتصر الوطنيون الأسبان من كبح جماح الشيوعية في غرب أوروبا وتثبيت نفوذها في داخل أسبانيا .

وكانت ألمانيا في سبيل مناهضة الشيوعية قد عقدت مع اليابان في سنة ١٩٣٨ ميثاق مناهضة الشيوعية الدولية المعروف بالانتيكومترن Anticomintern Pact والحد من نشاطها فرحبت بالتدخل في أسبانيا إلى جانب الوطنيين ؛ وكانت هي أيضاً تضرر الاستفادة مما تستغله من المعادن في شمال أسبانيا وبتحصين ميناء سبته المواجه لجبل طارق في بلاد المغرب الأسبانية . وبذلك استحالت الحرب الأهلية في أسبانيا إلى ميدان دولي تختبر فيه الدول والحكومات المتنازعة مخترعاتها وأسلحتها وتهيء فيه لقواتها الفرص للمرانة والتدريب .

وفي الوقت الذي كانت الدول تقرر فيه رسمياً عدم التدخل في الحرب الأهلية
أثبت الشعوب والحكومات توالى إرسال المتطوعين والمساعدات إلى الفريقين
المتحاربين . وقد بلغ ما أرسلته إيطاليا من المتطوعين في جيش فرنكو نحو
١٠٠٠٠٠٠ جندي، واختصت ألمانيا بإرسال الطائرات والدبابات والمدافع والخبراء
الفنيين في مختلف فنون الحرب وصناعاتها ، على حين أنشأت فرنسا فرقة دولية
للمتطوعين لمساعدة الجمهوريين ، وسمحت لهم الحكومة باختراق الحدود إلى
أسبانيا ، وكانت حكومة السوفيت تزودهم بالطائرات والمعدات . ولسكن إيطاليا
وألمانيا كاتنا أسرع وأكرم في معاونة فرنكو ؛ ولذلك تفوقت قواته
فسقطت برشلونة ثم مدريد بعد حصار دام سنتين ونصف سنة ، وانتهت الحرب
في أبريل سنة ١٩٣٩ وقد أيقنت كل من إيطاليا وألمانيا بتفوق معداتها على
معدات فرنسا وروسيا .

ولسكن سياسة عدم التدخل والاحتفاظ بالحالة الحاضرة التي أقرتها الدول
رسمياً قد حرمت إيطاليا تحقيق مآربها في احتلال إحدى جزر البليار . ووجد
مسوليني نفسه مضطراً في مقابل اعتراف انجلترا بالامبراطورية الايطالية في
الحبشة إلى تحسين علاقاته مؤقتاً مع انجلترا ، فتافهما ووقعا اتفاقاً الجنتلمان ،
أو اتفاق الرجل الشريف في سنة ١٩٣٨ واعترفت فيه الدولتان بأهمية
البحر المتوسط لكل منهما ، وتعهدتا بأن تحترم كل منهما مصالح الأخرى مع
إقرار بقاء الحالة الحاضرة فيه دون تغيير . ولسكن اتفاق « الجنتلمان » لم يقد
كثيراً ؛ فما لبثت العلاقات بين بريطانيا وإيطاليا أن توترت على أثر مقاطعة إيطاليا
لحفلة تتويج الملك جورج السادس ومعاودتها حملة الطعن والتشهير على انجلترا من
محطات الاذاعة الايطالية ، وخاصة محطة باري التي كانت تذيع باللغة العربية ، ثم
لم تلبث نيات إيطاليا أن ظهرت فيما بدا من الصلة بين هتلر ومسوليني ؛ فقد زار
هتلر روما في مايو سنة ١٩٣٨ ورد مسوليني له الزيارة في أغسطس من تلك السنة .

ويظهر أن مسوليني قد اعاد إلى ذهنه تجربة سنة ١٩١٥ حين قررت إيطاليا

إهمال المحالفة الثلاثية التي كانت تربطها بألمانيا والنمسا والانضمام إلى صفوف الحلفاء ، فوازن في دخيلة نفسه بين ما تكسبه إيطاليا من انحيازها لهتلر وبين ما تستطيع أن تصيبه من جانب الحلفاء ، فأثر في النهاية أن ينضم إلى ألمانيا إذ كانت إيطاليا تهدف بعد فتح الحبشة إلى ضم تونس وجزيرة قورسقه ونيس في جنوب فرنسا ، والحصول على مقعد لها في مجلس إدارة شركة قناة السويس بعد أن أصبحت مصالح الأمبراطورية الجديدة مرتبطة إلى درجة عظيمة بمصير القناة . ولما كان تحقيق هذه الاهداف يتعارض تعارضاً تاماً مع مصالح بريطانيا وفرنسا في البحر المتوسط فقد رجحت في نظر مسوليني كفة محور روما - برلين لا سيما أنه كان لا يزال ينقم على انجلترا والعصبة توقيع العقوبات الاقتصادية على إيطاليا ، ويتحرق لهفة للانتقام وانهاز أول فرصة تسنح للقضاء على أعدائه أو اعداء نظامه الفاشي . وما كان مسوليني لينقاد بسهولة إلى شهوة الانتقام لو لم تقنعه الحقائق الواضحة لكل ذي عينين بأنه أمام فرصة يحسن اغتنامها ، فقد كان يعارض بشدة في ضم النمسا إلى ألمانيا ، ولكنه حين زار برلين في خريف سنة ١٩٣٨ راعه مارآه من هول الأداة الحربية الألمانية وما عرفه عن قوة استعداد ألمانيا إلى درجة تقرب من حد الإعجاز البشري ، فافتنع اقتناعاً ملك عليه عقله وإحساسه ومنطقه بأن ألمانيا هي حقاً فوق الجميع وأنها لا يمكن أن تقهر بأية حال . ومن ثم قبل على مضض اندماج النمسا في ألمانيا ، وفوق السهم للمرة الثانية إلى هدف جديد ، فانضم إلى جانب ألمانيا وسارها في مناهضة الشيوعية الدولية وفي النشرع ضد اليهود ، ثم فيما هو أهم من ذلك كله وهو الخروج من عصبة الأمم وعقد المحالفة الدفاعية الهجومية مع ألمانيا في سنة ١٩٣٩ . وكانت أول ثمرة للمحالفة الجديدة أن سطت إيطاليا على ألبانيا في يوم الجمعة الحزينة لعام ١٩٣٩ وشردت ملسكها ومليكتها النفساء وضمّت البلاد إلى التاج الإيطالي ، وكانت ألبانيا هي المجاز الذي قررت إيطاليا متى اندلعت شرارة الحرب أن تثب منه على عدوتها يوغوسلافيا واليونان . ومع أن مسوليني قد التزم الحيدة

في بدء نشوب الحرب لهول الصدمة التي تلقاها باعلان التحالف بين ألمانيا وروسيا ، فإنه لم يلبث أن انساق لتنفيذ الخطة الموضوعية . وقد خاب فأله في هذه المرة وجافاه التوفيق ، إذ تنكر لمبدأ إرادة الشعب في الحرب وهو المبدأ نفسه الذي استند إليه مسوليني نفسه في أثناء الأزمات الحبشية فأفلح . فقد كانت كثرة الشعب الايطالى في هذه الفترة تسكره أن تنساق وراء ألمانيا في حروبها ، وتود لو أن ايطاليا لزمته الحيدة وحافظت على موقفها من الحلفاء مادامت بأيديهم مسالك البحار والمحيطات حتى لا تتعرض ايطاليا لخطر الجوع والحرمان . ولكن مسوليني أغمض عينيه وأصم أذنيه وكأتماعيت بصيرته وغفل عن كل ما يراه ويسمعه وما قد تجره الحرب على بلاده من ويلات ، واغتر بثقة الشعب به وإيمانه بأنه الزعيم الذى لا يمكن أن يخطئ . فجرفه تيار الحرب وربط مصير بلاده بجملة آلهة الحرب الألمانية ، وانهز فرصة انهيار فرنسا أمام ألمانيا في يونيه سنة ١٩٤٠ فهاجها من الحلف . وبدأت منذ ذلك الوقت محنة ايطاليا وارتفع الستار عن مأساتها الأخيرة .

لقد خان زعيم ايطاليا أمانة السلم والأمن التي كانت في عنقه لبلاده ، فغامر بمستقبل الأمة التي عبدهه والتي أفتى أكثر من ربع قرن في تجديدها وتنشيتها خلقاً جديداً ؛ إذ أكرهها على دخول الحرب إلى جانب الشعب الذى كان الايطاليون يخشونه ويرهبونه ويضمرون له في قرارة أنفسهم إلى ذلك مقتاً شديداً . ولذلك لم يكن غريباً أن تنابح السكوارث الحربية على ايطاليا ، فمن تقهقر أمام اليونان في البلقان إلى ضياع الامبراطورية الايطالية في أنيوييا وشرق إفريقيا ثم إلى ارتداد وخذلان وفرار من ليبيا والجهة الشرقية في شمال إفريقيا .

وقد حاول الألمان في أول الأمر إصلاح حال حليفهم ، فلما استعصى العلاج ونفذ الصبر وضع الألمان أيديهم على أداة الحرب في ايطاليا ؛ ولم تمض إلا ثلاث سنوات على دخول ايطاليا الحرب حتى فقدت البلاد تماسكها وتحكم الأجنبي في مصايرها . ثم جاءت الساعة الحاسمة ؛ فساكاد الحلفاء يعبرون البحر المتوسط من

تونس إلى جزيرة بنتالاريا وصقلية حتى زالت الغشاوة التي كانت ترين على أبصار الشعب الايطالى فى السنين الأخيرة . فبدلاً من أن يستميت فى المقاومة كما نصح مسولينى ، مد الطليان أذرعهم لاستقبال مخلصهم من طغيان الفاشيين ومن النظام الألمانى الصارم ، ووضع للملك ولأعوان مسولينى وللناس جميعاً أن مسولينى قد خسر الموقعة الأخيرة ، فاجتمع المجلس الأعلى للفاشية وقرر فى ٢٤ يولييه ١٩٤٣ بأكثرية تسعة أصوات ضد سبعة أن يتولى الملك قيادة القوات الايطالية ، وكان معنى ذلك إبعاد مسولينى ، وعين الملك المارشال بادوليو Badoglio رئيساً للهيئة التنفيذية فحل الحزب الفاشى وقبض على مسولينى وأبعد الفاشيين من إدارات الحكومة ، وبدأ يفاوض الحلفاء على شروط الهدنة فتقررت فى سبتمبر سنة ١٩٤٣ وانضم الطليان إلى جانب الحلفاء ، ثم أخذ الحلفاء يزحفون ببطء داخل إيطاليا حتى استطاعوا دخول روما فى يولييه سنة ١٩٤٤ .

وكان الألمان قد خطفوا مسولينى من معتقله بالطائرة فلما ارتد الألمان أمام زحف الحلفاء الأخير فى الشرق والغرب والجنوب حاول مسولينى الهرب إلى سويسرا ، ولكن مواطنيه الطليان باغتهوه وقبضوا عليه وقتلوه فى ٢٨ أبريل سنة ١٩٤٥ ومثلوا به شر مثله . وفى أوائل مايو استسلم القواد الألمان ، فانتهت بذلك الحرب فى ميادين أوروبا . وخرجت إيطاليا من الحرب ذليلة مهينة الجناح منكسة الرأس يلطخ العار جبينها ويغض أبصارها ، لالانكسارها الحربى فحسب فقد سبق أن أنهزم الطليان أمام الأحباش هزيمة منكرة فى موقعة عدوه كما أذاقهم العرب والترك من قبل فى طرابلس وبرقة طعم الهزيمة فى مواقع عدة ، ولكنهم لم يجازفوا فى مرة من تلك المرات أو يقامروا باسم بلادهم وشرف زعماتهم كما فعلوا فى هذه المرة . فقد أذعنوا أو سلخوا قيادهم لمسولينى وكان قويا بهم مع أنهم كانوا يعلمون علم اليقين أنه على خطأ فيما جرهم إليه ، وأن دخول إيطاليا الحرب وهى لا تزال مكشوفة من حرب الحبشة سينتهى بها حتماً إلى الهاوية . ثم لم تسكد الهزيمة تسكشر عن أنيابها ويتخرج مركز الزعيم المعبود حتى انقلبوا عليه وأزلوه من

حالت فهورى إلى مو اطمىء النعال، فداسوه وداسوا معه المبادئ التى طالما آمنوا بها ودعوا إليها . وكانما كان معبود إيطاليا العتيد تمثالا من طين عبوده فترة من الزمن وأحرقوا من حوله البخور ودقوا له الطبول ، ثم ما لبثوا أن كفروا به فهشموه حتى أحالوه تراباً .

على أن إيطاليا التى جالدت خطوب الزمن وصارعت أحداه آلاف السنين لم تفقد يوماً حيويتها ولم تعدم وسيلة لتلائم بين ظروفها وحاجاتها . فساكاد الحلفاء يسلمون زمام الأمور فى البلاد للهيئة الحاكمة الجديدة حتى بدأ الايطاليون يعوضون ما خسروه فى الحرب من إنتاج وأسواق فأقاموا كثيراً من مصانعهم ، واستعاضوا عن الوقود الذى قل فى أوربا جميعها والذى فقدته إيطاليا بعد ضياع شبه جزيرة استريا باستخدام السكر بقاء من مساقط الماء وخاصة فى القسم الشمالى حيث جبال الالب والأنهار السريعة الجريان . وقد أبقت الحرب على كثير من محطات القوى المائية التى أقيمت بكثرة فى العهد الفاشى فلم ينلها عطب يذكر . واغتنتم إيطاليا فرصة خروج ألمانيا واليابان من ميدان التنافس التجارى فهضمت بإنتاجها الصناعى والزراعى ، واستبدلت بمنتجاتها الخساعات من بريطانيا وأمريكا ومصر والهند ، ولم يبق مغلقاً أمامها إلا أسواق شرق أوربا ؛ فاذا سويت مسألة التعويضات بينها وبين روسيا انفتحت لها أسواق روسيا والبلقان، واستطاعت إيطاليا أن تسترد كثيراً مما فقدته بسبب الحرب . وإذا كانت مالية البلاد قد تضعضعت إلى حد الافلاس -- إذ بلغ العجز بين الإيراد والمنصرف فى سنة ١٩٤٥ أكثر من ١١٥ ألف مليون ليرة كما بلغ الدين الوطنى ٨٥٠ ألف مليون ليرة عدا القروض الأجنبية -- فان القرارات الأخيرة بشأن تخفيض قوات إيطاليا المسلحة إلى أدنى حد ممكن سيكون من شأنها أن ترفع عن كاهل البلاد جانباً ثقيلاً من التبعات المالية التى كانت ترهق ميزانية البلاد قبل الحرب الأخيرة ، كما سيكون لإبعاد إيطاليا عن مستعمراتها أحسن الأثر فى تركيز ثروة البلاد وإعفائها من تحمل تبعات الدفاع عنها واستتباب النظام فيها، هذا إلى أن الايطاليين الذين يرغبون عادة فى الهجرة من بلادهم قوم فقراء تعوزهم رموس الأموال اللازمة للتشجير والتعمير ، وقد دلت

التجربة القاسية في ليبيا والحبشة على قلة استعداد الطليان لحكم المستعمرات على رغم حسن قابليتهم للاندماج مع الأهالي والعيش على الكفاف .
وإذ كانت إيطاليا أول دول المحور استسلاماً وطلباً للصلح والانضمام إلى جانب الحلفاء ، جاءت قرارات الصلح الذي أبرم في مارس سنة ١٩٤٧ مع حكومة إيطاليا الجمهورية الجديدة أخف وقعاً مما كان ينتظر . وتنحصر التعديلات والتغييرات الإقليمية التي اقتضاها الصلح في تصحيح فرنسا لحدودها الشرقية بإضافة بعض مساحات صغيرة إليها من الأراضي الإيطالية ؛ وقد أصرت فرنسا على ضرورة ذلك عقاباً لإيطاليا على هجومها المفاجيء في يونية سنة ١٩٤٠ ومع ذلك فقد اشترط الحلفاء على فرنسا أن تحترم مصالح الإيطاليين في تلك المناطق ، وأن تحتفظ للطليان بمحطات القوى التي أنشئت بها . وأما جزر الدوديكانيز فقد كانت حجة إيطاليا في الاستمسك بها بالغة منتهى الضعف ؛ إذ كانت تلك الجزر تابعة في الأصل لتركيا ، وهي من حيث الجنس واللغة والدين والتقاليد تنتسب إلى اليونان ، وقد تسلمتها اليونان فعلاً في مارس الماضي . وأما مستعمراتها في إفريقيا فقد أرجى تقرير مصيرها عاماً منذ تاريخ إقرار الصلح مع إيطاليا حتى تستطيع اللجنة التي ألفها الحلفاء أن تدرس الحالة وتقدم مقترحاتها . ولا يزال النزاع بشأنها شديداً بين حكومة اتحاد السوفيت من جهة والحكومات الديمقراطية من جهة أخرى . ويكاد أمل إيطاليا في استرداد شيء منها يكون في حكم المستحيل بعد الذي عاناه أهالي المستعمرات من الحكم الفاشي قبل الحرب الأخيرة .

بقيت مشكلة تريستا ومنطقة فينيزيا جوليا وشبه جزيرة أستريا Istria وهي الحاجز الذي يفصل بين شرقي أوروبا وغربها والذي تصطدم فيه مصالح يوغسلافيا بمصالح إيطاليا . وقد كانت هذه المنطقة منذ الحرب العالمية الأولى مصدر نزاع بين الدولتين ، وقد أصرت يوغسلافيا بعد الحرب العالمية الثانية على استرداد تلك المنطقة من إيطاليا ، ووجدت من جانب حكومة السوفيت سنداً لها ، فضمت معظم المنطقة ما عدا تريستا التي احتلها الحلفاء ولا يزالون بها حتى الآن ، وقد دعا

هذا إلى تخرج الموقف بين حكومات الغرب والشرق . وليس خافياً أن الموقف في البحر الأدرياتي لا يمتثل وجود دولة كبيرة كإيطاليا إلى جانب دولة متوسطة كيوغسلافيا ، وأن كتلة الدول الشرقية حريصة على تكبير شأن يوغسلافيا وصبغ المنطقة جميعها باللون الأحمر . وبما أن إيطاليا بحكم تقاليدها وميولها قد اتجهت بسياستها نحو الدول الغربية فقد اشتد النزاع بين الجانبين بشأن تريستا وتقرر في النهاية أن تكون منطقة دولية محايدة تخضع لمصالح أوروبا الوسطى جميعاً . أما يوغسلافيا فقد وضعت يدها على جزر البحر الأدرياتي وعلى ميناء فيومي وبولا ومنطقة فينيزيا جوليا ، ولم يعد لإيطاليا في البحر الأدرياتي سوى البندقية ثغرها القديم وفيه ستركز إيطاليا الجديدة نشاطها البحري والتجاري في البحر الأدرياتي .

وبذلك تكون إيطاليا قد قصت أجنحتها البحرية في البحر المتوسط والبحر الأحمر ؛ إذ خسرت مستعمراتها في ليبيا وأرتريه والصومال والحبشة ، وضاعت عليها جهود ساستها في مدى خمسين عاماً أو أكثر ، كما فقدت قواعدها في جزر الدوديكانيز وفي البحر الأدرياتي . وتقضى معاهدة الصلح أن تهدم تحصيناتها في جزيرة سرديانية وبتبالاريا وغيرها من الجزر الصغيرة التي كانت في موقعها من وسط البحر المتوسط تهدد القواعد الانجليزية والفرنسية وتعلن عن قوة إيطاليا في البحر الذي كانت تدعوه بحرهما .

ولكن إذا كانت إيطاليا قد تركت - إلى حين - سياسة البحر المتوسط فان هذا البحر لن يتركها ، وسيظل من أهم العوامل الطبيعية التي تؤثر في بعثها ونهضتها ، وهامى ذى الآن وهي لم تزل في محنتها تحرص على إحياء صناعة السفن من جديد فتشيدها وتجريها لمنفعة غيرها . وتحاول حكومة الجمهورية الجديدة بكل قواها أن تعيد إيطاليا إلى مكانتها الدولية ، فأخذت تتبادل الممثلين السياسيين مع سائر الدول وتطلب الاشتراك في هيئة الأمم المتحدة ، ونجحت في الانضمام إلى مشروع مارشال والحلف الأطانطي وتريد أكثر من ذلك أن تنهض من كبوتها فتستأنف العمل على بسط نفوذها التجاري والديني والثقافي في

الفصل الرابع عشر

الحركة الوطنية في ليبيا

لما اشتدت الأزمة السياسية في إيطاليا وأثيوبيا في سنة ١٩٣٥ ، عرض أحد مندوبي الصحف الأمريكية على مسوليني حلاً يقترح فيه اقتطاع جزء صحراوي من أثيوبيا لإيطاليا لعله بذلك ينصرف عن نية إعلان الحرب التي كان يبيتها حينذاك ضد الأحباش . فرمق مسوليني محدثه بنظرة حادة كلها سخيرية وزارية وأجابه قائلاً : « ومن قال لك اني من هواة جمع الصحارى في العالم ؟ ، يشير بذلك إلى أنه يكفي إيطاليا أن تكون لها ليبيا وهو الاسم الذي أطلقه الطليان أخيراً على إقليمى برقة وطرابلس جميعاً .

والحقيقة أن هذه البلاد ما هي إلا جزء من الصحراء الكبرى المشهورة التي تمتد في شمال أفريقية من النيل شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً ، ومن ساحل البحر الأبيض المتوسط شمالاً إلى نهر النيجر جنوباً . ولشدة طغيان الصحراء في هذه البلاد اقتصر العمران فيها على طائفة من المدن الساحلية الصغيرة القليلة العدد والسكان مما دعا القدماء إلى أن يطلقوا عليها اسم « تريبوليس » أو طرابلس ومعناها المدن الثلاث . ولما كانت الزراعة في هذه البلاد مقصورة على بعض الواحات وأجزاء من السهول الساحلية التي تجود عليها الرياح الغربية أحياناً بفيض من أمطارها في فصل الشتاء ، فقد انصرف معظم الأهالي إلى الرعي وتربية الماشية ، ولكن عدداً كبيراً من سكان هذه البلاد وما جاورها من شمالي أفريقية قد برموا بحياة الفاقة والشدة والاحمال التي تفرضها عليهم طبيعة بلادهم الصحراوية ، فانصرفوا عن الصحراء وولوا وجوههم نحو البحر مجاهدين في سبيل الله لعلمهم واجدون فيه وعلى سواحله فيثا ورزقاً طيباً ، وما لبثوا أن انتظموا في سلك

قراصنة البحر وقطاعه من جبابرة الملاحين الأتراك والروم من أهل جزر بحر
إيجيه الذين اعتنقوا الإسلام واتخذوا البحر المتوسط مهاداً ومعاشاً ، وسعوا في
مناكبه بالبطش والجبروت ، فكانوا يفرضون سلطانهم على السفن التي تمخر عبابه
ويقررون على أصحابها من الأوربيين الجزية والضرائب والعطايا يدفعونها
صاغرين ، وإلا سلبت تجارتهم وأسر مواطنوهم ويبيع الرقيق ودمرت سفنهم
تدميراً . وقد ظل سلطان قراصنة البحر قائماً في شمال افريقية منذ القرن السادس
عشر ، وبلغ أشده وعنفوانه في القرنين السابع عشر والثامن عشر . ثم أخذ
يتناقص شيئاً بعد شيء حتى احتلت فرنسا بلاد الجزائر في سنة ١٨٣٠ ومن ثم بدأ
أثر القرصنة يزول في تلك الأرجاء .

كان طورغود القائد البحري التركي أول من أقام للقرصنة دولة في طرابلس
في منتصف القرن السادس عشر ؛ فقد خلص البلاد من حكم الفرسان الصليبيين
سنة ١٥٥٣ وأتبعها الدولة العثمانية ، وجعل يبني السفن ويسلحها ويحصن القلاع
والمرافئ حتى شيد لطرابلس أسطولا بحرياً من سفن القرصنة أنزل به الرعب في
قلوب الملاحين والتجار من شعوب أوروبا . وقد أصبحت التبعية التركية بعد
طورغود اسمية وآل أمر حكومة البلاد إلى أيدي رؤساء الجنود من الانكشارية
الذين جاءوا مع طورغود وأثروا من الأسلاب والغنائم التي كانوا يستولون عليها .
وظل زعماء الانكشارية هؤلاء يتنافسون ويقتتلون في سبيل الحكم حتى تسلم
كبيرهم أحمد القرمنلي حكومة البلاد فجعلها وراثية في أسرته منذ سنة ١٧١٤ معتمداً
في موارده على ما تصيبه الحكومة من أموال الغنائم وما كانت تدفعه بعض
الحكومات من الرسوم والعطايا لتأمين تجارتها وسفنها التي كانت تمر في شرقي
البحر المتوسط ، فكانت حيناً تتفق مع حكام طرابلس - أو الدايات كما كانوا
يعرفون - في معاهدات تعقدها معهم رأساً دون حاجة إلى الرجوع إلى
القسطنطينية ، وأحياناً ينشب النزاع بين هؤلاء الحكام والحكومات الأجنبية ،
ويشتد التشاحن حتى يصل إلى لون من ألوان الحرب . وقد سيرت الولايات

المتحدة ذات حين طائفة من بحارتها لاحتلال ميناء درنة في أوائل القرن التاسع عشر ، وحاصروا طرابلس وضربوها بالمدافع ، وفقد الأمريكان حينذاك إحدى سفنهم الحربية ، وأسر بحارتها . ولما لم يطق الأمريكيون صبراً على الإقامة في درنة آثروا أن يتفوقوا مع الحاكم بعد أن افتدوا أسراهم بمبلغ عظيم من المال . وهكذا كانوا كلما اشتط الحاكم معهم في تقدير الضريبة التي يدفعونها أرسلوا إليه سفناً من أسطولهم ترغمه على قبول مطالبهم .

وقد امتد سلطان أسرة القرمنلي على الساحل من غربي ميناء طرابلس إلى بنغازي ، وكانت الحكومة العثمانية تحتفظ بها كاحدى قواعدها في البحر المتوسط . أما القبائل التي كانت تقيم في داخل البلاد فلم تتأثر كثيراً بنظام الحكم وظلت مشغولة بمنازعاتها الداخلية فيما بينها على ما عرف عنها إلى الآن . وقد طبعت القراصنة أخلاق أهل البلاد بصفات المخاطرة والجلاد والسكفاح مع الأعداء والمنافسين أياً كانوا ومهما نالت منهم الخطوب والأحداث .

ولما ضعف سلطان تركيا في أواخر القرن الثامن عشر ، وتعاقبت انهزاماتها أمام روسيا وأمام ولايتها في البلقان وفي الشرق ، طمعت الدول الأوروبية في ضم أجزاء من الامبراطورية العثمانية إلى أملاكها ، فكانت حملة بونابرت على مصر ، وأعقبها بعد عشرين عاماً ثورة الأغر يق ، ثم تجاسرت فرنسا وأرسلت حملتها لاحتلال بلاد الجزائر في سنة ١٨٣٠ . فكانت هذه الأحداث جميعاً سبباً في كسر شوكة القراصنة في شرقي البحر المتوسط وإضعاف دايات طرابلس ، كما كانت عاملاً قوياً في تنبيه الباب العالي إلى ضرورة التيقظ للاحتفاظ بالبقية الباقية من نفوذ تركيا في شمالي أفريقية .

لذلك انتهز السلطان محمود الثاني فرصة تفاقم النزاع في طرابلس بين المطالبين بالحكم من أسرة القرمنلي فأرسل في سنة ١٨٣٥ قوة بحرية مكونة من ٢٢ سفينة وعليها وال من قبله لتسلم الحكم في ولاية طرابلس الغرب ، وقد عرفت بالغرب لتمييزها عن طرابلس الشام وأصبحت تركيا منذ ذلك الوقت تحكم البلاد رأساً . وكانما أحست

بأن هناك دولا أوربية ترنو ببصرها نحو طرابلس وتطمع في السطو عليها ، فجعلت تستميل الأهالي إليها بإنشاء المدارس ، وإصلاح شؤون القبائل والادارة ، وتعيين بعض أهل البلاد في وظائف الحكومة ، وأخذت تقوى الثغور والحصون وتسليحها ؛ حتى إذا أعلنت فرنسا حمايتها على تونس في سنة ١٨٨١ ، واحتل الانجليز مصر في سنة ١٨٨٢ لم يبق شك في أن إيطاليا تعد عدتها للانقضاض على طرابلس لتحرز نصيبها من الغنيمة وهي البلاد التي بقيت في شمالي افريقية بل في افريقية كلها عدا الحبشة غير خاضعة لسultan إحدى دول أوروبا .

وكان بسمرك المستشار الألماني قد ارتضى أن ينصرف اهتمام فرنسا وتفكيرها عن الازراس واللورين إلى شمالي افريقية ليوقع الشقاق بينها وبين إنجلترا من جهة وبينها وبين إيطاليا التي كانت لها مطامع في تونس من جهة أخرى . وأرادت فرنسا بدورها أن تشتري سكوت إيطاليا فاتفقت معها سرا على أن تكون لها طرابلس مقابل عدم اعتراضها على مشروعات فرنسا في مراکش .

وعلى ذلك باتت إيطاليا تترقب الفرصة المناسبة للنزول بأرض طرابلس ، وقد سنحت لها الفرصة في سنة ١٩١١ وكانت تركيا إذ ذاك قد دخلت في طور جديد من حياتها الدستورية والسياسية على أثر ثورة جمعية الاتحاد والترقي في سنة ١٩٠٨ وإقصاء السلطان عبد الحميد عن عرشه ، وإثارة الشعور الإسلامي في العالم أجمع حول الخلافة العثمانية ضد أوروبا . وكان وليم الثاني إمبراطور ألمانيا إذ ذاك يشجع حكومة تركيا بالمال والرجال ؛ ويعاونها على تنفيذ المشروعات الاقتصادية الكبرى وفي مقدمتها مشروع السكة الحديدية من برلين إلى بغداد ، ومد فرع منها إلى الحجاز . فخشيت إيطاليا لو انتظرت أكثر من ذلك أن يقوى مركز تركيا في طرابلس على الأيام بمساعدة ألمانيا ، ويستعصى عليها بعد ذلك إخضاع البلاد التي سمحت الأقدار بأن تكون نصيبها من التركة . لذلك سارعت إيطاليا في سبتمبر سنة ١٩١١ برسالة إنذار نهائي إلى تركيا بشأن طرابلس ، وأعلنت الحرب بعد ٢٤ ساعة من تسلم الإنذار .

ولم يجد الأسطول الإيطالي صعوبة تذكر في إخضاع المدن الساحلية :
طرابلس وبنغازي ودرنة ، ولكن القوات الإيطالية لم تجرؤ على التوغل في
الداخل على حين قد تسرب الضباط الأتراك بين القبائل ووجدوا صفوف
الأهالي وقادوهم ضد الطليان كلما لاحت لهم فرصة للهجوم . وقد حاولت
إيطاليا في أول الأمر أن تضغط على الأتراك فتهاجم أسطولهم البحري في شرقي
البحر المتوسط ، وتحترق المضائق . ولكن النمسا كانت لها بالمرصاد ، فأذرتها
بعدم الاقتراب من مياه البلقان ، فلم يسع إيطاليا سوى إرضاء حليفها النمسا
وألمانيا ، واكتفت باحتلال جزيرة رودس وسائر الجزر الاثنتي عشرة
أو الدوديكانيز Dodecanese . ثم أرادت أن تتعجل بالنصر إرضاء للرأي العام
الإيطالي من جهة وخوفاً من اكفهرار الجو الدولي من جهة أخرى ، فأرسلت
أمداداً برية جديدة إلى طرابلس أحرزت بعض انتصارات على قوات المقاومة .
وكانت دول البلقان تستعد لتوحيد كلمتها وجمع قواتها ضد تركيا ، فسارعت
هذه باجراء مفاوضات الصلح بينها وبين إيطاليا في أوشي لوزان بسويسرا في اكتوبر
سنة ١٩١٢ ، ونزلت تركيا عن سيادتها على طرابلس إلى إيطاليا ووافقت على إخلائها
من قواتها ، على أن تبقى لها السيادة الروحية . وقد أراد الأتراك قبل مغادرتهم البلاد
رسمياً أن يداروا خجلهم أمام الأهالي ، فأعلنوا أنهم رغبة منهم في إعادة الطمأنينة
والسلام إلى البلاد ، قد خولوا الأهالي حق التمتع بالاستقلال الذاتي . وكان هذا
التصريح من أهم العوامل التي ساعدت على تثبيت أقدام المجاهدين في حركتهم
فصمموا على المقاومة إلى النهاية .

وهنا لا بد لنا من الإشارة إلى فضل الحركة السنوسية التي جمعت شمل القبائل ،
وجعلت منها وحدة قوية خشيتها إيطاليا وفرنسا وانجلترا ، وهي الدول التي كانت
تشارك مصالحها في الصحراء الكبرى والسودان الغربي .
ولم تكن الحركة السنوسية في مبدئها إلا طريقة من الطرق الصوفية التي تدعو
إلى تقوى الله والعمل الصالح والعودة بالاسلام إلى سابق مجده وقوته ، بالسير
على سنن السلف الصالح ، ونبد الخرافات والبدع المستحدثة . ولكن أهميتها جاءت

عن طريقين : الأول مراكز التبشير ونشر الدعاية السنوسية . فقد أنشأ مؤسس الطريقة السيد محمد علي السنوسي ، الذي استقر به المقام في بنغازي سنة ١٨٥١ . كثيراً من الزوايا في مختلف البقاع لتسكون مراكز للعبادة والتمائم ، وكان علي رأس كل منها شيخ يجمع حوله الأهالي ويقضى بينهم في منازعاتهم ويرشدهم ويصبرهم بشؤونهم الدينية والدنيوية ، وكان عليه أن يجمع رسوماً محدودة يصرف منها على الزاوية والمدرسة ، وما يعود على الجماعة بالخير وعلى البلاد بال عمران ، كحفر الآبار وزراعة الأشجار ، ويحتفظ بجزء منها ثم يرسل ما يفيض بعد ذلك إلى الشيخ الكبير . فكان نظام السنوسيين في مراكزهم شبيهاً بحكومة داخل حكومة ، وهو ما يطلق عليه الغربيون *imperium in imperio* .

أما الطريق الثاني الذي زاد أهمية الحركة السنوسية فهو انتشار الطريقة من برقة وتحولها في عهد السيد المهدي السنوسي الذي خلف أباه في سنة ١٨٥٩ من حركة دينية صرفة إلى حركة نظامية تكاد تفرض لها سيادة إقليمية في بعض المناطق . ولا شك في أن ضعف تركيا في ذلك الوقت قد ساعد على اشتداد ساعد هذه الطريقة وذبوع سلطانها ، لافي برقة وطرابلس فحسب بل كذلك في الصحراء الغربية كلها ، وفي السودان الغربي ووسط أفريقية ، فانتشرت زوايا السنوسيين من بلاد المغرب إلى اسطنبول ودمشق ومصر والهند . ومع ذلك فإن السنوسيين لم يعمدوا إلى العنف والقوة في أول أمرهم وتجنبوا كل أسباب العداة والاصطدام بتركيا خاصة وبغيرها من الدول عامة . فلما بدأت تركيا تتوجس خيفة منهم انتقل السنوسي الكبير من بنغازي إلى واحة الجغبوب جنوبي سيوه الغربي بمقدار ٣٠ ميلاً ، وفي سنة ١٨٩٤ ترك المهدي السنوسي جغبوب إلى واحة الكفرة التي تبعد بمقدار ٧٠٠ ميل جنوبي بنغازي . وكان ارتحال السنوسيين جنوباً وتوغلهم في أعالي السودان واتفاقهم مع سلطان واداي شرقي بحيرة تشاد سبباً في اصطدامهم مع الفرنسيين الذين كانوا يعملون على تثبيت نفوذهم في تلك الأقاليم . وقد أدى ذلك الصدام إلى استعمال القوة بين الجانبين في سنة ١٩٠٠ وقد انهزم

السنوسيون ومات المهدي السنوسي سنة ١٩٠٢ بعد أن تعلم السنوسيون دروسهم الأولى في الحرب وأساليب القتال الحديثة .
وكانما كانت هذه المعركة الحربية الأولى تدريباً عملياً للسنوسيين ليستعدوا لمواجهة الأحداث التي كانت تنتظرهم ، فما كاد شيخ السنوسيين يعود بهم إلى مقرهم في الكفرة حتى واجهت البلاد الغزو الطلياني ، فكان السنوسيون روح المقاومة ومضرمي نارها وخاصة في إقليم برقة الذي كانت لهم فيه السطوة والعصية .

وكان الأتراك حتى بعد معاهدة أوشي لوزان قد تغلغوا داخل البلاد واعتصموا مع المجاهدين في مكائهم وواحاتهم ، فلم تستطع إيطاليا نشر ساططتها إلا على المدن والسواحل . حتى إذا قامت الحرب العالمية الأولى ودخلت إيطاليا الحرب إلى جانب الحلفاء بعد تسعة أشهر من نشوبها ، تشجع الأهالي في طرابلس وجاءتهم المؤن والذخيرة من تركيا بواسطة الغواصات الألمانية ، فقاموا وأعلنوا استقلالهم وكونوا جمهورية اختاروا على رأسها أحد زعمائهم ، واتخذوا مصراته عاصمة لهم ، وكذلك أرسلت تركيا أميراً عثمانياً عينته قائداً عاماً على شمالي إفريقية ، ولم يسع إيطاليا حينذاك إلا لسحب قواتها من البلاد مكتفية باحتلال بعض الموانئ وأهمها طرابلس وحمص .

ولسكن سرعان ما دب الخلاف في صفوف المقاومين ، إذ كان فريق كبير على رأسه السيد أحمد الشريف السنوسي زعيم السنوسيين بعد وفاة عمه يؤازره الأتراك والألمان وبعض رجال العرب الذين انضموا إلى صفوف المقاومة - يريد انتهاز فرصة الحرب لمهاجمة الإنجليز في مصر من ناحية حدودها الغربية ، على حين كان فريق آخر يتزعمه السيد محمد الإدريسي بن المهدي السنوسي وخليفة الشيخ الكبير ، وكان يقيم بمصر - يعارض فكرة الهجوم على مصر حرصاً على مودة الإنجليز الذين كان لهم فضل إيواء السنوسيين وحمايتهم من مهاجمة الفرنسيين لهم في السودان والصحراء الغربية . وبمساعدة الألمان تغلب فريق الهجوم ، فقامت في أكتوبر سنة ١٩١٥ قوة صغيرة مؤلفة من ٥٠٠٠ من السنوسيين ونحو ألف جندي تركي وجماعة من البدو يقصدون غزو مصر من الغرب من ناحية

السلوم وواحة سيوة . وكان الانجليز قد أرسلوا معظم قواتهم إلى تركيا للاشتراك في حملة غاليبولي ، ولذلك اضطروا إلى إخلاء السلوم وركزوا قواتهم في مرسى مطروح . وتقابل الفريقان في عدة معارك أهمها في سيوة وقرب السلوم . ولم يكن يرجى للمهاجمين نجاح أيضاً لعددهم واستعدادهم من جهة ، ولانقسام الآراء بين صفوفهم من جهة أخرى . ولذلك انتصر الانجليز رغم حرج مركزهم وخاصة في مصر ، واضطر الجيش المهاجم إلى الارتداد إلى برقة .

أما السنوسيون فقد احتفظوا بالوحدات مدة قصيرة إلى أن تألفت وحدات حربية جديدة مزودة بالسيارات المصفحة والجمال ، فاستردت الوحدات سنة ١٩١٧ وبذلك تفرقت جموع السنوسيين وضؤل شأنهم . واضطر السيد الشريف السنوسي إلى مغادرة البلاد إلى تركيا ثم الحجاز تاركا زعامة السنوسيين إلى ابن عمه السيد إدريس السنوسي وهو الزعيم الحالي ، وقد تفاوض مع الطليان بعد الحرب وكانوا في حال لا تسمح لهم باستئناف القتال مع أهل البلاد ، فانفقوا معه على أن تكون له السلطة داخل إقليم برقة وتكون له الإمارة أيضاً بلقب صاحب السمو بشرط أن يعترف لهم بحق السياد ، فتم الاتفاق في سنة ١٩٢٠ ، وقام أهل طرابلس في سنة ١٩٢٢ بدعونه لزعامتهم أيضاً ، وبذلك جمع في شخصه وحدة برقة وطرابلس . وبدأ للناس أن كلبه البلاد قد نوحدت في النهاية وأن زعيما وطنيا مجاهداً من أهلها سيقود البلاد في كفاحها ضد الغاصب الأجنبي .

ولسكن ما كادت هذه الآمال تلبح في الأفق حتى جددت عوامل عجلت بخيبة الأمل ، فقد عارضت إيطاليا في حركة البيعة التي جاء بها الطرابلسيون للسنوسي ، ورجعت عن اتفاقها السابق معه وعادت تحارب حركة المقاومة بالإيقاع بين الزعماء تارة وبالغدر حيناً وبالجيوش والدبابات والطائرات أحياناً . ولذلك لم يلبث السيد السنوسي أن غادر البلاد بعد بيعته إلى مصر وبقى متصلاً بحركة المقاومة عن طريق أخيه الرضا أولاً ثم بوساطة الزعيم عمر المختار الذي قاد الحركة بعد رحيل السيد ، واتخذ من الجبل الأخضر على ساحل برقة قاعدة له ومعقلاً حصيناً

لأتباعه من المجاهدين الذين جاءوا إليه من كل فج وصدقوا على ما عاهدوا الله عليه
من بيع أرواحهم رخيصة في سبيل الله والوطن . وكانت الحكومة الفاشية بزعامة مسوليني قد وليت أمر إيطاليا في خريف
سنة ١٩٢٢ وفي مقدمة أغراضها السيطرة على حوض البحر المتوسط وإحياء مجد
الامبراطورية الرومانية القديمة ، وأن تعيد إلى حوزتها أملاكها وولاياتها القديمة
ومنها طرابلس ، حتى يجد أهل إيطاليا الذين ضاقت بهم بلادهم في هذه المستعمرات
الجديدة متسعاً كافياً لجهودهم ولذرائعهم التي كان مسوليني يباهى بها أمم أوروبا جميعاً .
لذلك نشط الايطاليون في العمل على استتباب النظام وإخضاع داخلية
البلاد . ورأوا أن خير طريقة لقمع حركة المجاهدين أن يضيقوا عليهم الحصار من
كل ناحية ، فطالبوا الحكومة الانجليزية بتحقيق وعودها لهم بشأن تعديل حدود
ليبيا شرقاً ومساعدتهم لدى الحكومة المصرية في إدماج واحه الجغبوب قرب سيوة
في المنطقة الايطالية فتم لهم ذلك في سنة ١٩٣٥ . وكانت الجغبوب من أهم قواعد
السنوسيين ، وفيها قبر منشاء الطريقة السيد محمد علي السنوسي ، وباحتلالها تمكن
الطليان من حراسة الحدود الشرقية وامتنع تسرب المؤن إلى المجاهدين ، وأقفل
الطريق في وجه اللاجئين منهم إلى مصر . وقد أحكم إغلاق الحدود بعد ذلك
بوضع الأسلاك الشائكة على امتداد ٣٠٠ كيلو متر من البردية على الساحل
إلى الجغبوب . أما جنوبي ذلك فقفار ووهاد لا سبيل إلى اختراقها أو عبورها
إلا بالطائرة .

وأخيراً عين القائد الايطالي المشهور جراتزياني Graziani حاكماً عاماً على برقة
وطرابلس وأخذ يعمل على إخضاع حركة المقاومة نهائياً بترغيب طائفة من
السنوسيين وإرهاب طائفة أخرى بمختلف وسائل التعذيب ، ومن أقساها وأشدّها
وحشية أخذ المجاهدين في الطائرات والتخليق بهم في الجو ثم إلقاء جثثهم فوق
مواطنهم على مرأى من ذويهم وقبائلهم .

وأخذ الطليان يخضعون الواحات واحدة بعد أخرى حتى وصلوا إلى واحات

السكفرة ، وتقع جنوبي بنغازي بنحو ألف كيلو متر . وفي هذه الواحات كان السنوسيون قد أنشأوا قرية التاج وزاويتها ، وهي تعتبر أكبر معقل للسنوسيين وفيها شيدوا دروهم ومخازنهم ، فسير الطليان إليها أكبر حملة اخترقت صحراء برقة في العهد الأخير ، إذ كانت تتكون من نحو ثمانية آلاف جمل وعشرين طائرة محملة بالقنابل . واشتبك الأهالي مع القوة الإيطالية في معركة دامت بضع ساعات تمكن في أثناءها المجاهدون من التسلل وحداناً وجماعات في الصحراء ميممين شطر مصر والسودان شرقاً ومعهم نساؤهم وأطفالهم وماخف من متاعهم ، ومضوا مشاة وركباناً يتخبطون ذاهلين من أثر الصدمة ناكسي ره وسهم مما أصابهم من الهزيمة ، يرافقهم الجوع ويتعقبهم العدو بطائراته وقنابله ويتخطفهم المرضى والموت ، فكانوا يتساقطون على طول مسالك الصحراء وشعابها كأوراق الشجر أذواها الخريف . حتى إذا قاربوا حدود مصر وصل رائد منهم إلى الواحات الداخلة في مصر ، وقص على مسامع أهلها وحكامها حكاية هؤلاء التعساء المنكودين ، فسارعوا بانقاذ من أمكن إنقاذه منهم بعد مسيرة نحو شهرين قريين . وكان احتلال السكفرة كالصاعقة نزلت على رهوس المجاهدين ، إذ أيقنوا بقرب مصيرهم . وأراد الطليان أن يسدوا في وجوههم جميع المسالك ، فأقاموا الأسلاك الشائكة على الحدود الشمالية الشرقية فانقطعت أمام السيد عمر المختار وأصحابه أسباب الاتصال بالخارج وأصبحوا مضيقاً عليهم من جميع الجهات . وذات يوم من ربيع سنة ١٩٣٢ وقع السيد عمر أسيراً في أيدي الطليان فسجنوه ثم حاكموه عسكرياً ونفذوا فيه حكم الأعدام ، فارتكبوا باعدامه إثمًا لا يزال عاره يلطخ صفحة استعمارهم إلى اليوم . وبموته انطفأ آخر بريق لحركة المقاومة في ليبيا ، وأخذ الناس يتناقلون في جميع أنحاء العالم العربي أحدى البطولة التي اضطلع بها أهل برقة وطرابلس مدة عشرين عاماً ، والتي تمثلت في جهاد السنوسيين واستشهاد عمر المختار ومن سبقه من المجاهدين والشهداء ، وقد راح ضحيتها نحو ثلث شباب برقة ونحو تسعة أعشار ماشيتها . فلم يبق من سكان البلاد اليوم أكثر من مليون نفس .

وقد ظن الطليان أنهم بقضائهم على حركة المقاومة قد مكثوا لحكمهم وتيسر لهم استعمار ليبيا ، ولكن سرعان ماخاب ظنهم ، فقد انتثر عقد المجاهدين حقا ولسكنهم انتشروا بين الشعوب العربية في كل صقع يرددون مآساتهم ، وما اقترفه الطليان في بلادهم من ألوان الجور والغدر والوحشية ، حتى أضحي الحكم الفاشي في نظر الأمم العربية مبعث الخوف والشقاء ، وجرثومة الفساد والانحلال التي يجب أن تستأصل إن كان مقدورا للشعوب أن تعيش وتترقى في مدارج المدنية .

وما كادت الحرب العالمية الثانية تنشب وتدخلها إيطاليا إلى جانب حليفها ألمانيا ، حتى تجلت روح الكراهية والسيخط ضد إيطاليا في شمالي إفريقيا ، وتقدم السيد إدريس السنوسي وأخطر الحكومتين المصرية والبريطانية باستعداده لمعاونة الحلفاء . وعلى أثر ذلك تألفت فرق القوة العربية الليبية من متطوعي برقة وطرابلس وأمدتهم إنجلترا بالذخيرة والمؤن وبعض الضباط . وقد أبلى الليبيون بلاء حسنا في المعارك التي تابعت جيئة وذهابا فوق أديم أرضهم ، فتارة كان يتقدم الطليان فيصددهم الحلفاء ، وأخرى كان يرتد الطليان ويتقدم الحلفاء ، وآونة كان يزحف الألمان ومعهم الطليان ثم يرددهم الحلفاء . وكانوا كلما ارتد الانجليز وحلفاؤهم وعاد الطليان إلى قواعدهم آثروا بمقتهم وغضبهم أهل ليبيا ، واختصوا من بينهم من كانوا يتعاونون مع الحلفاء فأنزلوا بهم سوء العقاب .

وفي ديسمبر سنة ١٩٤٢ خرج الحلفاء ظافرين من موقعة العلين وأخذوا يطاردون فلول المحور غربا حتى قذفوا بهم إلى البحر ، فثبتت قدم الانجليز في ليبيا وبدأوا يقيمون حكومة مدنية يشترك فيها أبناء البلاد . وكان النزاع القديم بين القبائل في برقة وطرابلس قد بدأ يتحرك ، ولكن أحداث الحرب الأخيرة قد أوثقت الصلات بين الجانبين وتوحدت كلمتهم في القرار الذي أصدره في أكتوبر سنة ١٩٣٩ ، ثم أيدوه بعد موقعة العلين باعترافهم جميعا بالأمير السنوسي زعيما لهم ، ويأن له وحده أن يتكلم باسمهم في مختلف شؤونهم . وقد أعلنت الحكومة الانجليزية من جانبها بلسان وزير خارجيتها عقب انهزام قوات المحور

تصميمها على عدم السماح بعودة الحكم الايطالى إلى برقة أو قرنيقية بأية حال واسكنها
لم تصرح بشيء عن نيتها نحو طرابلس حيث يكثُر الطليان وتشتد المنافسة .
وقد نبئت عقب انتهاء الحرب الأخيرة مقترحات مختلفة بشأن إدارة البلاد
فقد طالبت روسيا بدون جدوى أن تكون لها الوصاية على طرابلس حتى
تحل محل إيطاليا في حوض البحر المتوسط وتخرج من عزلتها في البلقان إلى مياه
البحر المتوسط ، ولتشرف على شئون الشرق الأوسط من كسب بعد أن أصبحت
هذه المنطقة أشد مواطن العالم تنافسا بين الدول وأكثرها خطرا . وتقدمت مصر
تقترح أن تتمتع ليبيا باستقلالها السياسى ، وإن كان لا بد من وضعها تحت
الوصاية فترة من الزمن فإن روابط الجوار واللغة والدين تجعل حق مصر في ذلك
أولى من غيرها .

وقد مضى الوقت الذى كانت مصر فيه مؤمنة بمناعة حدودها من ناحية
الصحراء الغربية معتبرة خط الطول رقم ٢٥° درجة شرقى جرينتش آخر حدودها
الغربية خطأ وهميا ، فقد ذلك الصحراء للسيارات والدبابات وتقدم الطيران
فألغى مسافة الصحراء زمانا ومكانا ، وأصبح جدها وقيظها ووعثاؤها كل أولئك
أمورا لا يحس بها العلم الحديث ولا تعترف بها السياسة . لقد أصبحت الصحراء
عنصراً مهماً في جسم السياسة العالمية وزالت عنها إلى غير رجعة تلك الحصانة
الحرية الماضية . فقد أظهرت الحرب الأخيرة كيف استطاع العدو أن يتخذ من
صحراء ليبيا ومن واحة الجغبوب التى اغتيلت منا حين كانت بريطانيا لا تزال
تحسن الظن بإيطاليا - أن يتخذ منها قاعدة حربية يحشد فيها قواته ويثب منها على
حدودنا . ولو لم تكن بريطانيا محتفظة وقتئذ بتفوقها في البحر المتوسط والبحر
الأحمر لاستطاع العدو أن ينفذ خطة السكاشة ، الحربية التى دبرها ضد مصر
والسودان بتسيير قواته شرقاً من ناحية ليبيا وغرباً من ناحية أرترية والحبشة .

من أجل ذلك كان في مقدمة ماطلبته مصر في مؤتمر الصلح الذى انعقد في
باريس في صيف سنة ١٩٤٦ إعادة واحة جغبوب إلى حدود مصر كما كانت .

وقد رددت مصر هذا الطلب أمام الجمعية العمومية لهيئة الأمم في دورتها الأخيرة في مايو سنة ١٩٤٩ عندما كانت تبحث في مصير مستعمرات إيطاليا السابقة .

والناس في برقة شديداً التمسك باستقلالهم ، وللسنوسيين بينهم مقام مرموق فلهم علمهم الخاص ، وتجمع الضرائب وتصدر المنشورات باسمهم ، وزعيمهم يجمع بين السلطتين الدينية والزمنية . أما في طرابلس فالحال غير مستقرة ، وللطليان فيها قضاة وأطباء وفتيون منتشرون في البلاد ، والانجليز لا يزالون يحتلون البلاد حراساً على أموال الطليان ، وذلك إلى أن يصل الحلفاء إلى قرار حاسم بشأن مصير ليبيا . وقد قرروا أخيراً إرجاء بحث مصير مستعمرات إيطاليا السابقة إلى دورة الجمعية العمومية لهيئة الأمم في سبتمبر سنة ١٩٤٩ .

ولا تزال إيطاليا تطمع في أن يوجد عليها الحلفاء بشيء في طرابلس ثمناً لمعاونتها لهم في المرحلة الأخيرة من الحرب ضد ألمانيا واستماله لها إلى جانب كتلة الدول الغربية .

وتواجه ليبيا بعد الحرب الأخيرة أزمة اقتصادية اجتماعية على درجة عظيمة من الخطورة ؛ فقد أرسلت إلى ليبيا عشرات الآلاف من الطليان وأقطعهم الضياع والمزارع من الأراضي التي صادرتها من أرض المجاهدين ومن أراضي الزوايا السنوسية . وكانت الحكومة الإيطالية تمد المستعمرين لهذه الأراضي بالماشية والعدد والبذور مما جعل الحكومة المحلية في ليبيا تهمل الاقتصاد العام للبلاد ، حتى بلغت قيمة وارداتها في سنة ١٩٣٨ ثمانية أضعاف صادراتها ، وباتت البلاد بعد الحرب في حاجة شديدة إلى رموس الأموال وإلى الرجال الفنيين الذين يعالجون ما سببه الطليان من مغارم على البلاد وهي الفقيرة في المعادن والزراعة .

ولما جلا الطليان عن البلاد غادرها كثير من مستعمرى تلك الأراضي . ولكن

ما كادت تنتهى الحرب حتى ضجر أولئك بمقامهم فى إيطاليا وشموا اضطراب
الأحوال فيها ، وحفزهم الحنين إلى ضياعهم وسابق رغدهم فى ليبيا، فبدؤوا ينسلون
إليها سرا وعلانية كما ينسل اليهود إلى فلسطين ، بعد أن أصبحت ليبيا لأهل إيطاليا
عامة ولأهل صقلية بصفة خاصة « أرض المعاد » .

وأمام أهل برقة وطرابلس جميعاً واجب قومى يدعوهم فى أثناء هذه الفترة
إلى التضافر والعمل يداً واحدة على مناهضة كل حركة ترمى إلى إعادة مأساة
الاستعمار ثانية بين ظهرانيهم ، وما يدعو إلى التفاؤل أنه قد عاد أخيراً إلى
البلاد رجال من الليبيين كانوا قد نشأوا وتثقفوا أثناء الاحتلال الإيطالى
فى جامعات ومدارس مصر وغيرها من بلاد الشرق العربى ، وقد حملوا
معهم جميعاً إلى ليبيا أمانى الجيل الجديد وأهدافه نحو الاستقلال وإنهم بهذا
لجديرون .

والله تعالى اعلم .

من أجل ذلك كان فى سنة ١٩٤١ م. فى مصر فى شهر . . .

الفصل الخامس عشر

مشاكل البلقان

لقد قست الطبيعة والظروف على شعوب البلقان ففرقت بينهم في الجنس واللغة والثقافة والمذهب الديني، كما فرقت بينهم سلاسل الجبال والمرتفعات التي تقطع شبه الجزيرة طولا وعرضا وجعلت المواصلات بين البلاد بعضها وبعض أمرا بالغاً منتهى الصعوبة، اللهم إلا البلاد التي جمع بينها نهر الدانوب وفرقتها يد السياسة.

ومعظم سكان البلقان يلتقون تحت اسم انسلافيين ولكن في هذه البلاد خليطاً عجيباً من مختلف الشعوب والنحل، فمن الأتراك والأرمن أو الألبانيون والأغريق والمقدونيون والرومانيون والعرب والكروات والسلوفين والبلغار، ومن هؤلاء جميعاً الأرثوذكس والكاثوليك والمسلمون واليهود. وكان من نتيجة هذه الخلافات الجنسية والدينية أن استفحلت أسباب العداوة والكراهية المحلية بين هذه الشعوب ثم كان تنازع الدول الكبرى فيما بينها لمسد سلطانها وبسط نفوذها على هذه الأقاليم فأودى نهائياً بطمأنينتها وأمنها وجعل منها كما يقولون برميلا جافاً من البارود يوشك في كل لحظة أن ينفجر، ولا تقتصر ناره على الأرض المجاورة بل تتعدى الحدود وتتصل ألسنتها بالمحيط الدولي فتشتعل نيران حرب كبرى.

ولقد انفجر البارود في صيف سنة ١٩١٤ في سراييفو، إحدى مدن الصرب فقامت على أثر ذلك الحرب العالمية الأولى. ومن ألبانيا اندلعت في ربيع سنة ١٩٣٩ إحدى شرارات الحرب العالمية الثانية حين هاجمها مسوليني في يوم الجمعة الحزينة من ذلك العام وشردهم ملىكها وأسرتهم ووضع ناج ألبانيا على رأس

ملك إيطاليا المثقل بالسنين والتبعات . وإذا سارت الحال في البلقان على النهج الذى تفضى إليه سياسة الدول الكبرى فى هذه الآونة فأكبر الظن أن حربا بل حروبا أهلية وعالمية أخرى ستستعر من جديد وتأخذ سبيلها من هذه الأقاليم المنكودة .

وان الباحث ليدش إذ يعلم أن البارود الذى ينفجر فى البلقان بين آونة وأخرى ليس من صنع أهل البلقان ولا هو من منتجات هذه الأقاليم التى يعيش معظم أهلها على الزراعة والصناعات الزراعية ، ولكن الدول الكبرى هى التى تصدر البارود إلى هذه البلاد حتى إذا انفجر وتناثر شرره استنكرته وأنحت باللائمة على شعوب هذه البلاد ونسبتهم إلى الشر والعدوان ! والحق أنه لا عيب فى هذه الشعوب إلا فقرها المدقع وجهلها المروع وحبها الملتهب للحرية والاستقلال .

على أن الدول لم تقتصر على تصدير البارود إلى شعوب البلقان بل كانت تصدر إليها كذلك التيجان والملوك كلما أفلح شعب منها بفضل مساعدة تلك الدول فى التخلص من نير الأتراك وأنشأ له حكومة وطنية . وعلى ذلك اعتلى عرش اليونان الملك جورج الأول من أمراء الدانمركة وكانت أخته آنثذ زوجة ولى عهد إنجلترا الذى خلف والدته الملكة فيكتوريا باسم ادورد السابع . وحكم رومانيا الملك شارل الأول أمير أحد فروع أسرة هوهنزولرن الألمانية . وجلس على عرش بلغاريا أمير ألماني آخر باسم الملك فردينند . وكذلك اختير لألبانيا فى أول عهدا بالاستقلال سنة ١٩١٣ الأمير ويد Wied الألماني . أما مملكة الصرب وهى يوغسلافيا الحديثة فهى الدولة البلقانية الوحيدة التى لم تنتفع بهذه الواردات المتوجة ورفعت إلى عرشها أمير اختارته من بين أسرها العريقة وكان آخر ملوكها بطرس الثانى الذى نحي عن العرش فى سنة ١٩٤٥ .

ومن العجيب أن هذه الشعوب قد خضعت للحكم التركى أو الحكم النمساوى مدة تتراوح بين أربعة أو خمسة قرون، فلما همت فى القرن التاسع عشر أن تتحرك للثورة وطالب الاستقلال بدأت الدول تتدخل وتمدها بالنار والحديد وبالرجال

ثم بالتيجان حتى إذا ما تنسجت نسيم الحرية ونعمت بتحقيق أمانها وظفرت بالاستقلال السياسي بدأت تحس ثقل تبعاتها وتشعر بالفراغ العظيم الذي أحدثه زوال الحكم التركي أو النمساوي من محيطها، فراحت تتخبط وتتعثر في مختلف المشاكل والصعاب أما داخل حدودها وأما بين بعضها وبعض . ذلك أن كلامها قد حرص في عهد الاستقلال على توسيع حدوده على حساب جيرانه ثم وطن كل منها نفسه - فيما عدا تركيا واليونان طبعاً - على الوصول إلى ميناء يطل على مياه البحر المتوسط من قرب أو بعد

لذلك ما كادت تنهى حرب الاستقلال البلقاني ضد تركيا سنة ١٩١٢ حتى قامت الحرب البلقانية الثانية سنة ١٩١٣ بسبب توزيع الاسلاب بين المنتصرين في الحرب الأولى فهاجمت بلغاريا حليفتيها الصرب واليونان وما لبثت أن تدخلت رومانيا وتركيا في الحرب فاستردت تركيا أدرنه واحتلت رومانيا دبروجه وخسرت بلغاريا معظم ما كسبته في الحرب الأولى . ومن ذلك نشأ العداء والسكرابية بين بلغاريا وسائر دول البلقان - ذلك العداء الذي استحكم في أعقاب الحرب العالمية الأولى وكانت بلغاريا تحارب فيها إلى جانب ألمانيا ضد الحلفاء فكان جزاؤها ان حرمت المنفذ الذي طالما مننت به نفسها على بحر إيجه كما فقدت جزءاً كبيراً من تراقيا لليونان ومن مقدونيا ليوغسلافيا .

وكان من بواعث الأمل على استقرار الحال نوعاً في البلقان عقب تلك الحرب أن روسيا كانت من غمرات ثورتها الكبرى في شغل شاغل عن البلقان وعن أوروبا عامة وكانت تركيا قد تراجعت إلى آسيا الصغرى فنقلت عاصمتها من اسطنبول إلى انقره ، واشتغلت هي كذلك بنهضتها السكالية . وبذلك أتاحت لدول البلقان فترة استجمام ساعدتها على النهوض بشئونها الداخلية وترقية مرافقها الصناعية والعمرانية وجمع كفة مواطنيها على رغم اختلاف جنسياتهم ومذاهبهم . وقد ظهرت دلائل هذا التقدم جلية في رومانيا ويوغسلافيا بصفة خاصة حيث كشفت منابع البترول وقامت فيها نهضة صناعية وحريرية كبرى فارتفع مقام رومانيا إلى

مصاف الدول المهمة وأصبح ليوغسلافيا على البحر الأدرياتي موانئ وقواعد
حرية تنافس بها إيطاليا .

وكذلك نهضت تركيا واليونان وسوت الحكومتان ما كان بينهما من
خصومات وعداء مستحکم بفضل السياسة التي أتمجها أتاتورك بعد هزيمة اليونان
في آسيا الصغرى وإنشائه تركيا الجديدة ، فقد قرأ أي الزعيم التركي على اقتلاع
أسباب النزاع بين الشعبين المتجاورين من جذورها وذلك بتبادل الأقليات بينهما
فتفتح اليونان أبوابها لمليون أو أكثر من الاغريق المتوطنين في تركيا مقابل نصف
مليون من الأتراك تستردهم تركيا من اليونان . وقد فعل هذا التبادل على رغم
ملاقاته المتبادلون من صنوف الآلام والمتاعب الجسمانية والعاطفية — فعل السحر
في تحسين العلاقات بين الشعبين حتى أصبحا وكأنهما أسرة واحدة متفقة
المصالح والأهداف .

وقد بدت آثار هذا التضامن بين الحكومتين في سياسة البلقان الجديدة وذلك
انه ما كادت تحتفي روسيا من الميدان السياسي في البلقان والبحر المتوسط عقب
ثورتها حتى انبرت إيطاليا الفاشية تريد أن تحل من دول البلقان محل روسيا فتنتشر
نفوذها السياسي في ربوع البلقان وشرقي البحر المتوسط ، وفعلا بدأت تعقد
معاهدات الصداقة بينها وبين دول البلقان . ولكن سرعان ما بان نيات إيطاليا
التوسعية عندما احتلت جزيرة كورفو التابعة لليونان في سنة ١٩٢٣ على أثر حادث
وقع على الحدود بين البانيا وإيطاليا وقتل فيه رئيس البعثة الإيطالية في اللجنة التي
كانت تعين الحدود بين الدولتين . ولم تنسحب إيطاليا من الجزيرة إلا بعد تدخل
مجلس عصبة الأمم وقيام اليونان بدفع غرامة فادحة لإيطاليا .

وقد تحققت مخاوف دول البلقان من ناحية إيطاليا عندما أذيعت شروط
معاهدة تيرانا بين إيطاليا والبانيا سنة ١٩٢٦ وكان ثوابها أن تصبح البانيا في حقيقة
الأمم إحدى مملكات إيطاليا فتنشئ فيها الطرق والقلاع والموانئ لتثب منها عند
الحاجة على يوغسلافيا أو اليونان ، وحتى تستطيع أن تتحكم في مضيق أترنتو عند

مدخل البحر الادرياتي فيبقى الاسطول اليوغسلافي الحربي والتجاري في ذلك البحر تحت رحمة إيطاليا .
عند ذلك تفتحت أعين دول البلقان وأدركت أنه إذا لم تتحد وتعتمد على نفسها فانها ستستمر العوبة في أيدي الدول الكبرى تقاذفها كيفما شاءت .
وجأه وضح لشعوب البلقان أن هناك مسائل ومصالح مهمهم جميعا وانهم قد وصلوا من النضج السياسي إلى درجة خليقة بأن يجعلهم يقفون صفا واحدا أمام مطامع الدول وعدوانها عليهم ، وعلى ذلك أنشأوا بفضل مساعي تركيا واليونان الميثاق البلقاني سنة ١٩٣٤ بين تركيا واليونان ويوغسلافيا ورومانيا . ولم تشذ سوى البانيا وبلغاريا إذ كانت الأولى في سياستها تابعة لإيطاليا وكانت الثانية تطمع في إعادة النظر في معاهدات الصلح ، على حين قد نص الميثاق على حفظ الحالة الحاضرة في البلقان . وكان عقد الميثاق أكبر صدمة سياسية أصابت سياسة الدول الطامعة بصفة عامة وإيطاليا بصفة خاصة ، فلأول مرة في تاريخها وقفت دول البلقان على قدميها تنادى أن البلقان للبلقانيين .

وقد كان الميثاق خير درع احتمت وراءها دول البلقان في أزمة الحبشة سنة ١٩٣٥ فوقفت كتلة واحدة إلى جانب العصبة وبريطانيا ضد الطغيان الفاشي وكذلك وقفت دول البلقان تناصر تركيا في سنة ١٩٣٦ عندما دعت إلى مؤتمر الدول في منترو ليقرر النظام الجديد للضايق في مصلحة تركيا . ولكن والسفاه الم تمض إلا سنوات قليلة على الميثاق حتى قامت الحرب العالمية الثانية فالتزمت دول البلقان الحيدة في أول الأمر ، ثم لم تلبث فرنسا أن انهارت ودخلت إيطاليا الحرب .
وحسب مسولينى أن الفرصة قد سنحت أخيراً لتحقيق مطامع إيطاليا الفاشية غربا وشرقا فسير قواته من ليبيا ضد بريطانيا في مصر وتحركت كتابته من البانيا ضد اليونان فوقف الأوغريق أمام المعتدين ووقفهم التي استرعت اعجاب العالم ، وتحرج مركز المحور في البلقان فحولت ألمانيا وجهها من الغرب إلى الشرق وأزلت جحافلها ودباباتها وطائراتها تكنتسح دول البلقان واحدة تلو أخرى حتى لم يبق على حياده منها سوى تركيا .

وافتقد الناس ميثاق البلقان فجعلوا ينقبون عنه فلم يفوزوا بطائل وسط جلاجلة المدافع وهزيم القنابل وضجيج الطائرات . وماذا يغني الميثاق ؟ ولو أنه كان اتحاداً لا مجرد عهد ووعد لما أبقت منه الحرب الخاطفة التي حالفت الألمان في سني الحرب الأولى أي أثر ، وهي التي داست الموائيق والمعاهدات وبددت المحالفات ومزقت الجيوش شر ممزق !

وبذهاب ميثاق البلقان وانتهاء الحرب سارت دول البلقان سيرتها الأولى وعادت مسرحاً لأسباب الكراهية المحلية والمنافسات الدولية . وقد تعقدت مشاكلها في هذه المرة على أثر عودة روسيا أمهم السلافية الأرثوذكسية الكبرى وظهورها على مسرح السياسة في دور البطولة العالمية ، وإذا ما اجتمعت الأمم بفراخها ففسير عليها أن تدع لأحد منها حريته أو استقلاله ، بل أن غريزة الامومة فيها لكفيلة أن تدعوها يوماً إلى احتضانهم وضمهم إليها وحمايتهم ضد الأيدي التي تمتد اليهم حتى ولو كانت تمتد لأطعامهم !

وفي هذه المرة لا تريد روسيا أن يفلت منها زمام البلقان كما أفلت في أعقاب الحرب العالمية الأولى فهي تعتبر نفسها زعيمة الشعوب السلافية حقاً وصدقاً وتعتبر البلقان منطقة نفوذها الخاصة . وقد نزلت أخيراً عن عدائها للكنيسة ورجالها فاستعادت زعامتها الأولى للأرثوذكسية التي تنتمي إليها السكثرة العظمى من شعوب البلقان . وتريد روسيا أن يكون مقامها في البلقان شبيهاً بمكانة الولايات المتحدة من جامعة الجمهوريات الأمريكية مع فارق واحد هو أن جمهوريات أمريكا تتمتع باستقلالها وسيادتها أما حكومات البلقان فتريدها روسيا وفق نظامها الشيوعي وعلى هواها !

وتحتاج روسيا إلى ألوف مؤلفة من عمال البلقان ليعوضوها عما فقدته من ملايين الشبان في الحرب الأخيرة ، كما أنها تريد أن تعمل لكسب أسواق البلقان في التجارة كما كسبتها منهم المانيا قبل الحرب الأخيرة حتى بلغ ما تصدره المانيا لرومانيا ويوغسلافيا ٤٠٪ من وارداتها . ولا يتحقق لروسيا ذلك التفوق الاقتصادي إلا إذا نهضت بصناعاتها ومنتجت مثل ما كانت تصدره المانيا للبلقان

من عدد وآلات ثقيلة وخفيفة ومصنوعات مختلفة . ولا سبيل الى هذه النهضة الا اذا توافرت لروسيا الأيدي العاملة التي لا يتم تدريبها الا بعد سنوات طويلة وفي هذه الأثناء إما أن تخضع روسيا لقيام مبدأ حرية التجارة في البلقان وإما أن تأباه فتعرض شعوبه وحكوماته لكارثة اقتصادية محققة .

وكما أن روسيا تريد أن ترث ألمانيا في مركزها الإقتصادي في البلقان فانها تعمل كذلك، جاهدة على أن تكون وارثة إيطاليا في البحر المتوسط حتى يصبح التوازن الدولي في حوض هذا البحر بعد أن اختل بذهاب قوة إيطاليا البحرية فلا تظنى فيه بريطانيا وفرنسا دون مقابل . لذلك بدأت روسيا تطالب بنصيبها في قواعده الاستراتيجية فلم تسكتف بالجلوس إلى جانب إنجلترا وفرنسا وأمريكا في منطقة طنجة الدولية كما تقرر بصفة مؤقتة في عام ١٩٤٥ بل جعلت تطالب بالوصاية على طرابلس أو جزر الدوديكانيز ، ورفضت أن تجدد معاهدتها مع تركيا حتى تجاب إلى طلبها فيما يخص المضائق . ويقولون أنها تطالب الآن بقاعدة حرية في منطقة المضائق وبمقعد لها في مجلس إدارة شركة قناة السويس كما كانت تريد أن تفعل إيطاليا الفاشية من قبل .

وتحقيقاً لهذه السياسة أيضا وقفت روسيا تسند جمهورية يوغسلافيا الناشئة في مطالبتها بضم تريستا ومنطقة فنيزيا جوليا على البحر الادرياتي بعد أن احتلت منها ميناء فيومي وما جاورها من الأراضي . ويبدو أن ما نال الظليان من الخزي في الحرب الأخيرة سيقبل من أمل إيطاليا في الاحتفاظ بهذا الاقليم . وكان مؤتمر الصلح ومجلس الأمن قد قرر أخيراً أن تحول منطقة تريستا إلى ميناء دولي حر للجميع تستفيد منه يوغسلافيا وسائر دول أوروبا الوسطى ، ولسكن الدول الغربية عادت فاقترحت أن تضم تريستا إلى إيطاليا .

وتهدف حكومة السوفيت في مناصرتها ليوغسلافيا إلى السيطرة على البحر

الادرياتي الموصل للبحر المتوسط بعد أن أصبحت يوغسلافيا وألبانيا جمهوريتين تسيران على النهج الشيوعي .

وكذلك تقف حكومة السوفيت إلى جانب بلغاريا العزيزة عليها ، فعلى الرغم من أن بلغاريا قد تعاونت مع المانيا فان صلات الدم التي تربط بلغاريا وروسيا لم تنفصم عراها حتى في أحلك ساعات الحرب عندما كانت المانيا تسيطر على بلغاريا . واستناداً إلى هذه الصلة تطالب بلغاريا من غير جدوى بتحقيق حلمها في بحر إيجه وفي تراقيا على حساب اليونان . وها هي ذى روسيا تحاول أن تثير من جديد تكوين دولة مقدونية جديدة بزعامة بلغاريا حتى تنتزع المقدونيين الذين يخضعون الآن لليونان ويوغسلافيا التي انحرفت أخيراً عن الفلك السوفيتي . ولم تشأ بريطانيا بعد الحرب الأخيرة أن تجازف بترك اليونان حرة تتنازعها عوامل الشيوعية من جهة والرجعية من جهة أخرى فأبقت فيها قواتها خوفاً على مصالحها الحربية في البحر المتوسط . وقد احتضنت اليونان جزر الدوديكانيز وروودس ، ولكن انجلترا ستظل محتفظة بقبرص . وليس من شك في أنه متى انجلت القوات البريطانية عن اليونان فان النفوذ الشيوعي قد يطغى على البلاد ويصبح مصير اليونان مربوطاً بعجلة السوفيت ولذلك سارعت الولايات المتحدة بتقديم المساعدة المالية لحكومة اليونان الملكية حتى تقوى على درء الخطر الشيوعي . ولا شك في أن المساعدة المالية التي ستقدمها أمريكا سيتبعها حتماً وجود الخبراء الاقتصاديين والسياسيين من أمريكا

أما في رومانيا فقد استردت روسيا إقليم بسارايا وأصبحت الحكومة فيها موالية للسوفيت وكذلك في البانيا قامت حكومة جمهورية موالية لروسيا برياسة أنور خوجه بعد أن الغيت فيها الملكية عقب الحرب الأخيرة .

وأخيراً تبقى روسيا وجهاً لوجه أمام تركيا وهي بحكم موقعها عند أهم النقاط الاستراتيجية في البحر المتوسط ولأن حكومتها الفتية الحالية تمثل أقوى شعوب

البلقان وأشدهم مراساً وأكثرهم عدة وعداداً في الحرب فضلاً عن ارتباطها بأواصر الصداقة مع أمريكا وبريطانيا. وخاصة بعد أن سرى عليها مع اليونان قرار المساعدة المالية التي تسديها الولايات المتحدة اليها منذ ١٩٤٧ وبعد أن انتظمت الدولتان في عداد الدول التي تفيد من مشروع مارشال منذ أبريل سنة ١٩٤٨.

لهذه الأسباب جميعاً تعتبر تركيا المحور الذي يدور عليه مصير البلقان والشرق الأوسط الذي تبتلعن، أخيراً وشابه صنوه في اخطاره ومنافساته، فاذا لم تسو العلاقات بين تركيا وحكومة السوفيت بشأن المضائق وبشأن الحدود الشمالية الشرقية فان برميل البارود قد يزود هذه المرة بمواد أشد فتكاً وأعم خراباً من البارود وحينئذ يتاح للدول أن تجهد حلاً نهائياً لمشاكل البلقان وغيرها.

في الواقع، فإن البلقان قد أصبحت في هذه الأيام محوراً هاماً في السياسة الدولية، وذلك لعدة أسباب، أهمها: أولاً، أنها تمثل منطقة استراتيجية مهمة، حيث تقع على مفترق الطرق بين أوروبا وآسيا، مما يجعلها هدفاً للقوى العظمى. ثانياً، الوضع السياسي في البلقان أصبح معقداً للغاية، مع وجود توترات بين القوى العظمى، مما قد يؤدي إلى اندلاع حرب عالمية ثالثة. ثالثاً، البلقان هي مهد الحضارة الغربية، ولذا فإن أي تهديد لها يعتبر تهديداً للحضارة الإنسانية بأكملها. رابعاً، البلقان هي مهد الديمقراطية، ولذا فإن أي تهديد لها يعتبر تهديداً للديمقراطية بأكملها. خامساً، البلقان هي مهد العلم والتكنولوجيا، ولذا فإن أي تهديد لها يعتبر تهديداً للعلم والتكنولوجيا بأكملها. سادساً، البلقان هي مهد الثقافة والفنون، ولذا فإن أي تهديد لها يعتبر تهديداً للثقافة والفنون بأكملها. سابعاً، البلقان هي مهد اللغة، ولذا فإن أي تهديد لها يعتبر تهديداً للغة بأكملها. ثامناً، البلقان هي مهد التاريخ، ولذا فإن أي تهديد لها يعتبر تهديداً للتاريخ بأكملها. تاسعاً، البلقان هي مهد الحضارة، ولذا فإن أي تهديد لها يعتبر تهديداً للحضارة بأكملها. عاشراً، البلقان هي مهد الإنسانية، ولذا فإن أي تهديد لها يعتبر تهديداً للإنسانية بأكملها.

الفصل السادس عشر

حيرة الترك بين الشرق والغرب

خطب مستر ترومان رئيس الولايات المتحدة في ١٢ مارس من عام ١٩٤٧ أمام الكونغرس أو المؤتمر الأمريكي الذي يجمع بين شيوخ الدولة ونوابها، وطلب إليه الموافقة على عقد قرض بمبلغ أربعائة مليون دولار لمساعدة اليونان وتركيا وقد قال في عرض خطابه: «إنه في سبيل تقدم الشعوب في ظلال السلم وإبعاد أسباب القهر والاستبداد، نهضت الولايات المتحدة بدور رئيسي في تكوين هيئة الأمم المتحدة... ولا يمكن أن نحقق أغراضنا إلا إذا عقدنا النية على مساعدة الشعوب الحرة في المحافظة على نظمها الحرة وسلامة وطنها ضد الحركات العدوانية التي تحاول فرض نظمها الدكتاتورية عليها... فاذا أمسكنا عن مساعدة اليونان وتركيا في هذا الوقت العصيب فسيكون لإمساكنا هذا آثار بعيدة المدى تصيب الغرب والشرق جميعاً...» وقبل ذلك بأسابيع قليلة تكلم مستر جيمس بيرنز الوزير الأمريكي السابق أمام لجنة الشؤون الخارجية لمجلس الشيوخ الأمريكي فقال: «إن ما قد تعانیه أوروبا في المستقبل من قلق واضطراب سيكون مصدره على الأرجح بلاد البلقان». والخطابان يعيدان إلى الذهن القول الذي اشتهر في الربع الأول من هذا القرن والذي رددناه في الفصل السابق بأن بلاد البلقان إنما هي مستودع البارود الذي قد ينفجر في أي وقت فتندلع منه نيران الحرب.

وقد اندلعت شرارة الحرب العالمية الأولى فعلا من البلقان عند ما اغتال طالب صربي في يونية سنة ١٩١٤ الأرشيدوق فرانس فردينند ولي عهد النمسا وزوجته في أثناء زيارة رسمية لمدينة سراجيفوا عاصمة البوسنة. واقتربت ساعة نشوب الحرب العالمية الثانية من غير شك حين اعتدت إيطاليا على ألبانيا في أبريل

سنة ١٩٣٩ قبل الحرب بين ألمانيا والحلفاء بأقل من خمسة أشهر . وها هو
ذا الرئيس الأمريكي ومعه وزيره السابق ينذران بأن البلقان سيكون من جديد
موطن الداء ومصدر الشرر إذا ما تلبدت الغيوم في جو أوروبا السياسي وآذنت
باقتراب عاصفة الحرب الهوجاء .

ولم يعمد الرئيس الأمريكي في خطابه إلى الأسلوب الدبلوماسي المرن ولكنه
جهر في صراحة بأن المساعدة التي ستقدمها أمريكا لتركيا واليونان إنما يراد بها
علاج مسألتين : الأولى في اليونان وهي وضع حد لأعمال الإرهاب التي تقوم
بها فئات مسلحة يقودهم الشيوعيون متحدين في ذلك سيطرة الحكومة ومهددين
حياة الدولة ذاتها . والثانية في تركيا وهي مساعدة تركيا على الوفاء بمطالبها العسكرية
التي لا غنى عنها للاحتفاظ بسلامة أراضيها ، تلك السلامة التي يتوقف عليها السلام
العام في الشرق الأوسط .

والمسألتان في حقيقة الأمر متصلتان ويكمل بعضها بعضاً . فالضغط على
اليونان من ناحية الشيوعيين سيؤدي بطبيعة الحال إلى إحراج مركز تركيا وإحاطتها
من معظم جهاتها بسور شيوعي حديدي قد لا تقوى على دفعه . والضغط على
تركيا من ناحية المضايق ومطالب روسيا بشأنها إنما يراد به الوصول إلى اليونان
وبحر إيجه ثم البحر المتوسط . وتركيا واليونان بحكم موقعهما الجغرافي تقفان
حارستين في مفترق الطرق بين الشرق والغرب ، وكلتاهما تحتل منطقة على جانب
عظيم من الخطورة الاستراتيجية في البحر المتوسط والشرقين الأدنى والأوسط ،
والاثنتان قد اتجهتا في سياستهما وجهة غربية ديمقراطية جعلتهما غريبين
عن سائر بلاد البلقان التي اصطبغت جميعها باللون الشيوعي بعد الحرب
العالمية الثانية وأصبحت موالية لحكومة الاتحاد السوفيتي التي تريد أن تأخذ طريقها
ذلولاً إلى البحر المتوسط ، فلا تقف تركيا أو اليونان حائلاً بينها وبين ذلك البحر .
والحقيقة أنه لا يعترض طريق روسيا إلى البحر المتوسط في زمن السلم أي
حائل في تركيا أو في اليونان لا من حيث الملاحة التجارية ولا من حيث الملاحة

الحرية . ولكن الدول حتى بعد إقرار السلم وميثاق هيئة الأمم المتحدة لم تفتأ تفكر وتدبر خططها وسياساتها بعقلية الحرب . فاذا نشبت حرب أخرى واشتبكت فيها روسيا فإن تركيا إن لم تكن متحالفة معها سنسيطر حتما على المضائق وتغلق في وجهها بوابتي البسفور والدردنيل المؤديتين إلى البحر المتوسط . وقد تكون تركيا متحالفة مع الجانب المعادى لروسيا فتفتح البوابتين لأعدائها كما فتحتها في أثناء حرب القرم . وتعرض بذلك أساطيلها وقواعدها في البحر الأسود وقواتها في جنوبي روسيا وغربي آسيا لأعظم الأخطار .

وليس في وقوف تركيا موقف الحيدة في زمن الحرب ما يجنب روسيا موارد التلف والخسران التي تتوقاها ؛ فقد كانت تركيا محايدة في الحرب العالمية الثانية ؛ ونال روسيا بسبب ذلك الحيادة من الضر والعنت ما جعلها تنقم على تركيا وتسيء إليها حتى الآن . فقد سدت تركيا المضائق حقا في وجوه المتحاربين جميعا ، ولكن ألمانيا لم تلجأ في حربها مع روسيا إلى القوة البحرية بل كان جل اعتمادها في مواصلاتها على الطرق البرية والجوية ، على حين كانت روسيا في حاجة ملحة إلى فتح المضائق حتى تستطيع أن تتصل بمخلفاتها لإسعافها بالأسلحة المختلفة والمؤن والذخيرة في أيام محنتها عن طريق البحر المتوسط بدلا من استخدام طريق البحر الشمالي وخليج فارس وكلاما طويل موحش مخفوف بالأخطار الحربية والطبيعية .

لذلك كان تشدد روسيا الآن وعدم سماحها لتركيا بأن تستأثر بفتح البوابتين المؤديتين إلى البحر المتوسط . ولذلك أيضا كان تمسك تركيا بحقها الطبيعي تسندها بريطانيا والولايات المتحدة ، وكتاتهما تأييان على روسيا أن تصبح لها قواعد في البحر المتوسط توطد فيها نفوذها وتستطيع منها وقت الحرب أن تثب بسهولة إلى المواقع الاستراتيجية الحيوية في منطقتي القناة والشرق الأوسط . ومن هذا يتضح أن المحنة الحالية التي توشك أن تتردى فيها كل من تركيا واليونان إنما سببها وقوفهما في طريق عملاقين عظيمين يريدان أن يتسلبا بلعبة سياسة القوة في العالم . وإذن فويل للدول الصغيرة التي تعترض طريقهما

وتحاول أن تحول دون أن يأخذ بعضهما برقاب بعض . فهذه الدول إذا انحازت إلى أحد الجانبين تعرضت لسخط الجانب الآخر ونقمته، وإن هي هادنت أو حايدت الفريقين بامت بغضب الاثنين ، فهي في الحالين الضحية وكبش الفداء !

ولقد كانت ظروف الحرب العالمية الأولى مؤذنة بقرب تحقيق أحلام روسيا وبالخلاص من عقدة المسألة الشرقية ، والموافقة على إقامة قيصر روسيا بعد انتهاء الحرب على عرش الخلافة العثمانية في مدينة قسطنطين ووضعه المضائق في يدها ، فقد ارتضى الحلفاء الثلاثة بريطانيا وفرنسا وروسيا ذلك الموضع لروسيا بعد الحرب ، وأكدوا ذلك بمعاهدة سرية بينهم عقدت في لندن سنة ١٩١٥ ولكن لم تكتمل حتى سنة واحدة على هذا الاتفاق حتى قامت الثورة الكبرى في روسيا فأودت بكل ما خلفته حكومة القيصر من خطط ومواثيق ومعاهدات سرية كانت أو جوهرية ، وأعلن الثوار على الملأ أنهم يؤمنون بالمساواة بين الشعوب ، ويستنكرون اغتصاب الاقاليم التي ليست لهم ، وأنهم لا يقرون بالمعاهدات السرية ويبرأون منها ومن شروطها . وما لبثوا أن شفعوا القول بالفعل ، فأعلنوا نزولهم عما وعدت به روسيا في معاهدة لندن وفضحوا سرية المعاهدة فأعلنوا نصوصها وبذلك قضوا بأيديهم على الآمال التي كادوا يحققونها بعد كفاح دام قرابة ثلاثة قرون . ألم تسكن القسطنطينية والسيطرة على المضائق هي أول أهداف السياسة الروسية منذ اعتلى بطرس الأكبر عرش روسيا ؟ وهل كانت بيزنطة أو القسطنطينية التي وعد بها الروس لإلا أرض المعاد، التي سيورها الله للأرثوذكس ولو بعد حين !

لقد أنكر الثوار الروس في سنة ١٩١٧ ذواتهم ومصالحهم ، وسيطرت النظريات والمبادئ على تفكيرهم وعقولهم ، فأضاعوا الفرصة التي ظل الروس يترقبونها قروناً طويلة . وكانت ثمرة الاخلاص وإنكار الذات أن توثقت العلاقات بين تركيا وعدوتها التقليدية ، وارتبطتا بمعاهدة سنة ١٩٢١ واتنافقت

سياستهما الخارجية ، وجعلت تركيا منذ ذلك الوقت توجس خيفة من دول الغرب وتظن بها الظنون ثم تولى منها فراراً . وكانت الثورة السكالية قد قامت في يوم من صيف سنة ١٩١٩ ودوت من هضاب الأناضول صرخة الأموات الذين بعثهم مصطفى كمال من قبورهم ، فكأنما نفخ في الصور ، وكأنه يوم النشور ، فاذا الحياة تدب في أجسام الموتى ، وإذا الهزيمة والجوع والضعف تتلاشى أشباحها أمام إرادة أمة قد صممت أن تحيا مستقلة عزيزة الجانب لا سلطان لأجنبي فوق أرضها وإن تألبت عليها جميع القوى العاشمة .

وكانت الدول الغربية هي مبعث تلك القوى العاشمة التي تأمرت في معاهدة سيفر سنة ١٩٢٠ على تمزيق أوصال تلك الدولة ، فأخذت اليونان تراقيا وجزر بحر إيجه ، وتسابقت إيطاليا واليونان إلى أزمير وغربي الأناضول ، وأعلن استقلال الحجاز وأرمينية وكرديستان وانفصال الولايات العربية . وتألفت لجنة دولية تشرف على القسطنطينية والمضائق ، وأخرى تشرف على الشؤون المالية . وبذلك استحوطت تلك الدولة التي كانت ملء الأسماع والأبصار قبل مضي سنة واحدة من إعلان الهدنة سلطنة حقيرة متخاذلة تحت حماية الدول ورحمتها .

فهل كان غريباً بعد ذلك أن تنأى تركيا بقضها وقضيضها عن دول أوروبا الغربية ، وأن تجعل بينها وبينهم سداً منيعاً حتى لا تلدغ من جحرهم مرتين ؟ ولكن إذا كان السكاليون قد أشاحوا بوجوههم عن أوروبا واستدبروا الغرب ، فانهم كذلك لم يأنسوا إلى الشرق ولم يأنسوا بمصائر العرب والإسلام . وقد كان في مقدمة ميثاقهم الوطني أن ينزلوا نهائياً عن الأقاليم التي تتكلم كثرتها اللغة العربية . وكان الأتراك في قرارهم هذا معذورين ؛ فقد ضاقوا ذرعاً بمشاكل العرب وثوراتهم وناموا تحت عبء الخلافة الإسلامية بأثقال شنت جهودهم واستنفدت أموالهم وعرضت مصالحهم الوطنية الخاصة للتلغف والبوار . ولذلك نراهم أسقطوا من حسابهم بعد الانتصار سياسة الجامعة العربية أو الإسلامية التي استند إليها

سلاطين آل عثمان في كفاحهم ضد أوروبا ، وخاصة في عهد عبد الحميد الثاني . فكانت أماناً لهم من تألب دول أوروبا عليهم عدة سنوات . وبينما كان الكماليون يأتمرون بالخلافة ويتربصون بها الدوائر كان المسلمون في أنحاء العالم الاسلامي يظهرون سخطاً شديداً وقلقاً مستمر أخوفاً على مصير تركيا والخلافة بعد الحرب . فكان موقف المسلمين إذ ذاك شديداً بموقف المواطنين الرومان المنتشرين في معظم أنحاء العالم عقب غارات المتبربرين وسقوط روما في القرن الخامس الميلادي ، فقد كانت الحياة من غير روما وحكمها أمراً لم تتحمله نصوص القانون الروماني ولم تتصوره عقول الناس حينذاك . وكذلك ظن المسلمون بعد الحرب العالمية الأولى أن بيانهم الديني يوشك أن ينهار إذا ضاع استقلال تركيا أو ذهبت منها الخلافة . حقا لقد سكت المسلمون حين قامت حركة الثورة أو النهضة العربية في أثناء الحرب بزعامة الشريف حسين أمير مكة ضد الخلافة العثمانية ، ولكن ما كادت الحرب تضع أوزارها حتى علا الضجيج وارتفع صوت الاحتجاج عالياً من بين صفوف المسلمين ، وخاصة من الهند ، ضد ما كان قد بيته الخلفاء لتركيا غير مقدرين أن مصاب السلطة والخلافة في النهاية ان يكون عن طريق الخلفاء بل عن طريق الكماليين أنفسهم .

وكانت مفاجأة أئمة للعالم الاسلامي أن تصل أنباء إلغاء السلطنة العثمانية وإقالة السلطان محمد السادس في نوفمبر سنة ١٩٢٢ ، ثم فراره قبيل اجتماع الدول في لوزان سنة ١٩٢٣ لاقرار الصلح بين تركيا والخلفاء . وفي هذا الصلح نزل الاتراك من تلقاء أنفسهم عن الولايات العربية . وقد كانوا مستطيعين لو أرادوا بعد انتصارهم على الأتريق وإجباط مساعي الخلفاء ضدهم أن يحتفظوا ولو بالسيادة الروحية على ولاياتهم السابقة . ولكنهم آثروا أن يقطعوا مرة واحدة كل ما كان بينهم وبين العرب والمسلمين من اسباب . وقد وجدت تركيا من روسيا — وهي تناضل أكبر سياسي المغرب في

مؤتمر لوزان - أكبر نصير وأفصح لسان يترجم للمؤتمرين عن أصدق أماني تركيا بالاتفاق مع روسيا . وكانت نقطة الخلاف التي تهم روسيا والدول بطبيعة الحال هي مسألة المضائق . فقد أصرت بريطانيا وحلفاؤها على إعلان حرية المضائق في السلم والحرب ، حتى تستطيع عند الحاجة أن تخترق أساطيلها المضائق وتهدد روسيا . وبعد جلاذ وجدال ودفاع مجيد قامت به روسيا لتأييد حق تركيا القديم في السيطرة على المضائق رأت أن تتحرر المضائق في معظم أجزائها وأن يترك لتركيا حق مرور قواتها داخل المضائق وحق تحصين القسطنطينية وإبقاء حامية بها تتألف من ١٢٠٠٠ جندي ، وحظروا مرور السفن الحربية إذا كانت بمجموع حمولتها تفوق حمولة السفن التابعة لأقوى دولة على البحر الأسود ، فاعترض المندوب الروسي وقال إن هذا لن يمنع تجمع أساطيل أكثر من دولة واحدة تريد أن تخترق المضائق ، فأبت الدول تعديل الشرط . ورأى المندوب التركي عصمت إينونو الرئيس التركي الحالي أن يساير الدول الغربية ويمائتها بعد أن أجابت تركيا إلى معظم طلباتها في أدرنة وتراقيا ومنطقة المضائق . وخرجت روسيا من المؤتمر غضبي من تركيا التي تخلت عنها في أخرج ساعات المؤتمر ، فأصرتها في نفسها ولم تنسها .

ولكن تركيا لم تبال وخرجت من المؤتمر موفورة القوة عزيزة الجانب مزهوية بانتصارها وبتودد الدول الغربية اليها . وما كادت تنتهي جلسات مؤتمر لوزان حتى جسد الكماليون في انقلابهم مولين وجوههم دائماً نحو الغرب ، فشففوا إلغاء السلطنة بإلغاء الخلافة وإعلان الجمهورية التركية ، وساروا في طريقهم جميعاً تسربلهم البنذلات الأوربية خالعين طرايبشهم مزينين رموسهم بالقبعات الأفرنجية من كل رسم وصنف وعلى كل لون . وقد حرروا نساءهم وأنزلوهن حلقات الرقص ، واستصحبوهن إلى المقاهي والأسواق . ثم مالبنوا أن ألغوا الطرق الصوفية والتكايا ، وحرموا دراسة الدين . وبعد أن كان دين الدولة الاسلام أصدروا في سنة ١٩٢٨ قراراً بجعل الدولة مدنية

علمانية، وأبدلوا بالحروف العربية الحروف اللاتينية، وسار كمال أتاتورك على رأس وزرائه وكبار موظفيه ومعه السبورة والطباشير ليعلموا الناس على اختلاف طبقاتهم وأعمارهم الكتابة بالحروف اللاتينية الغربية، التي اعتبرها الجميع كأنها السحر الذي سيحل لهم طلاس النهضة ويفتح لهم أبواب الثقافة الغربية على مصاربعها. ولم يتجه الكماليون في وثبتهم هذه إلا مرة واحدة نحو الشرق، وذلك حين نقلوا عاصمتهم من القسطنطينية التي صارت إسطنبول إلى أنقرة في قلب الأناضول إمعاناً في التبرؤ من آثار السياسة الرجعية القديمة.

ولم يطل التجافي بين تركيا وروسيا، فقد قام خصام عنيف بين تركيا وبريطانيا بشأن الموصل، وكانت تركيا في مؤتمر لوزان قد اشترطت في مقابل النزول عن الولايات العربية التي كانت تابعة لها أن تحتفظ بالعناصر المسلمة غير العربية، وكان الأكراد الذين يسكنون حول الموصل من أقوى هذه العناصر، وكانت معاهدة سيفر التي لم يقدر لها التصديق والنفوذ قد منحت الأكراد استقلالهم فبات الأكراد يتربصون بالكمالين الدوائر، فما أن أصدروا قرارهم بالغاء الخلافة حتى قامت بينهم في سنة ١٩٢٥ ثورة جاحدة لم يستطع الأتراك قمعها إلا بمشقة بعد ثلاثة أشهر. وأرادوا أن يأمنوا جانب الأكراد في المستقبل فطالبوا بريطانيا بترك الموصل الذي كانت قد احتلته منذ ١٩١٨ وأدخلته في حدود دولة العراق الجديدة. ولما استعصى حل الخلاف أحييت المسألة إلى مجلس عصبة الأمم، وقد تكونت لجنة دولية وقررت في النهاية ضم الموصل إلى العراق مادام الانتداب البريطاني باقياً. وقد وقع هذا القرار على تركيا وقعاً أليماً، وأيقنت أن الدول الغربية تعتبرها كروسيا دولة نائرة خارجة عن نطاق الغرب.

وكان ارتياح روسيا لخسارة تركيا في نزاعها مع دول الغرب عظيماً، فما كادت الأنباء تترامى به حتى أرسلت رسالها لعقد محالفة جديدة بينها وبين تركيا في ديسمبر سنة ١٩٢٥ وبمقتضى هذه المعاهدة ضمن الفريقان لبعضهما البعض أن يلتزما الحياد

الوذي إذا هاجم أحدهما فريق ثالث وأن يلجأ إلى المفاوضة بطريق ما لحل مشكلاتهما التي يتعذر تسويتها بالطرق الدبلوماسية . ومنذ ذلك الوقت استقرت الحال في تركيا ، وقنعت بمعاهدتها مع روسيا غير ناظرة إلا إلى مستقبلها لا بالغرب تحتمى ولا إلى الشرق تنتمي . وبذلك استطاعت تركيا الجديدة في مدى اثني عشر عاماً أن تفرغ لتنفيذ برنامج الإصلاح الكمال الذي خلق من تركيا دولة قتيمة موطدة الأركان مرهوبة الجانب ، ومن الأتراك شعباً جديداً ناهضاً سرعان ما استرعى العالم بنهضته وحيويته .

و حين فرغت تركيا من تثبيت قواعد نهضتها الانقلاية في بلادها وبدأت تمار الإصلاح تنضج وتؤتي أكلها ، كانت آثار النظم الفاشية والنازية قد سادت أوروبا وآسيا وأصبحت آثارها ماثلة أمام أنظار الساسة في كل مكان ؛ فقد تنمرت اليابان على الصين واغضبت منها منشوريا في ١٩٣١ متحدية في ذلك عصبة الأمم . وبدأت إيطاليا تتحرش بأثيوبيا غير عابثة بمعارضة انجلترا ومعها عصبة الأمم . وخرجت ألمانيا من عصبة الأمم في سنة ١٩٣٢ ثم خرقت نصوص معاهدتي لوكارنو وفرساي . عند ذلك بدا للشعوب جلياً أن المواثيق والمبادئ التي أعلنتها عصبة الأمم لن تغني فتيلاً عن الحرب .

وأيقن كمال أتاتورك أن بلاده وشبه جزيرة البلقان كلها قد أصبحت مستهدفة لعدوان إيطاليا عاجلاً أو آجلاً ، وأن مصلحة البلاد العليا تناديه بأن ينبذ سياسة الانطواء والعزلة التي سارت عليها تركيا في الماضي . وكانت بريطانيا تمهد الطريق بين دول البحر المتوسط لمقاومة العدوان الفاشي إذا أعلنت إيطاليا خروجها على سياسة التأمين الجمعي التي يقوم عليها ميثاق عصبة الأمم ، فتوثقت العلاقات بين تركيا وبريطانيا ، ودخلت تركيا العصبة ووقفت وقفها المشرفة الشهيرة في دفاعها عن السلم في السنوات القليلة التي سبقت الحرب العالمية الثانية . وكانما أرادت أن تستغفر لخطاياها القديمة ، فقررت أن تحدث حدثاً سياسياً يؤمن قضية السلام العام من جهة ، ويصون مصالح تركيا والشعوب الصغيرة التي

تسكنتها شرقاً وغرباً من جهة أخرى . وإنه لمن معجزات الزمن أن تقوم تركيا في شبه جريرة البلقان ، التي طالما سالت في أوديتها الدماء أنهاراً من جراء الحروب والثورات التي اشتبكت فيها سلباً وإيجاباً ، بدور المصلح المخلص الداعي إلى الأمن والسلام بين هذه الشعوب التعسة . فبدأت تركيا بعقد معاهدة الصداقة مع الإغريق ، ثم أفضت سائر دول البلقان بأن خلاصهم متوقف على اتحادهم واعتمادهم على أنفسهم ، وأنه لا فائدة ترجى لهم من الاستناد إلى واحدة من الدول الكبرى ، وأن مصلحتهم العظمى تقضى عليهم بالألّا ينساقوا أو ينزلقوا إلى منحدر المنافسات الدولية القائمة في أوروبا الغربية إذ ذلك . وعلى ذلك تم الاتفاق على ميثاق البلقان سنة ١٩٣٤ بين تركيا واليونان ورومانيا ويوغسلافيا ، ولم يشذ عن الاتفاق سوى ألبانيا وكانت في سياستها تابعة لإيطاليا وبلغاريا وكانت لها مطامع لا يتيسر تحقيقها إذا حافظت الدول على الحالة القائمة .

ثم التفتت تركيا إلى الشرق وكانت علاقاتها مرضية بالدول التي استقلت عنها كبلاد العرب والعراق ومصر وإيران والأفغان ، ولم يسؤها أن ينفصل عنها الشام ولبنان وفلسطين وشرق الأردن تحت انتداب إنجلترا وفرنسا ، فقد جاهدوا جميعاً وكافحوا كما جاهد الكاليون وكافحوا لأجل استقلال بلادهم والتخلص من ربة الحكم الأجنبي . وبعد أن كانت هذه الدول مجرد ولايات أو إمارات أو ممالك فقيرة متخاذلة متأخرة لا يؤبه لها كثيراً ، أصبحت في مدى خمسة عشر عاماً بفضل نهضاتها الثقافية الاقتصادية دولا فتية محترمة مرموقة الجانب تؤمن بمستقبلها السياسي والاقتصادي ، وتحسب الدول الكبرى حسابها .

وعند ذلك ألمّ الحنين بتركيا إلى الشرق ، وعادت بها الذاكرة إلى سابق مكاتها في قلوب المسلمين ، وأحست في قرارة نفسها بأن الشرق هو صخرة الأمان التي يجب أن تلوذ بها تركيا إذا اكفهر الجو في الغرب ولمعت بوارق الحرب حول المنطقة الخطيرة في المضائق التي تسيطر عليها . ولكن كبرياء الترك وكرامتهم أبتا عليهم أن يعترفوا بالحقيقة كلها ، فقررُوا أن يكون اتحادهم شرقياً

صرفاً لا إسلامياً ولا عربياً فوثقت علاقتها مع إيران الجديدة ، وجعلت تسعى بالصلح بين إيران والعراق وأفغانستان . وأخيراً تم تأليف ميثاق سعد أباد قرب طهران في سنة ١٩٣٧ بين تركيا والعراق وإيران والأفغان على الأسس نفسها التي قام عليها ميثاق البلقان . وكان الأمل معقوداً باشتراك مصر والمملكة العربية السعودية في الميثاق . ولو فعلتها مصر لكان مركزها ثانوياً في الاتحاد ولقضى على فكرة الجامعة العربية وهي في المهد .

وانتهزت تركيا فرصة الاضطراب الدولي في الأيام التي سبقت الحرب العالمية الثانية فدعت الدول لتعديل معاهدة لوزان فيما يخص المضائق ، لتسترد كامل حقها في تحصينها وتسليحها حتى لا يتعرض أمنها لعنت إحدى الدول المهاجمة كإيطاليا . وقد أقرت الدول ذلك في مؤتمر منترو سنة ١٩٣٦ . وكان من صالح روسيا آتئذ أن تحول تركيا دون تسرب أساطيل الأعداء إليها ، كما رأت إنجلترا أن يكون أصدقاؤها في البحر المتوسط مسلحين وعلى أهبة الاستعداد لرد هجمات العدو المشترك . وقد نص في المعاهدة ، استمالة لروسيا ، على أن لدول البحر الأسود حق مرور أساطيلها في المضائق إذا اشتبكت في حرب . ولكن المعاهدة أبطت حق التصريح والمنع بيد تركيا نهائياً تستعمله كما تشاء في السلم أو في الحرب ، وهو ما تعمل روسيا الآن لنقضه لجعل مهمة الدفاع عن المضائق محصورة في أيدي دول البحر الأسود فحسب وفي مقدمتها طبعاً روسيا وتركيا ؛ إذ أن الدول الأخرى تابعة لروسيا في سياستها . ولما نشبت الحرب الأخيرة عانت تركيا منتهى العنت والشدة في المحافظة على حيديتها ، ولسكنها باءت من الحيدة بغضب روسيا وسخطها الشديد ، فقد نكمت عليها موقفها العدائي الجاحد في إبان محنتها الكبرى ، فانقلبت الصداقة القديمة بينهما إلى عداوة أعادت إلى الذاكرة ما كان بين الدولتين قديماً من جفاء ومرارة وعداء مستحكم . وقد ظهرت آثار ذلك جلية في إنذارها لتركيا بعدم تجديد معاهدة سنة ١٩٢٥ ثم برغبتها في تعديل معاهدة منترو لا على أساسها الدولي الأول بل وفق مصالح روسيا وفي نطاق دول البحر الأسود فحسب . ولما هاجمت إيطاليا وألمانيا شبه جزيرة البلقان في صيف سنة ١٩٤١ وأخذت

دولها تتساقط واحدة تلو أخرى في أيدي المحور، تلفت العالم ليرى أثر ميثاق البلقان بدخول تركيا الحرب إلى جانب الحلفاء ، ولكن سياسة الرئيس إينونو الرصينة الحصيفة أمّلت على تركيا سياسة الحذر والترقب. وحسناً فعامت تركيا؛ فلو أنها دخلت الحرب وقوات المحور في دفعتها الأولى لاستطاع الألمان بسهولة أن يخضعوها ويتخذوا منها معبراً إلى منطقة الشرق الأوسط ، ثم إلى قناة السويس وخليج العجم. وكذلك افتقد الناس ميثاق سعد أباد ونقبوا عن آثاره حين أغار الحلفاء على إيران وعزلوا الشاه رضا بهلوى ليتخذوا من إيران طريقاً إلى القوقاز فروسيا بدلاً من طريق المضائق التي سدتها تركيا بحيدتها ، أو بالأحرى التي لم يستطع الحلفاء اختراقها لمناعة مركز الألمان فيها بعد إخضاعها اليونان وجزر بحر إيجه . وبحث الناس أيضاً عن بقايا الميثاق حين قام رشيد السكيلاني بثورته الحربية في بغداد واضطر الملك والوصى على عرش العراق إلى الفرار . وعبثاً حاول المنقبون أن يجدوا أثراً للمواثيق التي جاهدت تركيا في إبرامها ؛ فقد أكلتها نيران الحرب المخربة ومزقتها سياسة الحرب فيما مزقت شذر مذر .

وكانت تركيا كلما دنت ساعة الحرب زاد اتصالها بدول الغرب ، فعقدت مع إنجلترا في سنة ١٩٣٨ قرضاً مالياً كبيراً أعقبه بعد شهور قليلة قرض آخر من الولايات المتحدة . وفي سنة ١٩٣٩ عقدت تركيا محالفتها مع بريطانيا لمدة خمسة عشر عاماً ، وبمقتضاها تعهدت بريطانيا بمساعدة تركيا إذا هاجمتها دولة أخرى ، على أن تقدم تركيا المساعدة لبريطانيا إذا هوجمت في منطقة البحر المتوسط ومست فيها مصالح تركيا . وفي تلك السنة أيضاً تعاهدت تركيا وفرنسا ، وقد نزلت لها الأخيرة عن سنجق الاسكندرونة التابع أصلاً لسوريا ، وذلك بعد نزاع دام بضع سنوات .

ولكن ما كادت تنتهى الحرب العالمية الثانية وتظهر بوادر النزاع بين تركيا وروسيا حتى عاد حنين تركيا إلى الجامعة الإسلامية أو الشرقية ، وبدأت تتحسر على الجاه والنفوذ الديني الذي كان لها في الماضي وبفضله استطاعت وهي حينذاك الدولة الضعيفة المتخاذلة أن تزعج روسيا وسائر الدول الأوروبية

المسيحية . فكم كان يكون جاهها وتأثيرها اليوم وقد تجددت قواها لو أن معها أصوات مئات الملايين من المسلمين الناهضين في كل مكان والذين كانوا يدينون لتركيا باختلافه .

ويبدو أن دول الغرب نفسها ، قد اقتنعت أخيراً بأن تركيا يجب أن تظل دائماً على الشرق ، وأن تعود كإحدى الدول العظمى حتى تقوى على مواجهة الضغط السوفيتي في تلك المنطقة العظيمة الخطر بين الشرق والغرب . وهم يرون أن أي نظام دفاعي في منطقتي الشرق الأدنى والأوسط لا ترتكز دعائمه على عزيمات الجندي التركي المشهور سيكون حتماً نظاماً هزيباً مصيره إلى الفشل لا محالة . لذلك نسمع الآن تصريحات من الرئيس إبنونو ومن وزرائه يرددون فيها رغبة تركيا المخلصة في عقد معاهدات صداقة مع دول الجامعة العربية وسائر الدول الشرقية ، وأنهم في سبيل هذه الصداقة مستعدون أن يمنحوا السوريين التسهيلات الاقتصادية المطلوبة في سنجق الإسكندرونة . وقد بدءوا فعلاً بعقد معاهدات مع العراق وشرق الأردن . وقد يكون مشروع سوريا الكبرى - إذ صح - أحد أركان هذه السياسة العليا التي تحتضنها بريطانيا وتشجعها أمريكا مالياً وسياسياً .

ولسكن الدول العربية الحديثة العهد باستقلالها هي لهذا السبب شديدة الحرص على تنمية قوميتها واستقلالها ، وهي تخشى إذا قويت تركيا أن تعود إليها النزعة السلطانية ثانية ولا تلبث أن تزحف إلى الجنوب . وقد أصبح العرب الآن من الكفاية والنضج السياسي بحيث لا يجوز عليهم أساليب الخداع والسياسة القديمة التي تنتجها الدول الغربية لخدمة مآربها الخاصة . وخير لتركيا ولسائر الدول المتوسطة والصغرى أن تنبذ سياسة التكتل والتحالفات مادام السلم قائماً وأن تحتذى حذو الممالك الإسكندنافية في حيديتها وتماسكها وتمسكها بمصالحها بين الفريقين المتنافسين . ولم يخدم تركيا الحديثة خير من سياسة كمال أتاتورك الذي فك وثاق تركيا من الغرب والشرق جميعاً وولاهها الوجهة التركية الخالصة التي ترضاها في ظل السلام العام .

الفصل السابع عشر

بين تركيا وروسيا

ما فتئت روسيا طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تتحرش بتركيا وتنقم عليها موقفا عند المضائق وعلى منفذ البحر الاسود تسد في وجهها طريق الوصول إلى مياه البحر المتوسط الدافئة، وما زالت تستعدى عليها الشعوب السلافية التي كانت خاضعة لسلطان تركيا وتناصرها سرا وعلانية حتى توالت على تركيا الثورات والحروب وتعاقبت عليها الهزائم وأخذت الولايات المسيحية تنفصل عنها واحدة تلو الأخرى، وتداعى البنيان حتى أوشك أن ينهار كاه وتصبح تركيا أثرا بعد عين لولا بقية من حيوية الجندي التركي الباسل ولولا ديب الخلاف بين الدول الكبرى بسبب التنافس على أملاك الدولة . ولقد نشأ من ضعف تركيا إلى هذا الحد وبقائها على هذه الحال البائسة زمانا ما عرف في التاريخ بالمسألة الشرقية و « الرجل المريض » .

ولو قدر للطامعين في ميراث الرجل المريض أن يتفقوا فيما بينهم على توزيع ذلك الميراث وتحديد مصير المضائق والقسطنطينية ما توانوا لحظة واحدة في الاجهاز على ذلك المريض ليقتسموا فيما بينهم تركته . وقد سبق في نهاية القرن الثامن عشر أن أنست روسيا ضعفا حريبا من بولنده وهي جارتها من الناحية الغربية ورأت فيها تحاذلا شبيها بما كان في تركيا فلم تتردد في الاتفاق مع حليفيتها بروسيا والنمسا على تقطيع أوصال بولنده وتجزئتها مرة أخرى وثالثة حتى أتوا عليها جميعا وأمّحت بولنده من خريطة أوروبا السياسية .

ولم يكن هناك ما يمنع من أن يكون هذا مصير تركيا أيضاً في القرن التاسع عشر لولا رحمة من الله أدركت الرجل المريض فقد ظل الورثة مختلفين بشأنه

حتى قامت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ ودخلتها تركيا إلى جانب ألمانيا فأيقن الورثة أن تركيا قد حان حينها وأن آخرة الرجل المريض قد دنت وأنه لا حرج من تقسيم التركة واعتبار المريض كأنه لا بحالة قد مات .

ولم يطل اختلاف الورثة بشأن التركة فقد كانت رحى الحرب تدور طحونا وكان عشرات الآلاف من المحاربين يموتون في كل يوم حتى لقد بدا أن الحرب قد لا تبقى على شيء يستحق أن يورث بعد الحرب ، وأن من صالح الحلفاء أن يتناسوا أحقادهم وأن يتساهلوا في تقسيم التركة حتى يفرغوا لأنفسهم ويصمدوا جميعا لقتال العدو المشترك حتى يتغلبوا عليه . ولما كان إعلان معاهدات التقسيم والحرب لم نزل قائمة والرجل المريض لم يزل حيا يرزق ، مما يجافي أبسط قواعد الحياء فقد أحاط الحلفاء مفاوضاتهم بالسكتمان وجعلوا اتفقاتهم سرية حتى لا يظهر عليها أحد إلا بعد كسب الحرب .

وكانت روسيا أولى الدول التي خشى الحلفاء أن ينالها السأم قبل غيرها فأرادوا أن يقدموا لها طعاما شهيئا يستهويها ويجذبها نحو الحلفاء إلى نهاية الحرب فهدموا معها أولى معاهدات التقسيم السرية في لندن في مارس سنة ١٩١٥ وبمقتضاها اتفقت كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا على أن تكون القسطنطينية والمضائق وما يجاورها من أراض من نصيب روسيا بعد الحرب ، وبذلك تتحقق لروسيا أعز أمانها السياسية . وفي سبيل كسب الحرب ضحت كل من بريطانيا وفرنسا بما بذلتا من الجهود الدائبة في أثناء القرن التاسع عشر لمنع الدب الروسي من التوغل جنوبا نحو البحر المتوسط .

وجاءت المعاهدة الثانية في مايو سنة ١٩١٦ حين التفت الحلفاء إلى الجانب الشرقي من التركة فاتفقوا بمقتضى المعاهدة التي عرفت بأسمى المندوبين الانجليزى والفرنسى على التوالى سيكس بيكو Sykes-Picot على أن تأخذ روسيا معظم بلاد أرمينيا وأن تكون بلاد المشرق تحت نفوذ فرنسا ، وفلسطين والعراق تحت نفوذ بريطانيا . وكلت اتفقات التقسيم بمعاهدة مع إيطاليا نالت بها جزر

الدوديكانيز وأزمير وجزءا كبيرا من الساحل الغربي للأناضول ، و باتفاق مع الشريف حسين أمير مكة على إعلان الثورة ضد الأتراك وتكوين دولة عربية تضم بلاد العرب وأجزاء أخرى داخله في نطاق معاهدة سيكس بيكو .
وبذلك لم يبق للرجل المريض مجال حيوى يعيش فيه حتى يلفظ نفسه الأخير سوى رقعة محدوده فوق هضاب الأناضول ابى كرم الخلفاء الا أن يحفظوها له لتكون فيه مقبرة جثته ومثواه الأخير .
ولسكن عناية الله كانت تلحظ الرجل ، فأدركته الرحمة الإلهية على يد أقرب الوارثين إليه دارا وألد أعدائه خصومة في الوقت نفسه وهى روسيا . ففي مارس سنة ١٩١٧ والحرب لا تزال فى عنفوانها قامت الثورة البلشفية فانسحبت القوات الروسية من الحرب وأعلن الثوار أنهم يؤمنون بالتعاون والمساواة بين الشعوب ويستنكرون اغتصاب الأراضى التى ليست لهم وفرض الغرامات الحربية على سكان البلاد المحتلة ، ولا يقرون المعاهدات السرية ويتبرأون منها ومن شروطها ، وكانت نتيجة ذلك أنهم نزلوا عما وعدوا به بمقتضى معاهدة لندن السرية سنة ١٩١٥ . فلما كسب الخلفاء الحرب فى سنة ١٩١٨ وسارت مواكب النصر فى طريقها إلى القسطنطينية لم تسكن روسيا فى الموكب ولم يسمح لها القدر أن ترفع رايتها على معقل الأتراك وحصن الإسلام فى ذلك الوقت . فقد تألفت لجنة دولية لحراسة المضائق واحتلال القسطنطينية ، وتلفت الخلفاء يميننا وشمالا يبحثون عن دولة تصلح للانتداب على هذه المنطقة العظيمة الخطر فأبت فرنسا أن يكون الانتداب لانجلترا ، وتوجست انجلترا الشر من نيات فرنسا وكاد الأمر يستقر على الولايات المتحدة لو لم تمنح أمريكا فى ذلك الوقت إلى سياسة العزلة الدولية إذنبذت سياسة ولسون ومعها ميثاق العصبة والانتدابات . وعلى ذلك لم يكن هناك مفر من بقاء الاحتلال العسكرى والاشراف الدولى على القسطنطينية والمضائق .
وكانت معاهدة « سيفر » المشثومة فى أغسطس سنة ١٩٢٠ وفيها أقر الرجل المريض الوصية التى أعدها فى غيابه ، فقد استقل الحجاز وانفصلت الولايات

العربية وأخذ الأغبريق تراقيا وجزر الأرخبيل وأخذت إيطاليا جزر الدوديكانيز وجزءا من آسيا الصغرى واستقلت أرمينيا وكرديستان وتسابقت إيطاليا واليونان على أزمير وغربي الأناضول فاحتلها اليونان بمساعدة الحلفاء وظلت اللجنة الدولية التي تمثل الحلفاء تتحكم في القسطنطينية والمضائق كما تألفت لجنة دولية أخرى للتصرف في الشؤون المالية .

وبينما الرجل المريض يعالج سكرات الموت، وشهادة الوفاة التي سجلت في سيفر تناقلها أيدي الحكومات للموافقة عليها إذا بروح جديدة تنبعث من جسم الرجل المريض الميت فتتقمص قائدا فذا من ضباط الجيش التركي فينسل من غرفة الموت ماضيا في طريقه إلى هضاب الأناضول حيث قرر الحلفاء أن تكون بها مقبرة الجنس التركي . ومن هذه الهضاب دوى صوت الثورة السكالية في يوم من صيف سنة ١٩١٩ فسكأنما نفخ في الصور ، وكأنه يوم النشور فاذا الحياة تدب في أجسام الموتى وإذا الهزيمة والجوع والعوز تتلاشى أشباحها أمام إرادة أمة قد صمدت أن تحي مستقلة عزيزة الجانب لا سلطان لأجنبي عليها وان تألبت عليها جميع القوى الغاشمة .

عند ذلك ائتلقت الثورة السكالية في تركيا والثورة البلشفية في روسيا ، وان لم يقر الترك مبادئ الشيوعية ، فكلتا النهضتين كانت بعثا جديدا لأمة مغلوبة خلقتها خلقا جديدا ، وكلتاها قضت على عناصر الرجعية والاستبداد واستعدت لكفاح الأجنبي الذي كان يتمنى جاهدا لو استطاع القضاء على الثورتين . وكان نزول روسيا عن معاهدة لندن السرية في سنة ١٩١٥ قد بعث الطمأنينة في نفوس الأتراك السكاليين فتقاربت مساعي الدولتين، وسرعان ما اعترفت روسيا بحكومة أنقره الجديدة وحل محل العداوة القديمة بين الدولتين عهد صداقة وأخاء توطدت أركانه بعقد معاهدة الصداقة بينهما في سنة ١٩٢١ إذ اتفق الحليفان على تسوية مسائل الحدود الشرقية بينهما ليفرغا لمواجهة القوات الأجنبية التي كانت تناوئها من الغرب فاحتفظت تركيا بقارص واردهان وارقفين على الحدود الشرقية

كما استردت روسيا باطوم وضمت جورجيا وأرمينيا إلى جمهوريات السوفيت .
ولما أمن الكماليون على حدودهم من ناحية الشرق سدّدوا ضرباتهم نحو
الأجنبي فانجلى الفرنسيون من شرق الأناضول، وآثر الطليان الايزجوا بأنفسهم
في حرب جديدة، وبقى الأغريق ولا نصير لهم سوى بريطانيا وكانت الدول المتحالفة
قد سرحت جيوشها بعد عقد الصلح وكانت الشعوب قد سئمت الحرب واستنكرت
مخاربة الأتراك وهم في عقر دارهم ولذلك لم يلق الأغريق من بريطانيا إلا معاونة
بحرية لا تكاد تذكر إلى جانب الروح القومية المتدفقة التي كانت تسيطر على الكمالين
والتي ظلت تقودهم من نصر إلى نصر حتى دحروا الأغريق في معركة سقاريا الشهيرة
وقذفوا بهم إلى البحر فانجّلوا عن أزمير والأناضول من غير رجعة بعد أن أشعلوا
النار في المدن والديساكر وكل ما صادفهم في منحدرهم إلى البحر .

بعد ذلك التفت الكماليون إلى القسطنطينية والمضايق وكادوا يهاجمون القوات
البريطانية المرابطة بها بعد انسحاب الفرنسيين والطلين لو لم يسارع الحلفاء إلى
مواجهة الحقائق ومفاوضة الكمالين في الصلح . وكان جل أمانى الأتراك أن يزقوا
شهادة الوفاة التي خطتها يد الحلفاء ضد تركيا في « سيفر » وأن يعلنوا للعالم ميلاد
تركيا الجديدة . فقرر الرأى على عقد مؤتمر الصلح في يوليه سنة ١٩٢٣ في « لوزان »
البلد المحايد ، لا في باريس ولا في لندن .

وفي هذا المؤتمر لم يمل الحلفاء شروطهم كما أملوها على ألمانيا والنمسا في فرساي
وكما اعتادوا أن يملوها على تركيا من قديم ، فقد أخذ عصمت باشا ممثل تركيا الجديدة
مكانه في المؤتمر مواجهاً لورد كيرزون ممثل إنجلترا وجعل يعرض مطالب
تركيا ويرد على اللورد حجة بحجة حتى كسب منه الصلح . ومن العجيب في هذا المؤتمر

أن يكون شبين المولود الجديد في هذا المؤتمر هو شيشيرين Chicherin
ممثل حكومة السوفيت الجديدة ، وهي وان لم تكن تربطها في ذلك الوقت بدول الحلفاء
صلات سياسية أو اقتصادية قد دعيت لتبدى رأيا في مناقشة مشكلة المضايق ،
فكان يمثلها أقوى نصير لتركيا وكان هو محاميا الأول ضد الحلفاء عامة وضد
بريطانيا بصفة خاصة .

وكانت بريطانيا التي ظلت طوال القرن الماضي تناضل عن استقلال تركيا وسلامة كيائها ضد روسيا، وتنادى في سبيل هذه الغاية بضرورة التمسك بحق السلطان في اغلاق المضائق أمام جميع السفن الحربية منعاً لروسيا من التسلل بأساطيلها إلى البحر المتوسط - قد جاءت إلى مؤتمر لوزان تدعو الدول إلى اعلان حرية البحار وحرية الملاحة داخل المضائق وتطلب إلى تركيا عدم تحصينها ونزع سلاحها لتكون منطقة محايدة حرة للجميع . وظاهر أن هذه النظرية الجديدة لم تكن في صالح تركيا ولا روسيا . فحيدة المضائق تحرم على تركيا تسليحها وتعرضها لهجوم الأعداء ، كما تيسر هذه الحيدة لبريطانيا وحلفائها اختراق المضائق بأساطيلها الحربية في أي وقت تشاء . وبذلك تظل روسيا أبداً مهددة بالعدوان . لذلك ناضلت روسيا بقوة لدحض النظرية الجديدة ولسكنها لم تفلح ولم يسع تركيا إزاء ما كسبته في لوزان من استرداد أدرنه وتراقيا ومنطقة المضائق وعدم تقييدها بشروط حربية كالتى قيدت بها ألمانيا - لم يسعها أن تسترسل في معارضة انجلترا فوافقت على سياسة الحيدة التي أرادوها للمضائق بعد ان اعترفوا بحقها في تأمين نفسها بتحسين القسطنطينية وجعلها قاعدة بحرية بها حامية حربية قوتها ١٢٠.٠٠٠ جندي وبقيت هذه الحالة قائمه أكثر من اثني عشر عاماً استطاعت تركيا في أثناءها أن تفرغ لتنفيذ برنامج الإصلاح السكالي الذي خلق من تركيا دولة فنية موطدة الأركان عزيزة الجانب ومر الأتراك شعباً جديداً ناهضاً سرعان ما استرعى أنظار العالم بنهضته وحيويته .

ولم تنس تركيا لروسيا موازرتها لها في أيام محنتها كما ظلت روسيا تذكر بكل خير صداقة تركيا وانضمامها إلى إيران والأفغان في معاهدات ودية مع حكومة السوفيت في الوقت الذي كانت فيه حكومات الغرب تعتبر مجرد التنويه بالبلشفية أو الشيوعية جريمة لا تغتفر وتأمرا على قلب نظم الحكم يعاقب عليه بالنفي والتشريد .

ولما فرغت كل من تركيا وروسيا من تثبيت قواعد تمضتها الثورية في بلادها

وبانت ثمرات الاصلاحات الداخلية الشاملة في البلدين كانت آثار النظم الفاشية والنازية قد ظهرت واضحة لكل ذى عينين وبدا للشعوب أن الموائيق والمبادئ التي أعلنتها عصبة الأمم سوف لا تغنى فتيلاً عن الحرب المتوقعة وأيقن ستالين أن بلاده مستهدفة لعدوان النازية عاجلاً أو آجلاً ان لم يكن من ناحية هتلر في الغرب فمن ناحية اليابان في الشرق وقد تنمرت اليابان على الصين واغتصبت منها منشوريا في سنة ١٩٣١ متحدية في ذلك عصبة الأمم وبدأت بذلك خطة استعمارية جديدة . وكذلك أيقن كمال أتاتورك ان تركيا معرضة لخطر دائم من ناحية مسوليني والفاشية وأن مصلحة البلدين تركيا وروسيا تقضى عليهما بالخروج من العزلة الدولية التي فرضاها على نفسيهما حتى لقد بلغ حرص كمال أتاتورك على هذه العزلة أن يهجر اسطنبول نهائياً ويتخذ عاصمته في أنقره وحتى لقد كادت الدول تعتبر الدولتين اسيويتين .

وعلى ذلك لم يكن مناص من أن تنبذ كلتا الدولتين سياسة العزلة . أما روسيا فقد ظفرت في سنة ١٩٣٤ بمكان دائم في مجلس العصبة ثم دخلت مع كل من فرنسا وتشيكوسلوفاكيا في معاهدة ، وكان الجميع يخشون عدوان ألمانيا على أراضيهم . وبدأ ستالين مشروع السنوات الخمس مرة بعد مرة حتى شهد العالم وهو مشدوه مبهوت إحدى معجزات القرن العشرين الاقتصادية حين رأى روسيا تتحول إلى بلاد صناعية تنتج ما تحتاج إليه البلاد حرياً واقتصادياً إلى جانب نهضة زراعية اجتماعية وثقافية أصبحت مضرب الأمثال في مداها وكفايتها، فكأنما كان ذلك كله في سرعته سحر ساحر لا بمجهود بشر !
وأما تركيا فواصلت نهضتها الصناعية والثقافية أيضاً وانتهجت في سياستها الخارجية خطة مبتكرة مالبثت أن رفعتها إلى مكان الزعامة بين دول البلقان والشرق الأوسط . وقد بدأت تركيا خطتها هذه بأن عقدت معاهدة صداقة مع الاغريق ثم اقنعت دول البلقان بأنه لا فائدة ترجى لهم من الاستناد إلى دولة من الدول الكبرى وأن فضجهم السياسى وحرصهم على عدم الانزلاق في منحدر المنافسات الدولية يحتمان عليهم أن يعتمدوا على أنفسهم أولاً وأن يتحدوا جميعاً

ليكونوا صفا واحدا أمام كل عدوان. وعلى أساس هذه الخطة تسكون اتحاد البلقان سنة ١٩٢٤ ولم تشذ سوى ألبانيا وكانت في سياستها تابعة لإيطاليا، وبلغاريا وكانت لها مطامع ترمى إلى تحقيقها من وراء عدم التمسك بالحالة القائمة. ثم التفتت تركيا إلى الشرق الأوسط فوثقت علاقاتها مع إيران الجديدة وجعلت تسعى بالصلح بين أعضاء الأسرة الشرقية الإسلامية حتى تم تسكوين ميثاق سعد آباد في سنة ١٩٢٧ بين تركيا والعراق وإيران وأفغانستان على الأساس نفسها التي قام عليها ميثاق البلقان.

ولما شرعت إيطاليا تتحدى العصبية وتعتدى ظلها على أثيوبيا وتبعثها ألمانيا باحتلال إقليم الرين وتحصينه وإعلان الخدمة الإجبارية مخالفة بذلك نصوص معاهدة فرساي وميثاق لوكارنو، ولم تقو العصبية على رد عدوان إيطاليا أو كبح النزعات الجارحة في ألمانيا - انتهزت تركيا الفرصة لتعديل معاهدة لوزان واسترداد كامل حقتها في تحصين المضائق وتسليحها حتى لا يتعرض أمنها وسلامتها لعبث دولة مهاجمة كإيطاليا مثلا. وكانت العلاقات بين روسيا وتركيا لم تزل ودية فأيدت روسيا تركيا في طلبها هذا لتسكون حارسة على البواغيز فتمنع تسرب أساطيل الأعداء إليها. وكان من صالح إنجلترا كذلك أن يكون أصدقاءها في البحر المتوسط مسلحين وبمأمن من هجمات العدو المشترك.

وعلى ذلك عقد مؤتمر منترو سنة ١٩٢٦ بين تركيا وبريطانيا وفرنسا واليابان وروسيا وباقي دول البلقان وقرروا إلغاء القيود الدولية التي وضعت في مؤتمر لوزان بشأن الرقابة على المضائق ونص فيه على حق تركيا في تسليحها وتحصينها كما تريد. ومع أنه قد نص في المعاهدة على أن لدول البحر الأسود حق مرور أساطيلها في المضائق في وقت الحرب - ومن هذه الدول روسيا طبعاً - فإن المعاهدة أبطت حق التصريح بالمرور ومنعه بيد تركيا نهائياً تستعمله كما تشاء سواء في السلم أو في الحرب، وهذا ما يضائق روسيا ويقض مضجعها الآن.

ولما اكفهر الجو الدولى فى أوربا وأوشكت تنداع شرارة الحرب العالمية الثانية كانت العلاقات بين روسيا وتركيا قد بدأت تتوتر فقد ارتابت روسيا من سياسة تركيا حين أوثقت الروابط بينها وبين إيران وتزعمت اتحاد سعد أباد فى حين كانت روسيا تطمع أن تبسط نفوذها على الأقاليم الإيرانية المتاخمة للجمهوريات السوفيت ، وترنو ببصرها إلى حقول البترول فى الشرق الأوسط ، لتسدخر مواردها من بترول القوقاز ، وكذلك ساءها من تركيا أنها تزعمت دول البلقان وكادت تخلق اتحادا سلافيا إذا كان الغرض منه منع إيطاليا من العدوان فما لاشك فيه أنه سيقوى على مر الزمن ويقف حجر عثرة فى طريق روسيا نحو الجنوب . ومنذ نشأت هذه الريبة بين الدولتين سارت كل منهما على النهج الذى اختطته لنفسها فلم نعد نلاحظ فى خططهما ذلك التناسق الذى كان يبدو جليا فى الماضى . فيئنا كانت تركيا ترتبط بمعاهدة الصداقة وتبادل المساعدة مع بريطانيا فى سنة ١٩٣٩ كانت روسيا لم تزل حائرة مترددة بين ألمانيا وبريطانيا . وكانت بريطانيا تعرض عليها الدخول فى الحرب متى بدأ العدوان النازى والفائى وذلك فى الوقت نفسه الذى كانت فيه ألمانيا لا تريد منها سوى التزام الحيدة ، وعلى ذلك آثرت التعاقد مع ألمانيا .

ثم نشبت الحرب فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ فأعلنت تركيا حيدتها وأخذت تحوط نفسها بما يؤكد هذه الحيدة فعقدت مع روسيا معاهدة عدم الاعتداء كما عقدت مع إنجلترا وفرنسا معاهدة تقضى بمساعدتها إذا هاجمتها دولة أوربية . ولما رجحت كفة ألمانيا فى أوائل الحرب عقدت معها تركيا سنة ١٩٤٠ معاهدة صداقة وتبادلنا أهم ما كان يلزمهما فأخذت تركيا عددا ومهمات حربية وأعطتها ألمانيا معدن الكروم الذى كانت ألمانيا فى ميس الحاجة اليه فى ذلك الوقت . وحاولت روسيا وقتئذ أن تقنع تركيا بفتح البواغيز لأساطيلها فأرسلت دعوة إلى رئيس الوزارة التركية لزيارة موسكو ولسكن تركيا تمسكت بتعهداتها الدولية ولم تستمع لنداء صديقها القديمة . ثم تطورت الحرب وانتقلت خطاها إلى الشرق ومضت ألمانيا تخضع حكومات

البلقان واحدة بعد أخرى فقبل للناس أن تركيا لا بد داخلة الحرب إلى جانب الحلفاء تنفيذاً لميثاق البلقان. ولكن دخول تركيا الحرب في ذلك الوقت لم يكن في صالح الحلفاء فقد كانوا في حاجة قصوى إلى السلاح ولم تكن تركيا في حالة تمكنها من مقاومة الألمان طويلاً، فلو أنها دخلت الحرب لاستطاع الألمان بسهولة أن يأخذوها معبراً إلى روسيا ويهددوا قناة السويس وخليج العجم في آن واحد. لذلك قبضت تركيا على حيدتها وكانت في موقفها كالمقايضة على الجمر فإنها لترى بعينها مصارع الشعوب التي داستها النازية بأقدامها الحديدية فتجفل وترتاع. ثم دخلت الحرب في أهم أطوارها في صيف ١٩٤١ إذ هاجم الألمان روسيا وأصبح من صالح الحلفاء أن يمهّدوا طريقاً للاتصال بها حتى يمدوها بما تحتاجه في كفاها من سلاح وغذاء، وكان طريق المضائق إلى البحر الأسود هو أقرب السبل إلى روسيا فحاولوا إقناع تركيا بفتح الدردنيل والبسفور لسفنهم فأبت تركيا عليهم ذلك كما أبت على روسيا حين كانت تحارب إلى جانب ألمانيا، واضطرت الحلفاء إلى الاتصال بروسيا أما عن طريق خليج العجم فأيران والقوقاز وأما عن طريق البحر المتجمد من الشمال وكلا الطريقين وخاصة الثاني منهما طويل مخفوف بالأخطار. ثم اشتد الضغط الألماني على روسيا وكادت ألمانيا تصل إلى آبار البترول بالقوقاز وباطوم وكان مما ينقذ روسيا أن تدخل تركيا الحرب فتهدد الجناح الأيمن للجيش الألماني الذي كان يستند إلى البحر الأسود ولكن عبثاً حاول الحلفاء إقناع تركيا بالخروج عن حيدتها وبقيت كذلك إلى أن لاحت في الجو بوادر النصر للحلفاء وبدأ رؤساء الدول يجتمعون في مؤتمرات موسكو والقاهرة وطهران في أواخر سنة ١٩٤٣. وقد دعى الرئيس أيتونو إلى التحدث معهم في القاهرة وحينئذ قبل الأتراك أن يمنعوا تصدير معدن الكروم إلى ألمانيا ولكنها لم تعلن الحرب إلى جانب الحلفاء إلا ليتسنى لها أن تشترك مع سائر الأمم المحاربة في مؤتمر سان فرانسيسكو صيف عام ١٩٤٥ ونقمت روسيا على تركيا موقفها الجاحد في ابان محنتها الكبرى فانقلبت

الصداقة القديمة بينهما إلى عداوة أعادت إلى الذاكرة ما كان بين الدولتين في العهد القيصري من جفاء ومرارة وعداء مستحکم. لذلك لم يكن مستغربا أن تنذر روسيا تركيا في مارس سنة ١٩٤٥ بعدم رغبتها في تجديد معاهدة الصداقة إلا بشروطها كما أخطرتها برغبتها في إعادة النظر في معاهدة منترو، وان توتر العلاقات بين الحكومتين بدرجة استرعت اهتمام الدول. وتقضى المادة ٢٨ من معاهدة منترو بأن مدة المعاهدة عشرون سنة ولكن المادة ٢٩ تجيز للدول أن تطلب تعديل موادها في كل خمس سنوات من تاريخ سريانها وعلى ذلك تكون المعاهدة قابلة للتعديل في سنة ١٩٤٦ وقد انقضت عليها فترتان

ولن تستطع تركيا أو أية دولة أخرى بعد أن خرجت روسيا من الحرب وهي أقوى دولة حربية في أوروبا — أن تحرمها حق المرور في المضائق بأساطيلها دون أن تستأذن في ذلك تركيا ، فلم تعد روسيا تخشى مهاجمة الدول كما كانت في الماضي بل أنها على العكس يهملها الآن أن تفتح أبواب المضائق لتتصل بسياسة البحر الأبيض المتوسط الذي برهنت الحرب الأخيرة على أنه المركز الرئيسي للنشاط الحربي العالمي . وقد بدأت روسيا تطالب بنصيبها في قواعد الاستراتيجية فأخذت مكانها إلى جانب إنجلترا وفرنسا وأمريكا في منطقة طنجة الدولية وجعلت تطالب بقاعدة حربية في منطقة المضائق نفسها .

ولن ترضى روسيا أن تستعيد تركيا مكانتها في البلقان ، فما زالت تعمل على أن تكون لها الزعامة بين الشعوب السلافية ليسكون مقامها بينها كقمام الولايات المتحدة من جامعة الجمهوريات الأمريكية بفارق واحد هو أن جمهوريات أمريكا تتمتع باستقلالها وبسيادتها التامين . أما حكومات البلقان فتريدها روسيا وفق نظامها وعلى هواها .

وتركيا تلتقي الآن أشد العنت من جانب روسيا . فهي تهددها من ناحية البلقان وقد نشرت نفوذها على حكوماتها جميعا وخاصة بلغاريا التي لا تزال تحلم بأدرنه . وتهدها كذلك من ناحية إيران فإن حدود تركيا من جهة الشرق تتاخم أذربيجان

وإذا نجحت روسيا في فصل هذا الاقليم من جسم إيران كما تمنى نفسها فستكون
روسيا سداً حائلاً بين تركيا وإيران فلا يبقى بين الدولتين ذلك الاتصال الوثيق
الذي ساعد على تأليف ميثاق سعد أباد، وستبذل روسيا جهودها لمنع تجديد هذا
الميثاق أو وصله بالجامعة العربية حتى لا تسترد تركيا زعامتها القديمة . وهناك
أيضاً الأقليات الكردية الموزعة بين تركيا وإيران والعراق والتي ما فتئت تعمل
روسيا بفضل المساعي الشيوعية على جمع شملها .
وهناك أيضاً جورجيا و أرمينيا وكتاتهما من جمهوريات السوفيت وهما تطلبان
تركيا بإعادة قارص و اردهان و ارييفان اليهما وكانت روسيا في سنة ١٩٢١ قد
رضيت بانضمام هذه الأقاليم إلى تركيا بعد استفتاء أهلها، على أن هذه الأقاليم كانت
تحت يد تركيا قبل سنة ١٨٧٨ حين استولت عليها روسيا، فاحتفاظ تركيا بها الآن
لا يعدو ان يكون استرداداً لبضاعتها . والأتراك مصممون على الدفاع عنها شبراً
فشبراً باعتبارها جزءاً من الوطن التركي، وإذا أصرت روسيا على اقتطاع هذه
الأقاليم وتعديل معاهدة منترو وفق مصلحتها وعلى غير ما ترضى به تركيا فلن يمض
وقت طويل حتى تظهر في أفق السياسة العالمية مسألة شرقية ، جديدة تختلف من
أجلها الدول وتناضل فيها تركيا وتقف منها كما وقفت في سنة ١٩١٩ لا كما كان
يقف الرجل المريض قبل ذلك التاريخ .

الفصل الثامن عشر

تطور سياسة روسيا الخارجية

يخطيء من يظن ان السياسة الخارجية لدولة ما رهينة آراء وزرائها وحكوماتها تتشكل وتتلون وفق اهوائهم وميولهم وخططهم فحسب . فهناك اعتبارات جغرافية وتاريخية ثابتة تتحكم في توجيه السياسة الخارجية لكل دولة ؛ واستمرار هذه الاعتبارات هو الذي يجعل الناس يقولون مثلا أن السياسة التي تنتهجها حكومة العمال الانجليزية هي نفسها سياسة المحافظين والمؤلفين من قبلهم ، وان اتجاه سياسة حكومة السوفيت بشأن المضائق ودول البلقان والشرق أن هو إلا صدى للسياسة التي سار عليها قياصرة الروس منذ عهد بطرس الأكبر وكترينه . وعلى الرغم من أن ثورة سنة ١٩١٧ في روسيا قد أوجدت هوة عميقة فصّلت بين عهد القياصرة وعهد السوفيت فإن روسيا ما كادت تفيق إلى نفسها وتستعيد مكائتها الدولية حتى وصلت ما كان قد انقطع من خيوط السياسة الخارجية التي استمسكت بها الحكومة الروسية قبل الثورة .

ومن أهم الحقائق الجغرافية التي لم تستطع روسيا أن تنسكرها رغم تغير نظم الحكم فيها انه بسبب تجمد مياه بحارها في معظم شهور السنة بحاجة إلى منافذ تيسر لها الاتصال بالمناطق الدافئة النشيطة في حركتها وتجارها ، وعلى ذلك لا بد لها من السيطرة على ساحل بحر البلطيق غربا ومن التحكم أو التدخل في مضائق البسفور والدردينيل لتتصل بالبحر الأبيض المتوسط والشرق .

ومن الحقائق التاريخية التي لا ينفك ذكرها عالقا بأذهان الروس ان هناك شعوبا من الجنس السلافي أو الصقابي الذي اليه تنتسب روسيا يسكنون في شبه جزيرة البلقان وأن روسيا ما فتئت طوال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين تحنو عليهم

وتدربهم وتحرضهم وتخوض الحروب من أجلهم حتى اطردهم نموهم وكمل استقلالهم وأصبحت روسيا تعتقد ان من حقها عليهم أن يخصوصها بالامتياز والنفوذ الأول بين الدول .

هذان مثالان من تأثير السياسة الخارجية في روسيا بالاعتبارات الجغرافية والتاريخية وسيتبين هذا الأثر مع العوامل الأخرى في سياق الحديث عن تطور هذه السياسة .

• • •

لما قامت الثورة البلشفية في روسيا في مارس سنة ١٩١٧ وكانت رحى الحرب العالمية الأولى لا تزال تدور وتطحن شباب الدول المتحاربة اعلن الثوار أن مبادئ النظام الجديد إنما تقوم على التعاون والمساواة والاخاء بين الشعوب وانهم لا يعتقدون في تفوق جنس على آخر أو تسلط دولة على أخرى . ورأى زعماء الثورة ان مواصلة الحرب بعد انهيار النظام في صفوف الجنود والبحارة قد يجر روسيا إلى هزائم حربية لا تلبث ان تفت في عضدها فتعوق سير الإصلاحات الداخلية فيها وقد تقضى على الثورة نفسها وهي لا تزال في المهد ، لذلك جنحت حكومة الثوار إلى السلم وسارعوا في اعلان سياستهم الجديدة وتتلخص في نشر السلام العاجل وحق تقرير المصير للشعوب واستنكارهم ضم اراضى الغير أو دفع الغرامات الحربية وبرؤمهم من المعاهدات السرية وشروطها .

وقد اعقب ذلك ابرامهم معاهدة « برست ليتفسك » Brest - Litovsk مع المانيا وحلفائها في مارس سنة ١٩١٨ وبمقتضاها فقدت روسيا فنلنده واقاليم بحر البلطيق ونزلت لالمانيا والنمسا عن بولنده الروسية في الغرب . وكانت نتيجة هذه المعاهدة ان نزلت مكانة روسيا حريا ودوليا إلى الحضيض .

ومع أن معاهدة فرساي سنة ١٩١٩ قد ألغت معاهدة برست ليتفسك وابطلت شروطها فان الحلفاء لم يدعوا روسيا للاشتراك في مؤتمر الصلح ذلك لأنهم كانوا

يكرهون حكومة البلشفيك في روسيا ومبادئ الشيوعية أكثر من كراهيتهم
للعسكرية الألمانية . ولذلك لم يترددوا في إقامة جمهوريات بحر البلطيق لتفيا
واستونيا ولتوانيا والاعتراف باستقلال فنلنده وبولنده ليدرأ كل هؤلاء عن أوربا
الغربية خطر الشيوعية وليقفوا سدا منيعا في وجه حكومة السوفيت إذا ما تحركت
جحافلها أو مبادئها نحو الغرب .

أما في البلقان فقد نزلت روسيا عن بساراييا ، لرومانيا واستطاعت بجهودها
أن تتغلب على أعداء الثورة البلشفية في أوكرانيا وروسيا البيضاء فضمتهما إليها
بالقوة غير مكرثة بمبدأ تقرير المصير .

أما في الشرق فإن استنكار روسيا للمعاهدات السرية وما ترتب على ذلك
من نشرها شروط المعاهدة السرية التي تمت بينها وبين إنجلترا وفرنسا في سنة
١٩١٥ بشأن استحواذها على القسطنطينية والمضايق بعد الحرب ونزولها طبعاً عن
المطالبة بتنفيذ هذه الشروط — قد أوجد الطمأنينة في نفوس الأتراك السكاليين
وأقام بين تركيا وروسيا بدلا من العداوة القديمة صداقة وعهد أخاء توطدت
أركانها لتشابه ظروف الدولتين واشتراكهما في مقت الحكومات الغربية وأساليبها
في تحريك الشعوب والحكومات ضدّها .

وعلى ذلك سرعان ما اعترفت روسيا بحكومة أنقرة الجديدة وعقدت معها
معاهدة الصداقة في سنة ١٩٢١ وكانت تركيا قد استولت على قارص واردهان
وارتيفان من أرمينيا فاحتفظت بها واستردت روسيا باطوم كما ضمت جورجيا
وأرمينيا إلى جمهوريات السوفيت ، ثم سوت روسيا مشا كلها مع بولنده وعقدت
مع ألمانيا معاهدة ربالو Rapallo سنة ١٩٢٢ وبها كسبت ألمانيا فوائدها
اقتصادية وحرية لم تخاطر على بال الحلفاء الذين استمروا في عدائهم وجفائهم
لنظام الشيوعية في روسيا .

بذلك استتب لروسيا الهدوء والسكينة فعمدت إلى ثورتها تثبت أصولها وتطبق
نظرياتها وتقمع أعداءها حتى تضمن لها الحياة والبقاء ، واستمرت هذه الفترة

الأولى من حياة روسيا الجديدة إلى يناير سنة ١٩٢٤ حين مات لينين زعيم البلشفية وقلبا النابض وعقلها المفكر وخلفه ستالين .

وبتسلم ستالين مقاليد الحكومة السوفيتية الناشئة دخلت روسيا في طورها الثانى من حياتها السياسية .

ولم يكن ستالين كلنين من قادة الفكر النظريين فلم يدرس في جامعات أوروبا مثل لينين ولم يتعرف على مفكرى الغرب أو كتبهم أو آرائهم . بل كان ستالين رجلا حريا عمليا مدركا للحقائق مؤمنا بمستقبل روسيا في ظل المبادئ الشيوعية ولم يخلق به الخيال يوما أو يمتد به الأمل إلى الدرجة التى تجعله يضحى من صالح روسيا في سبيل تحقيق الغرض العالمى الذى إليه قصد ماركس ولينين من بعده ثم تروتسكى من بعدهما في سبيل تعميم الثورة الشيوعية فى العالم بطريق العنف والقوة . بل كان من رأى ستالين أن تعمل وروسيا أولا على تدعيم خطته الاشتراكية فى بلد واحد ، بانهاض روسيا صناعيا . وقد مهد الطريق لتنفيذ برنامجه بتطهير الحكومة السوفيتية من عناصر الشيوعية العالمية وتشريد القائلين بها .

ومن حسن طالع ستالين أن أوروبا كانت تجنى فى هذه الفترة أحسن ثمار عصبة الأمم ، فقد دخلت ألمانيا العصابة فى سنة ١٩٢٦ وسادت بلاد العالم موجة من حب السلام جعلت روسيا تشترك من صميم قلبها فى اللجنة التحضيرية لمؤتمر تخفيف التسليح الذى انعقد بعد ذلك فى جنيف رغم أن روسيا لم تسكن عضوا فى العصبة وقد كان مندوبها لتفنوف Litvinov أقوى من رفع صوته فى المؤتمر مناديا بوحدة السلام فى العالم وبتخفيف التسليح بل وبنزعه كلية فى مدى أربع سنوات .

ولما لم يفد مؤتمر نزع السلاح شيئا وباءت عصبة الأمم بخيبة أمل مريرة تنبتهت روسيا إلى موقفها أزاء الدول وأدركت أنها إنما تقف وحدها فى عزلة عن دول العالم حريا وسياسيا ورأت روسيا أن مسابقة التسليح بين الدول ستعود حتما سيرتها الأولى وان مصيرها أصبح معرضا للضياع إذالم تنهض بسد حاجاتها

الحرية والصناعية بنفسها وعلى ذلك بدأ ستالين في سنة ١٩٢٩ مشروع السنوات الخمس الشهير .
ولما كان مركز روسيا المالي لا يسمح لها بالاقتراض اضطرت إلى مضاعفة الانتاج وتطبيق مبدأ إنكار الذات بكل دقة حتى تستطيع أن تسدد أثمان العدد والآلات الضخمة وتوفى أجور الحبيرين الأجانب الذين جاءوا من مختلف البلدان الغربية لتشغيل هذه الآلات وتمرين العمال والمهندسين الروس عليها ، حتى إذا ما انتهت السنوات الخمس ، شهد العالم مبهوتاً مشدوهاً أكبر معجزات القرن العشرين الاقتصادية إذ تحولت روسيا - وكان ذلك بعضا سحرية أو بمصباح علاء الدين - إلى بلاد صناعية تنتج كل ما تحتاج إليه حربياً واقتصادياً وذلك إلى جانب نهضة زراعية اجتماعية وحركة عمرانية ثقافية أضحت مضرب المثل في مداها وكفايتها ، وأصبح ستالين صاحب هذه النهضة الكبرى ومبدعها معبود القوم وملاذم الأعلی في السلم وفي الحرب .

ولما كمل استعداد روسيا داخلياً بدأت تلعب دورها على مسرح السياسة الدولية وكانت الحركة النازية في ألمانيا قد أخذت تقوى وتتغلب حتى استأثرت بالحكم وأصبح هتلر في سنة ١٩٣٣ على رأس ألمانيا يحركها كيف شاء فلم يتطرق الشك إلى ذهن ستالين أن روسيا قد استهدفت للعدوان عاجلاً أو آجلاً ان لم يكن من ناحية هتلر والغرب فمن ناحية الشرق وقد تنمرت اليابان على الصين واغتصبت منها منشوريا في سنة ١٩٣١ متحدية في ذلك عصبة الأمم .
وقف ستالين يرنو يبصره إلى الأفق الدولي على أن يجد لزوسيا حليفاً يخلص لها ويصدقها الوعد عند الحاجة فلم يجد أمامه سوى حليف واحد قد مد ذراعيه لاستقبالها هو عصبة الأمم التي أولته مقعداً ثابتاً في مجلس العصبة سنة ١٩٣٤ .
وسارعت فرنسا وتشكوسلوفاكيا إلى مخالفة روسيا لتعرضهما جميعاً لخطر النازية .
ولقد حاولت روسيا بكل ما لديها من قوة أن توظف الدول الغربية من سبائها لتأخذ الأهبة لدرء الخطر النازي فلم تفلح إذ أن الحكومة الانجليزية كانت تعتقد

أن مجرد الاستعداد للحرب كاف لاثارة سخط ألمانيا ودفعها إلى اعلان الحرب وهو ما كانت ترهبه الدول الغربية وتعمل جاهدة على مفاداته . ثم نعى إلى حكومة السوفيت أن دول الغرب لا يضيرها أن تقع الحرب بين هتلر وروسيا فيقضى هتلر على الشيوعية في روسيا خدمة للانسانية جمعاء وتخرج ألمانيا من هذا النضال ضعيفة مهينة الجناح فلا تعود تهدد دول الغرب، فزاد اريياب ستالين في نيات الدول الديمقراطية وبدأ مشروع السنوات الخمس الثانية حتى يكمل استعداد روسيا حريياً ولا تكون تحت رحمة الغير . وفعلاً أعلن ستالين سنة ١٨٣٩ أن روسيا ستعتمد على نفسها وانها وحدها كفيلة بسحق أية قوة تعتدى عليها وأنها لن تكون لعبة في يد الدول .

وأخيراً وضع الحلفاء وقامت إيطاليا تتحدى العصبية بانقضاها على الحبشة وتبعها ألمانيا تحتل اقليم الرين وتحصنه وتعلن الخدمة العسكرية الاجبارية مخالفة بذلك نصوص معاهدة فرساي ثم توالى عدوان هتلر على النمسا والسويد وتشكوسلوفاكيا . ولم يعد خافياً ضعف الحكومات الغربية وهزالتها وتداخل أوصالها أمام هتلر فعول ستالين على أن ينتقم لنفسه من دول الغرب وذلك بأن يوجه ضدها دفعة هتلر الأولى ريثما يتم له الاستعداد الكافي فأبرم مع هتلر معاهدة عدم الاعتداء في أغسطس سنة ١٩٣٩ وأهمل مساعي انجلترا المملة الطويلة في هذا السبيل . ثم احتاط للمستقبل فأبرم معاهدة الحيدة مع اليابان في ابريل سنة ١٩٤١ ودل بذلك على حنكة سياسية مدهشة فلم يكن يساور روسيا أقل شك في أن هتلر سينقلب عليها عندما يفرغ من اخضاع غرب أوروبا .

وفعلاً بدأ هتلر هجومه ضد روسيا في يونيه سنة ١٩٤١ وظهرت معجزة روسيا الحربية بعد معجزتها الاقتصادية . فبينما كان ثقات الحريين والنقاد في جميع أنحاء العالم يؤكدون هزيمة روسيا في مدى لا يزيد على ستة شهور إذ بروسيا تقف وقفتها الشهيرة أمام أكبر وأضخم قوة حربية تحركت على سطح الأرض منذ الخليفة فتصدها صداً باسلاً عنيفاً لمعت فيه عبقرية ستالين الحربية . ثم تحول

الدفاع إلى هجوم كاسح كاسر تعالت فيه ألوية النصر بفضل الصلابة التي اشتقتها الجنود والمجنندات من « رجل الصلب » ستالين الذي على رأسهم وبفضل المعونة التي تلقتها روسيا من الحلفاء عن طريق إيران والبحار الشمالية وأخيراً بفضل الانتاج الحربي المتزايد المتواصل المنبعث من المصانع الروسية المستورة من بطون السكوف والوهاد، والجبال التي اعتصم بها الروس عندما أوغل الأعداء داخل البلاد .

خرجت روسيا من هذه الحرب الضروس وهي عالمة تمام العلم في دخيلة نفسها أن النصر قد رفعها مع الولايات المتحدة فوق دول العالم جميعاً وأن وقوعها من الدول بعد هذه الحرب يشبه كثيراً موقف روسيا في سنة ١٨١٤ عقب هزيمة نابليون بونابرت فقد كان القيصر اسكندر الأول روح المقاومة الشعبية ضد نابليون وهو الذي أوصى بسياسة « المحالفة المقدسة » التي تولاهها الوزير النمسوي مترنخ وجعلها شعاراً للرجعية في سياسة أوربا في النصف الأول من القرن التاسع عشر .

ويخيل إلينا أن روسيا الآن تريد أن تتقاضى ثمن النصر كما تقاضته عقب انسكسار نابليون ولا تريد أن تغبن كما غبنت في أعقاب الحرب العالمية الأولى . وأول ما ترمى إليه روسيا من أهدافها الخارجية أن تحيط مساحتها الشاسعة بسياج حصين من الأمان فتعود إلى قواعدها في بحر البلطيق وقد أوثقت صلاتها ببولنده وضمنت اليها فعلاً جمهوريات البلطيق السابقة وكانت جزءاً من أراضيها قبل الحرب العالمية الأولى رافضة حتى أن تفاوض حلفاءها بشأنها .

وتريد روسيا من الجنوب أن تكون لها الزعامة بين شعوب البلقان الصقلبية كما أن للولايات المتحدة الزعامة بين جمهوريات أمريكا الأخرى . وإذا كانت روسيا لا تطمع في ضم جزء من هذه الأراضي عدا بسارايا وقد ضمتها في سنة ١٩٤٠ حين كانت حليفة لألمانيا - فإنها تريد أن تجعل من هذه الأقاليم منطقة نفوذ خاصة بها . وستجر هذه السياسة حتماً إلى معارضة الدول الغربية ولها في البلقان عامة وفي اليونان والمضايق خاصة مصالح لا يستهان بها . ومع توتر العلاقات بين

روسيا وتركيا لأسباب كثيرة أهمها تلكؤها في إعلان الحرب على ألمانيا ولو أعلنته لشغل جناح ألمانيا الأيمن في أثناء هجومها على روسيا — فاننا لانعتقد أن حكومة السوفيت تخاطر بإعادة تاريخ القياصرة والمسألة الشرقية من جديد .

وتعتبر روسيا أقرب الدول الأوربية إلى منطقة الشرق الأوسط وحدودها تلامس فعلا إيران وافغانستان والعراق فضلا عن تركيا . ولذلك فإنه يهمها كثيراً ألا يهمل شأنها في هذه المنطقة الحيوية كما أهمل في الماضي . ففضلا عن سعيها في إنشاء العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية بينها وبين بلدان هذه المنطقة فإنها ستعمل على تخصيص بعض هذه المواقع الاستراتيجية لتسكون مناطق دولية تشترك فيها روسيا . فقد طالبت روسيا بأن تكون عضوا مشرفاً على نظام طنجة الدولي مع باقي الحلفاء وأجيبت إلى طلبها . وهامى ذى تطلب أن توضع المستعمرات الإيطالية القديمة تحت وصاية هيئة الأمم حتى يكون لروسيا مكان في تلك المنطقة العظيمة الخطر .

وأما في الشرق الأقصى فتريد روسيا أن تكون مع كندا والولايات المتحدة دولة باسيفكية ولذلك نراها تعمل على أن تصل إلى قواعدها التي كانت لها قبل انضمامها أمام اليابان سنة ١٩٠٥ ، وتعتقد روسيا أن الصين واندونيسيا وغيرها من بلاد الشرق الأقصى ستصبح قريباً حقلاً صالحاً لانبثاق بذور الشيوعية بين مئات الملايين الذين يقطنون هذه الأرجاء . وهانحن أولاء نرى جموع الشيوعيين في الصين قد انتصروا على القوات الوطنية بقيادة شيانج كاي شيك فاحتلوا منشوريا أولاً ثم زحفوا جنوباً حتى احتلوا نانكينج عاصمة الوطنيين وشنغهاي أعظم موانئ الصين وكاد الشيوعيون يسيطرون على جميع الصين . ووجه الخطر من سياسة روسيا في آسيا أن تنفتت الذرة الصينية فتنتقل منها طاقة شيوعية هائلة تهز الهند والصين الهندية بل والعالم بأجمعه . وليس يداني هذا الخطر أى خطر آخر سواء أكان مبعثه البلقان أو برلين أو البحر المتوسط .

الفصل التاسع عشر

اليونان بين الملكية والجمهورية

ورث الاغريق المحدثون فيما ورثوه عن أسلافهم القدماء ولوعاً بالحرية والاستقلال ، وإيماناً قوياً بالذاتية الفردية التي تجعل للفرد أو للمدينة كياناً مستقلاً خاصاً لا يمتثل ضمناً أو إدماجاً في وحدة أو وحدات أكبر وأوسع نفوذاً . ولقد كان لهذه الصفة الأخيرة أبلغ الأثر في تكيف تاريخ هذه الأمة العريقة . فبينما نرى المصريين والفرس والرومان قد جمعوا شتات أقوامهم ووجدوا شمل بلدانهم وأنشأوا لهم في التاريخ القديم دولا موحدة مترامية الأطراف كان الشأن الأول فيها للحكومة المركزية، إذا بتاريخ الإغريق القدماء يزخر ويزدهر بقيام دول شتى تلمع فيها عبقرية الأفراد وبعض شأن المدن المستقلة ، فينافس الجميع بعضهم بعضاً في إقامة أحسن النظم وأدناها إلى سعادة الإنسان وشحن فكره وترقية ذوقه . ولم يكن الإغريق القدماء ليرضوا بديلاً عن تلك الذاتية الفردية إلا إذا دهمهم من الخارج أو الداخل خطر يعرض كيانهم أو حرياتهم للضياع ، كما حدث عند ما هاجمتهم جيحافل الفرس واساطيلهم في القرن الخامس قبل الميلاد ، وحينئذ تتضافر جهودهم ويتناسون أحقادهم ويقفون جميعاً في وجه المعتدى ، كما هم للمجموع وأرض هيلاس للجميع . ولقد وجد المقدونيون البلاد فترة في عهد الاسكندر الأكبر ، وأصبحت لهم دولة ترامت أطرافها إلى الهند وحدود الصين ، ولكن سرعان ما استحالت إثر موت الاسكندر إلى دويلات مستقلة طوعاً لطبيعة البلاد والناس .

وقد دعاهم حرصهم على ذاتيتهم وشدة تمسكهم باستقلالهم الفردي أن يشن بعضهم على بعض حروباً أهلية ، عرفت أكبرها في التاريخ القديم بحرب

بيلويونيز ، وظلت مستعرة بينهم قرابة سبعة وعشرين عاماً ، لالسبب سوى أنهم
آنسوا من أئينا ميلا للطغيان وبسط نفوذها على سائر المدن الإغريقية المستقلة ،
وحرمانها تلك الذاتية الفردية التي قدسها الاغريق قديماً ، وكانت في تاريخهم
الحديث مصدر شقاوتهم واضطراب أحوالهم إلى الآن .

ولقد كان يظن أن رزوح اليونانيين تحت نير الأتراك زهاء أربعة قرون منذ
فتحها العثمانيون في القرن الخامس عشر إلى قرب منتصف القرن التاسع عشر ،
قد غير من طبائع هذا الشعب وبدلم بحب الحرية والذاتية الفردية خضوعاً
للغاصب واستسلاماً لطبائع الاستبداد ؛ ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ؛ فإن
الأتراك العثمانيين لم يكونوا يوماً مستعمرين متسلطين ، بل كانوا رغم تفوقهم
العسكري قوما كسالى ، لاهم لهم إلا جمع القوت والمال لإشباع بطونهم وبطون
رؤسائهم في القسطنطينية ، فتركوا أهل اليونان أحراراً يوزعون الضرائب بينهم ،
أحراراً في كنائسهم وفي مدارسهم ، لهم رؤساؤهم الروحانيون والمدنيون ،
والكثيرة الغالبة منهم يعيشون عيشة الفاقة والقناعة على ما تنتجه بلادهم المجدية
التي تكنتفها سلاسل الجبال الشاهقة ، فتجعل الزراعة والمواصلات والسعى إلى
كسب الرزق عملاً بالغاً منتهى الشدة والمشقة .

ولما كان الأتراك يزاولون سلطانهم عادة في المدن بسند من عساكرهم
وحامياتهم ، وجداليونانيون الأحرار ملأذا لحريرتهم بين مسالك الجبال ومفاوزها ،
واتخذوا من كهوفها ووادها مراكز لعصاباتهم تحصنوا فيها ، وكانت لهم أوكار
يكرون منها ويفرون ، ومنها يتقضون ليلاً على الأتراك وعلى أهل المدن والسهول
من الموسرين الموالين للحكام ، يسلبونهم متاعهم وينكلون بهم ويقتلونهم خفية ،
ثم يعودون من غزواتهم غانمين آمنين ، فلا الأتراك بمستطيعين أن يصلوا إلى
مراكز هذه العصابات ، ولا اليونانيون قادرون على إفشاء سر إخوانهم أو
مخالفة أوامرهم . وشبيهه رجال العصابات أهل الجزر المنتشرة في بحر إيجه ، فقد
كان لتركيا أساطيل وقواد بحريون ، ولكنهم كانوا لا حول لهم ولا قوة أمام

ملاحى اليونان وقرصانهم من أهل الجزر الذين سيطروا على حركة الملاحة والتجارة ، فبنوا السفن والأساطيل وسلحوها خفية ومخروا بها عباب البحار إلى مختلف ممالك أوروبا . وقد أفادوا كثيراً من الحصر البحرى الذى أعلنه نابليون على الجزر البريطانية وأعلنته إنجلترا على قارة أوروبا . ومثل أولئك وهؤلاء كان القساوسة والرهبان من رجال الكنيسة الأرثوذكسية الذين اتخذوا من امتيازاتهم الدينية ستاراً أسدلوه على نشاطهم الاجتماعى والسياسى ، فكانوا يجربون الهضاب والقفار والأودية ويطوفون على القرى ومراكز العصابات يواسون الفقراء ويضمّدون جراح المرضى والمساكين ، ويذكرون الناس جميعاً بمجد الدولة البيزنطية القديمة ، ويبدشرونهم باقتراب يوم الخلاص والنشور !

وعلى أكتاف هذه العناصر الثلاثة قامت الثورة ضد الأتراك فى سنة ١٨٢١ ، واشتعلت حرب استقلال اليونان واستمرت زهاء عشر سنوات بين مد وجزر ونصر وخذلان ، حتى تدخلت الدول ، وتقدمت روسيا تحارب تركيا فى سبيلهم وتقف أمام القسطنطينية تخير الأتراك بين تحرير اليونان أو ضرب العاصمة . فلم يسع تركيا سوى الإذعان للقوة ، وأقرت الدول فى سنة ١٨٣٠ استقلال اليونان وانسلاخها عن تركيا .

وكان خروج اليونانيين بعد أربعة قرون قضوها فى ظلمات الاستبداد والاحتلال الأجنبى إلى نور الحرية والاستقلال قد غشى أبصارهم فجعلهم يتعثرون ويتخبطون فى مزالق السياسة ، فما كادوا يتمتعون باستقلالهم حتى ظهرت عليهم أعراض الذاتية الفردية وطغت بينهم الأحقاد ، واتسعت هوة الخلف بين أهل الجبل وأهل السهل ، فعمت الفوضى ، وراحوا يزجون فى السجون زعماءهم ويقتلون كابو دستريا Capo d'Istria أول رئيس لجمهوريةهم التى أعلنوها سنة ١٨٢٧ . وكان كابو وزيراً لخارجية روسيا واختاره اليونانيون رئيساً لهم ؛ فلم تمض إلا سنوات ثلاث حتى قتله لأرستقراطيته وجوره .

وعند ذلك قررت إنجلترا وفرنسا وروسيا أولياء أمر اليونان أن يوضع

حد للنزاعات الداخلية بإعلان الملكية ، واختاروا لتاجها الأمير أبو Otto ابن ملك بفاريا ، فسار على غير هوى اليونانيين ولم يكن له عقب ، فأقالوه سنة ١٨٦٢ واختاروا بدله الأمير جورج الدنمركي . وقد مهدت بريطانيا الطريق أمام الملك الجديد بأن نزلت لليونان عن جزر الأيونيان . وكانت هذه الجزر تتمتع منذ سنة ١٨١٥ بحكم ذاتي تحت سيادة بريطانيا ، فانجذب الشعب اليوناني نحو الملك الجديد وتوطد مركز الملكية بفضل ارتباطها بأواصر النسب مع أكبر تيجان أوروبا إذ ذلك ، فقد كان الملك جورج الأول متزوجاً بأميرة روسية ، وكانت شقيقته زوجة ولي عهد إنجلترا وهو الذي اعتلى العرش بعد والدته الملكة فيكتوريا باسم الملك إدورد السابع ، وقد تزوج ابنه وولي عهده قسطنطين من أميرة ألمانية كانت شقيقة امبراطور ألمانيا وليم الثاني .

وفي ١٨ مارس سنة ١٩١٣ قتل الملك جورج الأول في سلانيك ، قتله إغريق فوضوى . وكان جورج حاكماً معتدلاً ، زادت في عهده رقعة البلاد وترامت حدودها ، فضمت جزيرة كريد سنة ١٩٠٩ . ولما قامت الحرب البلقانية ضد تركيا ١٩١٢ - ١٩١٣ وانتهت بهزيمة تركيا ، امتدت حدود اليونان شمالاً إلى مقدونيا وشرقاً إلى ترافيا وغرباً إلى أيرروس جنوبي ألبانيا ، وبذلك تضاعفت مساحة البلاد ، وزاد عدد سكانها بمقدار مليوني نفس تقريباً .

على أن طريق الملكية في اليونان لم يكن سهلاً مبعداً ، بل على العكس ظلت البلاد تعاني بسبب فقر الشعب وانقساماته وتقلباته متاعب وأزمات كثيراً ما عصفت بالحكومات وكادت تذهب بآثار الملكية إلى غير رجعة . ولم يكن في هذا كله أمر يدعو إلى الدهش والغرابة إذا أدركنا أنه ، رغم انقضاء أكثر من مائة عام على تمتع اليونان الحديثة باستقلالها ، لا تزال شؤون البلاد الداخلية : دستورها ونظام الحكم فيها ماثراً خلافاً بل حروب أهلية إلى الآن . ففي أثناء هذا القرن اغتال اليونانيون رؤسائهم وملوكهم وشرذوهم أكثر من مرة ، وأنشأوا حكماً جمهورياً ، وأقاموا دكتاتوريات عسكرية مرة تلو أخرى . وما كانت هذه

التغيرات لتتم عادة إلا مصحوبة بحركات ثورية أو تمردية وحروب أهلية تراق فيها الدماء ، وتطاح فيها رؤوس القادة والوزراء ، ويصاب فيها الأهلون أخيراً بأفدح المظالم والمغارم .

وكان أفدح ما منيت به اليونان الحديثة من خلاف داخلي في أثناء الحرب العالمية الأولى ؛ إذ كان الملك قسطنطين موالياً لصهره إمبراطور ألمانيا ، وكان رئيس حكومته الزعيم الشعبي فينزيلوس Venizelos يناصر الحلفاء فلما قرر الحلفاء إرسال حملة غاليبولي لمحاولة اقتحام المضائق والاتصال بروسيا عن طريق البحر الأسود ، كان مما يساعد على نجاح الحملة أن تقف اليونان إلى جانب الحلفاء ، فلما تعذر إقناع قسطنطين ترك فينزيلوس الوزارة وأعلن على الملأ تأييده لقضية الحلفاء ، ودعا اليونانيين إلى الالتفاف حوله في سياسته ، فاستجاب جانب كبير من الشعب لندائه ، وأقام في سلانيك حكومة وطنية ما لبث الحلفاء أن اعترفوا بها .

وعلى ذلك بدت اليونان أمام العالم كله أمة منقسمة على نفسها ، يحكمها من أثينا ملك محايد يميل إلى دول الوسط ، ومن سلانيك رئيس متمرد على الملك يناصره الحلفاء ويناصرهم بقواته التي جمعها من بين أفراد الشعب التعس . وأخيراً لم ير الحلفاء بداً من إقصاء الملك المعارض ، فقرروا إقالته سنة ١٩١٧ ، فغادر البلاد ومعه ابنه الأكبر جورج ؛ إذ كان الابن كأيبيه متأثراً بالثقافة الألمانية وهو يبدأ سياستها ، وأقاموا على عرش اليونان الابن الأصغر باسم الملك إسكندر ، وأصبح فينزيلوس رئيساً للحكومة ، فدخلت اليونان الحرب وساهمت في النصر إلى جانب الحلفاء بما يقرب من ربع مليون جندي ، ومات الملك الشاب في سنة ١٩٢٠ أثر عضه من قرد

وعلى الرغم من أن فينزيلوس قد مثل اليونان في مؤتمر الصلح في باريس وكسب لنفسه ولأتمته مزايا ومنزلة فصرت عن إدراكها دول كانت أعظم من اليونان شأناً وأكثر مالا وأعز نفراً ، فإن اليونانيين ما لبثوا أن انقلبوا على زعيمهم الذي استسلم للحلفاء وجعل بلاده لهم مطية ذلولاً استخدموها في تحقيق مآربهم ، فلما استفتى الشعب قرر عودة الملك قسطنطين ، وكانت اليونان إذ ذاك

تحاول هضم اللقمة الدسمة التي سخا مؤتمر الصلح في سيفر باقتطاعها لها ، فكان نصيبها منطقة أزميز وتراقيا الشرقية وجزر بحر إيجه ما عدا الدوديكانيز . وكانت قد ظهرت في ذلك الوقت حركة النهضة التركية السكالية ، فلم يكن بد من اصطدام قوات الشعبين ، فوقفت الحكومة الإنجليزية من وراء اليونان تؤيدها ، ووقفت فرنسا وإيطاليا تؤيدان الكمالين سرأ وعلانية ، وأخيراً تولى قسطنطين قيادة جيشه ، فدحر اليونانيون في معركة سقاريا الحاسمة وباءوا بخزى عظيم ، فقد طاردتهم الأتراك حتى قذفوا بهم إلى البحر ، ونزل قسطنطين عن عرشه وفر إلى إيطاليا ، وما لبث أن مات سنة ١٩٢٣ وخلفه ابنه الملك جورج الثاني

ولسكن الهزيمة التي منيت بها اليونان على يد الأتراك في الأناضول كانت قاصمة الظهر وبالغة الخطر ، فزيادة على ما أصاب اليونانيين من خسائر مادية وأدبية رأى الأتراك أن الفرصة سانحة للقضاء على مشكلة أقلية الأروام في بلادهم ، فقررُوا انتزاعهم من جذورهم وترحيلهم بقضهم وقضيضهم إلى بلادهم الأصلية مقابل نقل الأتراك المسلمين الذين كانوا يعيشون في تراقيا والموره إلى تركيا . ومعنى ذلك أن اليونانيين المنهزمين الذين لا يرزقون أقواتهم إلا بشق الأنفس كان عليهم أن يقبلوا بين ظهرانيهم مليوناً ونصف مليون من المهاجرين الأروام الذين نسوا بلادهم وعاشوا قروناً طويلة في الأناضول وتركيا . وإذا عرفنا أن سكان اليونان آنئذ لم يكونوا يزيدوا على ستة ملايين إلا قليلاً أدركنا فداحة المصيبة التي منيت بها البلاد من الوجهة الاقتصادية . أما الأتراك الذين هاجروا من اليونان فلم يزيدوا على نصف مليون نفس . ولسكن هذا التبادل في الأقليات بين تركيا واليونان رغم ما صحبه في التنفيذ من آلام وشدائد ، كان أوفق حل لمشكلة الأقليات ؛ وقد انتهت بأن أقامت بين الدولتين روابط صداقة وحسن جوار كانت عاملاً قوياً في إعلان ميثاق البلقان سنة ١٩٢٤ ، وربط الشعبين المتجاورين التركي واليوناني بأقوى الصلات وأوثقها في العهد الحديث .

ولقد كان من جراء هزيمة اليونانيين بقيادة الملك قسطنطين أن ضعف شأن

المللكية في اليونان وضؤل خطرها ، فأعدموا ستة من الوزراء والقواد المللكيين وأثاروا بفعالتهم هذه النكراء سخط العالم المتمدن في جميع أنحاء العالم .
ولم يمض عام على اعتلاء الملك جورج الثاني عرش اليونان بعد وفاة أبيه حتى اتهموه بتدبير ثورة ضدالنظام القائم ، وأرغموه على النزول عن العرش ، وأعلنت الجمهورية سنة ١٩٢٤ وظل الزعيم الشعبي فينزيلوس رئيساً للحكومة يعمل جهده لرأب الصدع وإعادة الثقة بالدولة بعد أن خفت موازينها إثر اندحارها أمام الأتراك وانحذارها إلى مستوى الوحشية لإعدامها ستة من وزراءها وقوادها رمياً بالرصاص . وكان فينزيلوس يقضى معظم أيامه بعيداً عن بلاده في فرنسا أو متنقلاً بين العواصم لقضاء مهمات دولية ، فترك أنصاره يسيثون الحكم في البلاد حتى إذا كانت سنة ١٩٢٦ انقلب الرأي العام ضد فينزيلوس وقامت في البلاد دكتاتورية عسكرية برياسة بنجالوس . فغادر فينزيلوس البلاد إلى فرنسا ، وظل بها حتى دفعه غروره وحبه للخاطرة إلى إشعال فتنة حربية بحرية في سلانك سنة ١٩٣٥ فانبرى لهم الجنرال كنديليس kondylis ، وقضى على الفتنة قبل أن تستفحل ، وأقام دكتاتورية عسكرية ما لبثت أن مهدت الطريق للعود، المللكية سنة ١٩٣٦ . وقد مات كنديليس وفينزيلوس وتسالداريس وهم أكبر زعماء اليونان ، وبذلك صفا الجو لجورج الثاني .

ولما عاد الملك جورج الثاني إلى عرشه أعلن أنه إنما يعود إستجابة لصوت الشعب كله . وسار في حكمه سيراً معتدلاً حكماً راسماً طريقه وسطاً بين المللكيين ومعارضيهم ، فاستقرت الحال نوعاً داخل البلاد . ولكن لسوء حظه مات رئيس حكومته وخافه وكيله الجنرال متكساس ، وكان متأثراً بالثقافة الألمانية موالياً الألمان نازعاً في حكمه منزع الدكتاتوريين . رأى متكساس أنه لا أمل في إصلاح حال البلاد واستقرار أمورها ما دامت الخلافات الحزبية تملك على الناس مشاعرهم ونشاطهم ، فقرر إقامة حكمه وفق الأصول الدكتاتوية المعروفة في ذلك الوقت ، ووجد متكساس من الملك سنداً ونصيراً له ، فألقى الأحزاب ، وكهم الصحافة ،

وقيد الحريات ، ونفى وشرذ أعداءه ومناهضيه ، وجعل نفسه رئيساً للوزارة مدى الحياة ، وبذلك رفعت انفاشية في اليونان رأسها ، وأصبح نظامها في نظر الشعب مقترنا باسم الملك جورج الثاني .

ولما قامت الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ أعلنت اليونان حيدتها ، وبرهن متكساس رئيس وزرائها على أنه سياسي وطني مصلح ؛ إذ سار قدما في إصلاحاته الحربية والاقتصادية . حتى إذا ما تشجع مسولينى عقب اندحار فرنسا ، وأعلن الحرب على اليونان في أكتوبر سنة ١٩٤٠ ، وجد من اليونانيين شعباً صعب المراس متحداً مدرباً على حرب العصابات خبيراً بدروب الجبال ومسالكها ، وسرعان ما استرعى العالم انتصار هذا الشعب الصغير الفقير على جحافل مسولينى الذى طالما تشدق بجيوشه ولمعان أسننه التى قال عنها : إنها متى ارتفعت حجبت شعاع الشمس عن أعين البشر !

ومات متكساس فجأة سنة ١٩٤١ وهو مزهو بانتصار بلاده في أول الأمر ، ولسكن هتار لم يصبر طويلاً على أذية صاحبه ، فسرعان ما تحركت كتائبه وعدده وطائراته ، وجاءت على عجل بعد أن اكتسحت يوغسلافيا ، واخترقت بلغاريا . ووصل المدد إلى اليونان من بريطانيا ، وهى فى محنتها بمفردها أمام الخطر النازى . ومع ذلك لم يثبت اليونانيون إلا أياماً معدودة ، فهاجر الملك وحلفاؤه إلى كريت ، ثم أفاق العالم صباح يوم فرأى الألمان قد احتلوا كريت بعد هجوم جوى خاطف لم يسبق له مثيل ، ففر الملك جورج وحكومته من الجزيرة سرأ بعناء ومشقة إلى مصر . وبذلك بدأ الملك منفاه لثالث مرة .

ولما احتل الألمان البلاد تألفت بها سرأ ، كما تألفت فى سائر البلاد التى احتلها العدو عنوة ، جماعات للمقاومة ، كان فى مقدمتها عناصر شيوعية استطاعت أن تنمو وتقوى سرأ فى عهد متكساس ، وأصبحت فى عهد الاحتلال مأوى لجميع العناصر المناوئة للألمان . وأخذت مراكز المقاومة تقوى وتكبر تدريجاً متخذة كهوف الجبال وبعادها مراكز لنشاطها وتدريبها . ولم تسكن هذه الفئات فى أول أمرها

شيوعية خالصة ، كما أنه لم تكن لها صلة البتة بالشيوعيين الدوليين ، ولكن ما كادت ألمانيا تعلن الحرب على روسيا حتى زاد نشاط هذه الفئات ، وجعلت تعمل بهمة على إحباط مساعي الألمان ، وإثارة الشغب بين العمال في المصانع والمعامل لإلحاق الضرر بالألمان وجهودهم الحربية . وبلغ عدد المنضوين تحت لواء جماعة المقاومة من الشيوعيين ما يقرب من ربع سكان البلاد .

وإلى جانب العناصر الشيوعية ظهرت جماعات أخرى للمقاومة ، وأهمها الهيئة التي كان يرأسها السكولنيل زرفاس . وكانت هذه الهيئة تلقي المعونة من الحلفاء ومن الحكومة المنفية ، وكان الخلاف بين جماعات المقاومة المختلفة بالغاً منتهاه ، مما اضطر الحلفاء أن يتدخلوا في الأمر . وكان من واجب الحلفاء طبعاً أن يتصلوا سرّاً بهذه العناصر جميعاً للاتفاق معها على خطط المقاومة وطرق تنفيذها . وسرعان ما بدا للحلفاء أن الهيئة الشيوعية قد أخذت تتفوق على غيرها وتسيطر على الحالة الداخلية فعملوا سرّاً على مساعدة الجماعات المعتدلة ، وأعلنوا في الوقت نفسه أنه يهمهم أن يتفق الجميع ضد العدو مادامت الحرب مستعرة ، ثم ينظر بعد ذلك في تسوية الخلافات بينهم .

والهيئة الشيوعية هي التي أصبحت تعرف بجماعة إي. أ. م. أو جبهة التحرير الوطنية ، وكانت أقوى جماعات المقاومة وأدقها تنظيمياً ؛ إذ كان لكل شعبة رئيس من الضباط السابقين ، ومستشار سياسي بيده زمام الشعبة ، وكان غالباً من الشيوعيين

وقد أصابت هذه الهيئة غنماً كبيراً منذ أن استسلمت إيطاليا في سبتمبر سنة ١٩٤٣ ؛ إذ وقعت أسلحتها وذخيرتها غنيمة في يد هذه الجماعة . ومن سوء حظ الملك جورج الثاني أنه وأعضاء حكومته لم يتصلوا في أثناء الاحتلال بهذه العناصر ولم يحاولوا استمالتهم إلى جانبهم ، كما أنهم لم يستنكروا نظام متكساس الفاشي أو يبرئوا أنفسهم من أدراجه في نظر الشعب ، بل إنهم تركوا بعض أنصارهم في اليونان ينخرطون في سلك الاحتلال الأجنبي ويتعاونون مع الغاصبين

وقد نجح المحتلون في استغلال هذا الموقف ، فدقوا إسفيناً عميقاً بين طبقات الشعب المختلفة ، فصوروا أنصار المقاومة شيوعيين يعملون لصالح حكومة السوفيت ، فكان طبيعياً أن ينحاز أعداء الشيوعية إلى جانب المحتلين الذين يقاتلون الشيوعية ، وضاع بذلك شرف الكفاح في سبيل تحرير الوطن .

ولما استفحل الخلاف بين جماعات المقاومة بعضها وبعض وبين هيئة إيام وحكومة المنفى حتى وصلت الحال إلى تمرد بعض القوات البحرية والحرية ضد ضباط من الملكيين ، خشى الحلفاء مغبة ذلك الانقسام ، فنظموا مؤتمراً في لبنان جمع ممثلي الهيئات المختلفة ، واتفق الجميع على تكوين جبهة متحدة وحكومة ائتلافية ، تألفت أخيراً وكان من بينها ستة وزراء من هيئة إيام . وهذه الحكومة برياسة باباندريو هي التي تسلمت زمام الحكم في اليونان بعد ارتحال الألمان منها في سبتمبر سنة ١٩٤٤ . وقد اتفق الرأي نهائياً على أن يستقى الشعب في عودة الملك بعد أن كان الملك ومن ورائه الحكومة البريطانية يعارض في ذلك أشد المعارضة .

وسارت الأمور في أول الأمر سيراً حسناً إلى أن قررت الحكومة تسريح جميع هيئات المقاومة . وفضن جماعة إيام أنهم المقصودون بذلك ، فعارضوا وطالبوا بأن تسرح أيضاً جميع القوات التي ناصرت حكومة الملك في الداخل ومن الخارج ثم استقال الوزراء الشيوعيون وبدأ الشعب . وسرعان ما قامت الحرب الأهلية في ديسمبر سنة ١٩٤٤ بين جماعة إيام والعناصر الحكومية الملكية ، وعادت إلى البلاد ذكريات الكفاح بين « الجبل » و « السهل » ، في أوائل عهد الاستقلال ، وظلت الحرب خمسة أسابيع عانى فيها اليونانيون أهوالاً من القسوة والفظاعة لا عهد لهم بها ؛ إذ كان الجانبان مجهزين بأحدث أنواع الأسلحة والذخيرة التي تخلفت عن الحرب الأخيرة . ولو لم تتدخل الجنود البريطانية التي صاحبت الحكومة عقب خروج الألمان لمساعدتها في تأييد النظام وتوزيع الغذاء لانتهدت الحرب سريعاً بانتصار هيئة إيام لأنها كانت الهيئة المسلحة القوية في البلاد .

ولسكن معاونة انجلترا كانت في الواقع كسبا لعناصر النظام والاستقرار. ولو ترك
الامر لهيئة إيام لتقوض النظام من أساسه . لما اشتد التنكير على الحكومة الانجليزية في البرلمان وفي الصحف لمسلكتها
إزاء الثورة في اليونان، طار إلى أينا مستر تشرشل ومعه وزير خارجيته مستر إيدن
 واجتمعا وسط دوى المدافع مع ممثلى الهيئات المختلفة وقرروا إسقاط الحكومة
 وإقامة نائب للملك ، واختير لذلك المطران دامسكينوس، كما تقرر استفتاء الشعب
 بشأن عودة الملك جورج الثانى إلى عرشه بعد ثلاث سنوات أى فى سنة ١٩٤٨ .
 وقد دلت الانتخابات التى أجريت بعد ذلك على ميل الشعب نحو الملكية ، ووليت
 الأعمال حكومة موالية للملكية ، فقررت إجراء الاستفتاء فى سبتمبر سنة ١٩٤٦ .
 وقد جاءت النتيجة مؤيدة لعودة الملك جورج الثانى بأغلبية بلغت نحو ٧٥ ٪
 من مجموع الناخبين .

ولا تزال القوات الانجليزية تحتل البلاد رغم الشكوى التى تقدمت بها
روسيا وحلفاؤها إلى مجلس الأمن ؛ فقد انتهت المناقشة بأن البريطانيين
 باقون فى البلاد بموافقة الحكومات التى تعاقبت على الحكم بعد انتهاء
 الاحتلال الألمانى ، وأنهم باقون إلى أن يستقر النظام فى البلاد بعد إجراء
 الانتخابات واستفتاء الشعب بشأن عودة الملك جورج . وقد تم هذا وعاد الملك
 إلى عاصمة ملكه .

ومع أن انتهاء الحرب الأهلية بانتصار العناصر الحكومية قد أضعف من
 شأن هيئة إيام وقلل من خطرهما ، فإن الانشقاق القديم الذى فرق بين السهل
 والجبل ، وبين الحقل والمصنع ، أو بين اليمين واليسار ، لا يزال باقيا ، وسيبقى
 ما دامت طبيعة الأرض والبشر فى اليونان على حالها . ولا خطر من هذا الانشقاق
 إذا سارت الملكية على منهاج قومى لا تميل فيه إلى اليمين كل الميل ولا إلى اليسار
 دائما ، بل تتخذ بين هذا وذاك سيلا . ومن الحصافة أن يجعل ملوك الدول
 الديمقراطية الحكم منازعة بين اليمين واليسار مهما تباينت الأمزجة واختلفت المبادئ ،

حتى لا تطفئ كفة على أخرى ، وحتى لا ينزل التاج إلى درك المنافسات الحزبية .
وتواجه اليونان بعد الاحتلال الأجنبي الذي دام أكثر من ثلاث سنوات
مشاكل عدة على جانب عظيم من الأهمية ؛ ففضلا عن المسائل الاقتصادية هناك
المشاكل الخاصة بمجارتها بلغاريا وألبانيا ، وكل منهما يسير على نهج شيوعي يوافق
رغبات حكومة السوفيت الروسية . والأولى تريد تحقيق حلمها القديم بإيجاد منفذ لها
على بحر إيجه تطل منه على مياه البحر الأبيض المتوسط . ولا سبيل إلى الحصول
على هذا المنفذ إلا إذا نزلت لها اليونان عن أحد موانئها على بحر إيجه . وتطمع
بلغاريا في أخذ ميناء دده غاج إذا امتنعت عليها سلانيك . أما ألبانيا فيتطمع في
ضم الجزء الجنوبي من أبيروس .

وقد تقرر أخيراً إتمام الوحدة الإغريقية بضم جزر الدوديكانيز بما فيها
جزيرة رودس ، وكانت جميعها بيد إيطاليا منذ قيام حرب طرابلس سنة ١٩١١ .
وقد حاولت روسيا احتلالها جميعها أو احتلال بعض منها لانتخاذه قاعدة لها في
شرق البحر الأبيض المتوسط فلم توفق . وعلى ذلك لا يبقى خازج الحظيرة اليونانية
سوى جزيرة قبرص ، وهي بيد إنجلترا منذ سنة ١٨٧٨ . ولا يبعد أن تتخلى عنها
بريطانيا لليونان متى توطدت أركان السلام في البلقان ، واضطلع مجلس الأمن
فعلاً بهام أعماله .

وهناك غير المشاكل الإقليمية الحالة العسكرية أو الإيديولوجية ؛ إذ تسود
بلاد البلقان الآن موجة شيوعية قوية قد غطت وجه شبه الجزيرة ، وذلك بسبب
تفوق روسيا الحربى ، ولشيوع الفقر والجهل والبطالة بين جميع الشعوب التي
تسكن هذه الأرجاء . وبماله دلالة واضحة على تطور الحالة الفكرية تخلص
يوغسلافيا وألبانيا وبلغاريا ورومانيا على التوالي من حكوماتها الملكية وإقامة
النظم الجمهورية الاشتراكية بدلها . وليس في البلقان الآن حكم ملكي إلا
في اليونان .
أما تركيا فهي كحليفها اليونان تقف إلى جانب الحلفاء وتناصر المبادئ

الديمقراطية ، وهي كالليونان أيضاً تخشى على استقلالها وحرياتها من تدخل السوفيت أو توابعها .

واليونان وتركيا كلتاهما الآن تربطهما بالولايات المتحدة روابط اقتصادية وسياسية متينة . فهما منذ أن أعلن الرئيس ترومان مبدأه الشهير في مارس سنة ١٩٤٧ يتلقيان قروضا واعانات مالية وحرية تستعينان بها على المضي في استعداداتهما الدفاعية ضد القوات الشيوعية التي تحيط بهما وتهدهما . واستطاعت اليونان بفضل هذه اليد الكريمة التي أسدتها اليها الولايات المتحدة أن تتغاب ولو مؤقتا على القوات الشيوعية التي يقودها الجنرال ماركوس والتي مكنت لنفسها في شمال اليونان وغربها وأقامت لها حكومة مستقلة في تلك الأرجاء بمساعدة الدول الشيوعية المجاورة . وكانت آخر هذه المواقع بين الوطنيين اليونانيين وبين الشيوعيين في صيف ١٩٤٨ حين انهزمت قوات ماركوس في موقعة جراموس واضطروا إلى عبر حدود اليونان إلى الخارج ولسكن اليونانيين لم يوالوا انتصاراتهم ولم يستغلوها تماماً وعاد الشيوعيون يهددون البلاد من جديد .

وقد تحدث الرئيس ترومان عن الحالة في اليونان في ديسمبر سنة ١٩٤٨ فقال انهم لم يحققوا الآمال التي كانت تنتظر منهم نتيجة للاعانات الأمريكية التي توصل اليها الولايات المتحدة امدادهم بها، وهذا على خلاف ما حدث في تركيا فقد اغتم الأتراك الفرصة ونهضوا باستعداداتهم الحربية والبحرية والجوية نهوضا يدعو إلى الدهشة والثناء العظيم . ولم يكن غريبا أن تتقاعس هم اليونانيين وهم الذين بلوا الحرب وأهوالها منذ سنة ١٩٤٠ وهام أولاء يعانون حرباً أهلية لا تقل في عنفها وفداحتها عن حربهم ضد الطليان والألمان . وأكثر ما يخشاه اليونانيون أنه إذا وقعت الحرب فإن قوات الحلفاء الغربيين لن تستطع أن تصمد أمام القوات الروسية الشيوعية وانها ستضطر إلى الانسحاب من شبه جزيرة المورة ومن جزر الأرخيبيل كما انسحبت أمام الألمان في الحرب العالمية الثانية . فإذا انضم اليونانيون إلى الحلفاء الآن بقضهم

وقضيتهم باءوا من الروس بمقت وغضب شديدين . ولذلك نراهم الآن في حيرة
من أمرهم يريدون الخلاص من الشيوعيين ولا يجرؤون .

ومركز بلاد اليونان من الوجهة الدولية شبيه تماما بمركز تركيا ، فكلاهما
تتحكم في نقط استراتيجية غاية في الأهمية بالقياس إلى شرق البحر المتوسط
وسلامة أراضيه . وقد برهنت الحرب الأخيرة على أن في الشرق الأوسط نقطة
التحول بين الهزيمة والنصر ، فمن كان بيده مفاتيح هذه المنطقة تدانت له أسباب
الفوز والنصر . لذلك كان هذا التنافس الشديد الذي نلاحظه الآن بين الدول
الكبرى بشأن الشرق الأوسط . واليونان رأس الرمح بالنسبة إلى الجانبين
المتنافسين المتراشقين . فإذا لم تجد حكومة اليونان الملكية حلا عاجلة لمشاكلها
الاقتصادية والاجتماعية ، فإن الشيوعية ستبيض وتفرخ في أوكارها بين كهوف
الجبال ووهادها ، وهناك تستنيم فترة إلى أن تحين ساعة يعود فيها الكفاح من
جديد بين السهل والجليل — بين الملكية والجمهورية .

الفصل العشرون

١ - اسبانيا قبل الثورة وبعدها

لا يقتصر التاريخ في اسبانيا على أن يعيد نفسه كما يقولون ، بل أنه يعيد نفسه مراراً ويناقض نفسه تكررراً . فما من بلد تواترت احداثه التاريخية وتشابهت وتباينت آراء اهله وتناقضت ، مثل اسبانيا بما حفل به تاريخها من ثورات وحروب وتطورات متشابهة حيناً ومتناقضة حيناً آخر . وهل هناك بلاد مثل اسبانيا ازدهر فيها الإسلام ونمت أصوله وفروعه وانتشرت آدابه وعلومه ونفذت أحكامه وتعاليمه أكثر من خمسمائة عام ، ثم لم يكذب المسلمون يبعثون عن البلاد على أثر ارتدادهم أمام هجمات الامارات المسيحية الناهضة في شمال اسبانيا حتى غشيت البلاد صيحة الكنيسة الكاثوليكية فلسكت على الناس عقولهم وتحكمت في آرائهم وحرمانهم ونشطت بين ظهرانيهم محاكم التفتيش فقضت على الوف الابرياء من المسلمين واليهود والمسيحيين والاحرار لا لذنبا اقترفوه سوى انهم اطلقوا لانفسهم حرية الفكر والاعتقاد مخالفين بذلك الوحدة الدينية الكاثوليكية التي اعتنقها الناس وتضافرت الكنيسة والحكومة على تحقيقها ولو ادى ذلك إلى أحراق الأفراد ومحاربة الشعوب .

وهل مثل اسبانيا أمة واتها الفرصة فأمتلكت في أوروبا الاراضي المنخفضة ونابلي والبرتغال ووافها الحظ السعيد فكشف لها كريستوف كولمب عن أمريكا وصارت اليها خيرات الدنيا الجديدة وما في أرضها من ذهب وفضة ومعادن أخرى احتكرت اسبانيا استخراجها ونقلها إلى بلادها حتى أصبحت في فترة وجيزة سيدة البحار واكثر بلاد العالم مالا واعز نفراً ، ولكن ما كاد أهل البلاد يرتعون في بحبوحة هذا النعيم وذلك الثراء المفاجيء حتى اخلدوا إلى الدعة والبذخ واسرفوا

في الاستهلاك بقدر ما أهملوا في الانتاج واستولى عليهم الغرور فاستكبروا وظنوا ان محاكم التفتيش قد تيسر لهم الوحدة السياسية كما يسرت لهم الوحدة الدينية فأقاموها في الأراضي المنخفضة لمحاكمة الثوار الذين آزرتهم إنجلترا ، وما هي إلا سنوات قلائل حتى تحرك أسطول اسبانيا العظيم المعروف ، بالارمادا ، يغزو سواحل إنجلترا فكانت الهزيمة الماحقة وكان السقوط والانحدار من شاخ المجد إلى الدرك الاسفل .

وبقدر ما كان ارتفاع اسبانيا عاطفا وعظيما كذلك كان اضمحلالها شاملا وسريعا فجعلت تفقد ممتلكاتها واحدة تلو أخرى مبهتة بالأراضي المنخفضة والبرتغال في القرن السابع عشر ثم بنابلي في أوائل القرن الثامن عشر . وما انتهى القرن التاسع عشر حتى كانت اسبانيا قد خسرت مستعمراتها في أمريكا الجنوبية والوسطى والشمالية ولم يبق لها سوى جزر الفلبين في الشرق الأقصى وكوبا وبورتوريكو في أمريكا . وهذه البقية لم تلبث أن وقعت أيضا غنيمة سهلة في يد الولايات المتحدة عقب انتصارها في الحرب الأمريكية الإسبانية في نهاية القرن الماضي .

على أن اسبانيا على رغم ما أصابها من ركود وضعف وخمول لم تزل طوال تلك القرون إلى الآن مصدر الأزمات دولية حادة أدت في أكثر من مرة إلى إثارة الحروب بين الدول :

١ — ففي سنة ١٧٠٠ مات شارل الثاني آخر ملوك أسرة هابسبرج في اسبانيا دون أن يعقب من يخلفه فقامت بين الدول حرب ضروس هي حرب الوراثة الإسبانية التي استمرت إلى سنة ١٧١٢ وفيها وقعت قلعة جبل طارق الشهيرة في أيدي الإنجليز ، وانتهت الحرب بأن اعتلى عرش اسبانيا أمير من أسرة البوربون هو حفيد لويس الرابع عشر ملك فرنسا ومن ثم نشأت الصلة الوثيقة التي ربطت بين اسبانيا وفرنسا إلى زمن قريب .

٢ — وفي سنة ١٨٠٨ صمم نابليون وكان في أوج سلطانه على التدخل في شئون

اسبانيا وتعيين أخيه يوسف ملكا عليها فأسر ملكها فردينند السابع ودخلت قواته مدريد وقام الشعب الاسباني بأول ثورة قومية في أوروبا ضد نابليون فكانت هذه مقدمة لنهضة شعوب أوروبا ضد النظام الذي فرضه نابليون عليها بالقوة .

٣ - وفي سنة ١٨٢٢ قامت في اسبانيا ثورة عسكرية ضد فردينند السابع لحثه في يمينه وعدم احترامه لدستور سنة ١٨١٢ الذي وضعه الثوار ، واستنجد فردينند بمؤتمر الدول الذي انعقد في فيرونا فقامت فرنسا بقمع الثورة ودخل الجيش الفرنسي اسبانيا وأعاد الملك إلى عرشه وبقي محتلا البلاد ست سنوات .

٤ - وفي سنة ١٨٢٣ مات الملك فردينند السابع ولم يعقب سوى إبنة صغيرة فانقسمت اسبانيا إلى معسكرين عظيمين جعلتا يتنازعا السيطرة في البلاد : حزب يناصر الملكة الصغيرة ايزابلا الثانية ومعها أمها ماريا كريستينا الوصية على العرش ، وحزب يناصر أخ الملك دون كارلوس الذي اعتبر نفسه صاحب الحق الشرعي في التاج مستندا إلى أن النساء ليس من حقهن أن يعتلين العرش .

وكان الجيش وأهل المدن والأحرار عامة ينتمون إلى الملكة ومن ورائهم الحكومتان الفرنسية والانجليزية . وكان رجال الدين والاشراف والفلاحون يناصرون دون كارلوس وتساندهم الحكومات الرجعية في وسط أوروبا . ومن ثمة شبت أول حرب أهلية في البلاد فعمت الفوضى وملئت البلاد رعبا وأخذ كلا الجانبين يتنافسان في التنكيل بمعارضيهم وصب السكوارث على رؤوسهم حتى اقفرت البلاد ووقف دولا الأعمال ، واستمر هذا التطاحن المخيف ست سنوات انتهت بانسحاب الكارلوسيين وبقية الملكتان وبطانتهمما يقترفون من الشرور والآثام ما لطح التاج الاسباني بالوحل ودنسه بالعار .

٥ - وفي سنة ١٨٦٨ ثار الشعب على الملكة ايزابلا فنفتت من اسبانيا وسارعت أسرة هوهنزولون في بروسيا إلى ترشيح أمير من امرائها لاعتلاء عرش اسبانيا . فما كاد هذا الخبر يصل إلى مسامع نابليون الثالث امبراطور فرنسا حتى ثارت ثائره

وخاف أن تصبح فرنسا محصورة بين نارين تشعلهما أسرة هوهنزرن من بروسيا شرقا ومن اسبانيا جنوبا فكلف سفيره في برلين أن يحتج على هذا الأمر وأن يطلب إلى ملك بروسيا أن يسحب ترشيح الأمير البروسي رسميا وأن يعد بعدم ترشيح أمير بروسي لعرش اسبانيا مرة أخرى ، وكان هذا الموقف داعيا إلى اثاره الحرب الفرنسية البروسية التي انتهت بهزيمة فرنسا ، وكانت من أقوى البواعث على اثاره الحرب العالمية الأولى .

ولقد استعادت اسبانيا عقب الحرب الفرنسية البروسية اسرتها الملكية بعد تجربة قصيرة لحكم الجمهورية الأولى فأقامت سنة ١٨٧٤ الفونس الثاني عشر بن الملكة ايزابلا ملكا عليها . وكان على نقيض اسلافه ملكا مصلحا اكتسب وهو في المنفى مع أمه خبرة وصلابة ودرسا ، فبدأ في اسبانيا عهد اصلاحات شملت جميع مرافق البلاد واهمها توطيد الأمن بالقضاء على العصابات الكارلوسية وتهدة العناصر المتطرفة باعادة الدستور والحكم البرلماني وإصلاح مالية البلاد والنهوض بالصناعة والتجارة . ولما مات في سنة ١٨٨٥ كانت شئون البلاد الداخلية والخارجية قد استقرت بدرجة ساعدت الملكة الوصية على مواصلة العمل في جو هادئ لم تفسده الثورات والانقلابات . ولم يخلف الملك في حياته وارثا للعرش ولكن حدث بعد وفاته بستة أشهر أن وضعت الملكة وارثا ذكر أ هو الفونس الثالث عشر .

واستمرت حركة الاصلاحات يقوم بها الوطنيون من الأحرار والمحافظين الذين جعلوا يتناوبون الحكم تباعا وقدموا لوطنهم في تلك الفترة أجل الخدمات . ومع أن الحرب الامريكية الاسبانية التي نشبت في سنة ١٨٩٨ قد انتهت بضياع أملاك اسبانيا في عرض البحار كما قدمنا ، فان هزيمة اسبانيا واذلالها في نظر الدول قد خلق في الاسبان روحا جديدة حفزتهم على العمل بعزيمة صادقة للنهوض من كبوتهم واستعادة تالدهم ، وماهى إلا سنوات قلائل حتى ذخرت اسبانيا بطائفة من كبار الكتّاب والعلماء والمؤرخين والفنانين وافتتحت المناجم ووفدت على البلاد رهوس الأموال الأجنبية فقامت المصانع والمعامل وراجت الأسواق وبعد أن

كانت اسبانيا ركنا منعزلا في جنوب أوروبا الغربي لا تكاد الدول تحس وجوده بل تراه جزءا خاملا أقرب صلة بافريقية منه بأوروبا عادت اسبانيا في اوائل القرن العشرين أمة عزيزة الجانب لها مكاتبا بين الدول ، فلم يكدينشب الخلاف بين الدول بشأن مراكش حتى وجدت فرنسا أن من مصلحتها أن تعقد معاهدة مع اسبانيا في سنة ١٩٠٤ كما عقدت معاهدة مع إنجلترا ، واعترفت فرنسا لاسبانيا في تلك المعاهدة بامتداد نفوذها في المنطقة الشمالية الغربية من مراكش وفيها ميناء سبته ذات الموقع الاستراتيجي الخطير أمام جبل طارق .

ولما قامت الحرب العالمية الأولى احتفظت اسبانيا بحيديتها ونالت من وراء ذلك كسبا ماديا ودوليا إذ نشطت فيها حركة التجارة والنقل وخطبت ودها الدول المتحاربة . وكانت الحكومة ورجال الأعمال والطبقات الوسطى تميل إلى جانب الحلفاء على حين كان رجال الجيش والسكنيسة ينحازون إلى جانب المانيا . فلما انتهت الحرب بانتصار الحلفاء كانت اسبانيا في مقدمة الدول التي دعيت لتأسيس عصبة الأمم وأخذ شأنها الدولي يكبر حتى فازت بمقعد في مجلس العصبة .

غير أن انتصار المبادئ الديمقراطية بعد الحرب وظهور الحركة الباشفية في روسيا واطراد تقدم البلاد من الوجهتين الصناعية والعالية قد أدى إلى انتشار المبادئ الاشتراكية في بيئات المدن الصناعية فنزح إلى البلاد عدد من الفوضويين ونشأت جماعات متطرفة نادت بالجمهورية والغاء الرهينة والاديار والجماعات الدينية الكاثوليكية ، وتضاعف عدد هذه الجماعات المتطرفة في اسبانيا على أثر تأميم التعليم في فرنسا ومنع رجال الدين من مزاولته كما زادت ثورة البرتغال ضد الملكية في سنة ١٩١٥ قوة إلى قوتهم . وقد تفاقمت الحال وازدادت سوءا بسبب اشتغال ضباط الجيش بالسياسة ومحاولتهم تنفيذ رغباتهم بالقوة ، وكان لما أصاب الجيش من الخزي والتخاذل أمام قبائل الريف في مراكش الاسبانية أثره في نشوء حركات في داخل الجيش . يضاف إلى ذلك ظهور الخلافات المتأصلة بين أهل الشمال وهم سكان المناطق الصناعية وأهل الجنوب وهم من المشتغلين بالزراعة ثم رغبة إقليم

كتالونيا في شمال شرقي اسبانيا في الانفصال عن اسبانيا وهو اقليم له لغته وتاريخه واقتصادياته وفيه ميناء برشلونه المشهورة ويبلغ عدد سكان هذا الاقليم ستة ملايين من مجموع سكان اسبانيا الذي يبلغ ٢٥ مليوناً

لذلك لم يكن عجيباً أن يمم السخط والتمرد وان تسكثر الاعتداءات على الملك وعلى الوزراء — وقد اغتيل منهم في هذه الفترة عدد غير قليل — وأن يشتد النزاع بين الحكومة ورجال الدين وبينها وبين جمعيات الجيش الدفاعية . وقد دعا ذلك كله في النهاية إلى ظهور الدكتاتور الاسباني الأول بريموه ريفيرا Primo de Rivera في سنة ١٩٢٣

وقد كان ده ريفيرا قائداً حريياً لمنطقة كتالونيا وكان معروفاً بكفائته وغيرته الوطنية فنادى بالثورة على الحكومة وهدد الوزراء باعتقالهم إذا لم يتخلوا عن مراكزهم . وجاء الملك من مصيفه في سان سبستيان وعينه رئيساً للحكومة واطلق عليها حكومة الادارة فالغى الوزارات وعطل الدستور واعلن الاحكام العرفية مع ما يقتضيه ذلك من منع المظاهرات وفرض رقابة شديدة على الصحف . وقد سار ده ريفيرا في حكمه سيرا حكيماً انجز فيه اصلاحات شاملة وبخاصة في نظام الجيش وفي مراكش وفي ناحية الاشغال العامة والعمال . وفي هذه الفترة زار الملك الفونسو ايطاليا ومعه ده ريفيرا واستمدا من الدوتشي الايطالي العون والبركة لنجاح الدكتاتورية في اسبانيا وعقدت بين البلدين معاهدة صداقة كانت أول توجيه دولي لسياسة اسبانيا الخارجية بعد الحرب العالمية الأولى .

واستمر ده ريفيرا يعمل دون أن يحد من سلطانه دستوراً أو برلماناً صحيح مدة سبع سنوات وأخيراً استيقظ الوعي الاسباني وعادت اليه سليقته فنار على النظام الملكي الدكتاتوري فسقط ده ريفيرا ونفى الملك الفونسو من البلاد بعد أن حرم من حقوقه المدنية .

وقامت حكومة جمهورية في سنة ١٩٣١ وكان رجالها مشبعين بالمبادئ الاشتراكية فأعادوا الدستور وحرروا التعليم لأول مرة من سلطان رجال الكنيسة

وادخلوا اصلاحات اجتماعية بشأن توزيع الاراضى وتنظيم العمل . وكان الاعتدال رائدهم فى اول الامر فسارت الامور سيراً شعبياً مرضياً ولكن الاعتدال أمر لا يوافق أمزجة الاسبان ولا يتلاءم مع طبيعة البلاد الجبلية وجوها القارى فهم دائماً مسوقون إلى التطرف والمغالاة والتقلب ، من خمول واستسلام إلى ثورة وعنف وتخريب ثم من الثورة والعنف إلى الخمول والاستسلام مرة أخرى وهكذا دواليك وليس بين كل نقيضين من هذه النقااض إلا فترة وجيزة يستجمعون فيها ويستعدون لدورة أخرى . لذلك لم يكن غريباً أن ينتصر حزب اليسار من الجمهوريين فى انتخابات سنة ١٩٣٦ وأن تظهر انار التطرف الجديد فى عدائهم للكنيسة ومصادرتهم لاملاكها وتعرضهم لحرية العبادة ولحقوق كبار الملاك وغير ذلك مما جعل الناس يعتقدون ان الحكومة الجديدة انما تعمل على اقحام البلاد فى نطاق النظام الشيوعى وهو نظام ان وافق اهواء أهل المدن والاقاليم الصناعية مثل كتالونيا فانه غريب على اكثرية الشعب الذين درجوا فى احضان الكنيسة وعاشوا فى ظل الاقطاع دهوراً طويلة .

وعلى ذلك تجمعت العناصر التى اذكت نيران الثورة الوطنية العسكرية بزعامة فرنسكو ضد نظام الجمهورية . وكان زعيم الثورة على ما جرى به العرف فى تاريخ اسبانيا من ضباط الجيش وقد تولى رئاسة اركان حرب الجيش وكان حاكماً على جزر قناريا أو الخالدات فى اغسطس سنة ١٩٣٦ حين طار إلى تطوان فى مراکش الاسبانية ليرأس الثورة . وقد انضم اليه جميع ضباط الجيش ونصف قوات الاسطول . وفى اكتوبر سنة ١٩٣٦ أعلن فرنسكو نفسه رئيساً للدولة وأخذ ينظم حكومته على أساس دكتاتورى فاشى ، وقد انضمت اليه الاقاليم الواقعة جنوبى اسبانيا ووسطها وشماليها الغربى . أما الشرق والشمال الشرقى فظل موالياً للحكومة الجمهورية وقد استعاضت الحكومة عن الجيش بتسليح العمال وأفراد الشعب .

وسرعان ما تحوت الحرب الأهلية فى اسبانيا إلى مظهر من مظاهر الكفاح الدولى بين المبادئ الفاشية التى يمثلها فرنسكو ومن ورائه ايطاليا والمانيا

وبين المبادئ الاشتراكية الدولية التي عرفت في ذلك الوقت بالجبهة الشعبية وتمثلها حكومة الجمهورية وتوازرها فرنسا وروسيا . وكان تأييد الدول للمعسكرين المتحاربين في اسبانيا نظريا وسريا في أول الأمر ، ثم أخذ هذا الميل يتحول تدريجيا إلى حرب حقيقية لا ينقصها سوى الاعلان الرسمي ، فكانت إيطاليا ترسل إلى فرنكو جيوشها ومدافعها ، وألمانيا تمده بدباباتها وطائراتها ومهندسيها وعمالها الفنيين . وكانت فرنسا شديدة العطف على الجمهوريين فأرسلت لمؤازرتهم السكتية الدولية ، وكذلك روسيا كانت عظمة الاهتمام بمصاير الجمهوريين فأمدتهم بالأسلحة والطائرات . ولكن شتان بين ما كانت ترسله إيطاليا وألمانيا وما كانت تستطيعه روسيا بسبب المسافات الشاسعة التي تفصل روسيا عن اسبانيا . لذلك تفوقت قوات فرنكو وأخذت تستولى على معاقل الجمهوريين حصنا بعد حصن حتى سقطت مدريد في ابريل سنة ١٩٣٩ بعد حصار دام سنتين ونصف سنة ، وقد حالفهم النصر لتفوقهم في الطائرات والمدفعية والتغذية . ولما استتب الأمر لفرنكو غادر زعماء الجمهوريين البلاد وتفرقوا بين فرنسا وأمريكا اللاتينية . ولم يسع الدول في آخر الأمر سوى الاعتراف بحكومة الجنرال فرنكو .

وقد سار فرنكو في حكمه سيرة فاشية ، فألف حزب الفلانج Falang على نمط الحزب الفاشي في إيطاليا ، وجمع في يده السلطات كلها ، ولكنه انتهى في سياسته خطة وطنية بحته راعي فيها مصلحة اسبانيا قبل كل شيء . فقد حاولت دولتا المحور ضم اسبانيا اليهما في محالفة عسكرية فاعتذر فرنكو بنقص استعداده وعدم كفاية موارده . وأثر أن تبقى اسبانيا وهي لا تزال في دور النقع بعيدة عن مزالق السياسة الدولية مكثفيا بموافقته على ميثاق مكافحة الشيوعية في مايو سنة ١٩٣٩ . وما دل على سياسة فرنكو الوطنية انه لم يلق بالآ إلى رغبة إيطاليا في ضم إحدى جزر البليار اليها لتتخذها قاعدة تصد منها نشاط فرنسا وانجلترا في غرب البحر الأبيض المتوسط .

وقد أكد فرنكو خطته الاستقلالية عندما أعلنت الحرب العالمية الثانية

ورأى مع بالغ الدهشة أن هتلر قد تعاقد مع روسيا البلشفية التي كانت تناهض ثورة الوطنيين الاسبان ، فسارع فرنكو باعلان حيدة اسبانيا . فلما انقلب هتلر على روسيا وهاجمها في صيف سنة ١٩٤١ ، لم ير فرنكو بدا من الاستجابة إلى رغبة حزبه في الانتقام من روسيا ، فأرسل الفرقة الزرقاء من متطوعي الاسبان للقتال في الميدان الشرقي إلى جانب الألمان ، وبذلك أرسد فرنكو لاسبانيا في ذمة روسيا ديننا ثقيلًا من المقت والبغض والعداوة لا تزال اسبانيا تئن من وقعه إلى الآن .

ولم يكن ميل أكثرية الاسبان في هذه الحرب كما كان في الحرب الأولى إلى جانب الحلفاء . بل كان ميل الرأي العام الوطني على العكس إلى جانب دولتي المحور ومع ذلك لم يضعف فرنكو أمام المانيا المنتصرة التي احتلت فرنسا ، ولم يكن ثمة مايفصلها عن اسبانيا سوى جبال البرانس . ولو أن المانيا في ذلك الوقت اخترقت شبه جزيرة ايبيريا لهددت جبل طارق ، ولتعدر على الحلفاء أن ينزلوا بجيوشهم على ساحل افريقية الشمالي لمناهضة قوات رومل . وتدل الوثائق التي نشرتها الولايات المتحدة أخيرا على أن اتفاق فرنكو مع دولتي المحور كان قيد البحث وانه طالب بجبل طارق ومراكش الفرنسية ثمنا لانضمامه ، ولكن شيئا من ذلك لم يتحقق ، واكتفى هتلر بأن اتخذ من سواحل اسبانيا مخاضا للغواصات الألمانية ومحطات تتغذى منها سفنها وطائراتها .

ويقول فرنكو في الدفاع عن خطته أنه عاون الفرنسيين الاحرار أيضا في أثناء الاحتلال الألماني ولم يحل دون اتصالحهم بساحل افريقية الشمالي . وكل ما أفادته اسبانيا من انحلال فرنسا أنها أعلنت انتهاء النظام الدولي في طنجه وضميتها مؤقتا إلى حكمها .

ولما لاحت في أفق الدول المتحاربة بوادر النصر ، بدأ فرنكو يستمع إلى رغباتهم ، فأبطل تصدير بعض المعادن التي كانت تفيد منها ألمانيا عسكريا ، وأبعد « سيرانوسونر » وزير خارجيته المتطرف في مبادئه الفاشية ، وحاول أن

يستغفر لخطاياها الماضية ولكن بدون جدوى ، فقد ظلت تهمة الفاشية لاصقة به ، وما نشبت الحرب إلا للقضاء على النظم النازية والفاشية ، وإذن فلم يكن هناك معنى وقد انتصرت المبادئ الديمقراطية لابقاء الحلفاء على دولة فاشية قد تصبح بعد قليل من الزمن عشنا تديض فيه النازية وتفرخ من جديد . لذلك لم يدع الحلفاء فرصة لإعلان مقتهم لنظام فرنكو ورغبتهم الصادقة في أن يزول حكمه عن البلاد . ونتج من ذلك أن بقيت اسبانيا بمعزل عن مجموعة الأمم المتحدة وفقدت ما كان لها من مزايا في طنجه ، وكاد الروس ينجحون في ضم اسم فرنكو إلى قائمة مجرمي الحرب .

والآن تبدو مشكلة اسبانيا معقدة غاية التعقيد فان الجمهوريين من الاسبان قد استغلوا الفرصة الدولية الحالية وأنشأوا لهم في المكسيك حكومة جمهورية رئيسها « باريوس » Barrios من وزراء اسبانيا السابقين . وتجمع الجمهوريون أخيراً جنوبي فرنسا عند « تولوز » ، وأخذوا يتربصون الفرص للزحف عبر البرانس على اسبانيا وهم يعدون خططهم سرا وعلانية لقلب حكومة فرنكو دون حاجة إلى إراقة الدماء كما يقولون .

ولسكن كيف يكون ذلك وإلى جانب الجمهوريين هناك الملكيون وهم قد نشطوا كذلك نشاطا عظيما وانتقل الأمير « دون جوان » ، بن الفونس الثالث عشر المطالب بالعرش من سويسرا إلى إنجلترا ومنها إلى البرتغال واتخذ له ولأتباعه مقرا قريبا من لشبونه حيث استقبله سفير اسبانيا وهو شقيق فرنكو . والجنرال فرنكو لا يعادى الملكية في اسبانيا ، فقد كان من أول أعماله حين تولى السلطة في سنة ١٩٣٨ إن أعاد الحقوق المدنية للملك السابق الفونس ، ويقولون أن هناك اتفاقا سريا على أن تعود الملكية إلى اسبانيا في الوقت الذي يراه فرنكو مناسبا . وتختلف الدول فيما بينها على طريقة التخلص من حكومة فرنكو . ففرنسا وروسيا تريدان العمل المباشر ضد فرنكو بواسطة هيئة الأمم المتحدة . أما بريطانيا وأمريكا وسائر الدول الديمقراطية فانها تصرح بآرائها ضد فرنكو ولكنها

لا تريد أن تتبع القول بالعمل وتفضل أن يقوم الشعب الاسباني باختيار الحكومة التي توافق إرادته في ظل استفتاء برلماني صحيح .

وقد أعلن مستر بيغن وزير خارجية إنجلترا عندما تولت وزارة العمال الحكم أن نظام الحكم في اسبانيا مسألة تخص الشعب الاسباني . . . وان أى تعرض من جانب الدول لشئونها الداخلية لا بد أن يثير الشعب الاسباني ويجعله يؤيد فرنكو في موقفه ضد هذا التدخل الأجنبي . وجاء في البيان الثلاثي الذي أرسلته إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة إلى اسبانيا انه « ليس في النية التعرض لشئون اسبانيا الداخلية ، ولكن على الشعب الاسباني نفسه أن يعمل على تقرير مصيره بنفسه »

وأضعف حلقة في نظام فرنكو انه وليد التدخل الأجنبي وانه لولا مساعدة إيطاليا وألمانيا ما استطاع فرنكو أن يخضع الشعب لحكمه ، وأن حكومة لا تستند في حكمها على رغبة الشعب الحقيقية لا تستحق أن تعيش . ومع ذلك فهام أولاء الجمهوريون يلوذون بحكومتى فرنسا وروسيا ويستنصر ونهما على حكومة فرنكو وهانحن أولاء نرى حكومة فرنسا لا تسكتني بإرسال البيان الثلاثي ، بل تنفرد فتعلن اسبانيا بأن الحدود بين البلدين مغلقة ، وهاهو ذا فرنكو يستثير حماسة الشعب فيرد على الإنذار بمثله ويعلن اغلاق الحدود بينه وبين فرنسا ، ويزيد على ذلك حشد جيش عظيم من حزب الفلانج لحراسة الحدود .

وقد بحثت جمعية هيئة الأمم المتحدة التي انعقدت في نيويورك في عام ١٩٤٦ موضوع الحكم في اسبانيا فقررت أن تبدي الدول سخطها على نظام الحكم الدكتاتوري بسحب سفرائهم من مدريد . واستدعت الدول فعلا سفراءها على أثر ذلك ولكنها لم تقطع علاقاتها بحكومة فرنكو . وثبت فرنكو في موقفه لاتزعزعه التهديدات الكلامية ولا توثوره المؤامرات الجمهورية خارج اسبانيا واتخذ من موقف الدول ضده ذريعة لتقوية الروح الوطنية في نفوس الوطنيين واثارة البغضاء والكرهية ضد الجمهوريين والأجانب .

وأخيراً فظن فرنكو إلى ضرورة إجراء تعديل أساسى فى نظام الحكم فاعلن فى ٣١ مارس سنة ١٩٤٧ تسكوين مجلس للعرش يتولى الجنرال فرنكو رياسته إلى أن يختار الملك الذى يتبوأ العرش آخر الأمر ، وبذلك يعطى فرنكو لنظامه صفة شرعية موسومة بطابع الاستمرار وانكار الذات ، ولكن دون جوان المطالب بالعرش لم يعر هذا القول من جانب فرنكو اهمية . وأعلن أنه لن يعتلى العرش بناء على دعوة من فرنكو . وقد انحاز إلى جانبه كثير من زعماء الجمهوريين اليمينيين فضلا عن انصاره داخل اسبانيا . وهم جميعا يعتقدون أن نظام فرنكو قد آذن بالزوال وأن على المعارضين لفرنكو أن يضموا صفوفهم استعدادا للحادث القريب . ولكن الجمهوريين يشترطون استفتاء الشعب الاسبانى استفتاء حراً قبل تقرير النظام المنتظر . والمطالب بالعرش مع اعتماده على تأييد الشعب واطلاق انصاره انه سيحكم البلاد كملك دستورى يقرر أن النظام الملكى متأصل فى ارض اسبانيا ولا حاجة به إلى استفتاء الشعب .

وأغلب الظن أن فرنسا لن تترك اسبانيا حرة فى تنظيم بيتها لأن فرنسا لاتزال تعتبر اسبانيا امتدادا جغرافيا لها ولأنه يهمها أن تصون المواصلات بينها وبين مستعمراتها فى شمال افريقية عن طريق اسبانيا برا وجزر البليار التابعة لاسبانيا بحرا . فاذا لم تكن حكومة اسبانيا موالية لفرنسا تعرضت مواصلات فرنسا ومصالحها الحربية فى أوربا وافريقية لأعظم الخطر . ولكننا نشك فى أن تستطيع فرنسا الآن وهى فى مرحلة دقيقة من تاريخها أن تؤيد الجمهوريين فى اسبانيا بالقوة لاسيما أنها تعرف أن جيش فرنكو لاتنقصه الكفاية أو الاستعداد . والجمهوريون وحدهم غير قادرين على قهر فرنكو مالم يتجه البندول الوطنى فى اسبانيا نحو الملكية أو الثورة . فهل استجتم الشعب الاسبانى واستعاد نشاطه إلى الدرجة التى تدعوه إلى تكرار مأساة سنة ١٩٣٦ ؟ وإذا تكررت المأساة ولم ينتصر فيها الملكيون فهل هناك ما يمنع أن تدور الحلقة المفرغة دورتها ويظهر فرنكو آخر من جديد ؟ هذه هى مشكلة اسبانيا .

ب - أسبانيا بعد الحرب

من الظواهر السياسية التي أعقبت الحرب العالمية الثانية ، أن الدول التي لزمته الجيدة في أثناء الحرب ، قد باءت بعد انتهائها بغضب ومقت شديد من لدن الدول المنتصرة ، حتى إنها إلى الآن لتلقى من المضايقات الدولية والاقتصادية أكثر مما تعانيه الشعوب المغلوبة نفسها . وإن في استبعاد سويسرا وأرلندة والبرتغال وأسبانيا من حظيرة الدول التي اجتمعت في سان فرانسيسكو عام ١٩٤٥ لوضع ميثاق هيئة الأمم المتحدة لدليل على الوصمة التي لحقت بالدول المحايدة بعد الحرب . وليس غريبا أن يكون هذا نصيب البلاد المحايدة بعد أن أصبحت الحرب ظاهرة عالمية لا يكاد شررها يندلع بين دولتين حتى تعم نارها ويستعر أوارها ، فإذا الجو والماء واليابسة جميعاً ميدان للحرب ، وإذا الحدود بين الدول خطوط وهمية ، والمعاهدات والاتفاقات الدولية قصاصات من الورق بالية . فلا عجب إذن أن تصبح الشعوب في زمن الحرب ولا عاصم لها من إغارة المغيرين أو غزو الفاتحين سواء أحربت في الميدان أم لم تحارب . وما دامت السكشوف العلمية الحديثة قد حولت الحرب من حادث محلي أو قارى إلى ظاهرة كونية قد يتجاوز تأثيرها بفضل الطاقة الذرية كوكب الأرض نفسه ، فما جدوى الجيدة وما قيمتها .

ولم تصب دولة محايدة على أيدي الحلفاء بعد الحرب ، بمثل ما أصيبت به أسبانيا . فالحلفاء يعتبرون أن نظام الحكم القائم فيها وليد تدخل قوات المحور ، وأنه لولا مساعدة إيطاليا وألمانيا ما استطاع فر نكو أن يخضع الشعب الأسباني لحكمه . ويؤكدون أن الجيدة التي لزمته أسبانيا في الحرب العالمية الثانية لم تكن إلا جيدة موالية للمحور بدليل الفرق الزرقاء التي قدمتها أسبانيا لمحاربة الشيوعية إلى جانب الألمان ، وبدليل ما كانت تلقاه الغواصات والطائرات الألمانية التي كانت تلوذ بالخلجان والموانئ الأسبانية من عون وتستر من جانب السلطات الأسبانية . ولا تزال حكومات الحلفاء تنشر بين آونة وأخرى مستندات مختلفة

المصادر تدور كلها حول ما كان سائداً بين فرنكو وهتلر من تفاهم أدى إلى عقد اتفاق بينهما ، فخواه أن ينضم فرنكو إلى جانب المحور فيسمح للقوات الألمانية باختراق أسبانيا إلى شمال إفريقية ، وفي مقابل ذلك تستولى أسبانيا على جبل طارق من بريطانيا ومراكش من فرنسا . ولم يحل دون تنفيذ هذا الاتفاق سوى أن هتلر قد شغل بالميدان الروسى فألهاه ذلك عن متابعة التفكير فى غزو شمال إفريقية . ولو قدر للاتفاق أن ينفذ فى بداية الحرب لتعذر على أمريكا والحلفاء تسيير حملتهم الكبرى على سواحل بلاد المغرب .

لذلك كله لم يدع الحلفاء فرصة تمر دون أن يعلنوا مقتهم لنظام فرنكو ورغبتهم الصادقة فى أن يزول حكمه عن البلاد . ونتج عن ذلك أن بقيت أسبانيا بمزمل عن الأمم المتحدة ، وفقدت ما كان لها من مزايا فى ميناء طنجة ، وكاد الروس يتجهحون فى ضم اسم فرنكو إلى قائمة مجرمى الحرب .

أما فرنكو فيقول فى الدفاع عن خطته إنه بالتزامه الحيدة قد أسدى خدمة جلى للحلفاء ، وإنه قد تمسك إلى النهاية بحييدته رغم إلحاح المحور وضغطه . وإنه إذا كان الألمان قد أفادوا من حيدة أسبانيا فإن الأحرار الفرنسيين قد وجدوا من أسبانيا فى أثناء الاحتلال الألماني ملجأ وملاذاً لهم . ويكفى دليلاً على حسن طوية الحكومة الأسبانية أنها لم تحرك ساكناً عندما نزلت حملة إفريقية الشمالية على سواحل الأطلنطى والبحر المتوسط على مرأى من السلطات الأسبانية وقريباً من قواعدها .

على ان أمضى سلاح يزود به فرنكو عن نفسه وعن نظامه أمام العالم أنه بانتصاره على الجمهوريين فى أسبانيا قد صان غرب أوروبا من طغيان العناصر الشيوعية قبيل الحرب وبعدها ، وأن أسبانيا بفضل نظامها قد أصبحت الحصن والدرع الوحيد فى أوروبا الذى قاوم النفوذ الشيوعى . فبينما نرى بلدان وسط أوروبا وشرقها بل فى أجزاء من غربها أيضاً قد اصطبغت كلها أو معظمها باللون الشيوعى إذا بأسبانيا تقف وحدها ثابتة فى موقفها بمعزل عن الشرق والغرب

جميعاً ، وهي إلى ذلك مزهوة باستقلالها راضية عن جهودها في سبيل درء الخطر الأجنبي عنها .

وأما الشعب الأسباني نفسه فله رأيه الخاص فيما وصلت إليه حاله . ومن العسير أن يتبين الباحث رأى الشعب في أسبانيا أو أن يتفق هذا الشعب على رأى واحد . ذلك لأن في أسبانيا ثلاث مناطق متباينة لكل منها لغتها وتقاليدها واقتصادياتها الخاصة . ففي الشمال الشرقى منطقة كتالونيا الغنية بتجارها ومنتجاتها ، وقاعدتها برشلونة أهم موانئ أسبانيا . وفي الشمال منطقة الباسك الشهيرة بمعادنها ومصانعها ، وأهم مراكزها بلباو . وفي هاتين المنطقتين تكثر الحركات العنيفة ، والرأى العام فيهما ينتمى إلى الأحرار غالباً ، وكانت كتالونيا في أثناء الثورة الأهلية أقوى حصون الجمهوريين . ثم منطقة السهول الزراعية فالمرعى ، وفيها العاصمة مدريد . وكثرة السكان في هذه المنطقة من المحافظين الذين يقصدون الكنيسة الكاثوليكية ولا يزالون يحسنون الظن بالملكية . وقد ساعد على اختلاف الرأى بين سكان هذه المناطق أن الدستور الأخير الذى أصدرته حكومة الجمهورية قد خول لمنطقتي كتالونيا والباسك حق الاستقلال الذاتى ، وبذلك اتسعت الهوة بين أهل البلاد الواحدة ولم تعد الوحدة السياسية ملحوظة في أسبانيا كما كانت في عصر شارلكان وخلفائه .

أما الأحرار فيعتقدون أن الحرب الأهلية في أسبانيا كانت مقدمة للحرب العالمية الثانية ، وأن على الحلفاء أن يحرروا الشعب الأسباني من النظام الفلنجى ، الذى أنشأه فرنكو كما حرروا شعوب أوروبا الأخرى من النازية والفاشية . فما نشبت الحرب في رأيهم إلا للقضاء على النظم الدكتاتورية ، وما دامت المبادئ الديمقراطية هي التى انتصرت فى النهاية فلا معنى لبقاء الحلفاء على دولة دكتاتورية قد تصبح بعد قليل عشا تبيض فيه النازية أو الفاشية وتفترخ . واكثر الأحرار تحمسا الجمهوريون الذين هاجروا من بلادهم على أثر انتصار الوطنيين واستوطنوا فرنسا وجمهوريات أمريكا وأنشأوا لهم فى المنفى حكومة جمهورية

أعلنوها في المكسيك في سبتمبر سنة ١٩٤٥ ثم تجمع كثير منهم في جنوبي فرنسا بعد الحرب وجعلوا يعملون سرّاً وعلانية لقلب حكومة فرنكو مقتفين في ذلك أثر جماعات المقاومة من الفرنسيين المعروفين بالماكي maquis الذين كانوا يعملون تحت الأرض لمقاومة الألمان في أثناء فترة الاحتلال . وللجمهوريين قوات مسلحة تقيم على الحدود بين فرنسا وأسبانيا في انتظار الوقت المناسب لدخول أسبانيا طوعاً أو كرهاً . ويبلغ عددهم نحو خمسين ألف رجل من مجموع عدد المهاجرين ، ويقدرون بنصف مليون أسباني .

وليس الجمهوريون جميعاً من الشيوعيين ، فبينهم كثيرون يؤمنون بالنظم النيابية الديمقراطية وينظرون إلى فرنسا وبريطانيا وأمريكا كمثل عليا يقتدون بها وينسجون على منوالها في الحكم . ولا عيب في هذه الجماعة إلا أن أفرادها لطول غيبتهم عن أسبانيا قد فقدوا الاتصال عن كسب بروح الشعب وآرائه وحاجاته ، وعجزوا عن تقدير ما أسداه النظام الحالي للبلاد من استقرار وتنظيم لشؤونه واقتصادياته . أما ما يؤخذ على الجمهوريين من أنهم في سبيل تحقيق أغراضهم لا يترددون في التماس المعونة من العناصر الشيوعية الاجنبية فقد يكون صحيحاً ، ولكننا نعتقد أن طبيعة الكبرياء الوطني عند الاسبان تجعلهم يأبون أن تشد بلادهم إلى عجلة دولة أجنبية أياً كانت .

أما الملكيون فهم إلى نظام فرنكو أقرب منهم إلى النظام الجمهوري ، ولكن الاشتراك في الهجرة وآلام المنفى ورغبتهم جميعاً في القضاء على فرنكو — كل ذلك قد قرب مسافة الخلاف بين الملكيين والجمهوريين بدرجة شجعت على القول بإمكان تألف الفريقين ضد فرنكو .

والمعروف أن فرنكو لا يعادى الملكية في أسبانيا ؛ فقد كان من أول أعماله حين تولى السلطة أن أعاد الحقوق المدنية للملك السابق الفونسو الثالث عشر ، وانه بعد موت الملك كاد الاتفاق يتم بين فرنكو ودون جوان المطالب بالعرش لو لم تقف هيئة الامم المتحدة موقفها العدائي ضد فرنكو . وقد انتقل

الامير بعد الحرب من سويسرا إلى إنجلترا ومنها إلى البرتغال واتخذ له ولائعه مقراً قريباً من لشبونة ليرقب منه الحالة عن كشب . وقد أعلن الامير نهائياً أنه لا يقبل التاج من يد فرنكو ، وأن على فرنكو أن ينزل أولاً عن سلطانه حتى يصعد الامير على عرش آبائه الوراثة .

واسكن فرنكو لم يأبه بتمنع دون جوان وهو يعلم أن تاريخ الملكية في أسبانيا لا يشرف كثيراً ولا يثير من الشعب من الحماسة ماثيره انتصارات الزعيم ، لذلك انتهز فرنكو فرصة احتفال الشعب بالذكرى الثامنة لانتصار الجيوش الوطنية فأعلن في مارس الماضي قانون وراثة العرش الذي يقضى بأن تكون أسبانيا دولة ملكية لها مجلس ملكي مكون من ١٢ عضواً منهم رئيس الاساقفة ورئيس أركان حرب الجيش ورئيس المحكمة العليا ويمثلو النقابات المختلفة . وبنص قانون الوراثة على أن فرنكو رئيس الدولة وعليه أن يستشير مجلس المملكة في تعيين خلفه وفي إعلان الحرب والسلم وفي القوانين التي يرى ردها إلى مجلس السكورتيس أو البرلمان الذي أعاد فرنكو تأليفه منذ سنة ١٩٤٣ . فإذا مات رئيس الدولة أو أصبح غير قادر على الحكم فإن مجلس الوصاية يتولى السلطة العليا . ويتكون مجلس الوصاية من رئيس السكورتيس ورئيس الاساقفة ورئيس أركان حرب الجيش . وعلى مجلس الوصاية أن يدعو الوزراء ومجلس المملكة إلى الاجتماع للاتفاق بكثرة الثلثين على مرشح للعرش . واشترط القانون أن يكون المرشح أسبانياً بالغاً من العمر ثلاثين سنة على الأقل كاثوليكياً ومن دم ملكي ، وأن يقسم يمين الولاء للقوانين البلاد ، وأن يجوز ترشيحه ثلثي أصوات مجلس السكورتيس .

ولما وصل هذا القانون إلى علم الامير دون جوان أبدى اعتراضه وسخطه عليه لسببين : الأول أن الامير لم يستشر قبل إصداره . والثاني أن الشعب لم يستفت فيه . ولعل أهم ما يدعو إلى اعتراض الملكيين أن القانون قد اشترط أن يقسم المرشح للعرش يمين الولاء للقوانين التي أصدرتها حكومة فرنكو وأن

الأمير لا يريد أن تسكون عودته إلى العرش متوقفة على رغبة فرنكو، أو موافقة السكورتيس أو مجلس الوصاية أو غيرهما، ومع ذلك فقد وافق السكورتيس على القانون وأجرت الحكومة استفتاء بشأنه، فكان عدد المقترعين للقانون أكثر من ١٤ مليون ضد نحو ٨٢٢٠٠٠ اقترعوا ضده. ولا تزال الدوائر الملكية دائبة الاتصال بالأمير المطالب بالعرش، وهم يزعمون أن في قيام حكومة ملكية دستورية خير ضمان لاستقرار البلاد والحد من المنازعات الحزبية التي مزقت وحدة البلاد وعرضتها أخيراً لويلات الحرب الأهلية.

والمسكيون والجمهوريون كلاهما يعلقون أهمية كبيرة على معارضة هيئة الأمم المتحدة للحكم الفرنسي، ويعتقدون أن فرنكولم يلجأ إلى قانونه الأخير إلا تغطية لمركزه الذي تضعض وتخرج في نظر العالم بسبب قرارات هيئة الأمم المتحدة ضده في عام سنة ١٤٩٦. فقد قررت لجنة من مجلس الأمن أن بقاء حكم فرنكو في أسبانيا من شأنه أن يعرض السلام الدولي للخطر. وعلى ذلك وافقت الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة أن تسحب الدول سفراءها ووزراءها المفوضين من أسبانيا، ولكنها لم تقرر قطع العلاقات السياسية كما كان قد اقترح أولاً. وقد وافقت على هذا القرار ٣٤ دولة ضد ٦ وامتنعت ١٣ دولة عن إعطاء صوتها، ومن هؤلاء دول الجامعة العربية، فلقى موقفها ارتياحاً من جانب فرنكو. ويظهر أن الدول العربية قد أرادت بمخاطبتها أن تنكسب أسبانيا إلى جانبها ضد سياسة فرنسا في شمال إفريقيا. وقد نفذت الدول التي لها سفراء أو وزراء في أسبانيا قرار الجمعية العمومية. ولكن القرار قد جرح كبرياء أسبانيا وأعدده الأسبان تدخلاً مهيناً من جانب الدول في شؤون أسبانيا الداخلية. وكان رد الفعل الأول للقرار أن قامت في البلاد مظاهرات حماسية رائعة تعضد فرنكو في موقفه وتحتج على تدخل الأجانب. وكانت النتيجة أن فرنكولم يكثر بمعارضة الدول، فتجدها وسار على خطته التي رسمها لنفسه كما ذكرنا. من ذلك يتضح أن الأسبان بعد نحو عشر سنوات تحت نظام فرنكو قد أصبحوا يألفون نظامه ويقدرّون ما فيه من مزايا

الاستقرار والتنظيم الذي شمل جميع مرافق الحياة ، وأنهم صاروا الآن يفضلونه على ما عده من النظم . فهم قد قاسوا كثيراً تحت نظام الملكية في الماضي وتحت نظام الجمهورية أخيراً . وهم لا ينسون أن أسبانيا قد فقدت نحو نصف مليون نفس في الحرب الأهلية الأخيرة ، وأن أى انقلاب آخر سواء أكان ملكياً أم جمهورياً سيفضي حتماً إلى قيام حرب أهلية أخرى . ذلك لأنه إذا أعيدت الملكية ثار الشيوعيون وعرضوا البلاد لكارثة وطنية جديدة . وإذا عاد الجمهوريون أضربت الكنيسة ورجال الجيش نار الثورة وأججوها في صدور الفلاحين والشعب عامة . والأسبان يعلمون أن النظام الحالي في بلادهم يقوم على قوة الجيش ، فأى مساس يناله من الداخل أو الخارج لا بد أن يؤدي إلى إراقة الدماء . وقد يكونون مقتنعين بضرورة إحداث تغيير في نظم الحكم ، ولكنهم يأبون أن يجيء التغيير عن طريق الثورة أو العنف في الوقت الحاضر . ومع اعترافهم بأن الجيش في أسبانيا هو أساس البلاد وأنه من أهم أسباب الضيق المالي ، فإن موقف هيئة الأمم المتحدة من أسبانيا قد جعل الجيش أداة وطنية لا غنى عنها . وإذا أضفنا إلى ذلك أن الحكومة الفرنسية كانت قد أعلنت إغلاق الحدود بينها وبين أسبانيا ، وأن الجمهوريين والارهابيين من الأسبان قد اتخذوا قواعدهم جنوبي فرنسا قرب الحدود أدركنا معنى احتفاظ فرنكو بجيشه الكبير الذي يقدره بعضهم بثلاثة أرباع مليون رجل يسكلفون الحكومة والشعب نفقات طائلة لا قبل لهم باحتمالها طويلاً . ومع ذلك يؤثر الأسبان الأبقاء على نظامهم الحالي مع اعترافهم بعيوبه ونقائصه . فهم إذ يقارنون حالهم بحال غيرهم من شعوب أوروبا يرون أنهم أحسن حالا وأثبت موقفاً من غيرهم وقد بات الأسبان الآن زاهدين في السياسة عامة وفي السياسة الأوروبية خاصة . وأخذت محاسن أمريكا والمحيط الأطلنطي تجتذب أنظارهم وتستزعي اهتمامهم من جديد أكثر من انجذابهم نحو فرنسا أو إنجلترا أو البحر المتوسط ، وأكبر الظن أنه إذا حدث انقلاب سياسي في البلاد فلن تكون قبلة أسبانيا شرقية نحو موسكو ولا أوربية غربية نحو باريس أو لندن ، بل يغلب أن تبقى على سياستها الحالية أو تولى وجهها شطر بني جلدتها في أمريكا .

وقد نظرت مسألة أسبانيا أمام أنظار الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة في اجتماعها في إبريل سنة ١٩٤٩ واقترحت بعض الجمهوريات الأميركية اللاتينية رفع الحظر الدولي عن أسبانيا فلما عرض الاقتراح للاقتراع امتنعت الدول الكبرى الغربية عن إعطاء صوتها ولم يناصر الاقتراح سوى دول المجموعة الأميركية اللاتينية وبمجموعة الدول العربية ، وعلى ذلك فشل الاقتراح ولم يحصل على ثلثي الأصوات . فقد أعطت ٢٦ دولة أصواتها في جانب الاقتراح و ١٥ دولة ضده وامتنعت ١٦ دولة .

ومع ان روسيا تميل إلى اتخاذ اجراءات مباشرة ضد فرنكو بواسطة هيئة الأمم المتحدة ، فان بريطانيا والولايات المتحدة ومعهما سائر الدول الديمقراطية تسكتفي الآن باعلان آرائها ضد نظام فرنكو ولكنها لا تريد أن تتبع القول بالعمل وتفضل أن يقوم الشعب الأسباني باختيار الحكومة التي توافق إرادته في ظل استفهام برلماني صحيح .

ووجه الخطر في مشكلة أسبانيا أن نظام فرنكو يقوم كما ذكرنا على قوة جيش كبير كامل الاستعداد تؤيده كثرة من الشعب الأسباني المقيم داخل البلاد لا خارجها . وإن أى تدخل مباشر من جانب هيئة الدول المتحدة سيلقى معارضة كالتى تلقاها الهيئة من جانب روسيا من جراء تدخلها في شؤون البلقان . وأكبر الظن أن الحالة في شبه جزيرة إيبريا ستبقى موازنة للحالة في شبه جزيرة البلقان في طرف أوروبا الشرقى ، وستظل الحالة في المنطقتين على توترها حتى يستبين للعالم قدر هيئة الأمم المتحدة وأثرها في صيانة الحريات وحفظ السلام العام . فاما أن يكون للهيئة من القوة المادية والاستقلال في الرأى ومن النفوذ الأدبي ما يرهب القوى الطامع ويشجع الضعيف على الاستنجاد بها ، وإما تخاذل واستسلام من جانب الهيئة لرغبات الدول الكبرى واستهتار بالأمن الدولى ومظالم الشعوب الصغيرة .

وحينئذ تعود القوة إلى مكانها القديم فوق القانون ولا تتأنى الحلول لمشاكل البلقان وأسبانيا وغيرهما إلا عن طريق السيف والبطش . ومتى أصبحت الكلمة في العالم الحديث للسيف وللحوة الذرية فقل على المدنية العفاء وعلى الدنيا السلام .

الفصل الحادى والعشرون

مصر وقضية الجلاء

ولدت فكرة الجلاء فى الساعة التى نزل فيها أول جندى بريطانى بأرض الوطن وبجلبتها الحكومة الانجليزية أول ماسجلتها بتاريخ ٣ يناير سنة ١٨٨٣ فى أول منشور دورى بعث به لورد جرانفيل Granville وزير خارجية الحكومة الانجليزية إلى سائر الدول عقب احتلال البلاد قال فيه ، انه إذا كانت القوات البريطانية لا تزال باقية فى مصر فى الوقت الحاضر لحفظ النظام والسلام العام بها فان حكومة جلالة الملكة لترغب فى سحب قواتها بمجرد ما تسمح بذلك حالة البلاد وتفرغ من تنظيم الوسائل التى من شأنها توطيد سلطة الخديو ،

وقد شاءت الحكومة الانجليزية ان تعلن للدول عن زهداها وتجردها من أى مطمع ذاتى لها فى مصر فدعت قبل ارسالها حملتها الحربية كلا من فرنسا وايطاليا للاشتراك معها فى إنزال قواتهما بمصر ولو بقصد الدفاع عن القناة فرفضت فرنسا استخدام القوة ضد مصر رغم انها اشتركت مع انجلترا فى المظاهرة البحرية أمام الاسكندرية وبذلك أضاعت فرنسا على نفسها وعلى مصر أيضا فرصة نادرة لحراسة وادى النيل من أن تستأثر به انجلترا .

وقد قال غمبتا الوزير الفرنسى معارضا الحكومة الفرنسية حينذاك ان فرنسا بانسحابها من ميدان العمل بمصر قد يسرت لانجلترا ان تضع يدها على اقاليم ووديان وثغور كان حق فرنسا فى أن تفيد منها لا يقل عن حق انجلترا ،

أما ايطاليا فاعتذرت بلطف واعتبرت دعوة بريطانيا لها تفضلا منها وكرما ما برحت ايطاليا تذكره لبريطانيا بالشكر والعرفان بالجميل طوال عهد الاحتلال وسرعان ما أعلن غلادستون Gladstone فى مجلس العموم ، اننا سنرؤو ببيصرنا

في هذه الفترة شطر أوروبا بانتظار الدول التي تريد ان تتعاون معنا ... فاذا حبطت آمالنا في تعاونها معنا فان انجلترا ستضطلع وحدها بهذا العمل ، وكان مؤتمر الدول المنعقد في ذلك الوقت في القسطنطينية للبحث في المسألة المصرية قد دعا تركيا لارسال قواتها إلى مصر لتهديئة الفتنة العسكرية ، وتجددت دعوتها عقب ضرب الاسكندرية ولكن تركيا تباطأت كعادتها وتعثرت في سياستها الخارجية وانقضى الوقت في مناقشات سخيفة مع السفير البريطاني وفي معارضات عقيمة كانت انجلترا في اثنائها تعد العدة لارسال حملتها وحدها إلى مصر. وعلى ذلك انفردت انجلترا بانزال قواتها في البلاد ، وسرعان ما تم لها الفوز على العرايين وخلا لها الجو للعمل دون أية رقابة تستحق الذكر سواء في الداخل أو في الخارج ومع ذلك فقد احس الانجليز في أول الامر انهم في قلق مستمر ومركز غير مستقر فهم لم يدخلوا البلاد فاتحين حتى يستطيعوا اعلان حمايتهم عليها أو ضمها إلى املاكهم . وكل ما هناك انهم جاءوا من تلقاء انفسهم باعتبارهم حلفاء أو أصدقاء للسلطان أو للخديو لقمع الفتنة العرابية واستتباب الامن والنظام في بلاد حبتها الطبيعة بمركز جغرافي فذ على ناصية المضيق الذي يوصل بين البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهندي حيث الهند التي كانت الملع جوهرة في تاج الامبراطورية البريطانية . وكانت الحكومة الانجليزية في ذلك الوقت برياسة مستر غلادستون زعيم الأحرار الذين نادوا بحرية التجارة وقالوا بنصرة مبادئ الحرية والديمقراطية فلم تشأ الحكومة أن تنقض مبادئ الأحرار علنا وتتحدى الدول صراحة فنشأ في مصر حكومة استعمارية على غرار حكومة الهند . وكذلك لم يرق لرجال الحكومة ان تفلت منهم فرصة قد سنحت لتثبيت اقدامهم في نقطة استراتيجية عالمية عظيمة الخطر بالاضافة إلى أمن الامبراطورية وسلامتها .

لذلك نشأ في مصر ذلك النظام الاحتلالي الفذ الذي يظهر غير ما يبطن ويبطن غير ما يظهر فتركوا الحكومة الخديوية تتمتع في ظاهر الأمر باستقلالها وامتيازاتها الداخلية وفق الفرمانات السلطانية الممنوحة لها وجعلوا المعتمد البريطاني في الوقت

نفسه يجمع في يديه بواسطة المستشارين والمفتشين الانجليز من السلطات الادارية والتنفيذية والتشريعية ما شل به جميع السلطات الشرعية في البلاد وجعله شبه ملك غير متوج عليها .

وكان من مظاهر هذه السياسة أن المحتلين كانوا يعملون في البلاد كأنهم مخلصون فيها ، على حين كان رجال الحكومة الانجليزية لا يفتأون يذكرون ويعيدون ويكررون في منتدياتهم واحاديثهم وامام العالم اجمع أن الاحتلال في مصر مؤقت وان الجلاء آت لا ريب فيه .

١ - وجاءت أول مناسبة رسمية للفاوضة بشأن الجلاء في اغسطس سنة ١٨٨٣ قبل نهاية العام الاول للاحتلال وكان على رأس الحكومة في ذلك الوقت الوزير الوطني الأول شريف باشا . انتهز فرصة ارتباك الحكومة الانجليزية بشأن سياستها المالية نحو مصر وطالب رسمياً بضرورة تقليل القوات البريطانية التي تحتل البلاد حتى لا ترهق بنفقاتهم ميزانية الحكومة وهي إذ ذاك في حالة تقرب من الافلاس . وكان عددهم هذه القوات في أول الأمر سبعة آلاف جندي يكلفون الخزانة العامة زهاء نصف مليون جنيه في العام فطلب الوزير تخفيض عددهم إلى ألفي جندي . وكانت الحكومة الانجليزية قد عينت السير افلن بارنج Evelyn Baring (لورد كرومر Cromer فيما بعد) معتمداً وقنصلاً عاماً لها في مصر ليقوم بتنفيذ سياسة الاحتلال الجديدة فاستطلعت رأيه فيما تقدمت به الحكومة المصرية فسكتب بارنج وكان في بدء حياته السياسية في الثانية والاربعين من عمره يحبذ فكرة الجلاء الجزئي ويقول انه قد استشار الخبراء العسكريين وأدى بهم البحث إلى انه لا خوف البتة من جلاء جيش الاحتلال عن القاهرة وتخفيض عدده إلى ثلاثة آلاف جندي يكون مقرهم الاسكندرية . ولم يشأ بارنج ان يعين تاريخاً لانسحاب جيش الاحتلال نهائياً لانه لم يكن قد مضى عليه في عمله الجديد سوى شهر واحد ولان فكرة الجلاء التام لم تسكن قد اختمرت بعد .

وكان جواب لورد جرانفل وزير الخارجية سريعاً وصريحاً في موافقته على

جلاء جنود الاحتلال عن القاهرة وتركيز اقامتهم في الاسكندرية مع تخفيض عددهم إلى ثلاثة آلاف رجل .

ولكن حدث وبالأأسف قبل الشروع في تنفيذ هذا القرار ان وصلت إلى مصر انباء كارثة حملة هكس باشا Hicks ، أمام المهديين في السودان إذ بادت الحملة عن آخرها أو كادت - وكان عددها عشرة آلاف مقاتل - وسط غياب السكردفان وغاباته وقفاره ، وبات الناس يتوقعون بعد هذه الكارثة زحف الجوع المهدي على الخرطوم وتهديد حدود مصر الجنوبية نفسها . وعلى ذلك اقتضت سياسة الحيطه والخوف من خطر المهدي ترك جيش الاحتلال على ما كان عليه دون تغيير في عدده أو مقره - وتأجلت فكرة الجلاء عن القاهرة لأول مرة حتى عام ١٩٤٧ إذ اخلى جنود الاحتلال الشكنات المصرية في القلعة وقصر النيل والعباسية واتخذوا قاعدتهم على ضفة قناة السويس الغربية في فايد قرب الاسماعيلية .

وليس من شك في أن ظهور الثورة المهدي في السودان وتعرض النظام المصري الذي أقامه الخديو إسماعيل في تلك الأرجاء الشاسعة للإنيار وبدأ تحول اتجاه السياسة الإنجليزية الاستعمارية نحو السودان - كل أولئك كانت من أهم العوامل التي جعلت بريطانيا تنأى تدريجاً عن فكرة الجلاء عن مصر وتأخذ أهبتها حتى تسنح لها الفرصة المواتية للسيطرة على منابع النيل كما سيطرت على قناة السويس ، وكلاهما تعتبره بريطانيا شرياناً حيويًا بالإضافة إلى امبراطوريتها في آسيا وأفريقية . ومن هنا تتضح لنا أسباب تمسك بريطانيا بالدفاع عن القناة ذلك أنها تعلم أن سيطرتها في أفريقية - لامواصلاتها إلى الهند بحسب - هي التي ستعرض للخطر متى انسحبت قواتها من مصر .

٢ - وسنحت الفرصة الثانية للمفاوضة بشأن الجلاء في سنة ١٨٨٤ وجاءت المفاوضات في هذه المرة على يد الحكومة الفرنسية التي وضعت مسألة الجلاء عن مصر في مقدمة أهدافها السياسية الدولية وظلت ترعى سياسة الجلاء وتناصرها حتى شغلت فرنسا بمصالحها في شمال أفريقية وتم الاتفاق الودي بينها وبين إنجلترا

في سنة ١٩٠٤ فرضت إنجلترا أن تمد فرنسا نفوذها في مراکش مقابل أن تترك
يدها حرة في مصر .
ففي سنة ١٨٨٤ اشتدت حاجة الحكومة المصرية إلى المال لسد نفقات
التعويضات التي تخلفت عن حوادث الاسكندرية وغيرها ولتجهيز الحملات الحربية
في السودان ولانشاء بعض أعمال الري الضرورية لرخاء البلاد . ولما كانت موارد
الحكومة محدودة بقانون تصفية الدين الذي وافقت عليه الدول سنة ١٨٨١ .
فقد اضطرت الحكومة الإنجليزية إلى دعوة الدول إلى مؤتمر يعقد في لندن للبحث
في موضوع المالية المصرية . فلما بلغ أمر هذه الدعوة إلى فرنسا أرادت أن تنتهز
هذه الفرصة لتحقيق غرضها في جلاء الإنجليز عن مصر فاشتترطت لقبول الدعوة
إلى المؤتمر البحث في مسألة الجلاء مع الموضوع المالي .

وعلى ذلك تبادلت الحكومتان المكاتبات في هذا الشأن وقد ذكر لورد جرانفل
في خطاب له إلى الحكومة الفرنسية : « إنه يرى من العسير تحديد موعد للجلاء فقد
يكون التاريخ الذي يحدده بعيداً أو قريباً . غير أن حكومة جلالة الملكة رغبة منها
في إزالة كل ريبة من حيث نياتها في هذا الصدد تعد بأن تسحب قواتها من مصر في
أوائل عام ١٨٨٨ بشرط أن تقتنع الدول بأن انسحاب الاحتلال لا ينبغي عليه أحداث
أى تأثير في حالة الأمن بالبلاد ونظامها . وأضاف اللورد إلى ذلك أنه متى تم
الجلاء تعتزم حكومة جلالة الملكة أن تقترح على الدول وعلى الباب العالي أن
تكون مصر حكومة محايدة على غرار حكومة بلجيكا .

وكان جواب الحكومة الفرنسية على ذلك أن أعلن مسيو جول فرى
Jules Ferry رئيس الحكومة في مجلس النواب الفرنسي « أن مصر أيها السادة
ليست شيئاً إنجليزياً ولا فرنسياً ولسكنها أرض ذات صفة دولية أوربية ظاهرة .
فأوروبا هي التي احتضنتها ومسألة مصر كانت وستبقى دواما مسألة أوربية قبل كل
شيء وفوق كل شيء . »

وما إن ظفرت الحكومة الفرنسية بذلك التصريح من لدن الحكومة الإنجليزية

حتى نسيت فرنسا مصلحتها السياسية وتفرغت لمصالحها المادية . فلما اجتمع المؤتمر للبحث في الحالة المالية واقترحت الحكومة الانجليزية تخفيض فائدة الدين العام من أربعة في المائة إلى ثلاثة ونصف عارضت فرنسا وتشددت وتشبثت بموقفها حتى انفض المؤتمر دون اية نتيجة . ولما عاد المؤتمر إلى الانعقاد في السنة التالية أقرت الدول عقد قرض جديد بضمائمها بمبلغ تسعة ملايين من الجنيهات بفائدة قدرها ثلاثة ونصف في المائة تفريجا للالزمة المالية بمصر . وعلى ذلك انتهى الأمر بأن سحب مستر غلادستون ولورد جرانفل تصريحهما السابق إلى الحكومة الفرنسية بشأن تحديد تاريخ الجلاء عن مصر . وضاعت على مصر فرصة ثانية للتخلص من الاحتلال لأن فرنسا آثرت أن تضحى بكسب دولي لا شك فيه من أجل فائدة مادية لا تكاد تذكر إلى جانب سمعتها الدولية .

قال مسيو ده فرسينيه Freycinet رئيس وزراء فرنسا السابق معلقا على موقف فرنسا: ولقد آثرنا أن نضيع تلك الفرصة السياسية النادرة على أن نقبل تخفيض ايراد الدين بمقدار نصف في المائة . ان اهتمامنا الزائد بمصالح الدائنين الفرنسيين قد غطى على كل شيء وقد ادى بنا إلى ارتكاب اخطاء سياسية كثيرة .

٢ - أما المناسبة الثالثة التي جرت فيها مفاوضات رسمية بشأن الجلاء فجاءت في سنة ١٨٨٧ وكانت حكومة الاحرار قد استقالت وخلفتها حكومة المحافظين برئاسة لورد سالسبوري Salisbury . ومع أن السياسة الخارجية التي تتبعها الحكومات الانجليزية لا تتغير عادة بتغير الأحزاب التي تتقلد الحكم فان المحافظين أرادوا أن يخففوا من حدة التوتر الدولي وأن يصلحوا ما أفسده احتلال مصر في العلاقات بينهم وبين تركيا وفرنسا فقررروا إرسال بعثة على رأسها هنري درمند وانف Drummond Wolff لمفاوضة الباب العالي بشأن تحديد تاريخ الجلاء الانجليزي عن مصر . وكان على السير درمند أن يزور تركيا ومصر ويتفق مع مندوبي السلطان على تسوية المسألة المصرية واعادة السكينة والسلام إلى ربوع السودان . وقد ظن الانجليز أن لسلطان تركيا من النفوذ الديني والروحاني ما يجعل المهدي واتباعه

يستمعون إلى نصحه ، وفاتهم أن ثورة المهدي كانت موجهة ضد السلطان والخديو ورجالهم جميعاً وأن الثورة في السودان بعد كارثة هكس باشا قد أصبح لها من الشأن والقوة والذبوع ما لا سبيل إلى قمعه إلا بالقوة .

وعلى ذلك طوى موضوع تهديّة السودان وتركزت جهود البعثة في بحث المسألة المصرية . وقد بدى العمل بتعيين مندوب سام لتركيا بمصر هو الغازي مختار باشا وجعل المندوبان الانجليزى والتركى يجتمعان بالقاهرة . ثم انتقل المندوب الانجليزى إلى القسطنطينية وأخذ يفاوض مندوبى السلطان بشأن جلاء القوات البريطانية وتعيين وقت مناسب لذلك . وأخيراً وقع المفاوضون على اتفاق عقد في مايو سنة ١٨٨٧ اتفقوا فيه على أن تنسحب القوات البريطانية من مصر بعد انتهاء ثلاث سنوات من تاريخ توقيع الاتفاق . فاذا ظهر بعد انقضاء تلك الفترة أن هناك خطراً يهدد طابئة البلاد وسلامتها سواء جاء الخطر من الداخل أو من الخارج فإن جلاء الجنود البريطانية يؤجل حتى يزول الخطر وبعدها ينسحب الاحتلال . وقد نص في هذا الاتفاق على أن لكل من تركيا وبريطانيا حقاً في إعادة احتلال البلاد إذا دهمها أى خطر وأنه متى هدأت الحال انجملت الجيوش المحتلة عن البلاد . وكذلك نص في الاتفاق أنه بعد انسحاب القوات البريطانية وقرار الحكومتين للاتفاق يطلب إلى باقى الدول ان تنضم إلى الاتفاق وأن تضمن حيده الاراضى المصرية وسلامتها .

وعلى ذلك ما كادت تصل تفاصيل الاتفاق إلى علم الدول حتى أبدت كل من روسيا وفرنسا معارضة شديدة لمواده وتقدمت الحكومتان تحتجان لدى السلطان على خفى الاتفاق وتطلب اليه عدم اقراره . وقد قال السفير الروسى فى احتجاجه ان الاتفاق معناه تضحية حقوق السلطان والنزول عنها محاناً لانجلترا . وقالت فرنسا ان الاتفاق من شأنه أن يصحح مركز انجلترا فى مصر ويجعله مركزاً شرعياً تصبح بمقتضاه شريكة لتركيا فى مصر . وجعلت الحكومتان تشددان الضغط على حكومة الباب العالى حتى اضطر السلطان إلى اهدار كرامة مندوبه بعدم اقراره

للاتفاق وغادر المندوب الانجليزي القسطنطينية وهو بادى الغضب خالى الوفاض
بعد أن قضى سنتين فى مداولات ومناورات عديمة الجدوى .
وإذا كانت بعثة وواف قد بامت بالفشل فيما يخص قضية الجلاء فإن إنجلترا
قد أفادت منها أيما فائدة فانها لم تعد بعد ذلك تقيم وزنا لاعتراض الدول على احتلالها
مصر . فهامى ذى قد وقع مندوبها على اتفاق مع مندوبى السلطان بشأن انتهاء الاحتلال
ولسكن السلطان نفسه قد رفض التوقيع منقاداً فى ذلك إلى رأى الحكومتين
اللتين كانتا تعارضان السياسة الإنجليزية فى مصر وهما فرنسا وروسيا .
وعلى أثر ذلك انتهجت إنجلترا فى مصر خطة حاسمة لا تردد فيها ولا هوادة فقد
أهملت موضوع الجلاء وأودعته زوايا النسيان تاركة عنكبا الاحتلال تنسج
حوله خيوطا استعمارية رفيعة دقيقة الصنع حادة الملمس تدمى اليد التى قد تمتد إليها .
وظلت إنجلترا جادة فى عملها بمصر حتى قام الاتفاق الانجليزي الفرنسى فاطمأنت
إليه وتفيأت ظلاله ناعمة البال فترة من الزمن حاسبة أن التقدم المادى الذى نعمت
به البلاد فى عهد الاحتلال سيطغى داما على القيم الأديه المعنوية للرجال فينسبون
تاريخ بلادهم وجهاد آبائهم وأجدادهم فى سبيل تحريرها من حكم الأجنبي .
ولسكن ما كادت الحكومة الفرنسية تنكر لقضية الجلاء وتنفض يديها من
المسألة المصرية حتى استيقظت البلاد على صرخة مصطفى كامل الوطنية واستفاقت
إلى وعيها القومى فقام الوطنيون يجاهدون معتمدين على جهودهم الذاتية فأسسوا
الحزب الوطنى ونشروا دعاية الدستور والجلاء فى طول البلاد وعرضها ، حتى إذا
قامت الحرب الكبرى ونشر الرئيس ولسون مبادئه الأربعة عشر وأعلنت الهدنة
كان المصريون قد حزموا أمرهم وجمعوا كلتهم بزعامة سعد زغلول فقامت ثورة
سنة ١٩١٩ وبدأت المفاوضات على قدم المساواة بين مصر وإنجلترا لأول مرة فى
تاريخ مصر الحديث وكان موضوع الجلاء أول المسائل التى تناولها المفاوضات .
وأخذت المفاوضات تتابع بين البلدين متصل مرة وتنقطع أخرى حتى أعلن
الملك فؤاد الأول استقلال البلاد سنة ١٩٢٢ وعقدت معاهدة التحالف بين مصر

وإنجلترا في ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ ، وقد نصت المعاهدة على انتهاء الاحتلال الإنجليزي . ولكن جاء في المادة الثامنة من المعاهدة أنه « إلى أن يحين الوقت الذي يتفق فيه الطرفان المتعاقدان على أن الجيش المصري أصبح في حالة يستطيع معها أن يكفل بمفرده حرية الملاحة في القناة وسلامتها التامة يرخص صاحب الجلالة ملك مصر لصاحب الجلالة الملك الامبراطور بان يضع في الاراضى المصرية بحوار القناة قوات تتعاون مع القوات المصرية لضمان الدفاع عن القناة ، وحدد عدد هذه القوات بعشرة آلاف جندي و ٤٠٠ طيار .

وقد قبلت مصر المعاهدة على أن لحقوقها بقية لم توف بعد وانها لن تالو جهدا في سبيل تكميلها . وجاءت الحرب العالمية الثانية في اعقاب المعاهدة فانتصرت مصر لقضية الديمقراطية وازرت حليفها بكل ما في طاقتها وبجميع مؤسساتها ومواردها بدرجة فاقت ما قدرته بريطانيا وادهشت العالم بما وصلت اليه مصر في ظلال الاستقلال من فوقان في الاستعداد والنضج السياسى . ويكفى ان تكون موقعة العلين التي كانت نقطة التحول بين الهزيمة والنصر قد دارت رحاها في داخل حدودنا وأن أسباب النصر ووسائله وجحافله في تلك المعركة قد سارت فوق اديم هذه البلاد واعدت عدتها بكل دقة وطمأنينة في جو يسوده الأمن وتبادل الثقة وقوة الايمان بانتصار المبادئ الديمقراطية ليكون لمصر الحق كل الحق في أن تطالب الان بالجملاء فوراً دون تقييد بأية معاهدة ان لم يكن اعترافاً بحق مصر الازلى على أرضها داخل حدودها فاحتراماً لميثاق هيئة الامم المتحدة ووفاء من بريطانيا لو عود قطعتها على نفسها مراراً منذ اكثر من ستين عاماً .

ولما رأت مصر ان معاهدة سنة ١٩٣٦ قد أصبحت غير ذات موضوع ازاء قيام هيئة الأمم المتحدة وميثاقها بدأت المفاوضات بينها وبين بريطانيا للوصول معها إلى اتفاق نهائى بشأن الجملاء عن وادى النيل ووحدة مصر والسودان . وقد سارعت الحكومة الانجليزية في الصيف عام ١٩٤٦ إلى اعلان عزم انجلترا على اخلاء مصر من القوات الانجليزية جميعاً . وفعلاً بدأت هذه القوات تجلو عن

الفصل الثاني والعشرون

مصر والسودان

إننا لننظم التاريخ والجغرافيا معاً إذا نحن حسبنا إفريقية بين قارات العالم القديم وقد ظلت فيها مساحات مجهولة وبقاع غير مأهولة وفياف مظلمة لم يكشف عنها التاريخ ولم يعرفها الانسان المتحضر إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أي بعد كشف أمريكا بثلاثة قرون ونصف قرن وبعد كشف استراليا بقرنين. ويحق لمصر الحديثة أن تفاخر بما ساهمت من نصيب في سبيل كشف مجاهل إفريقية وتمدينها في القرن التاسع عشر. فقد أدى فتح السودان في عهد محمد علي الكبير سنة ١٨٢٠ إلى إرسال بعثات علمية تشبهاً بحملة بونابرت على مصر للبحث عن المعادن والكشف عن منابع النيل. وقد وصل البكباشي سليم أحد ضباط محمد علي البحريين في ثلاث رحلات قام بها بين سنة ١٨٢٨ وسنة ١٨٤٢ إلى خط عرض ٥ شمالى خط الاستواء قرب «غندكرو»، في وقت كانت فيه منابع النيل وروافده لا تزال من الأحاجي والطلاسم التي تحاك حولها الأساطير والخرافات. وتعتبر التقارير والأرصاء الجوية التي أعدها البكباشي المصري من المستندات العلمية الأولى التي كتبت بشأن مجاهل أفريقية.

ثم انبرى لكشف القارة المظلمة في الثلث الاخير من القرن التاسع عشر رجال كبار النفوس أقوياء العزائم وقفوا أنفسهم لخدمة العلم والدين والإنسانية فقام أسبليك وجرانت البريطانيان فكشفا بحيرة فكتوريا سنة ١٨٦٢ وجاء بعدهما صموئيل بيكر، و«استانلي»، وغيرهما وكشفوا باقي البحيرات الكبرى وأجزاء النيل العليا.

وفي ذلك الوقت الذي أصبح فيه اسم إفريقية كالهند وأمريكا في القرن السادس عشر يرحل اليها الكاشفون والمستعمرون من جميع أنحاء العالم المتمدن اعتلى إسماعيل عرش مصر ، فاضطلعت مصر في سبيل فتح أفريقية وتمدين السودان بدور هو أعظم ما قامت به دولة في هذا السبيل في التاريخ الحديث .

فقد حدثت عوامل في عهد الخديو إسماعيل جعلته يهتم بشؤون السودان ووسط إفريقية أكبر اهتمام ، إذ فتحت قناة السويس للملاحة في سنة ١٨٦٩ فعادت إلى مصر أهميتها التجارية من حيث هي أهم وأقصر طريق بين الشرق والغرب ، بل صارت في هذا الشأن أعظم مما كانت في أي عصر مضى . وليس من شك في أن سيادة مصر على الطريق إلى الشرق ومرور خطوط الملاحة في المياه والموانئ المصرية وكشف منابع النيل وسهولة الاتصال بين البحر المتوسط وقلب إفريقية عن طريق النيل ، كل أولئك كانت عوامل قوية من شأنها أن تدفع الخديو إسماعيل إلى أن يأخذ على عاتقه مهمة توطيد سلطان مصر في وادي النيل وعلى البحر الأحمر ، وإدخال المبادىء الأولى للبدنية الحديثة في البلاد التي يخترقها نهر النيل وروافده .

وإذا كانت مصر لم تستطع في الماضي القريب أن تحتفظ بسوريا وبلاد العرب في عهد محمد علي بسبب تدخل الدول ، فقد كان أمامها في السهول والهضاب التي تسكتنف وادي النيل مجال بكر للفتح والتمدن والإصلاح . وقد كتب السفير الانجليزي في فينا مرة إلى المعتمد الانجليزي بالقاهرة حين اجتمعت الدول هلى معارضة سياسة محمد علي نحو تركيا يقول له : « إذا كان حقاً أن غاية ما يرمى اليه محمد علي من سياسته إنما هي تثبيت عرش أسرته ودعم مملكته ، فليس ثمة مجال أكثر ملامة له من قارة إفريقية ، فهناك نتقلب أوروبا صديقة له ، وتستطيع حينئذ أن تعاهده على عدم المساس بسلامة ممتلكاته فيها ،

وقد استطاع الخديو إسماعيل في أقل من عشر سنوات أن يمد سلطان مصر جنوبي خط الاستواء في أوغندا وغرباً في إقليم بحر الغزال ودارفور وشرقاً إلى

إلى بربره وهرر على خليج عدن وإلى قسايو على المحيط الهندي . أما زيباع فكان سلطان تركيا قد نزل عنها للخديو في سنة ١٨٧٥ مقابل إتاوة سنوية . وكذلك كانت مصوع وسواكن تحت حكم الخديو بمقتضى فرمان بتاريخ ١٨٦٥ مقابل إتاوة أخرى .

وقد كانت الحكومة التي أسسها إسماعيل لإدارة شؤون السودان من القوة والمهابة بحيث كان النظام والأمن سائدين في جميع الأرجاء ، حتى كان السياح يجوبون البلاد وهم آمنون كأنهم في نزهة خلوية ، قال المستكشف الألماني شوينفورت Schweinfurth في تقرير له : إن القوة والنفوذ اللذين كانا لمصر من سنة ١٨٧٠ إلى سنة ١٨٨٠ على أراضي النيل الأعلى الشاسعة لم يتمتع بمثلها أعظم الأمم استعماراً في التاريخ ، أعنى الانجائز والبرتغاليين . وقد كان الأمن في تلك الربوع السحيقة مستتباً بدرجة ليس لها شبيه من قبل ولا من بعد .

ولسكنها - وأسفا ! كانت وثبة في الظلام - وثبة في القارة المظلمة ! فلم يمض إلا القليل حتى أحست مصر أنها مسوقة إلى الهاوية ، واضطرت إلى إخلاء بلاد بذلت فيها كثيراً من جهدها ومالها ودماء رجالها .

وذلك أنه لما اضطرت الثورة العراقية في مصر سنة ١٨٨٢ أغفلت الحكومة المصرية أمر الثورة المهدية في السودان ، واضطرت إلى الاحتفاظ بمعظم قواتها الحربية لمواجهة الخطر الذي كان يهدد البلاد حينذاك . ولما انتهت الثورة في مصر بالإخفاق أصدر الخديو توفيق مرسوماً بتسريح الجيش المصرى كله . وبدأ أولو الأمر ينشئون جيشاً مصرية على نمط جديد . وفي تلك الأثناء استفحل أمر الثوار في السودان وتوالت انتصاراتهم على قوات الحكومة ، فأخذوا يفكرون جدياً في إخلاء السودان .

ومع أن الحكومة المصرية والرأى العام في مصر والخارج كان يميل إلى ضرورة إنقاذ السودان من آثار الفوضى والهمجية التي توشك أن تقضى على نتائج الجهود التي بذلها الخديو إسماعيل وأعوانه في بذر بذور المدنية ونشر لواء

الامن والسلام في ربوعه — فان بريطانيا كانت مصصمة على ضرورة الاخلاء .
فلما عارض شريف باشا رئيس الوزارة في الإخلاء أرسل لورد جرانفيل وزير
خارجية انجلترا خطابه الشهير في يناير سنة ١٨٨٤ إلى معتمد الحكومة الانجليزية
في مصر ، وفيه يقول : « يجب عند البحث في المسائل المهمة الخاصة بسلامة
مصر أو إدارتها أن تتبع نصائح حكومة جلالة الملكة مادام الاحتلال المؤقت
مستمراً . وعلى الوزراء والمديرين تنفيذ هذه النصائح وإلا أقيلوا من وظائفهم » .
حينئذ لم يسع شريف باشا وقتئذ إلا أن يستقيل محتجاً وتألفت وزارة نوبار باشا
وقبلت تنفيذ سياسة الاخلاء مضطرة ، وعين غردون باشا Gordon لتحقيق هذا
الغرض . غير أن المهديين ما لبثوا أن ضيقوا الخناق على غردون ومن معه من
المصريين وحاصروهم حصاراً انتهى في يناير سنة ١٨٨٥ بسقوط الخرطوم وقتل
غردون . وعلى ذلك ترك السودان « يسوئى في مرقه على مهل » . وقد ظل نفوذ
الثوار سائداً في السودان ثلاثة عشر عاماً ، وشمل سلطانهم جميع أرجاء السودان
عدا إقليم واحد هو مديرية خط الاستواء ، وكان حاكمها الدكتور شنزله
الالماني الذي اعتنق الاسلام وأصبح اسمه أمين باشا .

ولما انقطعت الصلة بين مصر وممتلكاتها في السودان نشأت نظرية خاطئة
نادت بها بعض الدول ، وهي أن السودان بعد أن تخلت عنه مصر صار نهياً
لمن سبق . وفات أنصار هذه النظرية أن مصر بتركها السودان مؤقتاً لم تتخل
عن أى حق فيه ، وأن هذه الحقوق قد كسبتها إما بحق الكشف والتمدين وإما
عن طريق الوراثة من تركيا ، وقد نص فرمان سنة ١٨٧٣ الذى منحه السلطان
للخديوى إسماعيل على أن يحكم الخديوى جميع ملحقات مصر في إفريقية بحق
الوراثة في ذريته للأكبر فالأكبر من أبنائه . غير أن سياسة بعض الدول رأوا
أن الفرصة سانحة لإشباع بطونهم من تلك اللقمة الدسمة التى تخلت عنها مصر مؤقتاً
فبدؤوا يوزعون أطرافها فيما بينهم باذن وعلم من الدولة المحتلة .



وكان ضيوف الشرف يأخذون لانفسهم من الاطياب ويتلذذون الشرائخ ،
 مايلانهم هوامم ويوافق مطامعهم فاذا ظهر من أحد المدعويين نهم أو تمليل أو
 اعتراض على ماأكله الغير ، تدخلت بريطانيا رئيسة المائدة ونهت المدعويين إلى أن
 صاحب الدار الشرعي لايزال على قيد الحياة ، وان حقوقه يجب أن تصان
 ويحتفظ له بها .

وكانت إيطاليا في ذلك الوقت أشد الدول جوعا وأكثرها أملاقا . ولا غرابة في ذلك إذ كانت حديثة العهد بتسكويين وحدتها السياسية وتريد أن تتشبه بالدول الكبرى فتسكون لها مستعمرات ومنشآت في عرض البحار ، تستعيد بها ذكريات الامبراطورية الرومانية القديمة ، كما تريد أن تتقاضى من إنجلترا ثمن سكوتها وانحيازها إلى جانبها ومناصرتها لها عندما كانت بعض الدول تنسكرك على إنجلترا احتلالها مصر . وعلى ذلك ما كاد خبر المائدة يصل إلى خياشيمها ، حتى سارعت إلى الحضور والقمتها إنجلترا ، مصوع ، على البحر الأحمر سنة ١٨٨٥ ولسكنها لم تسكتف بذلك وحاولت أن تثبت أقدامها في إقليم كسلا في سنة ١٨٩٤ فلم تستطع واضطرت إلى تركه .

وحضر المأدبة الملك ليوبولد الثاني ملك البلجيك سنة ١٨٩٤ واقتطع إقليم لادو وبحر الغزال بالاتفاق مع إنجلترا وضمهما إلى مستعمرة السكنفو .

أما اثيوبيا فلم تجد صعوبة في حضور المأدبة لقرب سكنها من دار الضيافة ؛ فاخذت إقليم بوغوص سنة ١٨٨٤ على الحدود بين اثيوبيا والسودان وذلك ثمننا لتسهيل مرور الحاميات المصرية داخل أراضيها ، وكانت قوات الثوار تهددها في شرقي السودان ، كما أخذت إقليم هرر سنة ١٨٨٧ .

أما نصيب الأسد من الوليمة فقد ذهب بطبيعة الحال إلى بريطانيا ؛ واتجه همها من أول الأمر إلى سد المنافذ والمسالك التي قد تؤدي إلى دار الوليمة ، حتى لا يتسرب اليها طفيلي أو منافس قد تسول له نفسه أن يمد يده إلى الفاكهة المحرمة وهي السودان الاصلى . وكان أمامها بابان يمكن أن ينفذ منهما الطفيليون : أما أحدهما وهو الباب الجنوبي فقد وقف على حراسته أمين باشا حاكم مديرية خط الاستواء الذي نجح من خطر الدعاية المهدية ولم تصل اليه قوات المهدي ، ولما كان أمين باشا لا يزال قائما بمهمته يمثل حقوق الخديوي في منطقة خط الاستواء ، فقد رأت إنجلترا ضرورة إخلاء هذه المنطقة كما اخلت غيرها . فقام المستكشف استانلي إلى إفريقية للوصول إلى أمين باشا

واقناعه بالانسحاب ؛ فتم له ذلك سنة ١٨٨٩ ، وبذلك اخليت مديرية خـط الاستواء ومهد الطريق لدخول بريطانيا أوغنده وصار بيدها مفتاح الباب الجنوبي . وأما الباب الغربي من جهة الصحراء الكبرى ونيجريا فلم يقف على حراسته أحد لطول الطريق الموصل إليه وخطورة اقتحامه .

بقى البابان الآخران : الشرقى من ناحية سواكن والبحر الأحمر ومفتاحه بيد إنجلترا ، وقد عززت حراسته باحتلالها زيلع وبربرة على خليج عدن سنة ١٨٨٤ . والشمالى وهو الرئيسى ومفتاحه الأصيل بيد صاحبة الدار مصر ولكن إنجلترا بعد شرائها أسهم قناة السويس واحتلالها مصر ، قد وضعت يدها على ذلك المفتاح طوعا أو كرها فلم تعد تخشى من هذه الناحية أحدا . وكان أخوف ما تخافه إنجلترا ، أن تتسلل فرنسا فتنفذ إلى الدار عن طريق ما ، وتلتهم ماتشاء من أطايب المأدبة دون علم الرئيسة . وقد ساء فرنسا أن يهمل شأنها فلا تدعى إلى المأدبة وقد كانت فى الماضى من أعز أصدقاء صاحبة الدار ومن حقها كغيرها أن يكون لها نصيب من الفاكهة المحرمة .

لذلك صممت فرنسا أن تدخل إلى الولية بالقوة المسلحة ، فأخذت طريقها نحو الباب الخلفى المهجور ، وهو الباب الغربى الذى تسكتنفه الصحراء والغابات الاستوائية وكان صعبا على بريطانيا حراسته سهلا على فرنسا اجتيازه ، لوجود أملاك لها تؤدى إليه من ناحية البكنغو الفرنسية . واستطاعت فرنسا أن تدبر حملة بقيادة الكابتن مارشان Marchand . ومعه ثمانية ضباط ، ومترجم وطبيب ومائتا جندى سنغالى ، وباخرتان مسلحتان صغيرتان ، فقامت من فرنسا فى يونيه سنة ١٨٩٦ ، وقصدت أولا إلى الكسنغو الفرنسى ، ومنه سارت إلى الشمال الشرقى قاصدة مديرية بحر الغزال وفاشود ، عند مصب نهر سوباط ، وهناك فصبت الحملة العلم الفرنسى . وكانت فرنسا تريد بذلك أن تحتل حوض النيل الأعلى ، وترغم إنجلترا على الاعتراف لها بنصيبها من السودان أولا ، ثم تفاوض إنجلترا إذا ساعدتها الظروف بعد ذلك بشأن الجلاء عن مصر ، وكان هذا من

الألماني التي تشغل اذهان الفرنسيين في ذلك الوقت .
وبلغ علم هذه الحملة همسا إلى مسامع الساسة البريطانيين ، وتحققوا من اقتراب
فرنسا نحو دار الضيافة في السودان ، وحينئذ غيرت بريطانيا سياستها فورا ،
وضاعفت نشاطها الحربي . وبعد أن كانت الحكومة الانجليزية تنصح بارجاء
إرسال الحملة لإعادة فتح السودان ، عادت فقررت السير في إعداد حملة الفتح
باقصى سرعة خوفا من أن تصل فرنسا فتجد الباب مفتوحا أمامها .

وفي سنة ١٨٩٦ كان الجيش المصرى الجديد قد تهيأ للعمل وبلغ عدده ٢٠.٠٠٠
جندي تقريبا ، فصدر إليه الأمر بقيام الحملة في الحال لإعادة فتح السودان بقيادة
كitchener سردار الجيش المصرى ومعه نحو ٧.٠٠٠ جندي بريطاني ، ولم
يجد الحملة صعوبة في الانتصار على الثوار الذين أضعفهم حصرهم في السودان ، وعدم
اتصالهم بالخارج ، وانحلت روحهم المعنوية لتفشى الأمراض والمنازعات بينهم .
وفي أول سبتمبر سنة ١٨٩٨ ضربت ام درمان ، وانقض الجيش المصرى الانجليزى
فدخل الخرطوم ظافرا بعد انقضاء ثلاثة عشر عاما على قتل غردون .

غير أنه قبل ذلك بشهرين كانت البعثة الفرنسية بقيادة « مارشان » قد وصلت
إلى فاشودة ؛ ونصبت عليها العلم الفرنسى في ١٠ يوليو سنة ١٨٩٨ وظل « مارشان »
يتربص وصول المدد من الحبشة ولسكن بلا جدوى ، وكل ما استطاع مارشان
أن يعمله أنه عقد إتفاهاً مع قبائل الشلوك عند مصب نهر السوبات تعهد فيه
بحمايتهم

وما كاد كitchener يستقر في الخرطوم ، حتى بلغه من بعض أصحاب السفن من
العرب وجود جماعة من الأوربيين عند فاشودة ، يرفعون علماً أجنبياً ، وفي الوقت
نفسه وصلت التعليمات بضرورة قيام السردار ومعه بعض السفن الحربية وقوة
من الجنود إلى فاشودة .

وفي ١٩ سبتمبر وصل كitchener إلى فاشودة ومعه « ونجيت » أكبر ضباطه
و ١٨.٠٠٠ جندي سوداني و ١٠٠ جندي انجليزى وخمس بواخر ، وأصبح الانجليز

وجها لوجه أمام الفرنسيين في السودان . ولما كانت القوتان مسلحتين ظن الناس أن ساعة الفصل بين الدولتين المتنافستين قد دقت أخيراً ، وأن الحرب بينهما شتنب ولا ريب . ولكن كتشنر وهو القائد المزهو بانتصاره ، لم يفقد اتزانه في هذا الظرف الدقيق ، وغلب عقله على عاطفته وانقذ الموقف بالآناة والحزم . كما أن نده الفرنسي لم يجبن ، ولم ترتعد فرائصه فرقا وخوفا ، رغم ضآلة القوة التي كانت معه ، بل وقف يجابهه غريمه القوي ثابت الجنان ، معتزاً بوطنيته وشجاعته التي أوصلته إلى هذه المنزلة التي قد تقصر عن بلوغها الجيوش الجرارة المجهزة بأحدث العدد والآلات ، ولو شاءت الأقدار أن تنضم إليه قوات الحبشة ، كما كانت فرنسا تنتظر لأصبح لحملة مارشان شأن آخر ولتغير وجه التاريخ في السودان وفي مصر تبعاً لذلك .

على أن وصول كتشنر إلى فاشودة لم يكن مفاجئاً ، فقد وصل إلى فاشودة قبل مقدمه إثنان من الجنود السودانيين إلى الباخرة التي كان بها مارشان ، ومعهما خطاب إلى القائد الأوربي ، الذي يعسكر بجنده في فاشوده من السير هربرت كتشنر سردار الجيش المصري يبلغه فيه خبر انتصار الجيش المصري الانجليزي في أم درمان ويخطره بقرب وصوله إلى فاشودة .

وتسلم القائد الأوربي مارشان ، الخطاب ، وبعث إليه بالرد في صبيحة اليوم التالي يرحب فيه بحضور كتشنر باسم فرنسا . ولما رسا كتشنر بسفينته أمام فاشوده دهش لما رآه من ضآلة شأن القوات الفرنسية ، وكان يظن أن فرنسا أعدت قوة ذات خطر توطد به سلطاتها في تلك الأرجاء .

وجاء مارشان إلى الباخرة التي بها كتشنر ومعه أحد رفاقه الفرنسيين ، وتقابل القائدان في جو رهيب تسوده تقاليد الضيافة وآداب المجاملة من جهة ، وتكاد تخنقه أنفاس الجميع لاهمة تلهفها لمعرفة ما عسى أن تنتهي إليه هذه المقابلة . فلو أن كلمة بسيطة من أحد الجانبين نبت عن الصواب ، أو لو أن إيماة جاءت في غير موضعها لسببت كارثة حربية ، لا تلبث أن تندلع منها شرارة حرب أوربية جديدة

ولكن الرجلين احتفظا بهدوئيهما في حدود الواجب وتمسكا بفضيلة الكرم وضبط
النفس ودار الحديث بينهما كما يأتي :

كتشنر — ليكن في علمك يا كابتن أن وجود أية قوة أجنبية في وادي النيل ،
يعتبر تعدياً صريحاً على حقوق مصر . وبمقتضى التعليمات التي وصلت إلى احتج
بكل قوة على احتلالكم فاشودة ونصب العلم الفرنسي على أملاك حضرة صاحب
السمو خديو مصر .

مارشان -- أنا رجل عسكري وواجب العسكري أن يطـيع الأوامر .
وأوامري أن أسير إلى بحر الغزال وفاشودة وأنصب العلم الفرنسي عليها ، وما
على إلا التنفيذ . وأني باق هنا إلى أن تصلني أوامر أخرى من حكومتى .

كتشنر — أما أنا فتعليماتي من لدن الحكومة المصرية تقضى على بأن أعيد
مديرية فاشودة إلى الحكم المصرى ، وأود أن أعرف مبلغ استعدادك لمعاونتى أو
لمعارضتى فى تنفيذ هذه الأوامر . ولا شك عندى أنك تعلم مبلغ تفوق القوات
المصرية الانجليزية التي تحت أمرتى .

مارشان — إذا كنت تريد يا جنرال تهديدنا باستعمال القوة ضدنا ، وإذا كنت
ترى من واجبك أن تلجأ إلى قتال كهذا فلا يسعنى إلا الاستسلام للقدر فتموت
أنا وزملائى عند مراكرنا . إما أن ننسحب أو نزل العلم الذى رفعناه فهذا
أمر متعذر .

كتشنر — هل أفهم من هذا أنك مكلف من قبل حكومتك أن تعارض فى
إعادة السلطة المصرية إلى جزء من أملاكها مثل فاشودة ورفع العلم المصرى عليها
— مارشان — (بعد تردد) لا . أنى لا أعارض فى رفع العلم المصرى .

وعلى ذلك رفع العلم المصرى إلى جانب العلم الفرنسى فى ٢٠ سبتمبر سنة
١٨٩٨ وعاد كتشنر إلى الخرطوم بعد أن ترك قوة كافية لحراسة العلم ومنع البعثة
الفرنسية من نقل أو تسلم مهمات حربية بطريق النيل ، وبقيت البعثة الفرنسية
شبه أسيرة بين يدى القوة المصرية الانجليزية . فلم يسع الحكومة الفرنسية

سوى الانسحاب والتعجيل بانها هذا الحادث بسلام ، بعد أن تبين لها أنها بمفردها أمام بريطانيا لا تستطيع أن تكسب شيئاً ، وأن الدول لن تتحرك لمساعدتها حتى روسيا حليفها التي نصحتها بتسوية الحادث بسلام .

ومع أن فرنسا خرجت من الولاية دون أن تذوق منها شيئاً فإنها لم تحرم كل شيء ، فقد كانت تملك تاجورة ، على خليج عدن منذ سنة ١٨٨٤ ؛ ثم أصاحت حدود ممتلكاتها المجاورة لدارفور وبحر الغزال ، وبذلك أمكنها أن تصل بين مناطق نفوذها في غرب وشمال ووسط أفريقية وهو كسب عظيم مالبث أن توج بالاتفاق الودي بين إنجلترا وفرنسا في سنة ١٩٠٤ فعوضها عن السودان ببلاد المغرب

٥٥٥

أما مصر صاحبة الدار فقد وقفت بعد الاحتلال الإنجليزي مسكتوفة اليدين مسلوقة الارادة ترى ، الملك الواسع الذي أنشأته في قلب إفريقية بجهدا ومالها ودماء أبنائها ينهار وتسوده الفوضى ، ثم يتكالب عليه الطامعون من كل حدب وهي لا تستطيع لهم دفعا ولا ردا ، حتى إذا تهيأت لها ظروف العمل من جديد واستطاعت بمالها ورجالها أيضاً أن تقضى على بقايا الثورة المهديّة في البلاد كان الانجليز إلى جانبها هم المسيطرين الحاكمين ، وانقلبت الأوضاع فصار صاحب الحق تابعا وأصبح الدخلاء المساعدون أصلاء متبوعين .

ومع أن إعادة فتح السودان قد ردت الحق إلى صاحبه شرعا وقانوناً فان الانجليز أبوا إلا إنكار الأعادة حتى لا تنفرد مصر بحقها ، واعتبروا وقع الثورة فتحاً جديداً للسودان اشتقوا منه شبه حق للاشتراك مع مصر في إدارته والنشرية له ، ولكنهم لم يجرموا مع ذلك على الزعم بأن لهم فيه نصيباً من السيادة ، ويكفي أن نقرأ مقدمة المعاهدة الثنائية لتبين منها حرص إنجلترا على تفادي ذكر السيادة في السودان ، إذ جاء فيها : « وحيث قد أصبح من الضروري وضع نظام مخصوص لأجل إدارة الأقاليم المفتوحة المذكورة وسن القوانين

اللازمة لها . . . وحيث إنه من المقتضى التصريح بمطالب حكومة جلالة الملكة المترتبة على مالها من حق الفتح ، وذلك بأن تشترك في وضع النظام الإدارى والقانونى السالف الذكر ، وفي إجراء تنفيذ مفعوله وتوسيع نطاقه فى المستقبل وأنى يكون للانجليز ظل من السيادة ومصر نفسها صاحبة الحق الشرعى والى باسمها وباسم خديويها وتحت ظلال علمها سارت الحملة لاستخلاص البلاد من فوضى الثائرين كانت هى نفسها محسوبة داخل نطاق الدولة العثمانية وتحت سيادة السلطان !

لذلك ما كادت الحملة تزحف جنوباً وتسكب معركة أم درمان فى ساعات محدودة من يوم ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨ حتى بدأ الانجليز ينفذون الخطة السياسية التى أحكموا تدبيرها ورسموا خطوطها الكبرى من قبل .

وكان الانجليز يعلمون حق العلم أن دول أوروبا لم تعد تسكترت بشأن السودان بعد أن ثبتت أقدام الانجليز فى مصر ، وان سلطان تركيا لم يكن يهيمه من أمر مصر أو السودان أكثر من أن يرسل احتجاجه إلى الدولة المعتدية فى الوقت المناسب ، ويردد فى احتجاجه ماسبق أن أعلنته الدول فى مؤتمراتها بشأن سلامة أملاك الدولة العثمانية ، وأن فرنسا بعد هزيمتها أمام ألمانيا وامتلاء صدرها حقداً عليها لا تقدر على معاداة بريطانيا أو تصبر طويلاً على هجرها . لاسيما أنه لم يكن لديها من القوة ما يجعل لإرادتها وزناً يذكر فى الميزان الدولى .

لذلك سارت انجلترا فى سياستها نحو السودان على نهج يعد فريداً من نوعه فى السياسة الدولية فقد بيتت النية من أول الأمر على ألا تعود مصر وحدها إلى حكم السودان ، حتى لا يتاح لمصر أن تتسع بين تلك الحدود المترامية من البحر المتوسط إلى منابع النيل جنوبى خط الاستواء . حيث يتقدم الاستعمار البريطانى حيثناً من جنوب إفريقيا وشرقها ليتصل بوادى النيل ومنه إلى القناة ، وهى المحور الذى تدور حوله جميع الخطط الاستعمارية والدفاعية حتى ذلك الوقت . ثم رأينا الانجليز يزهدون فى ضم السودان إلى أملاكهم لا احتراماً لصاحب الحق

الشرعى أو مراعاة للعرف الدولى أو برا بوعودهم المتكررة بالجللاء عن مصر وبالتالى عن أملاكها ، بل خدمة لمصالحهم الخاصة وصوناً لماء وجوههم أمام الدول ، وأهم من ذلك كله رغبتهم فى التهرب من النفقات الباهظة التى كان يقتضيها إحياء أراضى السودان الشاسعة وتمدين شعبه وصيانة حدوده . لذلك قرروا أول ما قرروا أن يرفعوا العلم البريطانى إلى جانب العلم المصرى ، وأن تضطلع الحكومة المصرية بنفقات القوات التى سترايط فى السودان ما دامت هذه القوات مصرية ، ثم دفع الفرق المالى الذى ينجم حتماً عن زيادة المنصرف على الإيراد فى بلاد كالسودان ظلت مغمورة فى لجمى الظلام والفوضى والجهل فترة طويلة . ثم استأثر الانجليز بالوظائف الكبرى وتركوا للمصريين الوظائف الصغرى ، وجعلوا ككتشنر سردار الجيش المصرى هو الحاكم العام الأول على السودان ، وقلدوه من السلطات ما رفعه هو ومن جاء بعده إلى مصاف الدكتاتوريين فى العالم .

وقد أرادوا أن يضيفوا على خططهم مظهراً قانونياً يكسبها شيئاً من القوة أمام الدول والاجيال المقبلة ، فأعدوا اتفاقاً وقعته فى ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ وزير الخارجية المصرية والمعتمد البريطانى فى مصر . ومع أن مصر حتى قبل الاحتلال البريطانى لم يكن لها بمقتضى فرمانات السلطانية أن تبرم معاهدات سياسية مع الدول الاجنبية فان انجلترا ارتضت لنفسها أن تعقد ذلك الاتفاق دون أى اكترات بالقواعد الدولية أو بحقوق الدول الاخرى . ولم تسكتف فى الاتفاق باهمال ذكر تركيا صاحبة السيادة الاسمية إذ ذاك ، بل نصت أيضاً على أن معاهدات الامتيازات التى كانت لمعظم الدول فى أملاك الدولة لا تسرى على السودان ، كما نصت على عدم قبول قناصل أو ممثلين للدول فى السودان ، ما لم تسكن برا آتهم قد صدرت من لدن الحكومة الانجليزية ، ولم يكن الغرض البعيد من ذلك كله سوى افساح المجال أمام الانجليز للعمل فى السودان بعيدين عن أية رقابة ، كأنهم هم وحدهم اصحاب البلاد ،

على أن الاتفاق كانت تعوزه أركان التكافؤ الدولي بين المتعاقدين . وأول هذه الأركان أن يكون المتعاقدان مستقلين وأن يكون لهما الحق والحرية الكاملة في التصرف في موضوع التعاقد . ولم يكن لمصر من هذا شيء حين عقدت الاتفاق مع الحكومة الإنجليزية وخاصة بعد أن احتلتها القوات البريطانية ، يضاف إلى ذلك أن الفرمانات الممنوحة للخديو لم تكن لتخوله حق عقد المحالفات السياسية بل كانت نحرمة عليه قطعاً التصرف في مصائر الأقاليم التي آل إليه حكمها .

وهل يمكن أن يكون الوزير المصري قد وقع المعاهدة بكامل حرية وهو يعلم أن فوق رأسه سيف داموكليس ممثلاً في التبليغ الإنجليزي المبلغ للحكومة المصرية في يناير سنة ١٨٨٤ وفيه أن واجب الوزراء والمديرين المصريين أن ينفذوا نواحي المعتمد الإنجليزي وإلا أقيلوا من وظائفهم . وهذا التبليغ وحده كاف لنقض معاهدة سنة ١٨٩٩ من أساسها .

ومع هذا كله قد صدر اتفاق يناير سنة ١٨٩٩ ونفذته بريطانيا روحاً ونصاً إلى أبعد مدى ممكن ، حتى لم يعد فيه مكان للمشاركة المصرية اللهم إلا في رفع العلم المصري وبقاء السيادة الاسمية التي ظلت مثار النزاع بين مصر وبريطانيا إلى الآن .

وقد نص الاتفاق في المادة الأولى منه على أن السودان يتكون من جميع الأراضي الواقعة جنوبي خط عرض ٢٢ شمالاً ويشمل الأراضي التي لم تنجل عنها القوات المصرية منذ سنة ١٨٨٢ ، والأراضي التابعة لمصر والتي أخلتها مؤقتاً في أعقاب الثورة المهدية ثم استردتها أخيراً القوات المصرية الإنجليزية ، ثم الأراضي التي قد تسترد في المستقبل بالطريقة نفسها .

ونص في المادة الثانية على رفع العلبين المصري والبريطاني جنباً إلى جنب في جميع أرجاء السودان ما عدا سواكن . وعلة هذا الاستثناء أن سواكن لما كانت واقعة على البحر الأحمر فإن القوات المهدية لم تستطع إخضاعها في فترة الثورة ، ولذلك رُئي في أول الأمر إبقاء سواكن وحدها يظلمها العلم المصري وحده وتسرى

فيها الامتيازات للأجانب . ويظهر أن الحكومة الانجليزية أرادت أن تدمغ
الواجهة البحرية للسودان بالطابع المصري وحده ، حتى لا تجرؤ الدول الأخرى
على غزو السودان والافتتاح على حقوق الخديو . ثم لم تلبث الحكومة الانجليزية
أن عدلت عن هذه الفكرة وأدخلت سواكن في نطاق السودان بمقتضى اتفاق
١٠ يولييه سنة ١٨٩٩ وقد جاء في مادته الوحيدة : « تعتبر ملغاة من الآن النصوص
الواردة في وفاقنا الرقيم ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ التي كانت بموجبها مدينة سواكن
مستثناة من أحكام النظام الذي تقرر في ذلك الوفاق لإدارة السودان في المستقبل . »

ونص في المادة الثالثة من اتفاقية يناير سنة ١٨٩٩ على تعيين الحاكم العام
بمقتضى مرسوم يصدره الخديو باقتراح من الحكومة البريطانية . وقد
جمع الحاكم العام في يده جميع السلطات الادارية والتشريعية المدنية منها
والعسكرية . ولم يكن عليه من الالتزامات سوى قيد واحد هو إخطار المعتمد
البريطاني ورئيس الوزارة في مصر بالقرارات التي يصدرها . ومقابل ذلك
لم تعد القوانين والتشريعات التي تصدرها الحكومة المصرية تسرى على
السودان إلا إذا وافق عليها الحاكم العام .

وقضت المادة الثانية بعدم امتداد سلطة المحاكم المختلطة على أي جهة من جهات
السودان ، كما نصت المادة التاسعة على بقاء الأحكام العرفية سارية في السودان
إلى أن تصدر أوامر أخرى . وقد رأت إنجلترا أن ترضى الدول من الوجهة
التجارية بعد أن خيبت آمالها سياسيا فقررت في المادة السادسة من الاتفاق
« أن حرية المتاجرة أو السكنى بالسودان أو تملك ملك كائن ضمن حدوده لا يشمل
امتيازات خصوصية لرعايا أية دولة أو دول . »

وعلى هذا الأساس استندت الحكومة الانجليزية في إقامة الحكم الثنائي
في السودان شكلا ، فكان الغنم كله لانجلترا والغرم على مصر . وقد ذكر لورد
كرومر في كتابه عن مصر الحديثة أن تكاليف الحملات الحربية على السودان
بلغت ٠٠٠ ر ٣٥٤ ر ٢ جنيه مصري لم تتحمل منه بريطانيا إلا مبلغ

٨٠٠ ر ٠٠٠ جنيه استرليني . وهذا المبلغ نفسه لم تدفعه الحكومة الانجليزية إلا نكايه بالدول التي اعترضت على حق مصر في اقتراض مبلغ ٥٠٠ ر ٠٠٠ جنيه من صندوق الدين لخملة السودان ، فلما سمجتها مصر غير آبهة باعتراض فرنسا وروسيا قاضاها صندوق الدين أمام المحاكم المختلطة وحكمت المحكمة على الحكومة المصرية فتقدمت الحكومة الانجليزية بالمبلغ المذكور ثم نزلت عنه لمصر بعد النصر .

وفي العام الأول من الحكم الثنائي لم يزد إيراد الحكومة على ٣٩ ر ٥٠٠ جنيه في حين كان المنصرف ٧٥٥ ر ٣٥٦ جنيه ، فكان على الحكومة المصرية أن تسدد العجز . واستمرت مصر توازن الميزانية وتدفع الاعانات السنوية حتى بعد إخراج الجيش المصرى من السودان في سنة ١٩٢٤ . وظل الحال على ذلك حتى قرر البرلمان المصرى في سنة ١٩٢٧ خفض الاعانة من ٧٥٠ ر ٠٠٠ جنيه إلى ٥٠٠ ر ٠٠٠ جنيه مدة سنة وبعدها تخفض إلى ربع مليون جنيه لسنة أخرى ثم يوقف صرفها بتاتا ابتداء من سنة ١٩٣٩ ، على أن تسوى الديون التي لمصر بعد ذلك على أقساط سنوية .

على أن انجلترا لم تسكتف بالمساعدات المالية التي كانت مصر تقدمها للسودان ، فانها ما كادت تفرغ من حرب البوير في جنوب إفريقيا في سنة ١٩٠٢ حتى بدأت تعد العدة لوضع مشروعاتها الكبرى للرى وللمواصلات حتى يمكن أن يعود عليها استثمار السودان بالفوائد لإقتصادية التي كانت تتطلع إليها . ولسكنها سارت في خطتها بحذر وبيطء ، فلم تبهظ مالية السودان باعتمادات لا تقوى على احتياها ، وجعلت تعتمد على مصر تارة وعلى البرلمان الإنجليزي والشركات الانجليزية تارة أخرى ، حتى تم للسودان من الأشغال العامة ما جعل إيراد الحكومة يقفز من ٥٩٦ ر ١٢٦ جنيه في سنة ١٨٩٩ إلى ٣٢٤ ر ٠٠٠ جنيه في ١٩٣٧ مقابل ٢٣٨ ر ٢٣٠ جنيه و ٧ ر ٠٢٦ ر ٠٠٠ جنيه للمنصرف على التوالى . وجعل عدد السكان يزيد من ١ ر ٨٥٣ ر ٠٠٠ نفس عقب الثورة المهدية — وكان عددهم أكثر

من ثمانية ملايين قبل الثورة — إلى ستة ملايين في سنة ١٩٢٦ وهي الآن أكثر من ستة ملايين ونصف مليون .

وكأما حسدت انجلترا مصر على مشروعات الري الكبرى التي تمت فيها في أوائل القرن العشرين على أثر إنشاء خزان أسوان وقناطر أسيوط وزققي، فجعلت تخصص السودان بمشروعات لم يكن كل الغرض منها زيادة العمران في السودان ، بل كان من أغراضها البعيدة المرمى الاستغناء بالسودان عن مصر عند الحاجة والتفريق بين مصر والسودان ، حتى لا تقوى مع الزمن فكرة الاندماج التي تنادى بها مصر ، ثم إبقاء بعض مفااتيح الري المصري في يد السودان ، حتى إذا جاء اليوم القريب الذي تستقل فيه مصر استقلالاً تاماً عن انجلترا وجدت نفسها أنها لا تزال مرتبطة بها ارتباطاً مائياً في السودان وكأما قد أصبح السودان بلداً غريباً عن مصر .

وتنفيذاً لتلك الخطة أنشأت الحملة المصرية الانجليزية وهي تزحف جنوباً في طريقها إلى فرع الثورة ، السكة الحديدية بين وادي حلفا وبربر ومنها إلى الخرطوم . وقد وصل الخط إلى سنار في سنة ١٩٠٩ وإلى الأبيض في سنة ١٩١٢ ، وأنشئ على ساحل البحر الأحمر شمالى سواكن ميناء جديد في سنة ١٩٠٥ سمي بورسودان وقد وصل بينها وبين سواكن الخط الحديدي الممتد من بربر في سنة ١٩٠٦ ومنه اتصلت كسلا والقضارف ، وبذلك ارتبطت أجزاء السودان المتباعدة وازداد العمران ونشطت التجارة بوساطة طرق جديدة لا تمر كلها بمصر .

ولما كانت موارد السودان المهمة في أول الأمر مقصورة على الصمغ العربي وسن الفيل وريش النعام ، وكلها سلع ثانوية كالية لا تفيد منها المصانع الانجليزية إلا بقدر ضئيل ولا يمكن الاعتماد عليها في تنمية إيراد الدولة ، ففكرت الحكومة الانجليزية في مشروع اقتصادي على درجة عظيمة من الخطورة . فقد رأت أن تحول أرض الجزيرة الواقعة بين النيل الأبيض والنيل الأزرق والتي تبلغ مساحتها خمسة مليون فدان منها نحو مليونين أو أكثر صالحة

للزراعة إلى أراض يمكن ربيها واستنبات القطن فيها واقترضت قروضاً كبيرة بضمان الحكومة لسد نفقات إنشاء قناطر سنار وخزان مكوار على النيل الأزرق وحفر شبكة الترغ اللازمة للمشروع . وتكونت في سنة ١٩٢٦ شركة المزارع السودانية Sudan Plantation Syndicate لتنفيذ المشروع فكان على الحكومة أن تتحمل نفقات التأجير والرى والبحوث العلمية ، وعلى الشركة الرقابة الفنية وحاج القطن وتصديره ، وفي مقابل ذلك تسئولى الحكومة على ٤٠ فى المائة من المتحصل ويخص الشركة ٢٠ فى المائة ، ويخصم من الباقى نفقات الحلج والتصدير... الخ ، وما يتبقى بعد ذلك فللمزارعين ولهم إلى ذلك الانتفاع بالمحصولات الأخرى وأهمها الذرة . وقد بلغت المساحة المنزرعة قطناً ٢٠٠٠ ر ٢٠٠ فدان

وليس من شك فى أن المشروع قد زاد فى إيراد الحكومة والشعب زيادة عظيمة ، ولكن يؤخذ عليه أن الشركة التى تقوم بإدارته أجنبية غريبة عن بيئة البلاد واقتصادياتها ، وأن المزارعين والفلاحين رغم مكاسبهم مسخرون فيه لمصلحة الحكومة والشركة وأصحاب الأسهم ، يضاف إلى ذلك إهمال تربية الماشية فى المشروع وتقلبات أسعار القطن وقلة تدريب الأهالى على حاجات الزراعة والرى الصناعى . ولذلك لم يدهشنا أن نقرأ أخيراً أن الحكومة قررت عدم تجديد الامتياز بعد انتهائه فى سنة ١٩٥٠ .

على أن هذه المشروعات كما أتت ببعض الخير لأهل السودان قد نبهت المصريين كذلك إلى الخطر الذى قد يحيق بهم إذا استغلها الأجنبي ضد مصلحة مصر . ولذلك نشطت الحكومة المصرية إلى درء الخطر عن البلاد بتعليق خزان أسوان وإنشاء قناطر إسنا ونجح حمادى ، حتى لا تتعرض أراضى الصعيد العليا للآقفار والجذب . ثم سارعت فى الوقت نفسه إلى درس موضوع الرقابة على مياه النيل دراسة مائة علمية ، واستطلعت فى ذلك آراء خبراء المهندسين المائتين فى العالم ، وكان أول ما قر عليه الرأى إنشاء خزان جبل الأولياء لمنفعة مصر خاصة . وهناك مشروعات مائة كبيرة اقترحها الخبراء مثل إنشاء خزان على بحيرة فكتوريا وآخر

على بحيرة نانا في أثيوبيا وخزان على بحيرة ألبرت في أوغندة وجميعها مشروعات على جانب عظيم من الأهمية والخطورة لمواجهة الزيادة المطردة في عدد سكان الوادى ولزيادة العمران في السودان ، وسيقتضى تنفيذها رموس أموال طائلة وهى قد لا تثمر الثمرة المطلوبة إلا بعد إنقضاء وقت طويل . وهناك فوق النفقات المالية الاتفاقات الدولية التى يجب أن تتم قبل الشروع فى إنجازها فبعض هذه المشروعات كما رأينا واقع فى الحبشة وبعضها فى أوغندة . ومن ذلك يتضح أن موضوع توزيع مياه النيل والسيطرة عليها من أهم المسائل التى يتطلب حلها النهائى جلاء المحتلين عن الوادى أولاً ؛ ثم الاتفاق بشأنها أمام الهيئة الدولية المختصة حتى تكون أحكامها ملزمة للجميع .

على أن مشاكل الحكومة الانجليزية لم تنشأ فى السودان إلا بعد الحرب العالمية الأولى وقد سرت إلى البلاد موجة من الحماسة الوطنية التى اجتاحت جميع البلاد المغلوبة على أمرها فى أعقاب الحرب ، على أثر ذبوع المبادئ الأربعة عشر التى أعلنها الرئيس ولسون واعترافه للشعوب بحق تقرير المصير . فقد قامت فى مصر ثورة سنة ١٩١٩ وانتقلت روح الثورة منها بطبيعة الحال إلى الضباط والموظفين والمواطنين المصريين الذين كانوا يعملون فى السودان ، ومنهم إلى الشبيبة السودانية المتعلمة . ولكن نظام الحكم العرفى الذى أقامه الانجليز فى البلاد لم يدع مجالاً لآية حركة وطنية فى البلاد ، اللهم إلا ثورة على بن دينار سلطان دارفور وكان قد اتفق فى أثناء الحرب العالمية الأولى مع السنوسيين الذين هاجموا مصر سنة ١٩١٦ من ناحية حدودها الغربية ، وانتهى أمره بالاخفاق وذهاب سلطانه .

ولما اضطرت انجلترا إلى إلغاء الحماية الانجليزية والاعتراف باستقلال مصر فى سنة ١٩٢٢ كانت مسألة السودان من النقاط الأربعة التى احتفظت بها إنجلترا . وكان المصريون قد تنبهوا فى ثورتهم إلى خطورة مسألة السودان بالقياس إلى مستقبل البلاد الاقتصادى والاجتماعى ، فجعلت مصر تطالب باسترداد حقوقها فى السودان كاملة ، حتى أصبح السودان الصخرة التى تصدعت عليها

جهود مصر في مفاوضاتها مع بريطانيا بشأن الاستقلال .
وكان إخفاق المفاوضات التي قام بها سعد زغلول في سنة ١٩٢٤ مع حكومة
العمال الأولى في إنجلترا أول نذير رسمي بسوء نية الحكومات الانجليزية على اختلاف
ألوانها بشأن السودان . وعلى ذلك لم تكذب تمضي أسابيع قليلة على عودة سعد من إنجلترا
حتى اغتيل في القاهرة في نوفمبر سنة ١٩٢٤ سير لي استاك باشا Stack سردار الجيش
المصرى والحاكم العام للسودان . وكان جواب لورد اللنبي المعتمد الانجليزي على ذلك
أنه استغل الفرصة لتحقيق مآرب إنجلترا في السودان ضد مصر ، بإبعاد الجيش
المصرى عن السودان ، وتحويل الفرق السودانية إلى نواة لقوة سودانية مستقلة
لا يقسم أفرادها بين الولاء والطاعة للمليك البلاد بل يقسمونها للحاكم العام ،
ثم الاستغناء عن الموظفين المصريين في حكومة السودان ، وأخيراً تهديد مصر
بألا تقف حكومة السودان عند حد ال ٢٠٠٠٠٠٠ فدان في رى أرض الجزيرة .
وقد حاول المصريون ومعهم بعض الفرق السودانية أن يحولوا بالقوة دون
تنفيذ قرار الاخلاء ، ولكنهم استجابوا في النهاية إلى نداء ملك مصر وأذعنوا
للأمر الواقع . وقد كان لقرار اللنبي بشأن رى أراضي الجزيرة دون أى اعتبار
لحاجة مصر أولأى وازع إنسانى وقع مخجل في نفوس العالم المتمدن كله ؛ فقد كان
ذلك إحدى العقوبات التي وقعها الحكومة الانجليزية على مصر أخذاً بثأر السردار
المقتول ، وبه كشفت إنجلترا الغطاء عن مرامي السياسة الانجليزية من حيث السيطرة
على مياه النيل في السودان ووضع مصر تحت رحمتها إذا أرادت . لذلك عجبت
إنجلترا بمحو أثر ذلك القرار الجائر ، فقبلت استقالة لورد اللنبي سنة ١٩٢٥ ،
ثم شفعت ذلك بإبرام اتفاق مع مصر خاص بمياه النيل في سنة ١٩٢٩ ، وخفواه
تعاون مصلحتى الرى في مصر والسودان ، والتعهد بعدم قيام حكومة السودان
بأعمال في الرى قد تضر مصلحة مصر ، ثم إنشاء خزان جبل الأولياء على النيل
الأبيض جنوبي الخرطوم ، على أن يكون الخزان لتوفية حاجات مصر خاصة .

ولما عصفت بأوروبا جائحة الفاشية والنازية في سنة ١٩٣٥ واستطاعت إيطاليا أن تتحدى بريطانيا ومن ورائها عصبة الأمم فتهاجم أثيوبيا وترسل اليها جيوشها ومعداتها وطائراتها وغازاتها السامة ثم تستولى عليها ظلماً وعدواناً وتضمها إلى التاج الايطالى - سارعت بريطانيا إلى تحصين مركزها في البحر المتوسط والبحر الأحمر فعقدت اتفاقاتها مع تركيا وسائر دول البلقان ، ثم اتجهت نحو مصر وكانت تعلم خطورة موقعها بالنسبة إلى قوات إيطاليا ؛ إذ كانت إيطاليا تستطيع في وقت الحرب أن تهاجمها من ناحية حدودها الغربية ، ومن ناحية السودان عن طريق ارترية والحبشة . ولذلك عجلت في هذه المرة بعقد معاهدة سنة ١٩٣٦ مع مصر . وكان أخطر ما جاء في هذه المعاهدة خاصا بالسودان ؛ فإنه بالرغم من ضعف معاهدة سنة ١٨٩٩ من الوجة الدولية والقانونية واحتفاظ مصر بحقوقها كاملة إزاء السودان نصت معاهدة سنة ١٩٣٦ على سريان معاهدة سنة ١٨٩٩ فكان ذلك شبه إقرار من مصر بالمعاهدة ، على أن المفاوضات المصرية قد احتاط للأمر فجعل الاعتراف بالمعاهدة مرتبطا بالنص على ضرورة تعديها .

فقد جاء في المادة الحادية عشرة من المعاهدة المذكورة :

« مع الاحتفاظ بحرية عقد اتفاقات جديدة في المستقبل لتعديل اتفاقيتي سنة ١٨٩٩ قد اتفق الطرفان المتعاقدان على أن إدارة السودان تستمر مستمدة من الاتفاقيتين المذكورتين ، ويواصل الحاكم العام بالنيابة عن كلا الطرفين المتعاقدين مباشرة السلطات المخولة له بمقتضى الاتفاقيتين .

« والطرفان المتعاقدان متفقان على أن الغاية الأولى لإدارتهما في السودان يجب أن تكون رفاهية السودان ، .

« وليس في نصوص هذه المادة أى مساس بالسيادة على السودان ، .

وظاهر من هذا النص المبهم أن يكون حق مصر في السيادة فوق كل مظنة إرضاء للشعور المصرى . وقد نصت هذه المادة على أن للحاكم العام أن يختار عند التعيين في الوظائف الجديدة المرشحين الصالحين من بين البريطانيين والمصريين

إذ لم يتوافر السودانيون إلا كغناء ، كما نصت على وجود الجنود المصريين بالسودان إلى جانب الجنود البريطانيين للدفاع عن السودان ، وعلى ألا يكون هناك تمييز في السودان بين الرعايا البريطانيين والرعايا المصريين في شؤون التجارة والملكية والمهاجرة ، وجعلت هجرة المصريين خالية من كل قيد إلا ما يتعلق بالصحة والنظام العام ،

وتنفيذاً للعاهدة عينت مصر خبيراً اقتصادياً بالسودان كما عين الحاكم العام سكرتيراً حراً له من ضباط الجيش المصري . وعاد إلى الخرطوم فريق من الجيش المصري ، واتخذت الاجراءات لانجاز خزان جبل الأولياء في سنة ١٩٣٧ وأنشأت الحكومة المصرية مدرسة ثانوية بالخرطوم سنة ١٩٤٣ ، كما أنشأت بعض مدارس أولية في المناطق التي يكثرفيها الموظفون والعمال المصريون . وجاءت الحرب العالمية الثانية فنشطت بطبيعة الحال حركة الاتصال بين مصر والسودان واشتركت قوات الدفاع السودانية في الجيش الذي ألفه الحلفاء لغزو إيطاليا في شرق إفريقيا ، وكانوا قد نفذوا إلى شرق السودان واحتلوا كسلا في سنة ١٩٤٠ فتحركت قوة من الخرطوم في أوائل سنة ١٩٤١ وهاجمت أرتربة وتحركت قوة من الجنوب قاصدة الصومال الإيطالي ، وتقابلت القوتان في أثيوبيا حيث قضا على النفوذ الإيطالي نهائياً في شرق إفريقيا في نهاية سنة ١٩٤١ ، وبذلك استطاع الحلفاء أن يكسروا الفك الجنوبي من كاشة المحور كما كسروا في السنة التالية فكها الشمالي في موقعة العلبين الشهيرة .

وكان جزاء السودانيين على ما أظهروه من البسالة والولاء في أثناء الحرب أن قرر الحاكم العام في سنة ١٩٤٣ شطر بلادهم شطرين يفصل بينهما خط عرض ١٢ درجة شمالاً ، ويشمل الجزء الشمالي السكان والقبائل التي تدين بالاسلام وتتكلم اللغة العربية ، وهي في ثقافتها ومدنيتها تمتاز على القبائل البدائية التي تسكن في الجنوب وتفصلها عن الشمال المستنقعات والأعشاب التي تكثر في تلك الأرجاء . وأنشأ الحاكم العام للقسم الشمالي مجلساً استشارياً عماده ثمانية عشر عضواً سودانياً

تنتخبهم مجالس المديرية الستة الشمالية . أما المديرية الجنوبية وهما مديرية خط الاستواء ومديرية أعالي النيل فلم تمثلها . وقد أثار هذا التقسيم العرفي سخطا عاما في مصر والسودان ؛ لأنه دل على نيات الحكومة الانجليزية ورغبتها في عدم تمسكين المصريين وإخوانهم السودانيين الشماليين من اختراق الستار السكشيف الذي يخفي وراءه جموع القبائل البدائية وما قد تسكنه أراضيهم من ثروة للمستقبل . وقد أمعنت الحكومة البريطانية أخيراً في اجراءاتها نحو شطر الوادي بتنفيذ مقترحات السودان التي كانت قد أعدتها وسبق لمصر أن رفضتها لعدم وفاتها بمطالب السودانيين من جهة ولأنها تعرقل مساعي الوحدة بين القطرين من جهة أخرى . وتقتضى قرارات السودان بإنشاء جمعية تشريعية ينتخب أعضاؤها على درجتين ويتألف مجلس تنفيذي لإدارة البلاد يكون نصف أعضائه على الأقل من الانجليز هذا التقسيم مع ما سبقه بعد انتهاء الحرب من الاستغناء عن قاضي قضاة السودان المصري وإعلان الحاكم العام عزم الحكومة الإنجليزية على بقاء الحالة الحاضرة في السودان ، وتخويل السودانيين الحرية التامة فيما يتعلق بتقرير مصيرهم في المستقبل وذلك رغم تنبه الوعي القومي في البلاد وظهور أحزاب قوية تضم الطبقات المثقفة في البلاد وتهدف إلى جلاء المحتلين وتحقيق الوحدة مع مصر - كان ذلك كله من العوامل التي جعلت مصر تتمسك في مفاوضاتها مع انجلترا أولاً ثم في قضيتها التي عرضتها على مجلس الأمن في صيف سنة ١٩٤٧ بحقها الأزلي في تكوين وحدة دائمة بين الشعبين المصري والسوداني ، وإن الروابط الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية التي تجمع بين أهل الوادي كله لتنادى بأن مصر وحدها هي الأداة الدائمة الصالحة لعمران البلاد على مر السنين ، أما شركاؤنا السابقون فسكفاهم ما أفادوه في أثناء قيام الشركة بيننا . أما وقد رفعت القوامه على الشريك القاصر وصار من الحتم تصفية حسابنا وشركتنا ، فان من حقنا عليهم أن نطالبهم بأن يخلوا الدار جميعها أسفلها وعاليها وأصحاب الدار أولى بما فيها .

الفصل الثالث والعشرون

مأساة ألمانيا

إذا كانت ألمانيا لا تعد من الوجهة الجغرافية البحتة داخلة في نطاق حوض البحر المتوسط فليس من شك في أن سياستها منذ أن أعدت نفسها لمناهضة التفوق الانجليزي الفرنسي منذ أوائل هذا القرن قد أحدثت تيارات سياسية جارفة في مياه هذا البحر وعلى سواحلها وكادت بسلاح غواصاتها وطائراتها أن تغلق هذا البحر تماماً في وجه بريطانيا وحلفائها في الحربين العالميتين ولذلك نرى لزاماً أن نلمّ باتجاهات السياسة الألمانية في السنين الأخيرة .

لم يكن لألمانيا في مستهل القرون الحديثة وجود قومي أو سياسي شبيه بما كان إذ ذاك لفرنسا وإنجلترا وأسبانيا التي توحدت قومياتها وتركزت حكوماتها ، واستعدت كل منها لتوسيع سلطانها وحدودها لا في أوروبا وحدها ، بل كذلك وراء البحار والمحيطات في العالم الجديد - الذي كشفه الملاحون العظام من أهل تلك البلاد - غرباً وشرقاً في عصر الاستكشافات . أما ألمانيا فقد ظلت كإيطاليا عبارة عن اصطلاح جغرافي تنطوي تحته إمارات ودويلات متنافرة متقاطعة ما برحت تثير الفتن والحروب بين بعضها وبعض ، حتى قبض الله لها أن تتحد في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر .

وكان من جراء تأخر تحقيق الوحدتين الألمانية والإيطالية أن فازت الدول الكبرى القديمة بنصيب الأسد في الأراضي الجديدة التي استعمرت ، حتى إذا ما اشتد ساعد الدولتين الفتيتين وناقت نفسيهما إلى منافسة كبريات الدول لم تجدأ أمامهما في عالم الاستعمار سوى بضع لقيمات جافة ازدردتاها وهما حانقتان تتحنانان الفرص وتربصان بغيرهما الدوائر .

ومن سوء حظ الدولة الألمانية الحديثة التي أعلنتها وليم ملك بروسيا في يناير سنة ١٨٧١ وسط هتاف الأمراء الألمان في قصر فرساي بباريس عقب انتصار الألمان في الحرب السبعينية ، أن الوحدة التي وضع أساسها بسمرك Bismarck السياسي الألماني العظيم وحاك خيوطها بمهارة أصبحت مضرب المثل في التفوق الدبلوماسي ، كانت وليدة الروح العسكرية البروسية المتأصلة في نفوس البروسيين ، ونتيجة حتمية للسياسة التي ابتدعها بسمرك ولازم فيها بين الخطط الحربية الصارمة والأساليب الدبلوماسية الحازمة الناعمة ، وهي التي عرفت بسياسة اليد الحديدية داخل القفاز الحريري . وبفضلها خاضت بروسيا في مدى سبع سنوات ثلاث حروب ظافرة متعاقبة : الأولى ضد الدنمرك ، والثانية ضد النمسا ، والثالثة ضد فرنسا ، وقد اصطنع بسمرك هذه الحروب اصطناعاً ومهد لها بحيدة الدول ، حتى لم تجرؤ واحدة منها كبيرة كانت أو صغيرة أن ترفع أصبعاً واحدة لنجدة الدول المغلوبة على أمرها . وقد خرجت ألمانيا من هذه الحروب جميعاً مزهوة بانتصارها شديدة الايمان بمستقبلها وقوة سيفها الظافر .

ودخلت ألمانيا على أثر ذلك في طور سياسي جديد تلبست فيه أسباب العظمة والتفوق ، فوجدتها متوافرة في داخليتها : في جيشها وفي هيئة أركان حربها أو تلك الذين رسموا لها خطط النصر . ووجدتها في علمها وفنّها وأدبها وفي فلسفتها وموسيقاها ونظم بلدياتها . ولسكنها افتقدتها في الخارج حيث السبل إلى البحار والمستعمرات تحكمها بريطانيا سيدة البحار . وكانت ألمانيا في القارة الأوروبية مضيقاً عليها من كل الجهات تقريباً : فن الغرب تقف بلاد الأراضى المنخفضة وفرنسا وإنجلترا سدّاً أمنياً في وجهها ، ومن الشرق يجثم الدب الروسي الضخم ، ومن الجنوب يقوم أبناء عمومهم في إمبراطورية النمسا . فلم يكن أمام ألمانيا من سبيل إلى التوسع من هذه الجهات إلا بالعدوان والهجوم على جاراتها ، وهو أمر لم يكن سهلاً ولا سائغاً بعد أن لطخت ألمانيا أيديها بدماء الألبان واللورين اللتين أغتصبتهما من فرنسا بعد انتصارها في الحرب السبعينية .

على أن بسمرك قد استطاع في أول عهد الامبراطورية الجديدة أن يكبح جماح الروح العسكرية البروسية ، وأن يجنب ألمانيا وهي في بدء وحدتها وتكوين عظمها الصناعية والثقافية الاشتباك في أية حرب أوربية أو استعمارية . ذلك لأنه كان يعلم أن الشعب الألماني إذا اندفع في تيار التوسع أو الاستعمار فلا بد له من أن يصطدم بالمصالح البريطانية ، وقد يؤدي الاصطدام إلى حرب مع الانجليز تخرج منها ألمانيا غاسرة كما خرجت في الماضي أسبانيا وبعدها فرنسا . لذلك انتهج بسمرك في حكمه خطة كان من شأنها أن تضرم نار الحقد والتباغض بين جاراتها ومنافساتها من جهة ، وأن تكفل لألمانيا أن تمسك بميزان القوى السياسية في القارة الأوربية من جهة أخرى . لذلك شجع فرنسا على أن تحتل تونس ، حتى يسلو الفرنسيون الالزاس واللورين ، وحتى تقع الجفوة والنفور بينها وبين إيطاليا التي كانت تطمع في تونس ، ووقف يرقب النزاع المرير الذي شجر بين إنجلترا وفرنسا من أجل مصر والسودان . ولما تفاقمت الحال بين روسيا وتركيا في الحرب الروسية التركية وتدخلت بريطانيا وتعرض السلام العام في أوروبا للخطر كانت ألمانيا هي الداعية إلى عقد المؤتمر الدولي ببرلين في سنة ١٨٧٨ برئاسة بسمرك لاعادة النظر في المسألة الشرقية ، وكانت ألمانيا هي الدولة الكبرى التي ليس لها في البلقان مطامع تقتضى — كما قال بسمرك — أن تراق في سبيلها قطرة دم من ألماني واحد .

غير أن بسمرك لم يستمر طويلا على هذه السياسة ؛ فقد جاء وقت أصبح فيه التسابق والتكالب على أشده بين الدول الأوربية بشأن استعمار إفريقيا أو القارة المظلمة كما كانوا يسمونها حينذاك . وجاءت ثورة المهدي في السودان وانسحاب القوات المصرية مؤقتاً من ربوعه فرصة سانحة أغرت الدول على التهام ما يمكن التهامه من هذه الأرض المباحة التي اعتبرت الدول نهياً لمن غلب نخشى بسمرك إذا واصلت ألمانيا سياسة القناعة والحذر أن يجيء وقت لا تجد أمامها بقعة خالية تستعمرها وتمدها بالخامات والقواعد اللازمة لصناعاتها ومشروعاتها الحربية البعيدة

المدى . لذلك اندفع بسمرك في سياسة الاستعمار بعد سنة ١٨٨٤ وكان في ذلك مدفوعاً بقوة هيئة أركان الحرب التي كانت تسيطر جهرراً أو سرا على مرافق الحكومة جميعاً . وكان من مظاهر ذلك النشاط الاستعماري الناشئ أن دعت ألمانيا الدول ذوات المصالح الاستعمارية إلى عقد أول مؤتمر استعماري دولي في برلين سنة ١٨٨٥ وفيه سوت الدول خلافاتها بشأن استعمار إفريقيا ، وتقررت القواعد التي تجب مراعاتها عند ما تزاول رياضة القنص الاستعماري في أحراش إفريقيا ! وكانت أولى هذه القواعد أن تحظر الدول بعضها بعضاً بالفرائس التي يراد أن يستولى عليها ، وأن تتفق فيما بينها على دوائر نفوذ كل منها وحدودها . واستغلت ألمانيا عوامل الخلاف التي كانت ناشبة إذ ذاك بين فرنسا وإنجلترا ، وعلى ذلك سرعان ما أصبح لها في القارة المظلمة دولة استعمارية تلي إنجلترا وفرنسا في الأهمية ؛ إذ صار لها مستعمرات في شرق إفريقيا وغربها وفي تنجانيقا والكرون وتوجولند وبعض الجزر .

وفي سنة ١٨٨٨ اعتلى العرش الامبراطور وليم الثاني ، وكان شاباً طموحاً مستبداً ، أشربت نفسه حب العسكرية البروسية وانطوت على إيمان صادق بمستقبل ألمانيا العظيم . ولم يطق أن يظل طويلاً وراء اسم بسمرك وعظيمته السياسية ، فسرعان ما أقصاه عن الحكم وجعل يصرف شؤون الدولة مستشاروه من دعاة التسليح والعظمة الحربية ، إلى أن أعلن صراحة في بدء القرن العشرين أن ألمانيا قد أصبحت ، بفضل صناعاتها واتساع نفوذها الاقتصادي ، دولة عالمية ذات مصالح حيوية ، وأن هذه المكانة وتلك المصالح تقتضيان حتماً أن يكون لألمانيا أسطول بحري يضارع أكبر أسطول في العالم . وهو يعني بطبيعة الحال الأسطول البريطاني . وكانت ألمانيا قد استردت من إنجلترا جزيرة هليجولند في بحر الشمال ، فاتخذت منها قاعدة بحرية حصينة ، ثم أنشأت قناة كيل التي تصل بين البحر البلطي وبحر الشمال ؛ وبذلك اتخذ الأسطول الألماني سبيله في البحر سرباً . وما فتئت ألمانيا تمنع في التسليح وتقيم المظاهرات البحرية في البحر المتوسط لتعلن عن

قوتها الناشئة تارة أمام طنجة وأخرى أمام أغادير على ساحل الأطلنطي في مراكش، حتى لم يبق شك في أن ألمانيا إنما تعد نفسها لتتحدى بريطانيا وتصل إلى تحقيق الغرضين اللذين كانت العسكرية البروسية ترمي إليهما منذ توحدت ألمانيا، وهما التفوق الحربى فى أوربا، واغتصاب السيادة البحرية والاستعمارية من بريطانيا. أما التفوق الحربى فكان أمره يسيراً هيناً؛ إذ لم يبق فى أوربا بعد إذلال روسيا وانهزامها أمام اليابان سوى فرنسا، وهى وحدها لم تكن ذات خطر بسبب ما أصابها على أيدي رجال أحزابها من أزمات ومؤامرات وتقلبات لا تكاد تنقطع. وأما فى الخارج فإن ألمانيا قد توغلت فى سياستها الخارجية متحدياً بريطانيا تحدياً صريحاً؛ إذ وثقت علاقاتها بدول البلقان وتركيا حتى يخلو لها الميدان فى الشرق ويكون الطريق أمامها بين برلين وبغداد وخليج فارس سالكا ميسوراً متى دنت ساعة الفصل بينها وبين بريطانيا.

وعلى ذلك قامت الحرب العالمية الأولى. وعلقت ألمانيا مصيرها فيها على حرب خاطفة تسحق فيها قوات روسيا من الشرق وفرنسا من الغرب، ويتعذر معها على بريطانيا تعبئة قواتها وقوات إمبراطوريتها لانقاذ حليفاتها فى الوقت المناسب. وفعلاً اخترق الألمان حيدة بلجيكا ولسكسمبورج، وتقدموا مثل وميض البرق الخاطف داخل فرنسا ميممين صوب باريس مكتسحين أمامهم جميع القوى التى اعترضت طريقهم. وكادوا ينفذون خطتهم لو لم يقف القائد الفرنسى «جوفر Joffre»، وقفته الشهيرة عند المارن فى سبتمبر سنة ١٩١٤ فاضطر الجيش الألمانى إلى الارتداد، ومن ثم لجأ الجيشان المتحاربان إلى مكابدة حرب الخنادق بيئتها وسقمها ونزولها بالإنسان إلى أسفل الدرك فى المعيشة والحرب جميعاً. ثم تطورت الحرب بعد ذلك على أثر ثورة العرب فى الشرق على الأتراك حلفاء الألمان وقيام الثورة البلشفية الكبرى وانسحاب روسيا من ميدان الحرب، وأخيراً بدخول الولايات المتحدة الحرب إلى جانب الحلفاء، فرجحت كفتهم، وأيقن كبار القواد الألمان بالهزيمة، وذاعت بين الجنود والبحارة الألمان أنباء تقدم

الحلفاء وتحسن مراكزهم إلى جانب ما كانوا يحسون من خيبة الأمل وسوء المصير الذي ينتظرهم . وكان قد نمي إليهم أيضاً خبر نجاح الثوار في روسيا وما أحدثوه فيها من انقلاب سياسي واجتماعي خطير ، فلم يتوانوا في انتهاز أول فرصة للعصيان والانتفاض على السلطات الرجعية التي تواصل حرباً خاسرة إرضاء لشهواتها ، فما إن وصلت إلى أسماعهم مبادئ ولسون الأربعة عشر التي أعلنها في يناير سنة ١٩١٨ حتى تحركت روح الثورة في نفوسهم وارتضوا هذه المبادئ أساساً للصالح العتيق . وما لبثت شرارة الثورة أن اندلعت بين البحارة في كيل وسرت منها إلى جميع الميادين . فلم ير الامبراطور بدءاً من الفرار إلى هولندية ومعه ولي عهده ، وترك زعماء الثورة يطلبون الهدنة في الساعة الحادية عشرة من اليوم الحادى عشر من الشهر الحادى عشر من سنة ١٩١٨ وكانت هذه الهدنة إيذاناً بالسلام بعد حرب مدمرة شملت أرجاء أوروبا وآسيا ووصلت نيرانها إلى أجواز الفضاء في الجو وإلى مسارب الأسماك في بحار العالم ومحيطاته ، وقد ذهب ضحيتها نحو عشرة ملايين من الأنفس عدا الذين شوهتهم الحرب وأشلتهم وشردتهم أو حطمت أعصابهم في جميع أنحاء العالم .

وجاء مؤتمر الصلح في فرساي ، فخرّم على الألمان الخدمة العسكرية الإلزامية ، وحرّم التسليح إلا بالقدر الذى يحتاج إليه الجيش وقد خفضوه إلى ١٠٠,٠٠٠ جندي ، والأسطول وقد خفضوه إلى ست سفن كبيرة وستة طرادات وأربع وعشرين سفينة صغيرة أخرى لا يعمرها سوى ١٥٠٠٠ بحار . ومن شروط الصلح التي فرضوها على الألمان ، حيدة مقاطعات الرين ونزع سلاحها ، وفرض غرامة حربية باهظة قدرها في أول الأمر بأكثر من عشرة آلاف مليون جنيه .

هذا فضلاً عن فقدان ألمانيا لجميع مستعمراتها وخسارتها ما يقرب من ٨٧,٠٠٠ ميل مربع من أراضيها يبلغ عدد سكانها نحو سبعة ملايين ضمت إلى بولندية وغيرها من الدول المجاورة التي ظهرت في أعقاب الحرب العالمية الأولى . فسكان الحلفاء إنما أرادوا بصلح فرساي أن يعاقبوا الألمان على اقترافهم جريمة الحرب الكبرى ، ولم يلقوا بالا إلى ثورة الشعب على الطغيان العسكرى الامبراطورى ،

وما كانت تطلبه الثورة وهي في مهدها من عطف الخلفاء ومناصرتهم لزعمائها حتى يصلب عودها وتقوى على مناهضة العناصر الرجعية التي تتمثل في الجيش وهيئة أركان الحرب .

وقامت ثورة الاشتراكية الديمقراطية في ألمانيا بزعامة رئيسهم إبرت Ebert وتقرر دستور الجمهورية الجديدة في ويمار سنة ١٩١٩ تخيل للناس أن ألمانيا قد انتهت أخيرا إلى عهد ديمقراطي جديد ، وأن الشعب الألماني ستتاح له الفرصة بعد طول الانتظار ليفصح عن رأيه ويثبت استحقاقه لمكانة مرموقة بين شعوب العالم الديمقراطية . ولكن الخلفاء حين أمروا شروط الصلح كانوا قد أبقوا على كيان ألمانيا ووحدتها ولم يمسوا الروح العسكرية البروسية بسوء ، وخافوا من تفشى المبادئ الشيوعية في أوروبا فأصموا آذانهم عن نداء الثورة في ألمانيا وجنحوا إلى جانب الرجعيين ، فجعلت هيئة أركان الحرب البروسية تعمل سرا وعلانية على إحياء الروح العسكرية القديمة، وليثبت تتربص الدوائر بالنظام الجمهوري الديمقراطي حتى تضافرت القوى وفاز المرشال هندنبورج بانتخابه رئيسا للجمهورية . فكان انتخابه أذانا للناس بأن الجمهورية قد أشرفت على الزوال ، وأن الملكية أو الإمبراطورية القديمة آتية لا ريب فيها .

وبقى هندنبورج فترة من الزمن يتأرجح بين الاشتراكية والملكية حتى تغلبت في النهاية الروح العسكرية المتأصلة في دماء القوم ، وأخذ المرشال ينحرف رويدا رويدا عن الاشتراكية ويمهد للدكتاتورية . وكانت الفترة التي رأس فيها هندنبورج ألمانيا من أرغد وأهنا ما مر بألمانيا في المرحلة التي تلت الحرب العالمية الأولى ؛ فقد دخلت ألمانيا عصبة الأمم عام ١٩٢٦ على قدم المساواة مع سائر الدول الكبرى، وأخذت تزول عنها وصمة الحرب وتبعاتها ، ثم خفت عن كاهلها أعباء التعويضات ، فتدفقت على البلاد رؤوس الأموال الأجنبية ، ونشطت فيها حركة الصناعة والتجارة نشاطا لم تعهده من قبل . غير أن فترة الاستجمام مع الأسف لم تطل ؛ فقد اجتاحت العالم أزمة سنة ١٩٣٠ الاقتصادية وتعرضت المؤسسات الصناعية في البلاد للخسارة بل

للإفلاس . وعلى ذلك تجمعت الأسباب التي ساعدت على ظهور هتلر على رأس حركة الاشتراكية الوطنية .

وكان هندنبورج قد طعن في السن فلم يستطع مقاومة التيار الجديد ، فأخذ أنصار هتلر يتفوقون في البلاد ويفوزون في الانتخابات ، حتى إذا انتهت مدة رئاسة هندنبورج في سنة ١٩٣٢ ونزل إلى ميدان الانتخاب يريد تجديد انتخابه نال ١٩٣٦٠٠٠٠ صوت مقابل ١٣٠٠٠٠٠٠ ر ٤١٨٠٠٠٠٠ نالها هتلر ، ورأى الرئيس أنه لم يعد قادراً على تنحية هتلر ، فعينه مستشاراً للدولة في يناير سنة ١٩٣٣ . ومات هندنبورج في صيف العام التالي ، فأصبح هتلر رئيساً غير منازع للدولة ، بل لقد كان كذلك فعلاً قبل أن يموت هندنبورج .

ومع أن الدستور الجمهوري الذي أصدرته الجمعية الوطنية في ويمار لم يبلغ رسمياً فان هتلر قد جمع في شخصه وركز في حزبه وأعوانه السلطات الإدارية والتشريعية والتنفيذية جميعاً ، حتى صار كل شيء في البلاد لا يشق وجوده أو يستمد بقاءه إلا منه ، حتى الكنيسة والعلم والتعليم قد طغت عليها جميعاً الفكرة النازية طوعاً أو كرهاً . وكان في مقدمة العقائد النازية التي بشر بها هتلر ، تأمين تفوق الجنس النوردي أو الآري ، وفتح اليهودية والشيوعية ، وتجنيد الشباب والشعب بكامل طبقاته لخدمة النازية والدولة . وأخيراً وليس آخراً ، نحو آثار معاهدة فرساي واستئناف العمل الذي بدأ سنة ١٩١٤ لكي تتبوأ ألمانيا مركزها الاسمي في أوروبا بين دول العالم أجمع .

أما أهدافه الخارجية فكانت تقوم على الأخذ بمبدأ المجال الحيوي Lebensraum وهي النظرية التي لفقها هتلر للبرهنة على أن عدد سكان ألمانيا سيصل في مدى قرن إلى ٢٥٠ مليون نفس ، وأن هذه الزيادة الهائلة يجب أن تقابلها أراض وميادين جديدة ينتشر فيها شعب الآلهة المفضل ويستثمر فيها مواهبه للقضاء على الشعوب المنحطة الأخرى .

وفكر هتلر في المستعمرات القديمة التي كانت لألمانيا ، وهي لم تكن في نظره إلا وديعة تسلبها عصبية الأمم ، وعلى الحلفاء أن يردوا الودائع إلى أهلها ،

فاذا تعذر عليهم ذلك فهناك مستعمرات واسعة تملكها دول من الدرجة الثانية في الأهمية مثل هولندا والبرتغال وبلجيكا ، ويمكن تعويض ألمانيا من مستعمرات تلك الدول ؛ وجمال في خاطر سياسة الدول الغربية من مروجى سياسة السلم بأى ثمن ، أن هتلر قد عنى حقاً أن يكتفى بالمستعمرات القديمة فأبدوا له استعدادهم لاعادة النظر في موضوع الخيامات الأولية ونظام توزيعها بين الدول . ولكن التوسع الحقيقي الذى كان يريده هتلر للدولة العالمية المنتظرة كان طريقه من الشرق نحو بولنده وأكرانيا ورومانيا وجنوبى روسيا والقوقاز حيث سهول القمح الممتدة الشاسعة وآبار زيت البترول ومناجم الفحم والحديد وحيث معظم السكان من الشعوب الصقلبية أو المغولية التى لاتطاول الجنس الألمانى مدنية ورقيا . وأخذ هتلر يقيم علاقاته مع شرق أوروبا وجنوبها الشرقى على أساس بدائى من مقايضة الحاجات بين الفريقين ، حتى لاتقوى تلك الدول على تحويل نشاطها التجارى إلى دول أخرى غير المانيا . وكان هتلر يرمى بسياسته إلى فرض نفوذه الاقتصادى عليها أولاً توطئة لاختضاعها سياسياً تحت سيطرته متى حان الوقت المناسب .

وشبيه بهذه السياسة ما اتبعه فى اقتصاديات ألمانيا الداخلية ، إذ ركز إنتاجها الزراعى والصناعى جميعاً فى شركات مركزية يشرف عليها الحزب النازى . وجعل يسعى جهده فى أن تنتج المانيا كل ما تحتاج إليه ، حتى منتجات المناطق الاستوائية والمدارية قد وضعها فى بوتقة التجربة تحت مجهر العلماء المختصين يحاولون إنتاجها اصطناعياً ، فيسرواله الحصول على الزيت والمطاط وبعض المنسوجات . ولم يكن غرضه من ذلك إلا إعداد ألمانيا لمواجهة أخطار الحصر البحرى متى دنت ساعة العمل . أما الأداة التى استند إليها هتلر فى بلوغ هذه الأهداف جميعاً فهى ، كما كانت دائماً فى التاريخ البروسى الحديث ، هيئة أركان الحرب ، وقد جددتها هتلر ، فأنشأ إلى جانب هذه الهيئة العريقة أدوات أخرى ابتدعتها العقليه النازية الشيطانية مثل الجستابو Gestapo أو البوليس السياسى السرى ومعسكرات

السجون والاعتقالات السرية ، يضاف اليها قمع جميع الحريات الشخصية وربطها جميعاً بمشيئة « الفوهرر ، أو الزعيم » .

وكذلك أعد هتلر في الخارج عدته للوقت المناسب ، فكان دعائه يعملون لانشاء الأحزاب في البلاد المختلفة على النسق النازي ، ويهيئون داخل هذه الأحزاب الجماعات التي عرفت بالطواير الخامسة والسياسيين الذين عرفوا بالسكويرلنج Quisling أو وزراء الضرورة النازية . ولما كان هتلر وأعوانه يعلمون أن الحرب في النهاية هي الوسيلة الحتمية لبلوغ أهدافهم ، فإنه ما برح منذ اضطلع برياسة الدولة يزدري النظم الديمقراطية وميثاق عصبة الأمم ومبدأ التأمين الجمعي ضد الحرب ، حتى انتهى الأمر في سنته الأولى بانسحاب ألمانيا من العصبة . ثم أخذ يعمل بسرعة جنونية لزيادة التسليح ، فقرر التجنيد الاجباري سنة ١٩٣٥ وفي العام التالي احتلت الجيوش الألمانية أرض الرين وأقامت عليها الحصون والقلاع مخالفة في ذلك كله معاهدة فرساي ومعاهدة لوكارنو . وفي سنة ١٩٣٨ ضمت النمسا إلى ألمانيا ، واعتدت على تشيكوسلوفاكيا فضمت إقليم الألمان السوديت أولاً ثم ضممتها برمتها سنة ١٩٣٩ . وكانت تشيكوسلوفاكيا مرتبطة مع فرنسا بمعاهدة الاتفاق الصغير ، فلم تقو فرنسا ولا حليفها إنجلترا على مساعدتها بل لقد نصحتها بأن تقبل ما فرضه الطغيان النازي عليها وأن ترفض ما تطوعت روسيا بتقديمه إليها من المساعدة الحربية . وجاء رئيس وزراء إنجلترا بنفسه طائراً إلى ألمانيا ويده حمالة السلام ، واجتمع بعد ذلك مؤتمر الدول الأربع (إنجلترا ، وفرنسا ، وألمانيا ، وإيطاليا) في ميونيخ لاقرار طلبات هتلر وإغمد سيف الحرب في جرابه بضعة أشهر ، وقد ارتضى الحلفاء لأنفسهم ذلك الاذلال خوفاً من زحف قوات روسيا البلشفية غرباً ، وانتظاراً للوقت الذي تصطدم فيه قوات هتلر بالجيش الأحمر فيتطاحن العدوان ويفنى بعضهما بعضاً ودعاة السلام في الغرب يتفرجون عن كذب ويظنون أنهم بذلك يحسنون صنعا !

ولكن الدكتاتورين كليهما كانا من دهاقنة السياسة في أوروبا فلم يتخذوا

بما أضمره لها سياسة الغرب من مكاييد وما نصبوه لها من حبال . فأما المرشال ستالين فصمم على الانتقام من دول الغرب التي أهملته ولم تدعه إلى اجتماع ميونيخ كما لم تستمع إلى نصحه بشأن تشيكوسلوفاكيا ، وقرر في دخيلة نفسه أن يدع تلك الدول لتلقى هي ضربات الحرب الأولى من ألمانيا حتى تنهيا روسيا لمواجهة دورها بعد قليل أو كثير ، وأما هتلر فانه قد عجم عود الحلفاء في ميونيخ فلم يجد إلا قسبة مرضوضة ، فليس بهم قوة حتى على الوقوف إلى جانب حليفهم في ساعة شدتها ، فقرر أن يتخذ قراره التاريخي الخطير غير عابئ بحكومات الغرب المتخاذلة في شخص تشمبرلان في إنجلترا ودلاييه في فرنسا .

وكانت أولى ضرباته أن اغتتم فرصة نفور ستالين من حكومات الغرب وسارع إلى الاتفاق معه على الحيدة المقبلة ، حتى لا تتعرض ألمانيا مرة ثانية لخطر الحرب في جبهتين متعارضتين : إحداهما شرقية ضد روسيا والأخرى غربية ضد الدول الغربية . وكان أشد ما أخذه هتلر على الامبراطور السابق أنه أوقع ألمانيا في بدء الحرب العالمية الأولى بين نارين من جيوش الحلفاء ، وأنه أراد تحقيق الغرضين البعيدي المنال لألمانيا في وقت واحد : التفوق الحربى في أوروبا ، والسيادة في عرض البحار ؛ فخاب مسعى الامبراطور في الغرضين جميعا . وعلى ذلك تم لهتلر أعظم انقلاب دبلوماسى شهدته أوروبا في تاريخها الحديث ، وهو عقد الاتفاق بين روسيا وألمانيا في أغسطس سنة ١٩٣٩ .

وكانت سياسة المحور بين برلين وروما قد تأيدت بمعاهدة التحالف بين ألمانيا وإيطاليا في مايو سنة ١٩٣٩ فلم يتردد هتلر وأركان حربه في إعطاء الاشارة برفع الستار عن مأساة أول سبتمبر سنة ١٩٣٩ . وقد حالفت آلهة الحرب قوات هتلر في السنين الثلاث الأولى من الحرب ، فعقدت له ألوية النصر في عدة مواقع حاسمة خاطفة تبوأت على أثرها ألمانيا مركز الزعامة والسيادة في قارة أوروبا فيما عدا السويد وتركيا وسويسرا وقد نضيف إليها تجاوزا ، أسبانيا والبرتغال . ومع ذلك فقد كان لألمانيا في هذه الدول من النفوذ الأدبى والمادى ما جعلها أيضاً تحت رحمتها . ولو أن هتلر نابز

على العمل ونفذ خطته الأولى فلم يعرض ألمانيا لخطر الحرب أمام أكثر من جهة واحدة ولم يحاول إصابة الهدفين الألمانين معا لكان مصير ألمانيا شيئا آخر غير الانحلال الذي تهددها بعد الحرب . ولكن الطبيعة البشرية وما جبلت عليه نفس الإنسان من الأثرة والطمع والغرور قد جعلت هتلر يزهي بانتصاراته الأولى ويسمى تقدير قوى أعدائه ، فانزلق وهو في أوج مجده يعادى أمريكا ويعلن الحرب على روسيا قبل أن تنقلب عليه ، ويحاول في الشمال أن يدق طريقه دقا ليعبر روسيا إلى أوكرانيا فالقوقاز وبحر قزوين ، ويحمل في الوقت نفسه قائده «رومل» في الجنوب على طرق باب الاسكندرية إلى قناة السويس فيلاد الشرق الأوسط وخليج العجم حيث يلتقي بحلفائه اليابانيين وقد اكتسحوا جنوب آسيا إلى الهند فايران . هنالك أشفقت آلهة الحظ من فداحة مثل ذلك النصر الذي لم يتح من قبل للآلهة نفسها فضلا عن البشر ، فأشاحت بوجهها عن بطلها حينئذ ، وبدأ نجم هتلر في الأفول ، فارتد الألمان عن ستالنجراد في الشمال ، وتراجعوا أمام العلبين في الجنوب ، وكان ذلك بداية النهاية .

الفصل الرابع والعشرون

سياسة الدول في الشرق الأوسط

لعل أخرج مراكز السياسة في العالم هي منطقة الشرق الأوسط ؛ فقد تحول مركز الثقل السياسي بعد الحرب الأخيرة من أوروبا إلى سواحل شرق البحر المتوسط وخليج فارس وما بينهما من بلدان الشرق الأوسط ولم يبق على مسرح السياسة في أوروبا سوى بعض المناظر الجانبية الأوربية . أما الدوامة التي تنجذب إليها تيارات السياسة العالمية وتلتقي فيها المصالح الكبرى للدول أو تصطدم فقد تحركت شرقاً من المحيط الأطلنطي إلى مياه الشرق الأوسط . وليس غريباً بعد أن أصبحت الحرب ظاهرة عالمية يشترك فيها الشرق والغرب وتتحالف عليها دول العالم القديم والجديد أن تنجده سياسة الدول نحو المركز الذي تتجمع فيه أهم خطوط المواصلات في العالم برية كانت أو بحرية أو جوية . وقد دلت الحربان العالميتان على ما لهذه المنطقة من أهمية حربية خطيرة امتازت بها على سائر الميادين الأخرى . ففي الحرب العالمية الأولى كانت ثورة العرب ضد الترك في الحجاز وبلاد المشرق وهزيمة الترك ومعهم حلفاؤهم الألمان على قناة السويس عندما حاولوا غزو مصر في فبراير سنة ١٩١٥ - كان هذا وذاك من أهم الأحداث التي حولت مجرى الحرب لصالح الحلفاء . وكانت معركة العلبين في الحرب العالمية الثانية الحد الفاصل بين الهزيمة والنصر فقد ارتدت على أثرها قوات المحور عن شمال أفريقية ، وأصبح نصر الحلفاء بعد تلك الموقعة وشيكا قريب المنال .

وها نحن أولاء نرى في قيام جامعة الدول العربية ومساعدتها للتخلص من نير الاستعمار الأجنبي وفي النزاع القائم بين العرب والصهيونيين في فلسطين وفي تنافس الدول بشأن ليبيا ومستعمرات إيطاليا القديمة - ترى في كل هذا وفي غيره ما ينذر

بأشد الأخطار على قضية السلام لا في الشرق الأوسط وحده بل في العالم أجمع .
ولم يكن هذا أول عهد الشرق الأوسط بتنازع القوى العالمية في مياهه وعلى
أديم سهوله وهضابه . فقديمًا تطاحنت في ميادينه جيوش الفرس والاغريق
وانتصر الاغريق بقيادة الاسكندر الأكبر فاصطبغ الشرق الأوسط بالصبغة
الهيلينية ثم ورثه البيطالمة فالرومان وبعدهم البيزنطيون . وظهر العرب في العصر
الوسيظ فانتصروا على دولتي فارس وبيزنطة وسرعان ما طبعوا شعوب الشرق
الأوسط بلسانهم وعاداتهم وغرسوا في قلوب أهله ذلك الدين الخنيف فأمسوا
ثم أصبحوا مسلمين يتكلمون العربية وكأنما قد قطعوا كل صلة بماضيهم القريب ،
ثم قامت من أوربا إلى بلدان الشرق الأوسط حملات الصليبيين التي بدأت في
أواخر القرن الحادى عشر واستمرت إلى قرب نهاية القرن الثالث عشر وكانت
الحرب سجالاتا بين المسلمين وطوائف الفرنجة حتى جمع المسلمون كلمتهم في عهد
الأيوبيين أولا ثم في عهد سلاطنة المماليك فانتصر المسلمون وسقطت عكا آخر
حصون الصليبيين عام ١٢٩١ وبسقوطها دالت دولة الصليبيين اللاتينية من
الأراضى المقدسة ولم يبق لهم في تلك الأصقاع إلا بقايا ورسوم من حصونهم
وقلاعهم التي بنوها وإلا قطرات من دمائم لا تزال تسرى في شرايين بعض
أهل البلاد .

وظهر الأتراك العثمانيون في بلاد الشرق الأوسط في أوائل القرن السادس
عشر بعد أن كشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح وتحولت إليه تجارة
الشرق فتدهورت الصناعة والتجارة في بلدان الشرق الأوسط وقل فيها الانتاج
وآوت شعوبه إلى سبات عميق لم تصح منه إلا على صيحة الثورة الفرنسية وطلقات
مدافع نابليون بونايرت في الشرق .

وبظهور بونايرت على رأس حملته في مصر تنبهت انجلترا إلى الخطر الذي
تعرض له مصالحها وممتلكاتها في الشرق إذا ربض عدو لها في تلك المنطقة
الحيوية التي اعتبرتها منذ ذلك الوقت الرقبة التي تصل بين الرأس في انجلترا

وبين جسم مستعمراتها في الهند والشرق . فأخذت تعمل كل ما وسعها لاجباط مسعى الفرنسيين من جهة ولتثبت نفوذها على طول الطريق إلى الهند من جهة أخرى . ومن أجل ذلك نشبت معركة أبو قير البحرية سنة ١٧٩٨ وفيها دمر نلسون أمير البحر الانجليزي أسطول بونايرت وقضى على الحملة الفرنسية في مصر وفي سوريا بالاخفاق والخذلان ، ومن أجل ذلك أيضاً احتل الانجليز جزيرة مالطة سنة ١٨٠١ كما احتلوا ميناء عدن سنة ١٨٣٩ . وخشى الانجليز أن يثبت سلطان محمد علي في بلدان الشرق الأوسط فيقوى بذلك نفوذ فرنسا حليفته فجعلوا يناوئونه ويناصرون تركيا عليه حتى انسحب محمد علي من بلاد العرب وبلاد الشرق وانكمش داخل حدوده في مصر والسودان .



فلسطين في ميفترق الطرق

وتجدد السكفاح ثانية على أثر افتتاح قناة السويس وظهور ذلك الانقلاب الخطير في عالم السياسة والتجارة في الشرق الأوسط ، فقد كان انشاء القناة عملاً فرنسياً عظيماً وكان النفوذ الفرنسي في شركة القناة هو الغالب ولذلك أخذت الحكومة الانجليزية تعمل بمختلف الوسائل لمنع فرنسا من استغلال الحالة في

مصر والقناة لمصلحتها وسارع الوزير الانجليزي دزرائيلي Disraeli إلى شراء أسهم الخديو اسماعيل في القناة فأصبح من صالح إنجلترا بعد ذلك أن تكون لها قاعدة قريبة تشرف منها على القناة من جهة وترقب منها نشاط السياسة الروسية التي بدأت تهدد مصالح إنجلترا في الشرق ، فاغتذمت فرصة انعقاد مؤتمر برلين ١٨٧٨ وطلبت إلى تركيا أن تنزل لها عن جزيرة قبرص ثمناً لمعاونتها لها ضد روسيا . وما فتئت إنجلترا تواصل سياستها حتى أمكنها التغلغل في شئون مصر المالية ثم التدخل في شئونها السياسية وأخيراً استطاعت أن تتدخل بالقوة بمفردها وتحتل مصر سنة ١٨٨٢ بدعوى مناصرة الخديو توفيق ووقع الثورة العراقية .

ولم يكن احجام فرنسا عن الاشتراك مع إنجلترا في احتلال مصر بسبب زهدها في مجال السيطرة والاستعمار، ولكن فرنسا كانت حديثة عهد بالهزيمة أمام ألمانيا وكانت بحاجة شديدة إلى موالاة إنجلترا وعدم اثارها ضدها لتكون إلى جانبها إذا قست عليها الظروف . وكانت فرنسا تنو ببيصرها إلى شمال أفريقية وبلاد المغرب وتريد أن تؤلف منها دولة استعمارية قريبة إلى بلادها تعوضها عما فقدته في ميداني الحرب والاستعمار فزالته مسافة الخلف تضيق حتى تم بينهما الاتفاق الودي Entente Cordiale في سنة ١٩٠٤ وبه انجملت فرنسا عن ميدان السياسة في الشرق الأوسط ولم يبق لها غير الأثر الثقافي والديني في بعض أرجائه .

وكانت لروسيا أيضاً مطامع في الشرق الأوسط حول إيران وخليج فارس فعصفت بها هزيمتها المنكرة على أيدي اليابان برأ وبحراً سنة ١٩٠٥ ، وتعاقدت روسيا وبريطانيا سنة ١٩٠٧ فانحسر الخطر الروسي وحل محله الخطر الألماني بعد أن أعلن الامبراطور وليم الثاني صداقته نحو تركيا واعترامه ربط الامبراطوريتين بالخط الحديدي بين برلين وبغداد . وعند ذلك أخذت إنجلترا تستعد لدرء الخطر عن تلك المنطقة بواسطة سياستها وخبرائها وصنائعها حتى دنت ساعة الحرب العالمية الأولى فلم تتوان في إعلان حمايتها على مصر وعزل خديويها الذي اتهمته بمالاة الألمان . ودارت للمفاوضات بين الشريف حسين أمير مكة وبين رسل الانجليز فانفق الجانبان على

أنه في مقابل قيام الثورة العربية ضد الأتراك تتعهد الحكومة الانجليزية باستقلال البلاد العربية وقد حددها الشريف حسين حينذاك بحدود تدخل في نطاقها سوريا والعراق وفلسطين فضلاً عن شبه جزيرة العرب ما عدا مستعمرة عدن . وكان إعلان الثورة العربية فاتحة عهد جديد في بلاد ظلت خاضعة للحكم العثماني مع ما انطوت عليه من ضعف وانحلال وركود قومي شامل طوال أربعة قرون فأفاق شعوب الشرق الأوسط من سياستها وسارت كتابتها تحت علم الثورة نافرة إلى الحرب في صفوف الذين منوهم بالحرية والاستقلال . فإنتهت الحرب بهزيمة الألمان وطرد الترك خارج حدود العالم العربي حتى تنكر لهم حلفاؤهم القدماء، ودخل الشرق الأوسط في طور جديد من حياته كله كفاح وجلاد وجهاد في سبيل الإصلاح تارة وغالباً ضد المستعمرين الذين استمرأوا الحياة مع الغنم في تلك البلاد .

وكان الحلفاء في أثناء الحرب العالمية الأولى قد قطعوا على أنفسهم العهود بانهم لا يرومون من الحرب أن يوسعوا رقعة بلادهم أو أن يضيفوا إلى ممتلكاتهم ومستعمراتهم أقاليم جديدة . ولكنهم ما عتموا أن رأوا أن الحرب قد قضت على أربع من إمبراطوريات العالم الكبرى وهي روسيا بعد ثورتها الكبرى في سنة ١٩١٧ وألمانيا والنمسا وتركيا ، وأنه قد انسلخ عن تركيا وألمانيا ولايات ومستعمرات لا سبيل إلى عودتها إليهما ثانية فنكث الحلفاء بعهودهم وداروا أطباعهم تحت ستار رقيق من نظام الانتداب الذي ابتدعوه في ميثاق عصبة الأمم .

وكان بريطانيا وفرنسا بحكم تفوقهما بعد الحرب وخاصة بعد انسحاب الولايات المتحدة واشتغال روسيا بثورتها أن تقسما مناطق النفوذ ويقررا فيما بينهما حدودها . وكانت فرنسا تدعى لنفسها مركزاً ممتازاً في الشرق الأوسط إذ كانت أولى الدول الأوروبية التي تعاقدت مع سلطان تركيا في القرن السادس عشر وبسبب حمايتها للشعوب الكاثوليكية داخل الدولة العثمانية وخاصة في لبنان وما كان لها من ثقافة لائنية فرنسية بنتها إرسالياتها الدينيه وكلياتها ومدارسها المنتشرة في أنحاء بلدان الشرق الأوسط ، لذلك طالبت فرنسا

بحقها في الانتداب على منطقة شرق البحر المتوسط كله . ولكن السياسة الانجليزية كانت على حذر من مطامع الفرنسيين في الشرق فاتفق الرأي على أن يكون لفرنسا الانتداب على سوريا ولبنان واحتفظت إنجلترا لنفسها بالانتداب على العراق وفلسطين وشرق الأردن ، ولا يبقى بعد ذلك مستقلا من دول الشرق الأوسط غير بلاد العرب بيد الملك حسين شريف مكة .

وكانت إنجلترا تعلم أن أمام النهضة العربية في الشرق الأوسط مستقبلا سيعج بالأحداث والاحتمالات وأن مصالحها في تلك المنطقة تقتضي أن تكون بيدها قواعد استراتيجية ترقب منها تطور الحركة العربية من جهة وتشرف منها على مصالحها في القناة من جهة أخرى متى أذن الوقت بجلاتها عن مصر استجابة للروح الوطنية التي بدأت تتأجج في مصر منذ ثورتها في سنة ١٩١٩ فصممت على أن تتركها بمنطقة نفوذها في فلسطين وشرق الأردن ، وهي لا تزال على رأيها فيما يخص شرق الأردن على الأقل .

وما كاد الحلفاء يوزعون على أنفسهم أسلاب الحرب باسم الانتدابات حتى ظهر في ميدان الشرق الأوسط عامل جديد هو في خطورته اليوم أبعد أثرا وأشد وقعا من إنشاء القناة — ذلكم هو تفجر عيون البترول قرب الموصل وكركوك بالعراق واختزان كميات هائلة منه في جهات متعددة على طول المنطقة التي تمتد من خليج فارس إلى ساحل البحر المتوسط وتشمل الكويت وجزيرة البحرين وبلاد العرب السعودية وسوريا ومصر . ولما كان زيت البترول هو عصب الحروب الحديثة والقوة المحركة للطائرات والدبابات والسيارات والسفن الحربية لذلك كان التسابق على استغلال آباره في الشرق الأوسط من أقوى العوامل التي ركزت اهتمام الدول بهذه المنطقة . وليس أدل على ذلك من جهود ألمانيا الجبارة في أثناء الحرب الأخيرة للوصول إلى موارده سواء في رومانيا أو القوقاز أو خليج فارس . والدول في معركة البترول تتساوى جهودها سواء منها المحروم كبريطانيا وفرنسا أو المتخوم كروسيا والولايات المتحدة . فالمحروم حاجته إليه طبيعية وأما المتخوم فتدفعه إلى التسابق بشأنه عوامل مهمة أخرى . فروسيا مثلا لديها

موارد البترول التي تنكفيها في حالتى السلم والحرب وهى ثانية دول العالم لإنتاجاً للبترول بعد أمريكا ، ولسكنها تأبى على منافسيها أو أعدائها أو يتوافر لديهم ذلك السائل السحري الثمين فيستخدمونه ضدها إذا قامت الحرب . والولايات المتحدة تخشى أن ينضب معين بترولها المتدفق في بلادها فتريد أن تأمن على مستقبلها في السلم والحرب وذلك بالاستحواذ على بعض موارده الغنية في الشرق الأوسط .

لذلك ما كادت شركة البترول العراقية تتألف من الإنجليز والفرنسيين والهولنديين حتى طالبت الولايات المتحدة بنصيبها في أسهمها فكان لها مقدار ٢٣,٧٥ في المائة من أسهمها وكان هذا أول تدخل من جانب أمريكا في الميدان الاقتصادي بالشرق الأوسط .

ولما كشف الملك عبد العزيز آل سعود عن منابع البترول في شبه جزيرة العرب خشي أن يؤدي ذلك إلى تدخل الدول الاستعمارية في شئون بلاده ولذلك رفض أن يستمع إلى عروض بريطانيا أو إيطاليا وإختار بعض الشركات الأمريكية فأعطاها في سنة ١٩٣٣ حقوق الامتياز في مساحات واسعة من بلاده . وقد أفادت بلاد العرب السعودية من ذلك فوائد اقتصادية واجتماعية على جانب عظيم من الأهمية . وفي سنة ١٩٣٦ فازت الولايات المتحدة أيضاً بامتياز البترول في البحرين . وأما بريطانيا فلديها إنتاج الشركة الإيرانية الانجليزية وهى أقدم شركات البترول في الشرق الأوسط عهداً وأوفرها إنتاجاً ولها في شركة البترول العراقية مقدار نصف أسهمها ، كما أن لها إنتاج الكويت . وتجد بريطانيا من نفوذها السياسى في الشرق الأوسط ما يعينها على المحافظة على مصالحها الاقتصادية . أما الولايات المتحدة فتركز جهودها في الناحية الاقتصادية وتأتى بريطانيا طواعية في الناحية السياسية .

وتحرص إنجلترا على مصالحها في البترول حرصاً شديداً دعاها في سنة ١٩٤٦ إلى إرسال قوة حربية لاحتلال البصرة عندما نشبت بعض الاضطرابات العالمية وخشيت على مواردها في إيران من الخطر . ولما حاولت روسيا عقب الحرب

الآخيرة مد أجل احتلالها لشمال إيران ثم إثارة أهل أذربيجان للثورة والاستقلال عن إيران ، وأحست بريطانيا أن الخطر الروسي يقترب ويبدأ رويداً رويداً من حقول البترول الإيرانية تدخلت بريطانيا ، فتقدمت إيران بشكواها إلى مجلس الأمن وما زال المجلس يناقش روسيا الحساب حتى اضطرت إلى مغادرة إيران والتخلي عن أذربيجان فأخذت فيها الثورة وبقيت مصالح بريطانيا في البترول سليمة ولو إلى أجل موقوت .

ولما كان إنتاج البترول الإيراني يصل إلى بريطانيا في خزانات خاصة عن طريق قناة السويس كما أن البترول العراقي يمر في أنابيب خاصة تحت أرض العراق وشرق الأردن وفلسطين إلى ميناء حيفا بفلسطين وطرابلس بلبنان ، لذلك كان إهتمام بريطانيا عظيماً بالتطورات السياسية التي لازمت نهضة بلدان الشرق الأوسط في السنين الأخيرة . فسارت إنجلترا روح النهضة الحديثة التي بدت بين الشعوب العربية ووفقت بقدر الإمكان بين مصالحها وبين مطالب هذه الشعوب - بين الحرية والإستقلال وعلى ذلك نزلت عن حمايتها على مصر وأقرت إستقلالها ، كما نزلت عن إنتدابها في العراق واستعاضت عن الحماية والإنتداب بمعاهدتين مع البلدين أو شكنا أن يستنفدا موضوعهما . وبقيت مشكلة فلسطين التي عقدتها إنجلترا ومعها الحلفاء في سنة ١٩١٧ بإعلان تصريح بلفور ، فما أفادت إنجلترا من إنتدابها عليها سوى الحوادث الدامية والثورات المتعاقبة وقيام النزاع بشأنها بين العرب واليهود حتى أصبحت فلسطين ومشكلة فلسطين من أعقد وأشد ما واجه العالم الحديث من مشكلات في الشرق الأوسط .

أما فرنسا فقد سارت في سوريا ولبنان سياستها الإستعمارية العتيقة التي ترمي إلى خدمة مصالح فرنسا الكبرى وإدماج العناصر الوطنية داخل دائرة الجنسية الفرنسية المرنة فتغذيهم بثقافتها وتغذي بهم جيوشها لتخرج فرنسا من ذلك كله قوية عزيزة الجانب دون أي إعتبار لمبادئ الحرية التي ورثتها عن الثورة الفرنسية والتي لم تسمح منها بقليل أو كثير للشعوب التي إنتدبت لها . ومع أن نظام الإنتداب

قد غير الأسس التي كانت تقوم عليه الإستعمار قديما فجعل واجب الدولة صاحبة الإنتداب هو العمل على مساعدة الشعب المنتدبة له وتمهينه لحكم نفسه ، بل أن ميثاق العصبة لينص صراحة على الإعتراف بإستقلال الشعوب الراقية التي كانت خاضعة لتركيا فإن فرنسا لم تخط خطوة واحدة في سبيل تحقيق إستقلال هذه الشعوب أو تهيتها للحكم الذاتي . وكان أول مبدأ راعته فرنسا في دائرة إنتدابهها هو مبدأ التفرة بين المذاهب الدينية والجماعات الوطنية فأوجدت دويلات محلية مستقلة عن سوريا ولبنان كجبل الدروز وإقليم العلويين وسنجق إسكندرونه . كل ذلك لأن الشعور بالإستقلال وبالوحدة العربية في سوريا كان قويا وجارفا وكانت فرنسا تخشاه بدرجة جعلتها تقسو وتعننت في مناهضة المصالح الوطنية لأهل البلاد كافة حتى فقدت فرنسا المسكنة الممتازة التي كانت لها في الماضي لا في سوريا وحدها بل وفي لبنان أيضا .

لذلك لم يكن غريبا أن ينتهز الوطنيون فرصة إندحار فرنسا أمام ألمانيا في الحرب الأخيرة فيعملوا على تحقيق أمانهم في الإستقلال والتخلص من آثار الإنتداب الفرنسي جميعا دفعة واحدة . وكانت الحكومة الانجليزية تدرك أهمية سوريا ولبنان من الوجهة الحربية منذ كانت دولتا المحور تهددان مصر من جهة حدودها الغربية . وكان الحلفاء يستمدون بترول العراق من أنابيب حيفا وطرابلس ، فما كادت تلمح آثار المعاونة التي كان يقدمها أعوان حكومة فيشي للمحور في دولتي المشرق وفي العراق حتى أجمع الحلفاء أمرهم على تحرير سوريا ولبنان من قوات حكومة فيشي . وتألقت قوة من الجنود البريطانية وجنود فرنسا الحرة بقيادة الجنرال ولسون ومعه القائد الفرنسي كاترو للزحف على بلاد المشرق في خريف عام ١٩٤١ ، فلم تجد القوة صعوبة في كسر مقاومة جنود حكومة فيشي . وقد سبق قيام الحملة وأعقبها إعلان من حكومة فرنسا الحرة ومن الحكومة الانجليزية بموافقتهما على إستقلال سوريا ولبنان وإعتبار كل منهما دولة ذات سيادة فأطمأن الوطنيون في الدولتين ومهدوا للحلفاء طريق النصر على أعوان المحور .

وبدخول الانجليز منتصرين بلاد المشرق بدأت في البلاد سياسة جديدة ، فقد أصبح للانجليز المكانة الحربية الاولى وتأخرت منزلة فرنسا على حين اتسعت دائرة المعاملات بين الانجليز والبلدين . وكان إعلان الإستقلال الذي أصدرته حكومة الجزائر ديجول تشير إلى ضرورة تسوية الروابط بين الطرفين في معاهدة حرة تعقد بينهما بعد الحرب . ولكن الوطنيين أبوا الاعتراف بحق الإنتداب نفسه على أساس أن حكومة فيشي قد انفصلت عن عصبة الأمم في سنة ١٩٤١ ولم يعد للإنتداب على بلادهم أصل قانوني ، وهم لذلك خليقون أن يتمتعوا بالاستقلال التام وبكل مظاهره من حكم نيابي ديمقراطي وتمثيل أجنبي وجيوش وطنية دون أي إعتراض من جانب فرنسا .

واضطرت فرنسا إلى الخضوع في أول الأمر وانضم الدروز والعلويون إلى سوريا وجرت الانتخابات فاختر الزعيم شكري القوتلي رئيساً للجمهورية السورية كما إنتخب الشيخ بشاره الخوري رئيساً للجمهورية اللبنانية . ولما كان الحزب الذي يتزعمه الرئيس اللبناني يناصر الوحدة العربية ويؤيد إستقلال لبنان التام فان فرنسا لم تستطع الصبر طويلاً . وحنق المندوب الفرنسي ذات ليلة وقبض على رئيس الجمهورية ورجال حكومته واعتقلهم خارج بيروت في نوفمبر ١٩٤٣ فكان ذلك إيذاناً بميلاد روح وطنية جديدة جعلت اللبنانيين يتعاونون جميعاً ضد الأجنبي . ولقيت الجمهورية الناشئة من جانب أمريكا والحكومة الانجليزية ومن جانب مصر وأخواتها الدول العربية أكبر عون على فرنسا ، فلم يسع للجنة الفرنسية الحرة إلا الرضوخ لمطالب الوطنيين .

ولما ترددت فرنسا وتباطأت في الجلاء عن البلاد ما لم يعترف لها الوطنيون بمركزها الخاص لجأت سوريا ولبنان تشكوانها إلى مجلس الأمن سنة ١٩٤٦ وطالبتا بجلاء الانجليز والفرنسيين جميعاً عن بلادهما . واضطرت فرنسا أخيراً إلى قبول رأى أغلبية المجلس فخزمت أمرها ومتاعها وانجملت عن بلاد المشرق تاركة

بريطانيا وحدها أمام أخطار القومية العربية من جهة ومنافسة أمريكا وروسيا لها في هذا الميدان الجديد من جهة أخرى .
ورأت انجلترا أن خير علاج للموقف بشقيه أن تحيي فكرة الجامعة العربية التي ازدهرت ردهاً من الزمن في عهد السلطان عبد الحميد باسم الجامعة الإسلامية . وكانت بريطانيا إذ ذاك كعادتها متحيرة مترددة بين تحييد الفكرة وإنكارها فقد كانت تحض على الفكرة لمعارضة النفوذ الروسي الذي كان يهدد أملاك الدولة كما أنها كانت تخشاهما خوفاً على ولاء مسلمي الهند نحو الامبراطور الملك . أما بعد انتصار الحلفاء في الحرب الأخيرة واضطلاع الروس فيه بدور البطولة العالمية فإن الخطر الروسي قد تجسم أمام بريطانيا بدرجة جعلتها تقدم على إخراج فكرة جامعة الدول العربية إلى حيز السياسة الواقعية دون أن تبالي بما قد يترتب على تأليف الجامعة من نتائج قد تضر بمصالحها قبل أية دولة أخرى .

وكان أول إيدان بفكرة الجامعة الحديثة في صيف عام ١٩٤١ إذ وقف مستر ايدن وزير خارجية انجلترا يعلن في قصر محافظ لندن عن سياسة الحكومة الانجليزية بشأن مستقبل الشعوب العربية ويقول : إن روابط الصداقة التي تجمع بيننا وبين العرب ترجع إلى عهد بعيد فلنا بينهم أصدقاء عديدون كما أن لهم بيننا أصدقاء حميمين . . . ولقد كان من أعز أمانى عدد كبير من مفكرى العرب وقادة الرأى فيهم أن تنعم الشعوب العربية بوحدة أوسع مدى مما بلغت الآن . . . ونحن لا يسعنا إلا الاستجابة إلى هذا النداء لأن تقوية الروابط الاقتصادية والثقافية والسياسية أيضاً بين الدول العربية أمر اعتبره في الحقيقة طبيعياً عادلاً . ولهذا فإن حكومة جلالة الملك تعلن أنها ستناصر كل مشروع يرمى إلى تحقيق هذه الأغراض متى كان المشروع حائزاً لرضاء الجميع .

ولم تسكن أمريكا حين أعلنت انجلترا ذلك التصريح قد انحازت بعد إلى جانب الانجليز في الحرب كما أن فرنسا كانت قد أقصيت عن الميدان مهزومة مهينة الجناح . أما روسيا فكانت لاتزال مرتبطة بألمانيا وتوشك أن تنقلب عليها حليفها

بغزواتها المروعة . لذلك ولد مشروع الجامعة العربية بمنأى عن أمريكا وروسيا وفرنسا وعلى أيدي بريطانيا وحدها وهي إذ ذاك مثقلة بالهموم وفادح المسؤوليات . وكأنما أرادت إنجلترا أن تترك للشعوب العربية إرثاً يذكرونها به بعد الحرب فكانت أن أعلنت ذلك التصريح الذي يفوق في مرماه البعيد في الشرق الأوسط على مشروع قناة السويس أو كشف منابع البترول . وكانت الشعوب العربية منذ قامت مشكلة فلسطين تتوئب لتحقيق فكرة الجامعة العربية ولذلك سرعان ما اقتنعت مصر بتبني المشروع وقامت على تنفيذه مع أخواتها بمقتضى بروتوكل الاسكندرية في أكتوبر سنة ١٩٤٤ تم وفق ميثاق الجامعة في مارس سنة ١٩٤٥ .

وإذا كانت بريطانيا قد ظنت أنه بإنشاء جامعة الدول العربية قد أقامت حاجزاً في وجه التنافس الدولي بشأن الشرق الأوسط . أو إذا كانت الشعوب العربية قد توهمت أن قيام الجامعة سيعصمها من استعمار المستعمرين فقد أخطأت بريطانيا وأخطأ العرب جميعاً . لأن الاستعمار لا يشترط فيه أن يكون مقصوراً على الحكم والسياسة بل إنه ليشمل الثقافة والاقتصاديات أيضاً وهيئات أن تجسد الشعوب العربية في ثقافتها وصناعاتها واقتصادياتها ما يغنيها تماماً عن التعاون الأجنبي . ثم إنه ما دامت الحروب أمراً محتمل الوقوع فإن الدول التي تطمع في مكاتها العالمية ستزنو دائماً ببصرها إلى منطقة الشرق الأوسط حيث توجد أهم القواعد الاستراتيجية في العالم .

وسيظل اهتمام الدول الكبرى بهذه المنطقة قائماً إلى أن تستكمل شعوب الشرق الأوسط أسباب نهضتها أو تلغى مادة الحرب من القاموس الدولي .

الفصل الخامس والعشرون

فلسطين

لقد حبت الطبيعة فلسطين بموقع جغرافي فذ في البحر المتوسط لاتدانيها فيه غير مصر إذ تقف مثلها على عتبة الشرق وعندها تلتقي قارات العالم القديم الثلاث أوروبا وآسيا وأفريقية ، وفي فلسطين تتقابل خطوط المواصلات بين الشمال والجنوب وبين مصر وسائر البلاد العربية . وإلى سواحلها تنتهي أنابيب البترول العراقية وقد تنتهي إليها بعد وقت طويل أو قصير خطوط البترول الشرقية الأخرى . وهي فوق ذلك كله تتاخم حدود مصر الشرقية وتشرف من هضابها وقمم جبالها على شبه جزيرة سيناء وقناة السويس وهما خط الدفاع الأول لمصر من ناحية الشرق . وقد ظلت فلسطين نحو أربعين عاماً خاضعة للحكم التركي فما استيقظت في أثنائها فتن ولاشبت فيها حروب أونيران إذ أخذ الجميع إلى الخوف والآنزواء والتواكل تحت نير الحكم التركي حتى إذا قامت الحرب العالمية الأولى ونادى المنادى يدعو العرب إلى الثورة على الترك استيقظ أهل فلسطين من سباتهم وانحازوا إلى الثوار واستقبلوا العهد الجديد وجيوش الحلفاء وقادتهم بالرضا والترحاب .

ولسكن عاملاً جديداً ظهر في أعقاب الحلفاء وحل في البلاد على حين فجأة فبدل سلامها حرباً وأمنها خوفاً إذ اقتطع الحلفاء فلسطين من جسم سوريا وسائر البلاد العربية ووضعوها غصبا تحت الانتداب البريطاني من جهة وتحت رحمة وعد بلفور من جهة أخرى فجاءها اليهود من كل صوب وفي ركبهم رؤوس الأموال التي تدفقت من خزائن إخوانهم أنصار الصهيونية المشتتين في العالم وليس لهم جميعاً من هدف سوى تحويل البلاد إلى وطن قومي يعيد إلى اليهود ما فقدوه منذ ١٨٠٠ عام .

وكان أول من جعل لليهود قضية قومية وأماناً وطنية في التاريخ الحديث

هو الكاتب النمساوي تيودور هرزل Theodor herzl الذي نشر في سنة ١٨٩٦ كتابه عن «الدولة اليهودية»، فكان ظهور ذلك الكتاب فاتحة عهد جديد إذ أصبحت امانى القومية اليهودية بعد إذاعته موضوعاً مدروساً يقرؤه الناس وكانت قبل ذلك خواطر مجردة وأحلاماً تهفو لها نفوسهم وتهتف لها قلوبهم دون ألسنتهم . وقد أثار ذلك الكتاب من الحماسة والاهتمام لدى اليهود في مختلف البلاد مادعاً إلى اجتماع مؤتمر عام لليهود في مدينة «بال» بسويسرا في سنة ١٨٩٧ وفيه حدد اليهود الهدف الذى ترمى إليه حركتهم الصهيونية وهو السعى لايجاد وطن قومى لليهود في فلسطين على أن يكون ذلك بمقتضى إجراءات يؤيدها القانون العام . وقد أوضح المؤتمر الوسائل التى تتخذ لتحقيق ذلك فيما يأتى :

- ا) تنمية حركة الاستعمار في فلسطين بإيفاد عمال للزراعة والصناعة إليها .
 - ب) تنظيم العناصر اليهودية وتوثيق الروابط بينها بإنشاء المؤسسات المحلية والدولية وفقاً للقوانين المرعية في الدول المختلفة .
 - ج) تقوية الشعور أو الوعي القومى اليهودى .
 - د) اتخاذ الإجراءات حينما تسمح الحال — للحصول على موافقة الحكومات على تحقيق أغراض الصهيونية .
- ويتضح من ذلك أن الحركة الصهيونية فى بدء أمرها وإلى ما بعد الحرب العالمية الأولى لم تكن أكثر من دعاية عاطفية اجتماعية يقصد بها اليهود أن يستدروا عطف الحكومات لتدبير مأوى فى فلسطين يلجأ إليه المضطهدون والمشردون منهم فيجدون فيه بلغة من العيش بالعمل فى الزراعة أو الصناعة .
- ولما نشبت الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٤ أصيبت الحركة الصهيونية بركود طبعى إذ كانت الصهيونية كحركة دولية يشترك فيها يهود من أنحاء العالم كان من شأن الحرب العالمية أن تشل النشاط فى الشؤون الدولية وأن تعرقل جهود اليهود وخاصة فى البلاد التى منيت بالحرب . ولكن اليهود كانوا أحنق من أن تغلبهم الحرب حتى ولو كانت عالمية ، فما كادت تضطرم نيران الحرب حتى نقلوا مكاتبهم

إلى عواصم الدول المحايدة التي تشترك في الحرب كسويسرا والدمرقة ونيويورك
بأمريكا وركزوا اهتمامهم بصفة خاصة في نيويورك ؛ وكان لهم في أمريكا بضعة ملايين
من اليهود منهم عدد كبير من رجال الدولة وأصحاب الأعمال الكبرى في البلاد .
ثم بدا للحكومة الانجليزية أن تستميل إليها الرأي العام الأمريكي لعلها
أن تقنع الولايات المتحدة بالاشتراك في الحرب إلى جانب الحلفاء فترجع بذلك
كفتهم وتنتهي تلك المأساة المدمرة التي طال أمدها ولم يتح النصر فيها لأحد الفريقين .
وكانت إنجلترا تعلم أن جانبا قويا من الرأي العام الأمريكي قوامه العنصر اليهودي
فيها ، وكانت تعلم كذلك أن الحالة في روسيا قد أصبحت من الحرج والخطورة
بحيث باتت الثورة فيها قريبة الحدوث وأصبح خروج الروس من الحرب مترقبا
في أي وقت . وكانت إنجلترا إلى ذلك تعددتها لغزو فلسطين وسوريا بعد أن مهدت
لذلك بمعاوضة الثورة العربية على الترك كما كانت على علم بمطامع فرنسا في لبنان
وسوريا ومنطقة المشرق ، فلم تشأ أن تنتهي الحرب دون أن تتمكن لنفسها في منطقة
الشرق الأوسط ليكون لها إزاء فرنسا سند تأمن معه على مصالحها في تلك المنطقة
العظيمة الخطر .

وعلى ذلك سافر مستر بلفور وزير الخارجية الانجليزية في أوائل سنة ١٩١٧
لمفاوضة زعماء اليهود في الولايات المتحدة . وفي ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ قبل دخول
الجنرال اللنبي فلسطين بأسابيع قليلة أعلن تصريح بلفور Balfour الشهير ضمن خطاب
وجهه الوزير المذكور إلى لورد روتشيلد زعيم اليهود في إنجلترا وفيه يقول :

« إن الوزارة الانجليزية تنظر بعين الرضا إلى إنشاء وطن قومي لليهود
في فلسطين وإنها ستبذل أقصى جهدها لتيسير تحقيق هذا الغرض . على أنه يجب
أن يكون مفهوما فهما صحيحا أنه لن يعمل شيء مع هذا يمس الحقوق المدنية
أو الدينية للطوائف غير اليهودية التي تقيم في فلسطين أو يمس الحقوق والمزايا
السياسية التي يتمتع بها اليهود في أي مملكة أخرى . »

وظاهر من هذا التصريح أن الحكومة الانجليزية لم تقصد بتصريحها إلى تحويل

فلسطين إلى وطن قومي لليهود ولسكنها أرادت فقط تدير وطن لليهود في فلسطين والفرق بين المعنيين ظاهر . ثم أن الحكومة الانجليزية لعلها بما قد يصادف هذه السياسة من إعتراض رأت أن تقيّد تصريحها بشرطين على جانب عظيم من الأهمية : أولاً أن وجود الصهيونيين في فلسطين لن يؤثر في حالة أصحاب البلاد من الوجهتين الدينية أو المدنية .

والثاني أن اليهود في الخارج لن يعتاضوا بفلسطين عن أوطانهم التي يعيشون فيها ويتمتعون بجنسياتها . وذلك لأن إنجلترا كانت تعلم أن هناك فريقاً قوياً بين الإنجليز والأمريكان كانوا يخشون أن يؤدي إنشاء الوطن القومي إلى أن يفقدوا جنسياتهم في البلاد التي ينتسبون إليها وأن يتعرض اليهود في الممالك الأخرى إلى نوع جديد من الاضطهاد أو التشريد مادام قد أصبح لهم موطن يلجأون إليه . وقد حدث فعلاً في ألمانيا ماخشى اليهود أن يكون فإن الحركة العدائية المعروفة ضد اليهود والتي بلغت منتهى شدتها في عهد تفوق النازيين في أوروبا كان من أسبابها فكرة الوطن القومي لليهود .

على أن أهم ما يعترض به على وعد بلفور أن بريطانيا بتصريحها هذا قد أصدرت قراراً سياسياً هاماً في شأن إقليمى دون أى أكثرات بالمبادئ الديمقراطية وأنها أخلت بالوعود التي قطعتها للعرب قبل ذلك بسنتين وكان من أثرها أن قام العرب بزعامة الشريف حسين أمير مكة وأبنائه بثورتهم ضد الأتراك وبتأييد قضية الحلفاء بدمائهم وأرواحهم مقابل الحرية والإستقلال اللذين وعدوا بهما . ثم انتهت الحرب العالمية الأولى وبانتهائها قضى على أربع من الإمبراطوريات الكبرى في العالم — وهي روسيا وألمانيا والنمسا وتركيا — وانساخت منها ما كان يتبع بعضها من ولايات ومستعمرات . وقد أثار ذلك مطامع الدول المنتصرة بعد الحرب ودعاهم إلى التوسع والاستعمار لا في مجاهل افريقية وجزر المحيطات حيث الشعوب البدائية فحسب بل في أوروبا نفسها وفي منطقة ساحل البحر المتوسط

حيث تسكن الشعوب ذات المدنيات القديمة التي كانت تصبو إلى الحرية والاستقلال .

وكان لبريطانيا وفرنسا بحكم تفوقهما في أوروبا وخاصة بعد انسحاب الرئيس ولسون والولايات المتحدة من شئون أوروبا أن يقتسما مناطق النفوذ ويقررا فيما بينهما حدودها ، غير أن تقدم الطيران في العالم وما تمتاز به فلسطين من موقع جغرافي قد يجعلها واسطة الاتصال بين الشمال في تركيا ولبنان وسوريا وبين الجنوب في مصر وبين البحر المتوسط والشرق الذي ينتهي بالعراق وخليج فارس حيث مصالح بريطانيا المؤسسة في البترول الذي تنتجه الشركة الانجليزية الإيرانية في إيران وهي خامس دولة في العالم من حيث انتاج البترول - كان من شأنه ان يجعل بريطانيا تتمسك بأن تنتدب على فلسطين .

وكان نظام الانتداب من النظم الجديدة التي ابتدعتها ميثاق عصبة الأمم وارتبطت به الدول التي اشتركت في مؤتمر الصلح في فرساي إذ وضع الميثاق في مقدمة جميع المعاهدات التي أبرمت حينذاك .

وقد جاء هذا النظام بديلا من سياسة « الضم ، والاستعمار ، التي كانت الدول تسير وفقها قبل الحرب العالمية الأولى فمحا كلمة الاستعمار البغيضة وخاصة في البلاد الناهضة التي كانت تتمتع برقي ظاهر في حياتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وأصبحت الدول المستعمرة تعمل في البلاد المنتدبة لها باسم العصبة وتسال أمام لجنة دائمة في العصبة عن أعمالها في تلك البلاد كما كان عليها أن تقدم للجنة الانتدابات تقارير سنوية عن أحوال البلاد الواقعة تحت انتدابها .

وتنص المادة الثانية والعشرين من الميثاق وهي الخاصة بالانتداب على أنه :
« في حالة الشعوب الراقية التي كانت تحت حكم الأتراك والتي وصات في رقيها إلى درجة تدعو إلى الاعتراف مؤقتاً باستقلالها تقصر مسؤولية الدولة المنتدبة على تقديم المشورة والمساعدة حتى تستطيع تلك الشعوب النهوض بنفسها والوقوف

على قدميها . كما نصت فوق ذلك على وجوب استقصاء رغبات الشعوب كعامل مهم في اختيار الدولة التي تنتدب لهم .

فهل راعت بريطانيا عندما أرادت إعلان انتدابها على فلسطين شيئاً مما نصت عليه هذه المادة ؟

لقد كانت أدنى درجات العدالة بعد أن جلا الأتراك عن البلاد تقتضى بحسب نص المادة التي سبق ذكرها إعلان استقلال البلاد ثم استفتاء أهلها في أى الحكومات تنتدب لمساعدتهم ، وكان على الحلفاء متى تم ذلك أن يتركوا للممثل العرب حق الاتفاق مع اليهود على شروط المهاجرة إلى بلادهم والاقامة بها ، ولكن شيئاً من ذلك لم يحصل . فما كاد الأتراك ينسحبون من البلاد وتدخل جنود اللنبي حتى أقام الانجليز حكومة عسكرية في البلاد وجاءت في أثرهم اللجنة الصهيونية أو الوكالة اليهودية وكثير من الجماعات اليهودية التي كانت تعمل في بلدان أوروبا المختلفة لترويج الدعوة الصهيونية .

وأما استفتاء الشعب في اختيار الدولة التي تنتدب له فإن الحلفاء حين عرفوا أصرار الرئيس ولسون على تكوين لجنة دولية لاستطلاع آراء العرب لم يسعهم سوى الموافقة في الظاهر ولكنهم أهملوا تعيين ممثلهم ، واقتصر الأمر على إيفاد المندوبين الأمريكين كنج وكرين King and Crane فجاء العضوان في أرجاء فلسطين وسوريا ولبنان والعراق وانتهيا إلى نتيجة بررتها التطورات التي حدثت فيما بعد ، ولكنها أهملت في وقتها كما أهمل غيرها من المقترحات والمبادئ التي حملها ولسون معه من العالم الجديد . فقد اقترحت اللجنة بناء على ما جمعت من الآراء وما تحققته من أقوال الشهود أن يتكون اتحاد من سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن بزعامة سوريا وأن تدعى الولايات المتحدة للانتداب مؤقتاً على الدولة الجديدة . فإذا لم تقبل الولايات المتحدة فإن رأى العربى يقبل أن تنتدب بريطانيا . وأما فرنسا فقد نحتها اللجنة عن الانتداب في المنطقة مؤكدة أن تحرياتها بين طبقات الشعب هي التي أقنعتها بالأراء التي ذكرتها .

وقد حذرت اللجنة الدول من فتح باب الهجرة على مصراعيه للصهيونيين كما
فرقت بين حق الصهيونيين في الوطن القومي وبين ادعائهم بشأن إنشاء دولة
صهيونية ، وقالت أن مثل هذه الدولة لا يمكن أن يتم إنشاؤها دون أن تتعرض
حقوق العناصر غير اليهودية لأشد الأخطار سواء من الوجهة الدينية أو المدنية
ولكن الحلفاء لم يلقوا بالا إلى مقترحات اللجنة واعتبروا تقريرها وثيقة
خاصة قدمها المندوبان الأمريكيان إلى الرئيس ولسون خاصة فليس فيها ما يقيدهم .
وعلى ذلك سار الحلفاء في موضوع فلسطين وبلاد المشرق وفق الخطط القديمة
فاستبد مجلس الحلفاء الأعلى المسكون حينذاك من مندوبي إنجلترا وفرنسا وإيطاليا
وقرر في مؤتمر سان ريمو San Remo في أبريل سنة ١٩٢٠ انتداب إنجلترا على
فلسطين وتقدمت إنجلترا إلى مجلس العصبة تطلب إليها أن تبارك هذا الانتداب
بموافقتها . وقد صدر قرار الانتداب في سنة ١٩٢٢ وفي رأس وثيقة الانتداب وعد
بلفور لليهود حتى يكون له من الحرمة والقداسة ما للبعاهدات الدولية وخاصة
بعد أن وافقت عليه كل من الولايات المتحدة وفرنسا وإيطاليا .

ولم تقتصر وثيقة الانتداب على إدماج تصريح بلفور في مقدمتها ولكنها
أشارت في بنودها إلى الهيئة اليهودية غير الرسمية وأضفت عليها صفة ينطبق عليها
الوضع المعروف باللاتينية *imperium in imperio* حكومة داخل حكومة ،
فقد جاء في المادة الرابعة من الوثيقة :

« تعترف حكومة الانتداب بأحدى الوكالات اليهودية كهيئة عمومية
a public body يكون الغرض منها أن تنصح وتعاون الإدارة بفلسطين في
كل ما له علاقة بإنشاء الوطن القومي لليهود من المسائل الاقتصادية
والاجتماعية وغيرها . »

وزادت المادة على ذلك أن جعلت لهذه الهيئة أن تشترك وتتعاون مع
الإدارة وتحت رقابتها في النهوض بمرافق البلاد جميعاً .
ولم يقتصر اشتراك الهيئة الصهيونية في الحكم على تعاونها مع الإدارة الفلسطينية

بل أن المادة المذكورة قد جعلت للهيئة الصهيونية حق التشاور مع حكومة جلالة الملك في لندن رأساً بشأن الاجراءات التي تتخذ لتأمين تعاون جميع اليهود الذين يرغبون في إنشاء الوطن القومي لليهود .

وجاء في المادة السادسة : « أن واجب الادارة في فلسطين أن تيسر هجرة اليهود إلى فلسطين وأن تشجعهم بمعاونة الهيئة الصهيونية على الاقامة بالأراضي بما في ذلك الأراضي البور والأراضي التي تملكها الحكومة . واشترطت الحكومة في تيسير هجرة اليهود ألا يؤثر ذلك في حقوق السكان الآخرين أو يضر بمركزهم . وكذلك تضمنت الوثيقة رعاية الحرية الدينية لجميع الطوائف ،

ومع أنه قد جاء في المادة الثالثة أنه ينبغي أن تشجع الدولة المنتدبة على إقامة حكومة ذاتية في البلاد فإن هذا الشرط قد ولد ميئاً إذ أن الحكومة المنتدبة لم تعتمد إلى تنفيذه الا في سنة ١٩٣٩ قبل قيام الحرب الأخيرة . وقد جاء عدم وفاء إنجلترا بهذا الشرط دليلاً صارخاً على تحيزها لليهود أو تخوفها منهم ذلك لأن قيام الحكم الذاتي كان من شأنه إبراز قوة السكثرة من العرب وتضاؤل شأن الأقلية من اليهود .

وقد كانت خيبة أمل العرب في الانجليز وبأسهم من عدالتهم منذ وضحت نياتهم رسمياً في وثيقة الانتداب من أهم العوامل التي ساعدت على قنوط العرب والجاتهم إلى العنف في ثوراتهم التي ما فتئت تهب وتخبو على اختلاف الظروف طوال عهد الانتداب .

• • •

وما كادت وثيقة الانتداب تمر في مجلس العصبة في سنة ١٩٢٢ حتى بدأ تنفيذها رسمياً في سنة ١٩٢٣ وكانت إنجلترا قبل ذلك قد سارعت إلى إلغاء الإدارة العسكرية في فلسطين وتعيين هربرت صموئيل أحد الوزراء الانجليز من اليهود مندوباً سامياً في فلسطين وقد بقي في منصبه إلى عام ١٩٢٥ . وقد بدأ عمله بداية حسنة إذ استغنى عن كثير من الموظفين الانجليز وعين بدلهم موظفين من العرب واليهود وأنشأ

مجلسا استشاريا من ١٠ بريطانيين و ٤ من المسلمين و ٣ من المسيحيين و ٣ آخرين من اليهود ثم حاول تحويل المجلس الاستشاري إلى مجلس تشريعي تتمثل فيه الطوائف المختلفة فذهبت محاولاته سدى وجعل الأعضاء العرب ينسحبون حتى لم يبق في المجلس الاستشاري غير البريطانيين .

واقترح صموئيل على العرب إنشاء هيئة تمثلهم على نسق الهيئة الصهيونية فرفض العرب مستنكرين أن يعاملوا وهم أصحاب البلاد الحقيقيون على قدم المساواة باليهود اللاجئين إلى بلادهم . وفي عهده تدفقت الأموال اليهودية من كافة أنحاء العالم لتهدد فلسطين بشراء الأراضى من الأهالى والاكثر من إنشاء المستعمرات الزراعية والمؤسسات الصناعية ، وأخذ اليهود امتياز توليد الكهرباء واستخراج البوتاسيوم من البحر الميت ، وظهر أن أرباح تلك العمليات كانت تعود إلى أصحاب الأسهم ومعظمهم من اليهود خارج البلد .

وجاءت مع وفرة الأموال وفود المهاجرين تترى من أوروبا عامة ومن روسيا وبولندا خاصة وأخذت أعدادهم تتضاعف من ٧,٤٠٠ في سنة ١٩٢٣ إلى ١٢٨٠٠ في سنة ١٩٢٤ إلى ٢٣٨٠٠ في سنة ١٩٢٥ وعلى ذلك بدأت مشكلة المهاجرين اليهود وهمى من أعقد مشكلات المسألة الفلسطينية .

وكانت حركة الهجرة كلما ازدادت نشاطا اشتد حنق العرب ولاحت أمامهم صور المستقبل مخيفة مفرعة حين تطغى كثرة اليهود فتزع أراضيمهم من أيديهم وتتحكم في مصائر البلاد بحكم الأثرية ولذلك لم يكن غريبا أن يقوم العرب بثوراتهم المتلاحقة ضد ذلك الطغيان المنظم المتواصل الذى لا يلين ولا يرحم .

وكانما أراد اليهود أن يبرهنوا للعالم أجمع على أنهم جديرون بالوطن الجديد فجعلوا ينافسون الطبيعة ويسابقون الزمن فى منشآتهم وإصلاحاتهم وفى تعمير المدن التى شيدها وأبدعوا تصميمها وفى الصناعات التى أقاموها والمستنقعات التى جففوها والزراعات التى أدخلوها والمدارس والمستشفيات التى أعدها وجهزوها على أحدث الأنماط العلمية . وكانت الحكومة المنتدبة فى كل ذلك هى المرشدة والراعية والحامية .

وليس صحيحاً ما يقال الآن من أن إنجائنا قد فشلت في انتدابها فإن سياستها قد مكنت للبذرة الصهيونية أن تنبت وتنمو وتثبت جذورها في أرض البلاد وهي التي جعلت اللغة العبرية مع اللغتين العربية والانجليزية لغة رسمية وهي التي تركت لهم طريقة استغلال العرب واستخلاص أراضيهم منهم .

بذلك اتسعت أعمال اليهود ونمت مصالحهم في فلسطين ووجدوا تحت أجنحة الوكالة اليهودية الحماية والعطف وأسباب المعاونة ، وأصبح لليهود في فلسطين من الجاه والنفوذ مثل ما كان لحكومة الانتداب في معظم الحالات .

و حين كان التعاون قائماً بين الفريقين لم يكن خطر من جراء هذه المساواة فلما انقطعت أسباب الثقة بين اليهود وحكومة الانتداب صارت هذه المساواة بين السلطين نقمة عمت البلاد ، فقد بطل التعاون وامتنع فريق كبير من الجمهور عن مساعدة حفظة الامن وتعثرت الحكومة في إجراءاتها وتعذر عليها تنفيذ القوانين وكفالة الاحترام لها . ولم يحس اليهود حين انقلبت عليهم الادارة بفقد شيء ذي بال فقد أضعاف تمسهم بالاستقلال في نواح كثيرة كل أثر لسلطة الحكومة القائمة بالأمر .

وكأنما كان هذا الاستقلال النوعي الذي نعم به اليهود في فلسطين لأول مرة بعد قرون طويلة قضاها في بلادهم الأصلية رازحين تحت ألوان مختلفة من القيود والأغلال سدياً إلى تنبيه شهوة الانتقام في نفوسهم من الغير ، فاجتنبوا العرب ولم يبذلوا أية محاولة جدية لمشاركتهم أو التعاون معهم في شيء ، على حين تنتظمهم جميعاً دولة واحدة وتحويهم بيئة واحدة وتظلهم مصالح بلاد واحدة . ولكن عزلة اليهود التي نشأوا عليها منذ كانوا والتي عرفت عنهم في معظم البلاد التي آووا إليها ظلت ملازمة لهم حتى بعد أن سمحت لهم الاقدار بما أوى قومي في فلسطين . فقد حرموا استخدام العرب في الأراضي التي يشترونها منهم كما منعوا إعادة انتقال الأراضي بالبيع إلى العرب وحظروا انتفاع العرب بأي جزء من

اموال الحركة الصهيونية ، ولو استطاعوا منع العرب من الانتفاع بالمنافع العامة التي نشأت ما تورعوا عن ذلك .

حتى الجامعة التي أنشأوها على مقربة من القدس وهي الجامعة الوحيدة في البلاد قد آثروا أن يكون التعليم فيها باللغة العبرية وبذلك أغلقوا باب التعليم العربي في وجه العرب جميعاً مسلمين ومسيحيين فاضطروا إلى تحمل نفقات التعليم خارج فلسطين في مصر أو لبنان أو جامعات الغرب . وقد يسأل سائل : كيف سمحت حكومة الانتداب في لائحة إنشاء الجامعة العبرية أن يقصر التعليم فيها على استعمال اللغة العبرية في بلاد قررت الحكومة نفسها أن تكون اللغات الرسمية فيها هي العربية والانجليزية والعبرية ؟ ولسكن من ذا يجيب ؟

ومن سوء طالع العرب في ذلك الوقت أنهم كانوا يعملون فرادى فلم تكن لهم هيئات داخلية منظمة تسهر على مصالحهم ولا حكومات عربية مستقلة ترعى شئونهم وتسد ظهورهم ، فكانوا مقطوعين عن اخوانهم العرب في البلاد الأخرى كما كانوا حيارى مأخوذين مشدوهين بما يجري على مرأى ومسمع منهم ، فقد رأوا كيف هاجم الفرنسيون الملك فيصل وطاردوه هو واتباعه حتى أجلوه عن سوريا ولم يرعوا في ذلك ذمة ولا عهداً مما سبق أن عاهدوا عليه العرب منذ كان فيصل يقود جمعهم لنصرة قضية الحلفاء في الشرق ، ورأوا الانجليز يدخلون العراق ويحكمونه حكماً عسكرياً ، ورأوا مصر تتور وتكافح في سبيل استقلالها والانجليز لا يزالون مسيطرين فيها . وأدهى من ذلك وأمر أن العرب لم يكن من ورائهم حكومات مستقلة تسندهم وتشد أزهم اللهم إلا حكومة الحجاز وكانت في غمرة من حروبها ومنازعاتها الداخلية بين الأسرتين المتزعمتين في شبه الجزيرة الآسرة الهاشمية والآسرة السعودية . لذلك كله أسقط في يد العرب الفلسطينيين ولم يسعهم إلا أن يتربصوا بعدوم الدوائر مترقبين أن تحين الفرصة للإنتقام من اللذين خانوا موافيقهم وإذلوهم في ديارهم .

وجاءت الفرص على فترات متعاقبة فكلما قامت ثورة أو حركة وطنية في إحدى

البلاد العربية تشجع العرب في فلسطين وقاموا بناو ثون الإستعمار الصهيوني الذي أوشك أن يقضى على كثرتهم ويستحوذ على أملاكهم وديارهم فثاروا عندما شبت ثورة العراق ضد الأنجليز في سنة ١٩٢٠ وحين شبت الثورة في سوريا ضد الفرنسيين سنة ١٩٢٥ . واستمد العرب من المعاهدة الأنجليزية العراقية في ١٩٣١ التي ضمننت للعراق إستقلاله وقبوله في عصبة الأمم على قدم المساواة مع سائر الدول المستقلة روحا جديدة للسكفاح والنضال .

ولسكن هذه الجهود جميعها ذهبت هباء وإستطاعت حكومة الإنتداب بما لها من بأس وقوة أن تقمع الثورات العربية وتؤيد نظام الإنتداب في البلاد . وبدلا من أن تضعف الروح الصهيونية وتقف عند حد في مطامعها إجتاحت البلاد على أثر ظهور الثورة النازية في ألمانيا ووسط أوروبا عواصف جديدة ، إذ نزحت إلى فلسطين آلاف مؤلفة من اليهود الذين اضطهدهم النازيون وأخرجوهم من ديارهم فجاءوا بأسرهم إلى أرض المعاد حاملين معهم ثرواتهم وكفالياتهم ، فدخل بعضهم عن طريق الهجرة المشروعة وأنسل كثيرون إلى داخل البلاد خلسة وفي غفلة من القانون أو تغافل من القائمين على تنفيذه . وبعد أن كان عدد المهاجرين سنويا من اليهود يتراوح بين ٤٠٠٠ في سنة ١٩٣١ و ٩٥٠٠ سنة ١٩٣٣ قفز عددهم في سنة ١٩٣٤ إلى ٤٦٠٠٠ مهاجر وفي عام ١٩٤٥ بلغ عددهم أكثر من ٦٠٠٠٠ مهاجر . وترى في الجدول الآتي عدد اليهود الذين هاجروا إلى فلسطين بين سنتي ١٩١٩ و ١٩٣٧ من البلاد المختلفة والنسبة المئوية لكل دولة :

الدولة	عدد المهاجرين	النسبة المئوية
بولندا	١٣١٢٤٩	٤٢ .%
ألمانيا	٢٥٣٤٦	١١ .%
روسيا	٣٠٧١٨	١٥ .%
رومانيا	١٥٥٢٨	٥ .%

ويلى ذلك المهاجرون من لتوانيا واليمن والولايات المتحدة وجهات متفرقة .

ويلاحظ أن معظم المهاجرين وفدوا من بولنده وأوربا الشرقية . أما يهود غرب اوربا المقيمون في إنجلترا وبلجيكا الخ ... فقد أندمجوا في الشعوب التي يقيمون بين ظهرانيهم وتجنسوا بجنسياتهم وليس مما ينفعهم أن ينزلوا عن المزايا التي يتمتعون بها في تلك البلاد ، وكل ما يهمهم من الحركة الصهيونية أن يمدوها بأموالهم وبنفوذهم السياسي والأدبي .

ولم يقتصر الخطر على تفاقم مشكلة المهاجرين بل أن تحولا خطيراً قد طرأ على المعركة الصهيونية نفسها وجعلها حركة عالمية تشمل يهود العالم كله . وقد كان اليهود إلى وقت قريب منقسمين يؤيد بعضهم حركة الوطن القومي لليهود في فلسطين، ويرى الآخرون أن إنشاء الوطن القومي أو الدولة اليهودية كما يؤيدها الصهيونيون سيعرض اليهود المتجنسين بالجنسيات الأجنبية في البلاد المختلفة لأخطار مؤكدة إذ يجعلهم في نظر مواطنيهم كأنهم أجنباء مبعدون عن دولتهم وقد تعتمد بعض الحكومات إلى تجريد اليهود فيها من جنسية البلاد التي ولدوا وعاشوا فيها وقد يؤدي ذلك كله إلى اضطهادات جديدة ضد اليهود . وكان معظم المعارضين لفكرة الدولة اليهودية من أهالي بريطانيا والولايات المتحدة .

فلما جاءت سنة ١٩٢٩ ورأى اليهود ما أصابته سياسة الوطن القومي في فلسطين من النجاح الفكري والاقتصادي حتى بلغ عدد اليهود فيها نحو ١٦٠.٠٠٠ بعد أن كان عددهم لا يزيد على ٨٥.٠٠٠ في سنة ١٩١٤ و ١٠٠.٠٠٠ في سنة ١٩١٩ انكسرت حدة الخلاف بين الفريقين وتقرر في المؤتمرات الصهيونية أن يتناسى الفريقان ما بينهما من خلاف ويوحدا جهودهما وأن تكون لجانهم في المستقبل من أعضاء متساويين من الفريقين وأن يعمل الجميع قلباً واحداً ويداً واحدة لتحقيق أغراض اليهود في فلسطين ، وبذلك استمدت الحرب الصهيونية العون والمال من أمريكا وهولنده وسائر بلاد العالم وأنشأوا لهم في مختلف البلاد شعباً ووكالات علنية أو سرية على اختلاف موقف الحكومات إزاءهم . وأصبح للصهيونيين بفضل زعيمهم ويزمان قوة ونفوذ في العالم شبيه بقوة الدول والحكومات المستقلة ذات السيادة .

لذلك لم يكن غريباً أن يقوم العرب في فلسطين بثورتهم الكبرى سنة ١٩٣٦ بعد أن أحسوا أن الصهيونيين يريدون أن يقتلعوا العرب من ديارهم أو أن يواصلوا هجرتهم المشروعة وغير المشروعة حتى يصلوا إلى السكثرة العددية في البلاد وحينئذ لا يضيرهم أن تنال البلاد الاستقلال الذاتي أو الكامل ما دامت السكثرة إلى جانبهم . أما قبل أن تتوفر لهم السكثرة فبعداً للاستقلال الذاتي وسحقاً للجانس أو الجمعيات التشريعية أو الاستشارية أو نحو ذلك مما اقترحه اللجان التي ألفتها الحكومة الانجليزية لبحث أسباب ثورات العرب وطوى إلى غير رجعة لمعاونة الصهيونيين .

وفي سنة ١٩٣٥ - ١٩٣٦ اكفهر الجو الدولي العام على أثر هجوم إيطاليا على الحبشة وتحديها لبريطانيا ومن ورائها عصبة الأمم وأيقن الجميع أن خرافة التأمين الجمعي التي جاء بها ميثاق العصبة لم تعد تكفي لتأمين الشعوب على حرياتهم واستقلالهم ، وأن الواجب الوطني يقتضى الشعوب أن تعتمد على نفسها وتأخذ الأهبة للدفاع عن حرياتهم ، فقامت تركيا تعلن عزمها على تحصين المضائق وتسليحها ، وقامت مصر قومة رجل واحد تطالب إنجلترا في جبهة وطنية متحدة أن تعقد معها معاهدة تصون استقلالها . ومن مصر امتدت المعركة إلى بلدان الشرق فقام العرب في فلسطين متحدين يذودون عن حقوقهم ، وقد أحسن الزعماء قيادة الحركة فواصل العرب كفاحهم بعزم وقوة ، وكان من أروع مظاهر ثورتهم إضرابهم العام ستة أشهر وقيام عصابات من بينهم للسكر والفر يقودها رؤساء مدربون شجعان قد اتخذوا قواعدهم في مكامن الجبال والوهاد وظلوا يواصلون غزواتهم غير آبهين بجيوش العدو ودباباته وطائراته .

وكان من أثر هذه الثورة الكبرى أن تنبه الانجليز آخر الأمر إلى أن للعرب حقوقاً قد ديسست وافئات عليها اليهود . وما كان الانجليز يجهلون ذلك يوماً ولكن تطورات السياسة العالمية بعد سنة ١٩٢٥ حين تحدثت إيطاليا وبريطانيا ومعها عصبة الأمم قد أجبرت الانجليز على مواجهة الحقائق لاني فلسطين لحسب بل في تركيا

والبلقان وفي مصر كذلك حيث سارعت بعقد معاهدة سنة ١٩٣٦ .
فقد اقتنع الانجليز أخيرا أن تحدى إيطاليا وألمانيا للعصبة وللوائح الدولية
لا بد أن يؤدي آجلا أو عاجلا إلى الحرب وأن مبدأ التأمين الجمعي أو التعويل
على ميثاق عصبة الأمم لم يعد واقيا منها أو مانعا لها مهما تبدلت الأحوال فأخذت
انجلترا تقرر الاعتمادات المالية الكبرى لتقوية أسلحة الحرب المختلفة ، ورأت
أن تدعم مركزها في شرق البحر المتوسط خاصة تاركة الجزء الغربي منه لفرنسا
ولها قواعدا الحصينة على سواحل أفريقية الشمالية . وقدرت بريطانيا في سياستها
أن صداقة العرب في الشرق ستكون خير درع لها تتقي به هجمات الفاشية والنازية
في تلك الأرجاء . وإذا كانت إنجلترا قد فرضت عليها الضروريات في الحرب
العالمية الأولى أن تتحجب إلى العرب وتسعى إلى مرضاتهم وحدها ودون علم
من حلفائها لتستميلهم إلى جانب الحلفاء ولم يكن للعرب إذ ذاك دول ولا جيوش
ولا سلطان فكيف بها الآن وقد أضحت للعرب دول وبأس وجيوش قوية وصار
لبعضهم كصر والعراق منتجات وإمدادات من البترول لا تنضب ، بعضها يصل
إلى السويس وأهمها متصل بأنايب ممتدة من آبار كركوك والموصل بالعراق
إلى حيفا وطرابلس ويحرسها العرب في العراق وسوريا وشرق الأردن وفلسطين .
لذلك بدأت الحكومة الانجليزية تنظر إلى المستقبل بعين الحذر واليقظة وتخشى
أن تفاجئها الحرب فتواجه ثورة دامية على أبواب الشرق الأوسط فسارعت
في سنة ١٩٣٦ بتأليف لجنة لورد بيل Peel لبحث الحالة في فلسطين
والتقدم بمقترحاتها .

وقد اضطلعت اللجنة بهمة وكفاية جديرتين بالتنويه ولكنها مع الأسف
أخطأت في قراراتها النهائية إذ جعلت للصهيونيين حقا مساويا للعرب فحولت
الوطن القومي لليهود إلى دولة سياسية لها كيائها الخاص وقسمت البلاد التي لا تزيد
مساحتها على ١٠٤٢٩ ميلا مربعا والتي يبلغ عدد سكانها ١٠٤٠٠٠٠٠ نفس
إلى ثلاثة أقسام :

القسم الساحلي ومن خلفه السهول الخصبة وقد جعلته لليهود وتركت فيه أقلية عربية تكاد تتساوى في عددها مع اليهود وبه ميناء حيفا وعكا .
وخصصت للعرب الجزء الداخلي على أن ينضم إلى شرق الأردن ويكون معها دولة واحدة تفصل الدولة اليهودية المقترحة بينها وبين سوريا ولبنان كما تفصل تلك الدولة بينها وبين ساحل البحر اللهم إلا امر ضيق يؤدي إلى يافا .
وأبقت الأماكن المقدسة في القدس وبيت لحم والناصرية تحت حكم الدولة المنتدبة مباشرة على أن ترتبط الدولتان العربية واليهودية اللتان اقترحتهما اللجنة مع الحكومة الإنجليزية بمعاهدتين منفصلتين تضطلع فيهما إنجلترا بمهمة الانتداب .
وهذه المقترحات شديدة في مجموعها بمقترحات الكونت برنادوت التي قدمها لهيئة الأمم المتحدة قبل وفاته .

وما كادت محتويات التقرير تزداع حتى استنكر العرب على اختلاف أحزابهم تقسيم بلادهم ورفضوا قبوله بناتا . أما اليهود فقد لقي التقرير من بينهم فئة تحبذ قبول مقترحاته وقد قر مؤتمهم الذي اجتمع في زيورخ بسويسرا في اغسطس سنة ١٩٣٨ تأييد ويزمان في اقتراحه أن يواصل اليهود مفاوضاتهم بشأن التقسيم مع رجال الحكومة البريطانية بقصد الوقوف على التفصيلات المقترحة لانشاء الدولة اليهودية .

وهذا الموقف المتباين بين العرب واليهود بشأن تقسيم فلسطين يذكرنا بالقصة المعروفة عن المرأتين اللتين احتكما إلى سليمان الحكيم بشأن بنوة طفل كانتا تتنازعاها فلما استمع سليمان إلى حكاية المرأتين رأى بحكمته أن خير وسيلة للتعرف على أم الطفل الحقيقية ان أمر بقسمة الطفل قسمين لكل منهما نصف فقبلت إحدى المرأتين القسمة وأما الأم التي خافت أن تشكل ابنها فصرخت في وجه الملك وآثرت النزول عن حقها ابقاء على حياة ابنها .

وكانت الحكومة الإنجليزية في أول الأمر تؤيد فكرة التقسيم فلما عرض التقرير على مجلس العموم قرر المجلس عرض الاقتراح على لجنة الانتدابات

بعضبة الأمم وقد أقرت هذه اللجنة المشروع مبدئياً مؤيدة بقاء الانتداب على الدولتين وارجاء استقلالهما مؤقتاً وطلبت إلى الحكومة الانجليزية عرض البيانات اللازمة لتنفيذ فكرة التقسيم . فألفت الحكومة لجنة فنية برئاسة وودهد Woodhead لدراسة مشروع التقسيم .

وفي أثناء ذلك تجددت الاضطرابات في فلسطين واستأنف العرب ثورتهم أشد مما كانت عليه قبل ظهور تقرير اللجنة وقد استمدوا من بعض فقراته مبررات لكفاحهم وعنهم قتمادوا في حركتهم حتى بلغ عدد من قتل من سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٣٩ : ١٧٩١ وعدد الجرحى ٣٢٨٨ وفقد العرب نحو ألفي نفس . وحدث أن هوجم نائب الحاكم الانجليزي لأحد الأقسام في الناصرة وقتل أمام الكنيسة الانجليزية فلم تطق الحكومة صبرا على ذلك وأصدرت في اكتوبر سنة ١٩٣٨ قراراً بحل اللجنة العربية العليا والغاء وظيفة المفتي زعيم العرب في فلسطين والقبض على بعض زعماء العرب . فتمكن الزعيم الفلسطيني وآخرون من الفرار إلى لبنان ومنه إلى العراق فكان يباشر من منفاه سير القضية خطوة خطوة . أما الزعماء الآخرون فقد نفوا إلى سيشل بالمحيط الهندي ثم نقل بعضهم إلى روديسيا بجنوب أفريقيا في أثناء الحرب الأخيرة ولم يفرج عنهم إلا بعد نهاية الحرب .

وكانت لجنة وودهد قد فرغت من عملها فظهر لها من الصعاب في طريقة تنفيذ اقتراح القسمة ما حملها وحمل الحكومة على أن تعدل عن فكرة التقسيم . وقد أعادت الحكومة الإنجليزية بعد الحرب بحث فكرة التقسيم مرة أخرى ، ولكن العرب أصروا على رفض التقسيم كلفا كان واثقين أن اليهود لن يقفوا عند الحدود التي توضع لهم ، وأن دولة تحكها هيئة عالمية ووطنية في وقت واحد كاهيئة الصهيونية لا بد أن تتسع وتنمو مع الزمن ومع توالي الهجرة وتدفق رؤوس الأموال من يهود العالم بأجمعه فتصبح مصدر خطر لا على الدولة العربية الشريكة فحسب بل على الدول العربية وغير العربية المناخمة جميعاً وخينئذ لا يقتصر خطر

الدولة الصهيونية على الناحية الحربية بل يشمل النواحي الاقتصادية والثقافية والايديولوجية. ولا ننسى أن نحو نصف يهود العالم روسيون أو بولنديون مولداً وأن الزعيم اليهودي الشهير ويزمان ولد وترعرع في ظل روسيا، وأن لروسيا كما لغيرها مطامع تصبو إلى تحقيقها في الشرق الأوسط، فإذا ما قامت دولة لليهود في الشرق الأوسط ووقفت كقاصمة الظهر وسط بنيان الدول العربية لا يلبث الروس أو غيرهم من الدول الكبرى أن يتخذوا منها رأساً للرمح الذي يقتحمون به الميدان الجديد.

وكانت الأزمه السياسية الأوربية قد بلغت منتهىها في سنة ١٩٣٩ وباتت الحرب على الأبواب فقررت الحكومة الإنجليزية أن تنظم مؤتمراً في لندن يدعى إليه كل من العرب واليهود على انفراد، ومتى وصل الفريقان إلى حل ترتضيه الحكومة الإنجليزية ويرتضونه جميعاً اجتمعت العناصر الثلاثة في مؤتمر واحد للاتفاق النهائي. وقد قررت الحكومة الإنجليزية أن تدعو إلى هذا المؤتمر الدول العربية المستقلة حينذاك؛ وكان اشترك هذه الحكومات في المؤتمر أول اختبار دولي ظهرت فيه قوة الدول العربية مجتمعة.

ولقد لبى الدعوة إلى المؤتمر ممثلو الدول العربية بمصر والعراق والمملكة العربية السعودية وشرق الأردن واليمن. أما عرب فلسطين فكانوا في وضع شاذ إذ كان زعمائهم منفيين مشردين خارج بلادهم فعارض العرب في حضور المؤتمر ما لم يمثلهم فيه الزعيم الفلسطيني أمين الحسيني ثم ارتضوا أخيراً إرسال اثنين من زعمائهم وقد استجابت الحكومة الإنجليزية إلى بعض طلباتهم فأفرجت عن المنفيين في سيشل وتركت لهم حرية الإقامة خارج فلسطين.

واجتمع المؤتمر في يناير سنة ١٩٣٩ وظل قائماً إلى شهر مارس دون أن ينتهوا؛ فيه إلى قرارات حاسمة. وكان الجو الدولي قد أخذ يتلبد بالغيوم فسارعت إنجلترا إلى فض المؤتمر وأرادت أن تضع الفريقين أمام الأمر الواقع قبل نشوب الحرب فأصدرت

في ١٧ مايو سنة ١٩٣٩ كتابا أبيض نال موافقة البرلمان الانجليزي وفيه قرر وزير المستعمرات حل المشكلة على الأسس الآتية: أعلنت الحكومة الانجليزية صراحة أنه ليس من خططها السياسية تكوين دولة يهودية في فلسطين كما نفت الدعوى التي استمدها العرب من خطاب ماكماهون والتي تقوم على ضم فلسطين إلى الدولة العربية. وصرحت أن الهدف الذي تعمل له بريطانيا إنما هو تكوين حكومة مستقلة لفلسطين من الجنسين العربي واليهودي بحيث تؤمن في هذه الحكومة مصالح الفريقين. ويكون إنشاء هذه الحكومة المستقلة في مدى عشر سنين وعلى أساس معاهدة تعقد مع بريطانيا وتسان بها مصالح البلدين من الوجهتين الاستراتيجية والتجارية. ولتحقيق هذا الغرض ستعمل الحكومة على أن يضطلع الوطنيون الفلسطينيون بنصيب أكبر من المسؤولية. ومتى استقر النظام والأمن في البلاد عهد إلى أهل فلسطين بإدارة مصالح الحكومة بإرشاد مستشارين من الانجليز وتحت رقابة المندوب السامي ومن هذه النواة يتألف في المستقبل مجلس الوزراء. وبعد خمس سنوات من استقرار الأمن في البلاد تجتمع لجنة تمثل مندوبي الشعب الفلسطيني وحكومة جلالة الملك لوضع الدستور اللازم للبلاد. فاذا حدث ما يضطر الحكومة إلى تأجيل إنشاء حكومة مستقلة للبلاد تشاورت بريطانيا مع مندوب الشعب الفلسطيني ومجلس عصبة الأمم والدول العربية قبل تنفيذ قرار التأجيل.

وقد قرر الكتاب الأبيض بشأن هجرة اليهود وهي موضوع شكوى العرب الصارخة أن يسمح بدخول ٧٥٠٠٠ مهاجر يهودي بمعدل ١٠٠٠٠ كل عام في مدى خمس سنوات يضاف إليهم ٢٥٠٠٠ مهاجر هو نصيب فلسطين من مشردى حكومة النازي أخيراً.

أما مسألة الأراضي فقد عاجلها الكتاب الأبيض بتحريم بيع الأراضي لليهود في المناطق التي يزدحم فيها السكان والتي لا سبيل إلى إصلاح أراضيها. وحدد مناطق أخرى يجوز فيها البيع بإشراف الحكومة إذا كان البيع لفائدة الفريقين وعين مناطق أخرى يجوز فيها البيع اطلاقاً.

وقد استقبل العرب الكتاب الأبيض بكثير من التوجس يتردد بين السخط والرضاء . أما اليهود فقد رفضوه رفضاً باتاً لأنه عاد بهم إلى نظرية الوطن القومي في فلسطين وتبديد الفكرة التي نبتت وأورقت في أذهان اليهود منذ الانتداب وهي فكرة انشاء الدولة اليهودية في فلسطين .

وقد ظهر سخط اليهود على سياسة الكتاب الأبيض في القرار الذي اتخذته لجنة الانتدابات في عصبة الأمم فقد رفضته بسبعة أصوات ضد أربعة . ولكن الحكومة الانجليزية لم تلق بالاً إلى هذا الرفض وسارت في سياستها وفق الكتاب الأبيض .

ويعتبر ظهور الكتاب الأبيض بالنسبة لليهود خاتمة لمرحلة التعاون مع دولة الانتداب ومبدأ لمرحلة العداء المستحکم ضد الانجليز . وقد أدركت الوكالة الصهيونية وشعبها في العالم مبلغ ما ينتظرها من الكفاح في سبيل نقض قرارات الكتاب الأبيض فجعلت تستعد لذلك استعداداً محکم الحلقات . وأول ما لجأت إليه الاحتيال على تفادي تطبيق قانون نقل الاراضي لسنة ١٩٤٠ فكان اليهود يلجأون إلى وضع أيديهم على الاراضي التي يتفقون على شرائها دون الدخول في اجراءات البيع اعتماداً على أنه إذا انقضت المدة المقررة في القانون لحق واضع اليد في التملك وهي عشر سنوات أصبحت الارض ملكاً لهم . أما الخطط التي رسموها لنقل المهاجرين سرأ فقد ظهر بعد الحرب انها خطط دولية محكمة اتفق عليها الصهيونيين في البلاد المختلفة لتيسير نقل اليهود أو تهريبهم إلى فلسطين دون أى اكتراث بالدولة المنتدبة أو بمصالح أهل البلاد وسكانها أو بالقوانين المرعية فيها .

لم تمض بضعة أسابيع على ظهور الكتاب الأبيض في مايو سنة ١٩٣٩ حتى اندلعت نيران الحرب الأخيرة وأصبحت حاجة انجلترا إلى معاونة الفريقين شديدة . فعمدت إلى ترضية اليهود باغفال ما أغضبهم من قرارات

الكتاب الأبيض واستغلت مصانعهم وعمالهم الفنيين في الانتاج وتطوع منهم آلاف في صفوف القوات المحاربة حتى وصل عددهم إلى نحو ستة وعشرين ألفاً يعملون في مختلف الوحدات .

وأوقف العرب نشاطهم الثوري كذلك وانضم عدد منهم إلى صفوف الحلفاء ولكنهم لم يبلغوا نسبة اليهود فلم يزد عددهم على اثني عشر ألفاً .

وليس لانجلترا أن تقارن بين نصيب العرب ونصيب اليهود في الحرب العالمية الثانية فحسب العرب أنهم أدخلوا إلى السكون وعاونوا في الحرب ضد قوات حكومة فيشي في سوريا ولبنان وساعدوا على احباط مساعي المحور فلم يخفوا لمعاونة الثوار في العراق واحراج مركز الحلفاء في الشرق الأوسط .

أما اليهود فقد كان لهم قبل الحرب قوات مدربة للقتال أو لحفظ النظام في فلسطين فلما أعلنت الحرب انضمت هذه القوات إلى صفوف الحلفاء . وباليتم ما انضموا إلى الحلفاء فقد اتخذوا من انضمامهم ستاراً أخفوا وراءه نيات إجرامية مبيتة ، واهتبلوها فرصة للتمرن على استعمال الأسلحة المختلفة وأدخروا من السلاح والذخيرة الحربية كميات هائلة ظهر أثرها في أعقاب الحرب حتى الأغذية وغيرها من أنواع المساعدات التي كانت تقدمها لجنة الترفيه الدولية العالمية كانت تستغل وتستخدم لفائدة اليهود وخاصة لفائدة العناصر التي رأوا أن تنقل سرّاً من أوروبا إلى فلسطين بعد الحرب للانخراط في سلك الحركة الإرهابية اليهودية التي بدأت في أعقاب الحرب الأخيرة .

وبدأوا حملتهم ضد وقف الهجرة بجميع الوسائل المشروعة وغير المشروعة ولم تهدأ حركة الهجرة القهرية إلا حينما أصدرت الحكومة الانجليزية على الابحار بالمهاجرين إلى معسكرات أعدتها لهم في قبرص وشرق أفريقيا عند ذلك فت في ساعد اليهود حين عرفوا أن الهدف للهجرة هو قبرص لا فلسطين العزيزة .

ولا ننسى أن الحرب انتهت بتفوق أمريكا . والولايات المتحدة بحزبها الديمقراطي والجمهوري على صلات طيبة بالصهيونيين فظنوا أن الفرص قد واتتهم

لمهاجمة الانجليز معتمدين على سكوت روسيا ومعاضدة الولايات المتحدة وفيها أربعة ملايين ونصف ومليون يهودى يتبرعون للحركة الصهيونية سنويا بما لا يقل عن خمسة ملايين ونصف من الدولارات .

وقد أصبح لليهود بعد الحرب جيش سرى مدرب يعرف « بالهاجانا » ومعناها « الدفاع » وقد استطاعوا أن يسلحوا أنفسهم بما أتاح لهم اشتراكهم فى الحرب أن يحصلوا عليه من أنواع الأسلحة وبما صنعه الأرهاييون فى مصانع سرية خاصة أو جمعوه خلسة فى الداخل والخارج ، ولهم فى مختلف المستعمرات الزراعية التى أنشأوها فى فلسطين مخابىء ومخازن زودوها بمختلف الأسلحة والذخيرة استعدادا للكفاح فى الوقت المناسب ، وكانت الحكومة قد سمحت لتلك المستعمرات فى أثناء الثورات العربية أن يتخذوا قوات بوليسية فسهل على اليهود تحويل تلك القوات البوليسية إلى وحدات حربية .

وقد بلغ عدد المنتسبين إلى فئة الهاجانا نحو ١٠ الف يهودى . وقد كوفح أفراد هذه الفئة عقب صدور الكتاب الأبيض ، ولكن الحرب اعطت اليهود الفرصة الذهبية للاستعداد الحربى فقد دربوهم على حرب العصابات فى الجبال وانشأوا منهم فرقة للفدائيين أو السكوماندو واستخدمهم الحلفاء فى مختلف الميادين . فلما انتهت الحرب عاد الحظر على جماعة الهاجانا فنشطت المؤامرات والاعتداءات السرية وظهرت شعب ارهابية لم تعجبها سياسة الهاجانا المنظمة ، فنشأت جماعات أكثر جرأة وأشد عنفا وفتكا مثل جماعة اشترن Stern وهو اسم الطالب الشاب الذى تزعم الشعبة وقتل فى أثناء مقاومته البوليس فى بعض الحوادث . ومن أعضاء هذه الشعبة الشابان اليهوديان اللذان اغتالا فى القاهرة لورد موين Moyne الوزير الانجليزى فى الشرق الأوسط وتابعه فى يناير سنة ١٩٤٥ ومنهم من حاول قتل المندوب السامى البريطانى فى فلسطين ومنهم قتلة السكوت برنادوت وسيط هيئة الأمم المتحدة فى ١٧ سبتمبر سنة ١٩٤٨ .

وليس ادل على حقيقة شعور اليهود حتى المسئولين منهم نحو الحركة الارهابية

عما جاء على لسان زعمائهم أمام لجنة التحقيق الامريكىة الانجليزية فقد أبدوا
اسفهم الشديد للاعمال الارهابية التي ترتكب ولسكن واحدا منهم لم يبد استهجانا
لهذه الاعمال أو يتمنى زوالها بل تلبس لهم زعمائهم الأعذار . ولا عبرة باعلان
تبرؤ وكالة اليهود من أعمال الارهابيين ولا باختلاف الرأى بين المعتدلين منهم
والمتطرفين فالجميع سواء منهم المعتدلون والمتطرفون يلتقون عند هدف واحد
وهو فتح باب الهجرة إلى دولة اسرائيل المزعومة على مصراعيه حتى تكون لهم
السكثرة الساحقة في البلاد .

ولسكن بريطانيا وقفت عند رأياها الذي اذاعته في ١٩٣٩ / ١٩٤٠ واحترمت
نصوص الكتاب الأبيض ، فلما أعلن مستر ترومان Truman رئيس الولايات
المتحدة رغبته إلى رئيس الحكومة البريطانية في الترخيص بهجرة ١٠٠.٠٠٠ يهودى
إلى فلسطين تفريجا لازمة لليهود المشردين في أوروبا من جهة واستمالة للرأى اليهودى
الامريكى من جهة أخرى رأت حكومة العمال الانجليزية التي تولت الحكم عقب انتهاء
الحرب في صيف ١٩٤٥ أن الفرصة قد سنحت لاعلان رأياها في مسألة فلسطين .
وصرح مستر بيفن Bevin وزير الخارجية الانجليزية أن موضوع فلسطين قد أثار
اهتماما خاصا فى امريكا وبريطانيا وفى املاك الدولة البريطانية كما أثار اهتمام الدول
العربية المجاورة ونحو تسعين مليونا من مسلمى الهند ، وبما أن حكومة الولايات
المتحدة قد طلبت من الحكومة الانجليزية إلا يتخذ قرارنهاى بشأن النظام الاساسى
فى فلسطين إلا بعد التشاور التام مع العرب واليهود فقد وجهت الحكومة الانجليزية
الدعوة إلى الولايات المتحدة للتعاون معها فى تكوين لجنة مشتركة لبحث الحالة
فى فلسطين من الوجهات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وتأثير هذه الحال فى
مسائل هجرة اليهود واقامتهم فى فلسطين ورفاهية السكان الحاليين .

على أن مستر بيفن لم يجرؤ على حظر الهجرة فإشار فى خطابه إلى استمرار قبول
المهاجرين بصفة مؤقتة حتى تتهى اللجنة المشتركة من تقديم تقريرها وقد حدد عدد

المهاجرين الذين يقبلون بمعدل ١٥٠٠ شهريا . كما أشار إلى امكان تحويل الانتداب على فلسطين إلى وصاية وفقا لميثاق هيئة الأمم المتحدة . وكان اعلان انجلترا لهذه السياسة الجديدة سبباً في اثارة النشاط السياسي بين العرب فعملوا على اعادة تكوين اللجنة العربية العليا في ديسمبر سنة ١٩٤٥ . وكان أول أثارها أن أرسلت ردها على مذكرة الحكومة البريطانية . وقد جاء فيه :
« ان الكلمة الأولى والأخيرة في قضية فلسطين ومصيرها هي للشعب العربي الفلسطيني الذي يعتز بعطف الحكومات العربية عليه . . . والذي لا يعترف بأية دولة أجنبية أو أي شعب غريب بأي حق في تقرير مصيره ومصير بلاده . . »

وفي مايو سنة ١٩٤٦ صدر تقرير اللجنة الانجليزية الأمريكية بعد تحقيقات وزيارات قامت بها اللجنة في أوروبا وبلاد الشرق الأوسط فجاء التقرير حملاً جديداً فوق أحمال من التقارير العديدة السابقة التي وضعت على الرف ولم يعمل بها . وامتاز هذا التقرير على سوابقه بأنه لم يظفر بشيء من الرضا عند أحد المتنازعين ويظهر أن رئيس اللجنة القاضي الأمريكي هتشسون أراد أن يصدر وثيقة يبرر فيها طلب الرئيس ترومان بشأن الهجرة فجاء التقرير مؤيداً لنظرية الصهيونيين في حرية الهجرة وحرية امتلاك الأراضي ولكنه خذلهم في فكرة الدولة الصهيونية وهذا كل ما فيه مما يلائم سياسة العرب إلى حد ما . فقد صرحت اللجنة انه يجب ألا يسيطر اليهود على العرب ولا العرب على اليهود وان فلسطين لن تكون لليهود ولا للعرب ولكن للعالم اجمع لليهود والمسيحيين والمسلمين وأن تتولى الوصاية عليها هيئة الأمم المتحدة .

واستقبلت الحكومة الانجليزية التقرير بما يستحق من الاغضاء والصمت بل انها حاولت أن تفكر من جديد في تنفيذ تقرير التقسيم الذي اقترحتة لجنة بيل Peel سنة ١٩٣٧ وبدأت الحكومة الانجليزية تدعو إليها زعماء العرب واليهود للوقوف على آرائهم النهائية بشأن موضوع النزاع . فلما أعيها الحيل معهم أعلن مستر بيفن في فبراير سنة ١٩٤٧ ان محادثاته مع العرب والهيئة الصهيونية

لم تأت بنتيجة وان المشكلة القائمة لا يمكن حلها بالمفاوضة مع الفريقين كما أنه ليس لحكومة جلالة الملك تحت نظام الانتداب أن تعطى لفلسطين لليهود أو للعرب أو أن تقسمها بينهما . ولم يبق إلا أن تعرض المشكلة للتحكيم أمام هيئة الأمم المتحدة .

وقد دعيت الجمعية العمومية لهيئة الأمم إلى اجتماع استثنائي في ابريل سنة ١٩٤٧ وتقرر تأليف لجنة محايدة لا تشارك فيها الدول الكبرى وتتألف من ١١ عضواً لتحرى حقائق موضوع النزاع، وقد تألفت اللجنة من مندوبين كل من الدول الآتية: برياسة المندوب السويدي القاضي ساندستروم : السويد — كندا — استراليا — الهند — بيرو — هولندا — ايران — تشكوسلوفاكيا — يوغسلافيا — جواتيمالا — أوروغواي .

وقد حاولت الحكومات العربية المشتركة في هيئة الأمم أن تحمل الجمعية على تقرير الغاء الانتداب على فلسطين أو أن يكون استقلال فلسطين من الأسس التي تقوم عليها أبحاث اللجنة فلم تفز بطائل وفضلت الكثيرة أن تكون اللجنة حرة وغير مقيدة باتجاهات معينة .

على أنه بقدر ما كان للصهيونيين من قوة واسناد دولية في نشر الدعاية إلى جانبهم وجد العرب من إنشاء الجامعة العربية وتوقيع ميثاقها في ٢٢ مارس سنة ١٩٤٥ ومن اشتراك دول العرب المستقلة في هيئة الأمم المتحدة أكبر دعابة لقضيتهم وأعز نصير لهم فقد أصدرت جامعة الدول العربية ميثاقها بحضور مندوب يمثل عرب فلسطين واتبعته بقرار خاص بالقضية الفلسطينية قالت فيه :

« إنه منذ نهاية الحرب العظمى الماضية سقطت عن البلاد العربية المنسلخة من الدول العثمانية ومنها فلسطين ولاية تلك الدولة وأصبحت مستقلة بنفسها غير تابعة لاية دولة أخرى ... وإذ لم تكن قد مكنت من تولى أمورها فان ميثاق العصبة سنة ١٩١٩ لم يقرر النظام الذي وضعه لها إلا على أساس الاعتراف باستقلالها ، فوجودها واستقلالها من الناحية الشرعية أمر لا شك فيه ،

كما إنه لاشك في استقلال البلاد العربية الأخرى . وإذا كانت المظاهر الخارجية لذلك الاستقلال ظلت محجوبة لأسباب قاهرة فلا يسوغ أن يكون ذلك حائلا دون اشتراكها في أعمال مجلس الجامعة . ولذلك ترى الدول الموقعة على ميثاق الجامعة العربية أنه نظراً لظروف فلسطين الخاصة وإلى أن يتمتع هذا القطر بممارسة استقلاله فعلاً يتولى مجلس الجامعة أمر اختيار مندوب عربي من فلسطين للاشتراك في أعماله .

ومع أن اللجنة العربية في فلسطين قد رأت مقاطعة اللجنة سياسياً لزهده العرب في القرارات النظرية التي تصدرها هذه اللجان فإن الدول العربية رأت إجابة اللجنة إلى دعوتها . وقد تقدمت اللجنة بتقريرها إلى الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة التي انعقدت في نيويورك سنة ١٩٤٨ . وقد قررت الجمعية العمومية في ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ قبول المقترحات التي تقدمت بها أكثرية اللجنة بأن تقسم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية وأن يتكون من الدولتين اتحاد اقتصادي وأن تترك مدينة القدس تحت وصاية دولية . وانتخبت الجمعية خمس دول للإشراف على تنفيذ التقسيم وهي : بوليفيا وتشيكوسلوفاكيا والدمرقة وبناما والفلبين . وقد كان بحث موضوع فلسطين في الجمعية العمومية والاقتراع على تقرير اللجنة مصحوباً بمناورات ومؤامرات حاكها وفدالولايات المتحدة وأعوانه من الصهيونيين ضد الدول العربية مما جعل قرار الجمعية بشأن تقسيم فلسطين مثاراً للاعتراض والنقد المبرر من جهات عدة ولم يقترح ضد التقسيم من الدول الغربية سوى اليونان وكوبا . وحاولت الدول العربية تفادي قرار التقسيم بإحالة المشكلة إلى محكمة العدل الدولية فلم يلق اقتراحها قبولا .

وأهم ما لفت أنظار العالم أثناء بحث المسألة موقف المندوب الروسي فقد كان المعروف أن روسيا البلشفية لاتضمر ميلاً إلى جانب الصهيونيين إذ كانت تتهم الصهيونية بأنها أداة للاستعمار البريطاني ، وما دامت الشعوب العربية تناوى الاستعمارين البريطانى والفرنسى فقد كان المتوقع أن تسكون روسيا إلى جانب العرب ولا سيما بعد أن أوثقت علاقاتها الثقافية والدينية والسياسية

بعض الحكومات العربية وأوفدت صنائعها إلى الشرق الأوسط لبث الدعاية الشيوعية بين شعوبه . ولكن ما كادت المسألة تعرض للمناقشة حتى قلب المندوب الروسي موقف روسيا رأساً على عقب فأبدلت روسيا عداها للصهيونية عطفاً ومودة وأعلن مندوبها ، أنه من الظلم أن ننكر على اليهود حقهم في تحقيق أمانهم ، . وبذلك اجتمعت كلمة أقوى دولتين في هيئة الأمم ضد العرب . وهما روسيا وأمريكا وأصبح لزاماً على هيئة الأمم المتحدة أن تنفذ قرار التقسيم وهي تعلم حق العلم أن أحد الطرفين المتنازعين وهم العرب مصممون على عدم التفريط في حقهم الطبيعي في تقرير مصير بلادهم وأن الدول العربية قد أعلنت عدم ارتباطها بذلك القرار وأنها متفقة على منعه ووقف العدوان الصهيوني في الشرق الأوسط ولو أدى ذلك إلى استعمال القوة .

ومع أن المادة ٤٥ من ميثاق هيئة الأمم تنص على أن يكون لمجلس الأمن قوة بوليسية دولية تقوم على تنفيذ قراراته إذ اقتضت الحال فإن الدول لم تتفق على تأليف تلك القوة وبدأ الناس يرتابون في قدرة الهيئة على تنفيذ قراراتها . وما زاد في تعقيد المسألة وربك الهيئة أن الحكومة الانجليزية وهي إذ ذاك صاحبة الانتداب في فلسطين قد أعلنت في أثناء ذلك أنها لن ترتبط بتنفيذ أي قرار بشأن فلسطين ما لم يوافق عليه العرب واليهود جميعاً وأنها قررت نهائياً أن تنزل عن انتدابها في فلسطين وأن تضع سلطانها في أيدي اللجنة الخماسية التي ستتولى تنفيذ التقسيم نيابة عن هيئة الأمم وقد حددت تاريخاً لانسحاب قواتها من فلسطين في ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ . واستمرت بريطانيا تباشر إدارة البلاد ولا هم لها في واقع الأمر إلا صيانة الأمن الذي أخل به الأراهايون اليهود ووقف هجرة اليهود إلى فلسطين وقد جاءوا مئات وآلافاً من وسط أوروبا وشرقها على سفن استأجروها من إيطاليا وفرنسا وأبحروا منها سرا قاصدين فلسطين فكانت السفن السفن الانجليزية تتعقبهم في عرض البحر وتعتقلهم في قبرص .

وما كاد قرار التقسيم يعلن حتى اغتبط اليهود واعتبروه نصراً عظيماً لقضيتهم

فأخذوا منذ ذلك الوقت يعدون أنفسهم لاعلان دولتهم المزعومة وجعلوا يستجدون المال والسلاح من أنصارهم في أمريكا ووسط أوروبا وأخذ العرب من جانبهم يؤلفون فرقا من المتطوعين لمناوثة الصهيونية . وجاء المدد إلى فلسطين من مختلف أنحاء البلاد العربية والاسلامية وما برحت قوات المجاهدين العرب تزداد قوة حتى استولى الذعر على الصهيونيين ووضح أمام الدول التي ناصرته قضيتهم أنها أساءت الحكم والتقدير بموافقتها على قرار التقسيم فأعلن مندوب الولايات المتحدة في مجلس الأمن أن حكومته لا تتقيد بتنفيذ قرار التقسيم وقد زاد في ضعف نظرية التقسيم مثل حركة اللجنة الخماسية التي ألفتها الهيئة لتنفيذ القرار واضطرارها إلى البقاء خارج فلسطين بعد أن رفضت الإدارة البريطانية أن تستقبلها إلا قبيل انسحاب القوات البريطانية من البلاد .

وكان كلما دنا موعد انتهاء الانتداب البريطاني استولى الخوف على اليهود بما عساه أن يحل بهم متى تركوا وجها لوجه أمام العرب فركبوا رؤوسهم واقترفوا من الجرائم والآثام ضد العرب في دير ياسين وغيرها ما لطح سمعة اليهود في العالم كله بالفضيحة والعار ، ولم يسع الدول العربية ازاء ذلك الطغيان إلا أن تستعد لتأديب الصهيونيين والّاخذ بيد العرب . ولذلك ما كاد الحاكم العام الإنجليزي يغادر ميناء حيفا في ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ حتى أعلن اليهود من جهتهم قيام دولة إسرائيل وأطبقت على فلسطين من جهة أخرى جيوش الدول العربية من كل جانب . ومع أن حكومتى الولايات المتحدة وروسيا كلتاهما قد احتضنت الدولة المزعومة بمجرد ميلادها فان الجيوش العربية - الجيش المصرى من الجنوب والجيش العربى الأردنى والجيش العراقى من الشرق والجيشان السورى واللبنانى من الشمال والشمال الشرقى أخذت تزحف ووجهتهم يافا وتل أبيب مقر اليهود . واستطاع الجيش المصرى في أيام معدودة أن يحتل غزة وبتربسبع وتدمير كثير من المستعمرات اليهودية في الجنوب وجعل يواصل زحفه المظفر حتى بلغت قواته اسدود والمجدل وتفرعت منه قوة ساعدت

الجيش الأردني في منطقة أورشليم ووادي اللطرون وبلغت الجيوش العربية في النهاية اللد والرملة وكذلك استطاعت القوات العراقية أن تزحف غربا حتى كادت تلتقي مع أخواتها المصرية والأردنية عند أبواب تل أبيب . ولما كاد السهم يصيب الهدف تحرك مجلس الأمن لإنقاذ اليهود وكادت جهود أمريكا مع روسيا تنجح في تقرير العقوبات ضد الدول العربية لو لم تقترح بريطانيا تقرير وقف القتال بين المتحاربين وتعيين وسيط دولي يتفق مع الجانبين على وقف القتال مدة أربعة أسابيع يحاول في أثناءها الوصول إلى اتفاق بين العرب واليهود . فأعلنت الهدنة في ٩ مايو ، وخاب مسعى الوسيط الدولي السكونت برنادوت الأمير السويدي في التوفيق بين الطرفين المتنازعين .

ولسكن الهدنة جاءت برداً وسلاماً على اليهود إذ استطاعوا في أثناءها أن يفلتوا من رقابة هيئة الوساطة الدولية ويزودوا أنفسهم بمختلف المون والأسلحة من طائرات ودبابات ومدافع وآلاف من الشبان القادرين على القتال حتى إذا ما انتهى أمد الهدنة واستؤنفت الحرب ظهر مبلغ ما أفاده اليهود من الهدنة بما أبدوه من القوة لا في مقاومة القوات العربية فحسب بل في الهجوم أيضا .

وتقدم الوسيط بمقترحات سياسة التقسيم وطلب إطالة أمد الهدنة فلم يستجب العرب إلى طلبه ومن ثم اجتمع مجلس الأمن وقرر وقف القتال وتهديد المخالفين بتوقيع العقوبات عليهم . فلم يسع الدول العربية سوى قبول الهدنة للمرة الثانية مضطرين غاضبين . ولما كان وقف القتال في هذه المرة مطلقا وغير مقيد بزمن معين فإن الوسيط الدولي ما برح يعمل على تنفيذ وقف القتال والوصول إلى قرار حاسم للمشكلة حتى اغتاله الإرهابيون من اليهود وهو خارج مدينة القدس الجديدة في منطقة اليهود وكان ذلك في يوم الجمعة ١٧ سبتمبر سنة ١٩٤٨ .

ولم يكن ذنب الوسيط أنه حابي العرب ضد اليهود فإنه في الحق ساير اليهود وأقرهم على قيام دولتهم وأغضى عن كثير من المخالفات التي ارتكبوها في أثناء الهدنتين ، ولسكن الوسيط كان قد اقترح في تقريره ترك القدس وجعلها مدينة دولية كما اقترح ضم منطقة النقب في الجنوب إلى العرب فاستحق بذلك نقمة اليهود وغدرهم .

ولو أن افتنانا مثل هذا ارتكبه فئة غير اليهود ضد شخصية عالمية تمثل هيئة عالمية كهيئة الأمم المتحدة لكان جزاؤها القمع حتما والطرده من عداد الشعوب المتمدينة. ولسكن يبدو أن اليهود بمنجى من تطبيق القواعد العامة عليهم فهم منتشرون في جميع بقاع العالم وبين أيدي كثير منهم خزائن المال ومفاتيحها. والمال عصب الصناعة كما هو عصب الحرب. وشبح الحرب يبدو الآن مخيفا مفرزا أمام الدول الغربية الكبرى، لذلك كان موقف الدول السليبي إزاء اغتيال الوسيط وإزاء قضية فلسطين كلها. فما كاد ينشر تقرير السكوت برنادوت قبيل اجتماع الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة بباريس في ٢١ سبتمبر سنة ١٩٤٨ حتى سارعت أمريكا وبريطانيا وفرنسا إلى تحييده بخذافيره. والتقرير يشير بقيام دولة إسرائيل في المناطق التي يحتلها اليهود الآن على أن تكون أورشليم مدينة دولية. وكذلك تبقى ميناء حيفا واللد والرملة جميعها مدنا مفتوحة—واقترح الوسيط أن تضم المناطق التي بأيدي العرب إلى شرق الأردن وتؤلف معها دولة واحدة، وطالب التقرير أن يعطى العرب جميع الضمانات التي تكفل تأمينهم ضد التوسع الصهيوني وضد هجرتهم، وأن يرد اللاجئين من العرب الذين شردهم اليهود إلى ديارهم.

وقد نظرت الجمعية العمومية لهيئة الأمم المنعقدة في باريس في خريف سنة ١٩٤٨ في مشكلة فلسطين بخذافيرها على ضوء تقرير برنادوت وما تقدمت به الدول المختلفة من الاقتراحات وبعد نقاش طويل استمر ثلاثة أسابيع تقرر في النهاية تأليف لجنة للتوفيق بين العرب واليهود تؤلف من الولايات المتحدة وفرنسا وتركيا وتحل محل الوساطة الدولية، وتعمل في مدى عام على تحويل وقف القتال بين الفريقين إلى هدنة دائمة يعقبا صلح نهائي. وقد رأت الجمعية منعا لتفاقم الخلاف بين الدول الكبرى بشأن هذه المشكلة أن يترك للجنة حرية الفصل في المسائل الإقليمية دون أي ارتباط سابق لا بقرار الجمعية العمومية في سنة ١٩٤٧ ولا بمقترحات برنادوت، والأمر الوحيد الذي رأت الجمعية النص عليه هو تدويل مدينة القدس وإغاثة اللاجئين من العرب وردهم إلى بلادهم. وينتظر أن يعرض تقرير اللجنة الثلاثية

على الجمعية العمومية في اجتماعها المقبل بنيويورك في سبتمبر سنة ١٩٤٩ .
وقد افاد اليهود بهذه الفترة أيما فائدة إذ وافقت الجمعية العمومية في انعقادها الأخير
(مايو سنة ١٩٤٩) على قبول دولتهم عضوا في الهيئة .
ويبدو أن الجمعية العمومية لهيئة الأمم كغيرها من الجمعيات السياسية الكثيرة
العدد لا تصلح حكما في مشكلة كمشكلة فلسطين ، ما لم يتفق الطرفان مبدئيا على
حل عادل للمشاكل القائمة وأهما بالنسبة إلى فلسطين مسألة اللاجئين العرب
وتدويل القدس .

وخير للجميع أن يحلوا هذا الإشكال المزمّن إلى محكمة العدل الدولية وأن
يعلن الطرفان المتنازعان مبدئيا عزمهما على قبول نتيجة التحكيم أيا كانت .
ومع أننا نعلم أن في إحالة المشكلة على محكمة العدل إقراراً ضمنياً بقيام دولة
إسرائيل المزعومة لأن محكمة العدل لا تنظر إلا في قضايا الدول بين بعضها وبعض
فانه ليس هناك أيضا ما يمنع الدول العربية من التمسك بالمادة ٥١ من الميثاق وهي
التي تقول « ليس في هذا الميثاق ما يخل بالحق الطبيعي للأمم فرادى أو جماعات
في الدفاع عن نفسها إذا اعتدى عليها عدوانا مسلحا » (١) .

(١) أنظر كتاب « قضية فلسطين » للمؤلف من سلسلة « اقرأ »

الفصل السادس والعشرون

بجزيرة

كانت إيطاليا الفاشية تدعى إلى وقت قريب أن البحر المتوسط بحرها وكان الكتاب والمؤلفون والساسة يسمونه في كتبهم ومقالاتهم وأحاديثهم بجزيرة، مستندين في دعواهم هذه إلى أن سواحل إيطاليا يغمرها البحر من كل جهاتها تقريباً وان الرومان القدماء قد سيطروا على البحر المتوسط وأقاموا على سواحله سواء في أوروبا أو أفريقية أو آسيا دولة رومانية استمرت عدة قرون. فاذا كانت إيطاليا تزعم لنفسها حق السيطرة على البحر المتوسط لا لسبب سوى أن البحر يكاد يحتضنها من كل جهاتها تقريباً وان الرومان القدماء كانوا قد أخضعوا سواحله منذ ألفي عام تقريباً فأحرى بمصر أن تجاهر بحقها على هذا البحر وقد كان لها فيه وفي البحر الأحمر الذي يعتبر امتداداً للبحر المتوسط تاريخ مجيداً في العصور القديمة والحديثة جميعاً، ففي القديم كانت سفن مصر أول ما عرفه البحر المتوسط من الفلك وكانت تمخر عبابه شمالاً إلى جزيرة كريت وجنوباً في البحر الأحمر والمحيط الهندي إلى بلاد بنت، وهي بلاد الصومال الحديثة.

وأما في الأزمنة الحديثة فان مصر في عهد محمد علي الكبير قد سيطرت على سواحل سوريا ولبنان وفلسطين وجنوبي الأناضول وجزيرة كريت وأخضعت سواحل البحر الأحمر بساحليه في السودان وبلاد العرب، وامتد نفوذها جنوباً وشرقاً إلى عدن وخاييج فارس ولم تجل القوات المصرية عن هذه الأقاليم إلا بعد أن نشبت الحرب بين محمد علي وسلطان تركيا فتدخلت بريطانيا خوفاً على طريقها إلى الهند وتآلبت معها سائر الدول الكبرى عدا فرنسا تعمل جميعها على وقف تقدم القوات المصرية وقصر مطامع محمد علي مصر وملحقاتها في السودان.

ولقد تجدد نشاط مصر البحرى فى عهد الخديو اسماعيل فشملت فتوحه فى السودان سواحل المحيط الهندى واحتلت قواته ميناء مصوع وزيلع وبربره وانشأ على سواحل البحرين منارات بلغ صيئها شأواً بعيداً حتى قال أحد الكتّاب المعاصرين من الانجليز انه قل أن يوجد فى العالم نظام للمنارات أحسن مما على سواحل مصر الشمالية والشرقية . وكان آخر المنارات جنوباً على ساحل المحيط الهندى عند رأس جاردفوى وميناء قسيمايو عند مصب نهر جوبا جنوبى خط الامتواء . ، فاذا ما لجت إيطاليا فى دعواها يوماً وزعمت أنها واقعة وسط الطريق فى البحر المتوسط وأنها من الوجهة الحربية تتحكم فى قسميه الشرقى والغربى فان مصر بعد ان اتصلت مياه البحر الأحمر بالبحر الأبيض وتلاقى البحران على أرضها أصبحت هى القابضة على أدق وأهم النقط الاستراتيجية لا فى حوض البحر المتوسط وحده بل فى الشرق الأوسط كله . ويكفى أن تكون مصر هى المالكه أصلاً ومستقبلاً لقناة السويس وهى نقطة الارتكاز التجارى والحربى بين الشرق والغرب لتقول مصر بملء فيها أن البحر المتوسط يجب أن يكون لها قبل غيرها .

ولقد أظهرت الحربان العالميتان بدرجة لا تدع مجالاً للشك ما لمصر وقناة السويس من الأهمية الاستراتيجية البالغة الخطر فى مصير الحربين . ففى الحرب العالمية الأولى زحف الجيش التركى الذى أعده الاتراك بمساعدة الألمان لغزو مصر وسار بمعداته نحو الجنوب الشرقى حتى وقف على الضفة الشرقية للقناة وحاول عبورها فى ٣ فبراير سنة ١٩١٥ فقابله الحلفاء براً وبحراً وارغموه على الارتداد بعد أن منى بخسارة فادحة فى بضع ساعات . وكان هذا النصر للحلفاء مقدمة لتطورات سياسية وحربية غيرت وجه الحرب ، فقد انحاز العرب على أثر ذلك إلى جانب الحلفاء واستطاع الجنرال اللنبي من جهة والأمير فيصل العربى من جهة أخرى أن يدخل فاتحين فلسطين وسوريا ، وكان استسلام تركيا فى الشرق من أهم العوامل التى ساعدت على خسران قضية دول الوسط فى الحرب العالمية الأولى .

وكذلك في الحرب العالمية الثانية كانت موقعة «العلمين» على نحو ٦٠ ميلا غربى الاسكندرية في يونيه سنة ١٩٤٢ الحد الفاصل بين انتصار الالمان وهزيمة الحلفاء ، فقد وقف الالمان وحلفاؤهم الطليان يهددون مصر والقناة وكادوا يبلغون مأربهم لولا ما وصل الحلفاء من المدد والعتاد الحربى الامريكى عن طريق مصر ولولا موقف مصر الموالى حينذاك للحلفاء . فقد ارتدت قوات المحور على أثر المعركة أمام جيوش الحلفاء التى كانت تتعقبهم من الشرق وتهددهم من الغرب بموازاة ساحل البحر المتوسط وما زالوا بهم حتى تجمعت فلولهم فى تونس ومنها عبروا البحر إلى صقلية وإيطاليا إلى غير رجعة .

ولم يكن الالمان يعتمون بمجرد السيطرة على ساحل مصر الشمالى والتحكم فى قناة السويس فحسب ، بل كانوا يرمون إلى الاتصال بصناعاتهم فى بلاد الشرق الأوسط إلى شط العرب بخليج فارس ويران حيث يمدون أيديهم إلى حلفائهم اليابانيين المسيطرين فى ذلك الوقت على بورما وجزء من المحيط الهندى . وكان من خططهم أيضا أن يعزلوا مصر ومن بها فى ذلك الوقت من جيوش الحلفاء عزلا تاما حتى يخلو لهم الميدان فى الشرقين الأوسط والاقصى . ولكن الاقدار احبطت خططهم فكما انهم ارتدوا أمام العلمين فهم قد أنهزموا أيضا أمام ستالينجراد وبدأت آلهة النصر تتحول تدريجيا إلى صفوف الحلفاء حتى دخلوا برلين فى مايو سنة ١٩٤٥ ولا يزال الناس ينسبون مقدمة النصر النهائى فى تلك الحرب إلى جهود القائدين الانجليزيين الاسكندر ومنتجورى أمام العلمين .

وما كادت الحرب تنتهى حتى بدأت دول الحلفاء تنافس بعضها البعض فى تثبيت قواعدها على سواحل هذا المنفذ البحرى الهام بين الشرق والغرب ، وكان مصير مستعمرات ايطاليا السابقة موضوع ذلك التنافس . فقد أرادت روسيا أن تكون لها قاعدة فى منطقة البحر المتوسط أو البحر الاحمر فى ليبيا أو ارتريه أو الصومال ؛ ولما لم تجد هذه الامنية قبولا لدى حلفائها اكتفت بتوسيع رقعة حليفتها يوغوسلافيا على البحر الادرياتي على حساب ايطاليا وجعلت تقيم العراقيين فى طريق استقلال هذه المستعمرات أو انتداب احدى الدول الكبرى عليها .

ولا تزال هذه المشكلة منظورة أمام هيئة الأمم المتحدة إلى الآن .
ولسكن الشيء المؤكد هو أن الوعي السياسي القومي لدى سكان برقه وطرابلس قد
تما وتطور حتى بات الناس ينتظرون قيام دولة موحدة في ليبيا بزعامة السيد السنوسي ان
عاجلا أو آجلا وإذا ما تحقق لاهل ليبيا ذلك الامل فأكبر الظن أن الحكومة الليبية
ستوثق علاقتها بمصر واخواتها الدول العربية وان الدولة الجديدة ستأخذ مكانها
إلى جانبهم في جامعة الدول العربية وحينئذ قد يصل الارتباط والتآلف بين مصر
وجارتها الشقيقة العربية من الغرب إلى درجة تجعل من ساحل البحر المتوسط من
رفح شرقا إلى ميناء طرابلس غربا أى ما يقرب من ١٤٠٠ ميل طولى ووحدة
بحرية بحرية يتعين على مصر وليبيا أن تشاركا في الدفاع عنها بحريا . فإذا أضفنا
إلى ذلك امتداد طول ساحل بلاد الشرق في فلسطين ولبنان وسوريا بلغ طول
ساحل البحر المتوسط الذى قد يقع تحت نفوذ الدول العربية نحو ١٨٠٠ ميل
من مجموع طول الساحل من جبل طارق إلى ساحل الشام وهو نحو ٢٢٥٠
ميلا وهى مسئولية كبرى ومهمة لا تضطلع بها إلا دولة بحرية من الطراز الأول
يكون لها من القوه البحرية ما يوازى سلطان أقوى الدول فى البحر المتوسط .

وهذا هو الهدف الذى يجب أن تعمل مصر لبلوغه كما بلغه محمد على الكبير
إذ استطاع فى سنوات تتراوح بين خمس وعشر سنوات أن ينشئ لمصر وفى مواهبها
وبأيدي أبنائها ويأشرف بعض الخبراء الفرنسيين - أسطولا كان فخر البحر
المتوسط فى زمنه إذ لم يفقه فيه سوى أسطول بريطانيا والاسطول الفرنسى . ولما
كانت الحكومة الفرنسية إذ ذاك حليفة لمحمد على أصبح الاسطولان المصرى
والفرنسى خطرا على نفوذ بريطانيا فى البحر المتوسط . وقد تفاقم هذا الخطر
عندما انحاز الاسطول التركى إلى الاسطول المصرى أثر وفاة السلطان محمود الثانى
وانهزام الجيش التركى فى موقعة نصيبين أو نزيب أمام ابراهيم باشا . ولهذا كان
الصراع المستميت بين المرستون الوزير الانجليزى وبين محمد على - ذلك الصراع
الذى انتهى بانسحاب القوات المصرية من الشام وإبرام معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ .

وما استطاعه محمد على العظيم منذ أكثر من مائة عام تستطيع مصر في هذا العصر الآلى عصر السرعة والذرة أن تدركه إذا صحت عزيمتها على النهوض بأهدافها الكبرى نحو نفسها ونحو شقيقاتها الدول العربية . وحب البحرية من حسن الحظ لا يزال يجرى في عروق كثير من أبناء المناطق المصرية الساحلية والنهرية، ولمصر من تاريخها القديم والحديث ما يحفز أبناءها على العمل للتفوق في البحر . وهانحن أولاء نرى في الجهود الفردية التي يبذلها بعض المصريين الممتازين في ميدان الملاحة من أجل التجارة والسياحة ما ينهض دليلاً كافياً على امكانيات البلاد من هذه الناحية .

أما اخواننا العرب في بلاد المشرق فيمكن في دليلاً على حسن استعدادهم البحري أنهم ينتسبون إلى الفينيقيين أول من أسس القواعد التجارية والبحرية على سواحل البحر المتوسط وأول من ساحوا في أطرافه شرقاً وغرباً . وكذلك أهل ليبيا وجيرانهم في شمال أفريقيا هم أيضاً من نسل أولئك البحارة الذين تسلطوا على الملاحة في البحر المتوسط قرابة قرنين من الزمان وعاثوا فيه جهاداً ضد ملاحى أوروبا من الأوربيين المسيحيين وسفنهم التي كانت لا تجرؤ على الاقتراب من سواحلهم . وبلغ من سطوتهم إذ ذاك أن الدول كانت تتفاوض وتبرم المعاهدات معهم لتأمن شرهم كما لو كانوا رؤساء حكومات مستقلة . بهذه العناصر جميعاً تستطيع مصر أن تنمى الروح البحرية في بنيتها وفي بنى العروبة وتجدد لمصر ولاخواتها بعض مجدها السالف في البحر المتوسط .

وليست البحرية كالحربية نظام لا يثمر إلا وقت الحرب فالبحرية كالطيران مدرسة مهنية تفيد منها تجارة الدولة ومواصلاتها كما يفيد منها أمن البلاد في الحرب والسلام على السواء . وليس مثل البحر المتوسط ميدان درجت فيه أساطيل العالم وبجرياتها منذ القدم، فيه مرنت وكأخت وصارعت أمواجه وأعاصيره أو صرعتها . فلنرسم سياستنا البحرية ولننشئ نظامنا البحري ومعه ما يوائم من سلاح الطيران . فليس بصحيح ما تخيله بعض الناس من أن تقدم الطيران قد يقلل

من أهمية البحرية ذلك لأن تعاون الأسلحة الثلاثة في الحرب شرط لازم للنصر كما أكدته الحرب الأخيرة . وقد زادت أهمية البحر المتوسط بتقدم الطيران وزيادة نلسها الآن في تجمع معظم الخطوط الجوية العالمية بمطارات القاهرة والاسكندرية والعضم واللد وغيرها . فاذا قصرنا في مسابقة النهضة البحرية والجوية التي توليها الدول الناهضة أكبر نصيب من ميزانياتها واهتمامها تحرش بنا الأعداء من جهة أو سامنا الأصدقاء مقابل مساعدتهم لنا من جهة أخرى .

ويكاد يكون من المحقق انه إذا قامت حرب عالمية جديدة فلن يمضى وقت طويل حتى يكون البحر المتوسط سواحله وجزره وبواباته من أهم الأهداف التي يعمل المتحاربون على بلوغها . وقد كانت مضائق البسفور والدردينيل في الماضي أهم منطقة استراتيجية في العالم القديم فجاء دلسبس وأنشأ في مصر بسفوراً ثانياً غطت أهميته على البسفور الأصيل . وطبعي أنه إذا استطالت الحرب ولم تحسمها القنبلة الذرية في أمد وجيز فان مصر ستكون كما كانت في الحربين السابقتين هدف المتحاربين لا لسبب موقعها الاستراتيجي فحسب بل لنسلطها على طرق نقل البترول من بلدان الشرق سواء بواسطة الأنايب من العراق إلى ساحل فلسطين أو بواسطة السفن من خليج فارس إلى البحر الأحمر فالقناة . وعلى ذلك لن يعصمها حينئذ من الحرب البحرية والجوية أو التكتل إلا ما أعدته من جيوشها وأساطيلها البحرية والجوية تصون بها استقلالها وترهب أعداءها وتكسب احترام حلفائها وأصدقائها . وما ينطبق على مصر في هذه الحال ينطبق تماماً على اخواتها دول الشرق الأوسط جميعاً . وعلى ذلك يتعين على جامعة الدول العربية أن تعيد النظر في ميثاقها فكما نصت المادة الثانية من الميثاق على أن الغرض من الجامعة هو « توثيق الصلات بين الدول المشتركة فيها وتنسيق خططها السياسية تحقيقاً للتعاون بينها ، كذلك يجب أن ينص الميثاق على تنسيق خططها الدفاعية والحربية في البر والبحر والجو وليس في مثل هذا النص ما يناقض الهدف الأسمى التي تعمل الاتحادات السياسية إلى بلوغه وهو صيانة السلم وتحقيق مبدأ التآمين المشترك لاستقلال الدول المتعاقدة

وسلامة أراضيها . وهانحن اولاء نرى ما فعلته دول اتحاد البنلوكس ، هولنده وبلجيكا ولكسمبورج من تعاون هذه الدول سياسيا واقتصاديا وحريريا ثم الاتحاد الخماسى الغربى الذى شمل اتحاد البنلوكس والمملكة المتحدة وفرنسا . وقد بلغ امد التعاون بين دول هذا الاتحاد الاخير الى حد أن اجتمع وزراء الحرية لدول هذا الاتحاد وقرروا تنسيق جهودهم وتوحيد قوات الدفاع برئاسة القائد الانجليزى المشهور منتجومرى . وقد تأصلت فكرة التعاون بين الدول الغربية حتى تطورت من اتحاد خماسى الى اتحاد اطلنطى يضم إليه الولايات المتحدة وكندا وعداد من الدول الغربية وهكذا لن يمضى وقت طويل حتى يصبح لغرب أوروبا وأمريكا نظام حربى ودفاعى مشترك . بل أن مستر بيفن وزير خارجية المملكة المتحدة قد أعلن أخيراً امام الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة رأيه فى أن تتحد قوى العالم لصيانة السلم الدولى باشتراك اتحاد السوفيت إذا رغب فى التعاون أو بالاستغناء عنه إذا أبى إلا قطيعة الحكومات الغربية التى تسميها روسيا رأسمالية وحينئذ لا مندوحة للعالم من أن يضحى بما كان يرجوه من انشاء حكومة عالمية تصون السلام فى العالم وتنذ الحرب نهائياً . ولا يسع الدول بعد ذلك إلا الاستناد إلى الاتحادات الاقليمية مادامت هيئة الأمم قد عجزت عن اداء مهمتها الكبرى وهى تأمين الشعوب ضد الحروب . وقد أشار مستر بيفن فى خطبة أخرى إلى ضرورة الارتباط بين الاتحاد الغربى ودول الشرق الاوسط بل والشرق الاقصى جميعاً .

وعلى أثر ذلك التصريح من جانب الوزير الانجليزى ترددت الانباء الخارجية بأن هناك محادثات لتأليف اتحاد جديد يضم دول البحر المتوسط ليجمع بين دول الجامعة العربية ودول ميثاق سعد اباد واليونان . ذلك بأن اتحاد الجامعة العربية يقتصر وفقاً لميثاق الجامعة على الدول العربية المستقلة طبقاً لما جاء فى مادته الاولى . وظاهر أن هذا النص لا يعين على قبول دول مثل تركيا أو ايران أو الباكستان أو أفغانستان رغم أوامر المودة والصداقة

التي تربطها جميعاً بدول الجامعة العربية . وكذلك لا مفر من أن تبقى دول صديقه
أخرى مثل اليونان واثيوبيا خارج اطار الجامعة العربية لاختلافها عنها في الجنس
واللغة والدين السائد . ومهما يكن من أمر انشاء اتحاد يجمع بين دول شرق البحر
المتوسط أو يضم دول الشرق الأوسط فان الصلات السياسية الودية القائمة
الآن بين دول هذه المنطقة سواء بين تركيا واليونان من جهة أو بين تركيا ودول
ميثاق سعد اباد وبين هذه جميعاً ودول الجامعة العربية لسكفيلة بتنسيق جهودها
حربيا إذا دنت ساعة الخطر ووقعت الكارثة . وأما الاستعداد للحرب قبل
وقوعها فأمر مهم الدول الكبرى وحدها وهي وحدها التي تستطيع أن تضطلع
بتكاليف الحروب العالمية . أما الدول الصغرى فيجب أن يكون هدفها من
الاستعداد تأمين استقلالها وحرياتها على قدر طاقتها وحدها وعليها أن تحذر دائماً
الوقوع في شرك المحالفات أو الاتحادات السياسية الكبرى التي تصطنعها الدول
الكبرى لخدمة أغراضها الخاصة أولاً وقبل كل شيء . ومن الخير لمصر وشقيقاتها
الدول العربية أن تقنع باتحادها العربي المتين، ولكن عليها أن تعدل ميثاقها بما يلائم
حاجاتها في الظروف الخطيرة الحاضرة . وحتم عليها جميعاً أن تنمي مواردها
واستعداداتها المادية والاقتصادية والثقافية والحرية لمصاحبة نفسها أولاً واصالح
اخواتها ثانياً .

وعلى مصر خاصة وهي وحدها إلى تلامس سواحلها مياه البحرين الأبيض
والأحمر ان تعد نفسها للسيطرة على سواحلها في وقت السلم والحرب على السواء
وأمامها من خطر الواجبات الدولية التي ستضطلع بها قريباً عند ما ينتهي أمد
امتياز القناة في نوفمبر سنة ١٩٦٨ ما يحفزها على ضرور العمل للنهوض بحريتها
بما يجعلها خليفة بثقة الدول آمنة في وادها معتزة بمكانتها الدولية المرموقة تمسك
بيدها القوية مفتاح المرور براً وبحراً وجواً بين الشرق والغرب .

ملحق - ١

«الهلال الخصيب» والاتفاقات السياسية في الشرق

الهلال الخصيب : أنه سهل شاسع متصل تجرى فيه مياه بمجموعة من أهم الأنهار واكبرها هي دجلة والفرات والنيل . إنه سهل مترامى الاطراف على شكل هلال يمتد عند قرنه الشرقي من خليج فارس ويصل قرنه الغربي إلى سواحل البحر المتوسط . وينحصر السهل بين الصحارى الكبرى التي تغطي شمال افريقية وبلاد العرب جنوبا وبين جبال طوروس والسكردستان شمالا . ولما كان المحل والاجداب يكتنفان هذا السهل بينما الانهار والأمطار التي تتساقط على سفوح الجبال وعلى سواحل البحر المتوسط تفيض على السهل فينمو العشب وينبت الزرع لذلك اسموه بالهلال الخصيب .

وعلى ذلك فالهلال الخصيب من الوجهة الجغرافية يحتضن بين قرنيه العراق وسوريا ولبنان وفلسطين . ولا تتصل مصر بهذه المنطقة إلا عن طريق شبه جزيرة سيناء . أما شبه جزيرة العرب بما فيها شرق الاردن فانها تناخم السهل من الجنوب ولسكنها لا تدخل في مدار الهلال الخصيب . وقد كانت الفرصة مواتية لجميع الشعوب التي تسكن في هذه المنطقة أن تقرر مصيرها عند ما قامت نهضة العرب ضد الترك واضطرت تركيا إلى التخلي عن الاقاليم العربية في أعقاب الحرب العالمية الأولى . ولسكن الحلفاء بعد الحرب قد نكثوا عهدهم للعرب وخببوا آمال الشعوب التي ناصرتهم في أثناء محنتهم . فنبتت دول وطوائف متفرقة مختلفة مغلوبة على أمرها لم تظفر من الحلفاء بعد الحرب حتى بحق الحكم الذاتي . وعوضا عن الاستقلال الذي منسوخ به في أثناء الحرب فرضوا عليهم نظام الانتداب فكان في شكله وموضوعه أقرب إلى الاستعمار منه إلى الاستقلال . وبما زاد في فداحة الظلم الذي حاق بهذه الشعوب انهم حين فرض عليهم الحلفاء الانتداب اخذوا

يقتطعون بلادهم ويصطنعون منها أمارات ودويلات ما لبثوا أن وزعوا فيما بينهم اسلابا كأنما الشعوب الصغيرة أصبحت غنيمة باردة للمنتصرين . فكان لفرنسا الانتداب على سوريا ولبنان ولأنجليز العراق وفلسطين . واقتطعوا من فلسطين وسوريا امارة شرق الأردن ومن سوريا منطقة اسكندرونه وقد نزل عنها الفرنسيون للترك قبيل الحرب العالمية الثانية . وباليات الأمر وقف عند هذا الحد بل ان الدولتين صاحبتى الانتداب قد اتهمتتا في حكمهما سياسة كلها عنت واضطهاد للوطنيين وأساسها الفرقة بين الطوائف واثارة الاحقاد الكامنة بين الأسر والزعماء . حتى إذا ما انتهت الحرب العالمية الثانية وكانت هذه الشعوب قد اضطلعت بنصيب يذكر في نصرة قضية الخلفاء لم يبق هناك مبرر في أن يظل الانتداب الأجنبي مفروضاً عليهم ضد ارادتهم فاستقلت كل من سوريا ولبنان وعقدت إنجلترا معاهدة استقلال ومحالفة مع شرق الأردن ثم اضطرت أخيراً إلى التخلي عن فلسطين بعد ان الغمت فيها الطرق وسممت الآبار من بعدها إذ تركت الصهيونيين يعبثون في البلاد كيفاً شاءوا وشاءت لهم هيئة الأمم .

وكانت سياسة الانتداب قد استمرت اكثر من ربع قرن انطبع في اثنائه البلاد كل بطابع الدولة المنتدبة فيها . فهما قيل عن سحق الشعوب وثورتها ضد الاستعمار فليس من شك في أن الانتداب قد ترك آثاره ظاهرة في نظم الحكم والادارة وفي حياة الشعوب من حيث الاقتصاد والثقافة والاجتماع . وعلى ذلك أصبحت هذه الشعوب اليوم بعد أن نعمت باستقلالها بمجموعة قد تأتلف في الجنس والدين واللغة ولكنها تختلف اختلافاً أساسياً في نظم حكمها ومبلغ ثقافتها وآراء أهلها في كثير من شئون السياسة والحياة . لذلك كان بعث مشروع الهلال الخصيب في الأيام الأخيرة عملاً غير صالح وضرراً من الخيال ولكنه خيال غير خصيب ! ويكفي لهدم المشروع من أساسه ان تختلف نظم الحكم فيما بين هذه الدول فمنها الملكية ومنها الجمهورية ومنها البرلمانية ومنها الأوتوقراطية وأن تسكون العصبية بين رجالات هذه الدول وأسرهما من

الإيمان والشدة بحيث يتعذر التوفيق فيما بينها ، وان لبنان إحدى دول الهلال من الاعتراز باستقلالها وبذاتيتها بحيث يصعب ضمها بين قرنى الهلال . ثم بعد ذلك كله ألا يحق لنا أن نسأل : لمن ياترى تكون السيطرة على الهلال إذا قدر له أن يؤلف ؟ هل يكون العراق ، أو تكون سوريا صاحبة الكلمة العليا في هذه الشركة ؟ وهل تكون بغداد أو دمشق عاصمة للهلال الخصب ؟ وإذا فرضنا جدلا واتفق الشريكان مبدئيا على دستور موحد فهل يعقل ان يقيم أحد الشعبين على الضيم طويلا . أن الشعبين العراقي والسورى لم يقيما على ضيم تركيبا طويلا وعندما كانت مبادئ الحرية والقومية تسود الشعوب في القرن التاسع عشر قام الأحرار في البلدين يطالبون بالانفصال وان يتمتع كل منهما باستقلاله الذاتى وحرياته .

وشبيه بمشروع الهلال الخصب مشروع سوريا الكبرى ومعناه أن تعود سوريا إلى حدودها القديمة فتحضن لبنان وفلسطين وشرق الأردن . أما العراق وهو أحد قرنى الهلال الخصب فلا يدخل في مشروع سوريا الكبرى لأن العراق لم تكن يوما داخلة في نطاق سوريا . انما الغريب في أمر هذا المشروع أن يترك أمر تنشئته وتحقيقه — لا لصاحب الأمر فيه وهو الشعب السورى ، وانما لجلالة ملك شرق الأردن . وشرق الأردن كما نعلم بلاد تعتبر أقل من سوريا ولبنان مدنية وثقافة وهى من حيث عدد السكان والحالة الاقتصادية والاجتماعية أقل منها بمراحل والبون بينهما شاسع . ولكن صاحب الجلالة الملك عبد الله يرى في نفسه الوارث الوحيد لحركة النهضة العربية عن المغفور لها والده الملك حسين واخيه الملك فيصل الأول الذى كان ملكا على سوريا بين سنة ١٩١٨ و ١٩٢٠ وفات جلالته انه قد انقضى ثلاثون عاما على حركة النهضة وان الشعوب العربية قد تطورت في اثناء هذه الفترة تطورا استقلاليا ظاهر المعالم وقد لمعت آثار هذا الاستقلال جلية واضحة في المجتمعات الدولية . ومن العبث أن يأخذ المرء بعقرب الساعة فيؤخر الزمن ويرجع بالتاريخ القهقرى وفق رغباته . ولعمري إذا جاز

أن تضم العراق وسوريا ولبنان لأنها تؤلف هلالاً خصيباً من الناحية الجغرافية أو إذا جاز أن تؤلف سوريا الكبرى من اجزائها القديمة فإذا يمنع أن تقوم تركيا غداً وتطالب برد اقليمها الآسيوية إليها أو أن يقوم جلالة الملك عبد العزيز آل سعود فيعلن ضم اليمن وشرق الأردن وعدن والسكويت لأنها جميعاً أجزاء لا تنفصل عن شبه جزيرة العرب وكانت في الماضي تخضع لسلطان واحد .

الحق أن عهد الغلبة والضم قد انقضى وليس أمام الدول صغيرة كانت أو كبيرة إلا أن تعمل جاهدة على استغلال مواردها وتحسين أحوالها ورفع مستوى شعوبها ثم لها بعد ذلك أن تؤلف فيما بينها وفق يبيتها اتحادات اقليمية تعمل على تنسيق سياستها الخارجية وخطط الدفاع عنها مع توثيق وسائل التعاون فيما بينها اقتصادياً وثقافياً .

ولقد كانت الدول العربية في مقدمة الشعوب التي آمنت بضرورة الاتحاد فيما بينها وصار لها بفضل مساعي جامعة الدول العربية مقام محمود ومطاف مرموق بين الدول . وكانت جامعة الدول العربية تقف إلى وقت قريب في منطقة شرق البحر المتوسط كالطود الراسخ ضد العدوان إياها كان مصدره وكانت إذ ذاك متينة البنيان متحدة الكلمة مرهوبة الجانب . حتى هبت عليها أعاصير الحرب الفلسطينية فنالت منها الأهواء والمطامع وشدت على اجماعها نفر من أبنائها كادوا يصيبونها في مقتل منها لولا أن تداركها أهلها وذووها المخلصون فقاموا على برئها وشد أزرها بكل ما يستطيعون .

وهكذا ما كادت جامعة الدول العربية تلتزم السكينة والصمت حيناً وهي تعاني آلام محتها وتألّب بعض بنينا عليها حتى هبت التيارات التي ذكرناها تحاول أن تحتل الفضاء الذي قد تخلفه الجامعة العربية إذا عز شفاؤها . وكان أقوى هذه التيارات ذلك الذي انبعث من جانب هضاب الأناضول . وجعل تركيا تعود بذكرياتها إلى الشرق وتحن إلى سابق مكائنها في قلوب العرب والمسلمين . فكان ان بعثت إلى الحياة رفات ميثاق سعد أباد الذي كانت أبرمته بينها وبين إيران والعراق

وأفغانستان في سنة ١٩٣٧ وجعلت توثق الصلات بينها وبين هذه الدول والباكستان والأردن علماً أن تؤلف من هذه الدول اتحاداً لا يتعين أن يكون عربياً بحتاً فتخرج منه تركيا وإيران وأفغان بل يجب أن يكون إسلامياً أو شرقياً حتى يجمع بين هذه الدول وتكون له من المكانة في الشرق ما يضارع ميثاق الأطلنطي في الغرب . وما دامت دول الغرب قد استبعدت تركيا من ميثاق الأطلنطي مع أنها احتضنت فيه إيطاليا بخليق بتركيا أن تصحح موازين السياسة فتقيم ميثاق شرق البحر المتوسط توازن به ميثاق الأطلنطي وتربطه به عند الحاجة .

وسرمان ما استجاب العراق والأردن إلى دعوة تركيا إذ بادر أمير العراق بزيارة إيران في يونية سنة ١٩٤٩ وأعقبه عمه الملك الهاشمي ملك شرق الأردن وكلاهما تجمع بينهما وبين تركيا أمثن الصلات وأوثق الروابط . أما تركيا فلا لوم عليها ولا تريب إذا كانت مصلحتها تقضى عليها بأن تجدد ميثاق سعد أباد أو تخلق ميثاقاً غيره تستند فيه إلى جانب ميثاق الأطلنطي والدول الغربية . ذلك لأن تركيا داخلية منذ عام ١٩٤٨ في نطاق مشروع مارشال ولأنها تتلقى مع اليونان من الولايات المتحدة مساعدات قيمة سواء من الناحية المالية أو الفنية أو الحربية . فهي من هذه الوجهة وبسبب معاهداتها مع إنجلترا وفرنسا قد ربطت مصاريفها قطعاً بمصير دول الغرب .

أما الشعوب العربية أو الشرقية التي تحاول حكوماتها أن تربطها بعجلة ميثاق الأطلنطي أو سعد أباد فإذا كسبت هي من ميثاق الأطلنطي أو غيره ؟ وما جدوى هذه المواثيق عليها وبينها وبين دول الغرب قضايا وطنية معلقة بالغة الأهمية . وهي قضايا يتعين على دول الغرب أن تنتهي فيها بحلول نهائية تصون حقوق هذه الشعوب وتعترف فيها بكامل استقلالها وحرياتها . حتى إذا فعلت الدول ذلك وفرغت دول الشرق من تنظيم شئونها السياسية والداخلية استطاعت أن تساهم بحق مع سائر الدول في قضية السلام العام .

وليت السياسة سواء منهم الترك والعرب يتذكرون دروس التاريخ في الماضي

القريب حين كانت تركيا مرتبطة بجاراتها في أوروبا بميثاق البلقان وبجاراتها في الشرق بميثاق سعد آباد . ليتهم يذكرون ما أفادوه من هذه الموائيق بعد إذ هاجمت إيطاليا وألمانيا شبه جزيرة البلقان وأخذت دولها تنساقط في أيدي المحور واحدة تلو أخرى . ليتهم يذكرون ما أفادوه حين أغار الحلفاء على إيران ليتخذوا من إيران طريقاً إلى القوقاز في آسيا بدلاً من طريق المضائق التي سدتها تركيا بحيدتها . ألم يقف العالم حينذاك مبهوتاً مشدوهاً أمام هذا العدوان النازي المتكرر ؟ ألم يتلفت الناس يميناً وشمالاً شرقاً وغرباً باحثين منقبين عن بقايا الموائيق التي ارتبطت بها تركيا مع هذه الشعوب ؟ ولسكن عبثاً ما كانوا يحاولون . فقد تمسكت تركيا بحيدتها خشية العدوان النازي وذهبت الموائيق هباء . بعد أن أكلتها نيران الحرب ومزقتها يد الخوف فيما مزقت شذر مذر .

ولقد أدرك ساسة الغرب ما قد يصيب الموائيق السياسية من الشلل والعطب إذ لم تقم على أساس متين من التعاون الاقتصادي وتوحيد القوى الدفاعية والهجومية ، فأنشأت من أجل ذلك اتحاد بروكسل في سنة ١٩٤٨ ثم اتحاد الأطلنطي في عام ١٩٤٩ . وبذلك أكملت الدول ما اعتور ميثاق هيئة الأمم من ضعف ونقص . ووقفت الدول الغربية اليوم صفاً واحداً متحدة القيادة معبأة جميع مواردها وخبرتها وامكانياتها لغرض واحد هو التعاون والدفاع أو الهجوم المشترك . فهلا اقتبس ساسة العرب مثلهم من سياسة الغرب فاعتمدوا على أنفسهم وأخذوا بيد جامعتهم فأقالوها من عثرتها وجمعوا كلتهم حولها وعبأوا مواردهم ووجدوا قيادتهم . وإنا لموقفون أنه إذا ردت الدول العربية للجامعة اعتبارها وراجعت دستورها ودعمت بنيانها استطاعت الجامعة أن تكفي الدول العربية مؤنة التعلق بركاب الدول الكبرى أو عقد المعاهدات الفردية حرية كانت أو اقتصادية . وبذلك وبه فقط يرتفع شأن العرب بين شعوب العالم ويكون العرب هم القوم المتبوعين لا التابعين .

ملحق - ب

ميناء العقبة

في اعقاب الحرب الفلسطينية حاول اليهود ان يحتلوا ميناء العقبة فاثاروا بذلك ضجة جعلت انجلترا ترسل قواتها وطائراتها وسفنها إلى الميناء لمعاونة حليفها ملك شرق الاردن ضد العدوان اليهودي المرتقب . ولم تسكن هذه أول مرة يطالع فيها العالم اسم هذه القرية الضئيلة في مظهرها العظيمة الخطر في موقعها الجغرافي والاستراتيجي فهي تقع على رأس الخليج المسمى باسمها وعندها تلتقي حدود أربع من الدول العربية هي مصر والعرب السعودية وشرق الاردن وفلسطين . وهي لقربها من البحر المتوسط إذ لا تزيد المسافة بينها وبين ميناء غزة على ١٤٠ ميلا تحاول عبثا ان تشبه بميناء السويس وتحلم باليوم الذي قد يظهر فيه دلسبس آخر يأخذ بيدها فيخطبها هي الأخرى للبحر المتوسط ويصل بينها وبين غزة برباط مقدس آخر يضارع رباط قناة السويس ويحل محلها متى أصبحت القناة مصرية خالصة .

ولم تسكن مصر في الماضي لتهم بهذه الخيالات فقد كان ميناء العقبة كميناء السويس كلاهما ثغر داخل في الوطن المصري يظله علم مصر وتطوق سواحله مياه مصر . ولم يكن أحد يفكر حينذاك في مزاحمة السويس أو منافستها . غير انه ظهر في نهاية القرن التاسع عشر عامل سياسي جديد جعل تركيا تراجع سياستها وكان ذلك في سنة ١٨٩٢ حين ولي عرش مصر الخديو عباس وكان في أول عهده شابا متحمسا في الثامنة عشرة من عمره فاراد الباب العالي ان يستغل حماسة الخديو الجديد وكرهيته للاحتلال الانجليزي فيسترد من الخديوية المصرية لا ميناء العقبة وحدها بل شبه جزيرة سيناء باجمعها وبذلك تزحزح الحدود الشرقية لمصر من العقبة إلى السويس ورفع . ووصل علم ذلك إلى السفارة البريطانية باسطنبول فقامت أزمة بين مصر وبريطانيا من جهة وبين تركيا من جهة أخرى .

وانتهت الأزيمة بأن وصلت إلى مصر رسالة برقية من الصدر الأعظم باسم السلطان بتاريخ ٨ ابريل سنة ١٨٩٢ يشير فيها إلى أن الباب العالي كان قد صرح للحكومة المصرية بوضع عدد كاف من الجند بجبهات الوجه والمويلح وطابا والعقبة وكذلك في بعض الجهات من شبه جزيرة طورسيناء وذلك بسبب مرور المحمل المصرى فى أثناء الحج من طريق البر . أما الآن وقد تغير خطر سير المحمل المصرى ولم يعد يتخذ طريقة إلى الحجاز براً بل بحراً ، ولما كانت هذه الجهات غير مبيّنة على الخريطة المسلمة إلى المغفور له محمد على باشا لذلك أعيد الوجه إلى ولاية الحجاز كما أعيد إليها طابا والمويلح وقد ضمت العقبة كذلك إلى الولاية المذكورة . أما من حيث شبه جزيرة طورسيناء فهى باقية على حالها وتبقى إدارتها كما كانت بمعرفة الخديوية المصرية .

وعلى ذلك يكون ميناء العقبة قد أخذ من مصر وضم إلى ولاية الحجاز وذلك بحكم سيادة تركيا على مصر والحجاز فى ذلك الوقت ، وكانت العدالة تقضى برد هذا الثغر إلى مصر بعد ما انتهت السيادة العثمانية ونزلت تركيا عن جميع حقوقها فى البلاد العربية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى . ذلك لأن العقبة لا تعدو أن تكون جزءاً من شبه جزيرة سيناء التى ما برحت جزءاً متمماً لمصر قد كشف معادنها المصريون القدماء واستخرجوا منها البرونز والنحاس منذ الأسرة الخامسة فى الدولة المصرية القديمة واتخذوا منها فى العصور الوسطى طريقاً برياً آمناً إلى الأماكن المقدسة .

والظاهر أنه ما حرض الأتراك فى ذلك الوقت على استرداد العقبة وغيرها من البلاد الواقعة على خليج العقبة التى كانت تابعة لمصر إلا ما رأته من تمزيق الدولة المصرية فى أفريقية على أيدي بريطانيا بسبب ثورة المهدي ، ويكفى أن تكون بريطانيا فى ذلك الوقت قد قدمت ثغر مصوع الشهير لقمة سائغة لإيطاليا كما ازدردت هى زيلع وبررة على خليج عدن . فهل كانت بريطانيا وهى تحتل مصر وتمثلها فى اللجان الدولية مستطيعه أن تفتح فاهها أمام تركيا صاحبة السيادة وهى

تكاد تغص وتبشم من فرط ما التهمته على مائدة مصر في السودان . لم يكن ذلك طبعاً في مقدورها وراحت على مصر العقبة كما راحت مصوع وزيلع وبربرة من قبل . ولم تسكد تمضى خمسة عشر عاماً على أزمة فرمان تولية الخديو عباس حتى ظهرت في الأفق الدولي أزمة جديدة ثانية بشأن العقبة . ويبدو أن تركيا كانت لاتزال تمنى نفسها بوضع يدها على مشارف طورسينا فعادت في شتاء عام ١٩٠٥ تحاول اقضاء المصريين عن منطقة العقبة جميعها وأرسلت قوة احتلت مركز طابا في الغرب من العقبة وهو داخل في حدود مصر فتدخلت الحكومة البريطانية وبدأت المفاوضات بين الحكومتين المصرية والتركية بشأن تقرير الحدود بصفة نهائية وتم الاتفاق في سنة ١٩٠٦ على الحدود الحالية بعد ان انسحب الأتراك من طابا .

ثم عادت مسألة العقبة تظهر للمرة الثالثة في الحرب العالمية الأولى حين انحاز الشريف حسين أمير مكة إلى جانب الحلفاء وأعلن هو وابناؤه الثورة على الأتراك فقام الأمير فيصل ومعه مستر لورنس المستعرب الانجليزي الشهير ومعهما عدد من الضباط على رأس قوة من العرب يدمرون السكة الحديدية الحجازية ويحاصرون الحاميات التركية التي كانت تحتل المدن والمواقع الاستراتيجية في بلاد العرب . وكان أهم نصر أحرزه العرب الثائرون على الأتراك في أول أمرهم نجاحهم في الاستيلاء على ميناء العقبة في صيف عام ١٩١٧ . فقد أتاح لهم هذا النصر أن يتصلوا بالجنرال اللنبي ويؤلفوا له ميمنة جيوشه التي كان يعدها في مصر لغزو الأتراك في فلسطين وسوريا وطردهم نهائياً من تلك الأصقاع . ومنذ ذلك الوقت أصبحت العقبة وما حولها من أرض شرق الأردن الحالية جزءاً من الحجاز . وقد كانت العقبة في سنة ١٩٢٤ هي المكان الذي إليه لجأ الملك حسين أولاً حين طارده السعوديون من عاصمة ملكه في مكة في ذلك العام واضطروه إلى ترك العرش . وكادت القوات السعودية تمتد نفوذها إلى ميناء العقبة وغيرها من الأماكن التي كونت

فهرس الكتاب

	صفحة
الفصل الأول : البحر المتوسط في العصور القديمة	
البحر المتوسط قديما	٥
حضارتا مصر وبابل	٦
حضارة كريت	٧
الفينيقيين	٨
أشور	١٠
بين الحضارتين الفارسية والاغريقية	١٠
قيام الاسكندر الأكبر	١٤
خلفاء الاسكندر الأكبر	١٧
ظهور روما	١٨
الكفاح بين روما وقرطاجه	١٩
الدولة الرومانية	٢٣
ظهور المسيحية	٢٤
جوستنيان والدولة الرومانية الشرقية	٢٦
الفصل الثاني : البحر المتوسط في العصور المتوسطة:	
الاسلام والقوة البحرية	٢٧
الحروب الصليبية	٣٠
مصر والحملة الصليبية	٣٦
ظهور الأتراك العثمانيين	٤٠
تفوقهم في شرق البحر المتوسط	٤٢
مصر والطريق إلى الشرق	٤٣
بدء ظهور قوة روسيا	٤٤

الفصل الثالث : البحر المتوسط في العصور الحديثة

	صفحة
الحملة الفرنسية على مصر وأثر القوة البحرية	٤٦
محاولات إنجلترا في البحر المتوسط	٤٧
مؤتمر فيينا وقوة إنجلترا البحرية	٤٩
ثورة الأغريريق	٥٠
محمد علي والقوة البحرية	٥٢
الاتفاق الدولي للمضايق	٥٤
حرب القرم	٥٥
فرنسا في شمال أفريقيا	٥٨
الاتفاق الودي بين فرنسا وإنجلترا	٥٩
محاولات ألمانيا في البحر المتوسط	٦٠
الحربان العالميتان والبحر المتوسط	٦١
بعد الحرب العالمية الثانية	٦٤

الفصل الرابع : بوابات البحر المتوسط

أهمية الدردنيل والبسفور	٦٨٠
حرية المضائق ومؤتمر لوزان	٧٧٠
حرية المضائق ومؤتمر منترو	٨٠
مطالب روسيا بعد الحرب الأخيرة	٨٢٠

الفصل الخامس : جبل طارق وطنجة

جبل طارق	٨٤
حصار جبل طارق ١٧٧٩ - ١٧٨٣	٨٨
جبل طارق في الحربين العالميتين	٩٢
مشكلة طنجة	٩٣
مؤتمر الجزيرة سنة ١٩٠٦	٩٥
نظام طنجة الدولي	٩٧
أسبانيا وطنجة في الحرب العالمية الثانية	٩٨
الولايات المتحدة وروسيا في اللجنة الدولية بطنجة	٩٨

الفصل السادس : مضيق أرتو ومشكلة تريننا

صفحة	
١٠٠	أهمية البحر الأدرياتي والبندقية
١٠٣	نتائج الحرب العالمية الأولى
١٠٤	النظام الفاشي والقوة البحرية
١٠٥	أثر الحرب العالمية الثانية

الفصل السابع : قناة السويس

١١١	تأسيس شركة القناة البحرية العالمية
١١٤	الحديثو إسماعيل والقناة
١١٥	إنجلترا والقناة
١١٦	اتفاق القسطنطينية أكتوبر سنة ١٨٨٨ .
١٢٠	معاهدة سنة ١٩٣٦ والقناة
١٢٠	نصيب مصر
١٢٣	قضية القناة أمام مجلس الأمن سنة ١٩٤٧
١٢٧	اتفاق سنة ١٩٤٩ بين مصر وشركة القناة

الفصل الثامن : جزر البحر المتوسط

١٢٨	جزيرة مالطة
١٣٣	جزر البليار
١٣٦	جزيرتا قورسقة وسردانية
١٣٧	جزر شرق البحر المتوسط
١٣٩	جزر أيونيان
١٤٠	جزيرة كريت
١٤١٠	جزيرة قبرص
١٤٣	جزر رودس والدوديكانيز

الفصل التاسع : بريطانيا في البحر المتوسط

	صفحة
معالم السياسة البريطانية	١٤٥
أثر الحربين العالميتين	١٤٦
الفصل العاشر : فرنسا في بلاد المشرق	
فرنسا والدولة العثمانية	١٦٢
اتفاق سيكس — بيكو	١٦٣
انتداب فرنسا على سوريا ولبنان	١٦٤
زحف الحلفاء على بلاد المشرق في الحرب العالمية الثانية	١٦٧
استقلال بلاد المشرق	١٧٠

الفصل الحادي عشر : مشكلة أسكندرونة

أهميتها التاريخية	١٧٢
اتفاق فرنسا وتركيا بشأنها	١٧٧

الفصل الثاني عشر : فرنسا في شمال أفريقيا

احتلال الجزائر	١٨٢
الحماية على تونس	١٨٣
تدخل فرنسا في مراکش	١٨٦
سياسة فرنسا في شمال أفريقيا	١٨٩
سياسة الأدماج	١٩٠
سياسة المشاركة	١٩٢

الفصل الثالث عشر : إيطاليا والبحر المتوسط

سياسة الفاشيين في البحر المتوسط	١٩٦
غزو اثيوبيا	١٩٨
بين إيطاليا وألمانيا	٢٠١
إيطاليا في الحرب العالمية الثانية وبعدها	٢٠٢

الفصل الرابع عشر : الحركة الوطنية في ليبيا

صفحة	
٢١٠	ليبيا في العهد العثماني
٢١٢	غزو طرابلس
٢١٣	الحركة السنوسية
٢١٧	الحكم الفاشي في ليبيا
٢١٩	ليبيا والحرب العالمية الثانية وبعدها

الفصل الخامس عشر : مشاكل البلقان

٢٢٦	تأليف ميثاق البلقان
٢٢٨	روسيا والبلقان

الفصل السادس عشر : هجرة الترك بين الشرق والغرب

٢٣٥	تركيا والحرب العالمية الأولى
٢٣٦	النهضة السكالية وأثرها
٢٤٠	سياسة تركيا نحو الشرق
٢٤٢	حيدة الترك في الحرب العالمية الثانية

الفصل السابع عشر : بين تركيا وروسيا

٢٤٦	أوربا « والرجل المريض »
٢٤٨	أثر الحركة السكالية
٢٥٠	روسيا والمضائق
٢٥٤	موجدة روسيا على تركيا

الفصل الثامن عشر : تطور سياسة روسيا الخارجية

٢٥٨	الثورة البلشفية وأثرها
٢٦٠	سياسة ستالين
٢٦٢	روسيا ودول الغرب
٢٦٣	اهداف روسيا

الفصل التاسع عشر: اليونان بين الملكية والجمهورية

صفحة	
٢٦٦	اليونان في عهد الأتراك
٢٦٨	فينزيلوس والملكية
٢٦٩	اندحار اليونان أمام الأتراك
٢٧٢	اليونان والحرب العالمية الثانية

الفصل العشرون: أسبانيا قبل الثورة وبعدها

٢٨٠	عظمة أسبانيا في بدء عهد النهضة الأوروبية
٢٨١	متاعب أسبانيا في القرن التاسع عشر
٢٨٣	أسبانيا والحرب العالمية الأولى
٢٨٤	الدكتاتور الأسباني الأول
٢٨٥	حكومة الجمهورية
٢٨٦	حركة الجنرال فرنكو والحرب الداخلية
٢٨٨	الجمهوريون والوطنيون
٢٩١	أسبانيا والحلفاء
٢٩٤	فرنكو والملكية

الفصل الحادي والعشرون: مصر وقضية الجلاء

٣٠١	أول مفاوضة بشأن الجلاء سنة ١٨٨٣
٣٠٢	الفرصة الثانية
٣٠٤	الفرصة الثالثة وبعثة درمند ولف
٣٠٧	معاهدة سنة ١٩٣٦

الفصل الثاني والعشرون: مصر والسودان

٣١٠	الخدوي اسماعيل وتمدين أفريقية
٣١٢	مأدبة الدول في أفريقية
٣١٥	بين كتشتر ومارشان
٣٢١	معاهدة يناير سنة ١٨٩٩
٣٢٨	حوادث سنة ١٩٢٤
٣٢٩	معاهدة سنة ١٩٣٦ والسودان

الفصل الثالث والعشرون : مأساة ألمانيا

صفحة

بسمرك والامبراطورية الألمانية ٣٣٤

وليم الثاني والحرب العالمية الأولى ٣٣٥

الدكتاتورية والنازية ٣٣٨

اهداف هتلر ٣٤٠

الفصل الرابع والعشرون : سياسة الدول في الشرق الاوسط

الدول الكبرى في الشرق الاوسط ٣٤٨

مناطق زيت البترول ٣٥٠

فكرة الجامعة العربية ٣٥٥

الفصل الخامس والعشرون : فلسطين

تيودور هرزل والحركة الصهيونية ٣٥٨

أصريح بلفور ٣٥٩

انتداب بريطانيا على فلسطين ٣٦٣

هجرة الصيونييين ٣٦٨

ثورة ١٩٣٦ ولجنة بيل ٣٧٠

مؤتمر لندن ١٩٣٩ والكتاب الأبيض ٣٧٤

سياسة الارهاب الصهيوني ٣٧٨

هيئة الأمم المتحدة ومشكلة فلسطين ٣٨١

اتهاء الانتداب البريطاني وبدء الحرب الفلسطينية ٣٨٤

الفصل السادس والعشرون : بحرنا

أهمية البحر المتوسط لمصر ٣٨٩

البحرية والطيران من مقومات نهوض الأمم ٣٩٢

مجموع ١ : الاتفاقات السياسية في الشرق ٤٠٠

مجموع ٢ : ميناء العقبة ٤٠٣

خرائط الكتاب

صفحة	الموضوع
٧	دولة مصر في العصور القديمة
٩	دولتنا بابل وأشور
١١	دولة الفرس
١٦	دولة الاسكندر الأكبر
٢٣	الدولة الرومانية
٢٨	الدولة العربية
٣١	حملة الصليبيين الأولى
٧٣	البسفوو والدردينيل
٩٣	جبل طارق وطنجة
١٠١	مضيق أترنتو
١٠٨	منطقة تريستا
١١٤	قناة السويس
١٧٦	منطقة اسكندرونة
٣١٣	مصر والسودان
٣٤٦	فلسطين في مفترق الطرق
٣٥٠	مناطق البترول في الشرق الأوسط
٣٨٧	فلسطين
٤٠٠	حوض البحر المتوسط

ملحوظة : وقع خطأ في صفحة ٣٨٥ السطر الثامن وهو ٩ ما يو وصحته ٩ يونية فنلفت اليه الأنظار



کتابخانه عمومی



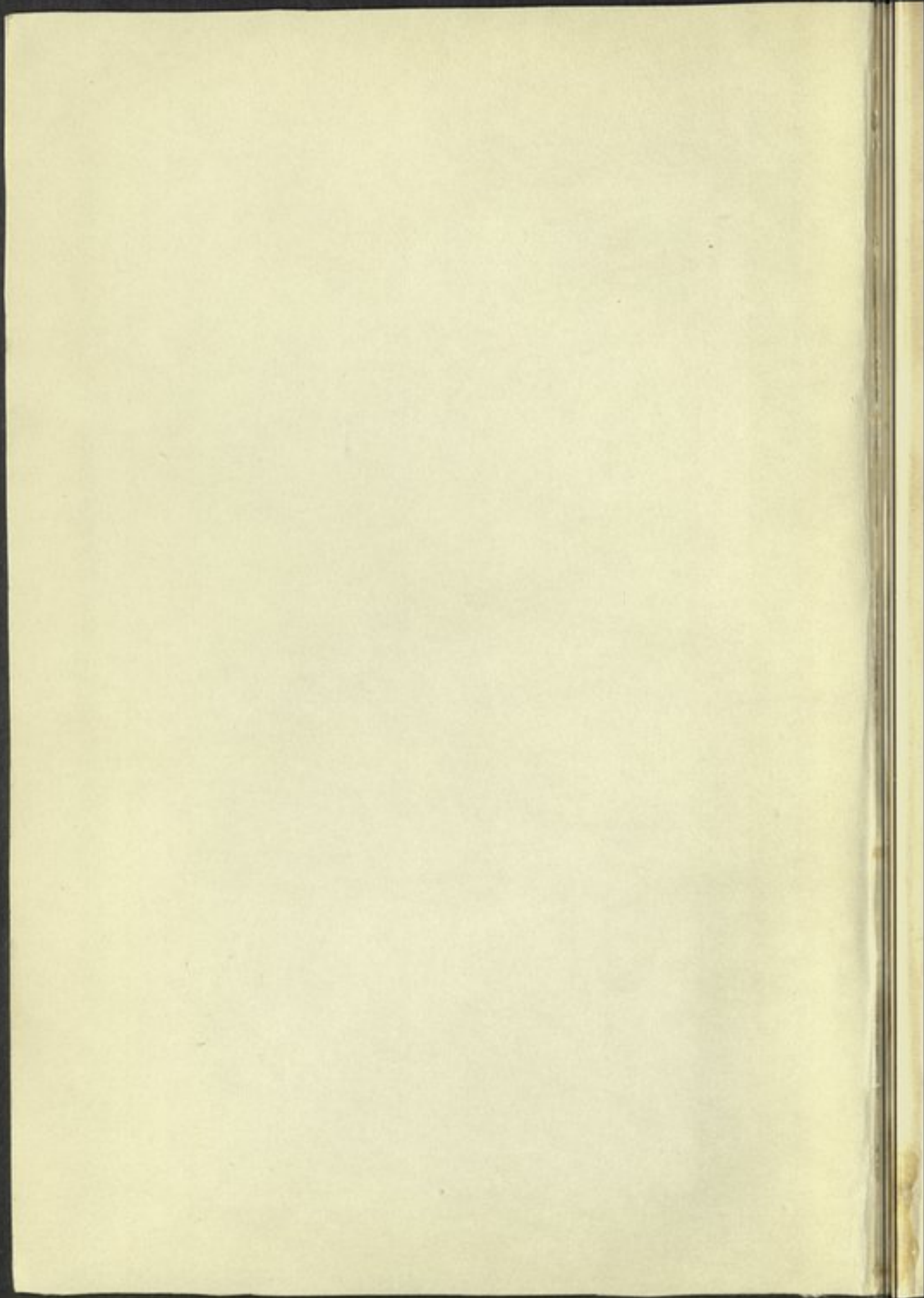
الكتب التي أصدرتها اللجنة

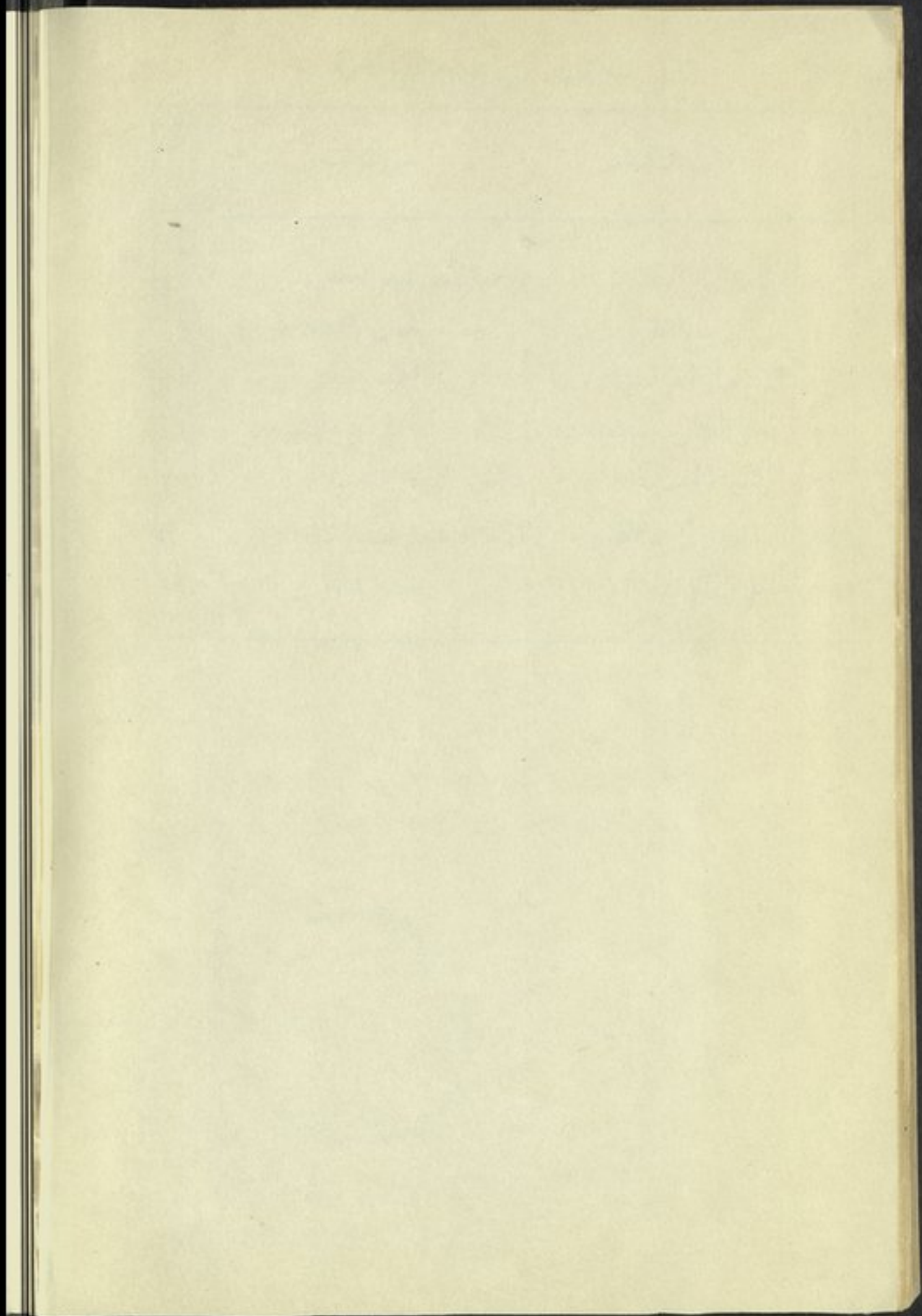
رقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	الثن منه
١	يسألونك	الأستاذ عباس محمود العقاد	٢٥٠
٢	أثر الشرق في الغرب	دكتور فؤاد حسانين	١٥٠
٣	قصة الكهرباء واللاسلكي	الأستاذ محمد عاطف البرقوقي	٢٥٠
٤	مشكلاتنا الاجتماعية	محمد عطية الأبراشي	٢٠٠
٥	الحبشة	حسن محمد جوهر	٢٥٠
٦	الغزل عند العرب	حسان أبو رحاب	٢٥٠
٧	عائشة أم المؤمنين	الآنسة زاهية مصطفى قدورة	٢٥٠
٨	الفلسفة القرآنية	الأستاذ عباس محمود العقاد	٣٠٠
٩	أحاديث الصباح	الشيخ محمود شلتوت محمد محمد المدني	١٥٠
١٠	أبطال الشرق	الأستاذ محمد عطية الأبراشي	١٥٠
١١	أبو العتاهية	الأستاذ محمد أحمد براتق	١٥٠
١٢	الراهبة المتوحشة	دكتور عباس إبراهيم حسن	١٠٠
١٣	المهد الذهبي	الأستاذ وهي اسماعيل حقي إبراهيم عبد الله	١٠٠
١٤	صرخة في واد	محمود غنيم	٣٠٠
١٥	الوزراء العباسيون	محمد أحمد براتق	٢٠٠
١٦	الصحافة والصحف	المرحوم الأستاذ عبد الله حسين	٢٥٠
١٧	اللعب والعمل	دكتور علي عبد الواحد وافي	٨٠

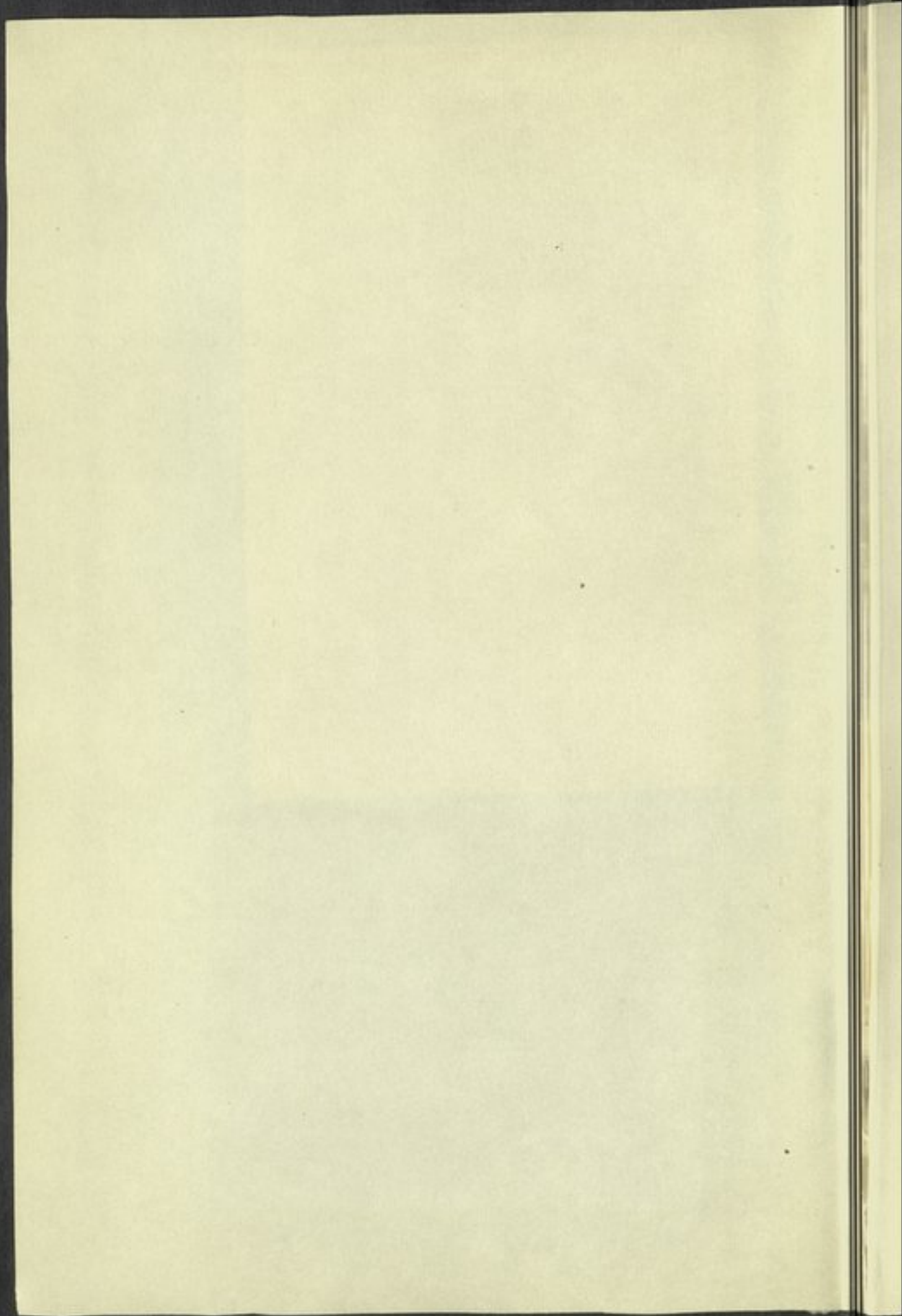
تابع الكتب التي أصدرتها اللجنة

رقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	التمن مب
١٨	ولادة...	الأستاذ علي عبد العظيم	١٥٠
١٩	من كل نبع قطرة...	حسن محمد جوهر	٦٠
٢٠	الاستعمار الفرنسي...	أحمد رمزي	١٥٠
٢١	سحر العطور...	أحمد علي الشحات	١٢٠
٢٢	أكسير الحياة...	دكتور محمود محمد سلامة	٢٠٠
٢٣	دراسات في علم النفس...	الأستاذ حامد عبد القادر	٣٠٠
٢٤	مسلم بن الوليد...	حسن علوان	٢٥٠









DATE DUE

~~19 SEP 1973~~

~~SEP 1973~~



JAFET LIB.

~~7 JUL 1975~~

JAFET LIB.

~~1 JUN 1980~~

~~_____~~

909.8:R56A:c.1

رفعت، محمد

التيارات السياسية في حوض البحر الاب

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01041000

909.8
R56A

